حتى يُغيِّرك القرآن

رحلة القلب عبر ثلاثين جزءًا





حتى يُغيّرك القرآن...

رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً

الجزء الأول – الأجزاء من ١ إلى ١٠

تأليف: دريد إبراهيم الموصلي (أبو مريم)

تنبيهٌ وإخلاءُ حقّ

كتبي كلّها صدقةٌ جاريةٌ عنّي وعن زوجتي وعن الأمة الإسلامية، أبتغي بها وجهَ الله وحده، ولا أرجو منها عوضاً ولا مقابلاً من أحد.... وعليه... فإني أُسقِطُ جميعَ الحقوقِ المادّية، وأجعلُ الانتفاعَ بها حقّاً مشاعاً لكلِّ مسلمٍ على وجهِ الأرض؛ فاطبعوا ما شئتم، وانشروا ما شئتم، واستنسخوا ما شئتم،

وتداولوا ما شئتم، ولكم في ذلك مطلقُ الحريّة... دون حاجةٍ إلى استئذانٍ منّي، ولا طلبِ إذنٍ سابق... أسألُ اللهَ أن يتقبّلها صدقةً جاريةً، وأن ينفع بها ما حييتُ وبعد مماتي، وأن يجعل حظّي منها الإخلاصَ والقبول.

٤١٤ صفحة

١٧ × ٢٤ سم

تدارس القرآن الكريم،

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة –

( ) لسنة

حتى يُغيّرك القرآن...

رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً

– دريد الموصلي –


بسم الله الرحمن الرحيم

هل يمكن للقرآن أن يُصلحنا حقّاً... لا أن نكتفي بتلاوته؟
هل يمكن أن نعبر أجزاءه الثلاثين... فنخرج بقلبٍ أنقى، ونيةٍ أصدق، وخُلُقٍ أقرب إلى هدي النبي ﷺ؟
هذه الأسئلة لم تكن خاطراً عابراً، بل كانت قلقاً تربوياً يتكرّر كل عام، كلما رأيت ختماتٍ تتكاثر، وأثراً لا يتكاثر معها، تلاواتٍ تعلو، وقلوباً لا تعلو بالقدر نفسه، وألسنةً تتحرك بالآيات، بينما الداخل باقٍ على حاله إلا قليلاً.
لسنا بحاجةٍ إلى تفسيرٍ جديد يعيد ما قيل، ولا إلى خواطرَ سريعةٍ تُقرأ ثم تُنسى، بل نحن بحاجةٍ إلى مسارٍ تربويّ إيمانيّ يجعل العبور في المصحف عبوراً في النفس، ويجعل كل جزءٍ محطةَ محاسبة، وكل مجموعة آياتٍ مرآةً للداخل، وكل انتقالٍ من جزءٍ إلى جزءٍ انتقالاً في مستوى الصدق مع الله.
ماذا لو صار لكل جزءٍ مدخلٌ يذكّر بمعناه الكلي في بناء الإيمان؟
ومحاورُ تربط الآيات بأمراض القلوب قبل أحداث الواقع؟
وتنبيهٌ على أخطر الانحرافات التي يحذّر منها ذلك الجزء؟
وبيانٌ للملامح الشخصية التي يصنعها فيمن صحبه بصدق؟
ومحورٌ إيمانيٌّ عميقٌ يشكّل عموده الفقري؟
وخريطةٌ بنيويةٌ عامة تُعين القارئ على رؤية البناء لا مجرد الآيات المتفرقة؟
ووقفةُ محاسبةٍ عملية: ماذا ينبغي أن أُصلح بعد هذا الجزء؟
وسؤالٌ لا يسمح لي أن أتابع القراءة قبل أن أُجيب عنه بصدق؟
وخطةُ تغييرٍ قصيرةٍ لكنها صريحة؟
ورسالةٌ كأنها تخرج من روح الجزء لكل مسلم؟
وترابطٌ موضوعيٌّ وعقديٌّ وبيانيٌّ ووجدانيٌّ بين الأجزاء؛ حتى لا تكون الثلاثون محطاتٍ منفصلة، بل طريقاً واحداً متدرّجاً في تزكية القلب؟
الغاية ليست أن نُكمل الثلاثين.

الغاية أن لا نُكملها كما بدأناها.

ليس المطلوب زيادة المعلومات، بل زيادة الخشية.

ليس كثرة الصفحات، بل صدق التوبة.

ليس أن نقول: قرأنا القرآن.

بل أن يُقال فينا: تأدّبنا بالقرآن.

هذا الكتاب لا يعدك بوفرة المعلومة، بل يضعك أمام مرآة.

لا يمنحك شعور الإنجاز، بل يستفزّ فيك شعور التقصير الصادق الذي يفتح باب الإصلاح.

لا يريد منك أن تُنهي الأجزاء، بل أن تنهي عادة القراءة السريعة التي لا تمسّ القلب.

فاسأل نفسك بصدق:

لو ختمت هذا العام... هل سيتغيّر شيء في صلاتك؟

في لسانك؟

في خلواتك؟

في تعاملك مع أهلك؟

في نظرتك للدنيا؟

إن لم يحدث شيء... فالمشكلة ليست في القرآن – حاشاه – بل في طريقة تلقّينا له.

هذا مشروع صُحبةٍ مختلفة مع كلام الله، صحبةٍ تُعيد ترتيب الداخل خطوةً خطوة، وتُربّي القلب قبل أن تُغذّي الذهن، وتُؤسّس التزكية قبل التوسّع، وتجعل من كل جزءٍ درجةً في سلّم الصدق، لا مجرد رقمٍ في سجل الختمات.

فإن دخلت هذا الكتاب... فادخله بنيّة التغيير، لا بنيّة الإضافة.

وإن سرت معنا في هذه الرحلة... فلا تمضِ إلى الجزء التالي حتى يترك السابق أثره فيك.

فالقرآن لم يُنزَل ليُتلى فقط، بل ليُتلقّى، ويُفهم، ويُعمل به، ويُغيّر.

الإهداء

إلى كلِّ قلبٍ قرأ القرآن كثيراً...

لكنّه لم يسمح له بعدُ أن يقرأه.

إلى من ختم المصحف مراراً...

وما زال يشعر أن شيئاً في داخله لم يُمسّ.

إلى من يحفظ الآيات...

ولا يزال ينتظر الآية التي تهزّه من الداخل.

إلى الذين سئموا القراءة الباردة...

ويريدون قراءةً تُقلقهم... تُربكهم... تُعيد ترتيبهم.

إلى كلِّ من لم يعد يريد أن يمرّ على القرآن...

بل يريد أن يمرّ القرآن عليه.

إلى قلبٍ أدرك أخيراً أن المشكلة ليست في قلة ما نقرأ...

بل في قلة ما نسمح للقرآن أن يفعل فينا.

هذا الكتاب ليس لمن يريد معلوماتٍ أكثر...

بل لمن يريد تغييراً أعمق.

ليس لمن يسأل: كم جزءاً قرأت؟

بل لمن يسأل: كم جزءاً غيّرني؟

إن وجدتَّ نفسك هنا... فأنت المخاطَب.

وإن شعرتَ أن الآيات بدأت تُقلق راحتك...

فاعلم أن التغيير قد بدأ.

فالقرآن لم يُنزَل ليُتلى فقط... بل ليُقيمك.

ولعلّك بعد هذه الرحلة لن تسأل: ماذا قال القرآن؟

بل ستسأل: ماذا فعل بي؟

مقتبسات افتتاحية

١

ليس السؤال: كم مرّة ختمت المصحف؟

بل: كم مرّة ختمتَ عادةً قديمة لأنَّ آيةً واجهتك؟

٢

كلُّ آيةٍ تقرؤها... إمّا أن تغيّرك قليلاً...

أو تثبت أنك قرأتها بلا حضور.

٣

القرآن لا يمرّ بك عبثاً... إمّا أن يرفعك... أو يكشفك.

٤

من قرأ القرآن بحثاً عن الراحة... وجد السَّكينة.

ومن قرأه بحثاً عن الحقيقة... وجد المواجهة.

ومن قرأه ليُغيّره... لم يعد كما كان.

٥

الآيات لا تطرق الأبواب المغلقة... هي تدخل حيث يُسمح لها.

٦

ليست المشكلة أن قلوبنا بعيدة... المشكلة أننا نقرأ القرآن...
دون أن نسمح له أن يقترب.

٧

القرآن ليس كتاب معلومات... هو كتاب هداية وبناء.

٨

حين لا يتغير فيك شيء بعد جزءٍ كامل...
فأعد النظر: هل كنت تقرأ... أم كنت تعبر؟

٩

القرآن لا يريد أن يُسمَع صوتك في التلاوة...
بل يريد أن يُسمَع صوته في سلوكك.

١٠

بعض الآيات لا تُفهم... حتى تُعاش.

١١

إن لم تُقلقك آية... فاسأل قلبك أين اختبأ.

١٢

أخطر ما في القراءة المتكررة... أن تتحوّل الدهشة إلى عادة.

١٣

القرآن لا يبحث عن قارئٍ مُتقِن... بل عن قلبٍ صادق.

١٤

ليس كلُّ من بكى عند آيةٍ تغيّر... لكن كلَّ من تغيّر...
مرَّت به آيةٌ أوقفته.

التمهيد

بِسْمِ اللهِ الذي إذا تكلَّمَ اهتزَّتِ القلوبُ هيبةً، وإذا أنزلَ كتابَه لم يُنزِلْه ليُقرأَ فحسب، بل ليُقيمَ حياةً كاملةً على هُداه، ويُعيدَ تشكيلَ الإنسانِ من جذوره، ويزرعَ في داخله نوراً لا يخبو ما دام متصلاً به.

الحمدُ للهِ الذي جعل كلامَه نوراً لا يُشبه نوراً، وشفاءً لا يُشبه شفاءً، وميزاناً تُوزَنُ به القلوبُ قبل أن تُوزَنَ به الأعمال، وجعل بين كلِّ آيةٍ وآيةٍ طريقاً خفيّاً إلى التغيير، لا يسلكه إلا من صدقَ في الطلب، وأراد أن يُبدِّل حالَه لا أن يُكثِّر معلوماته.

الحمدُ للهِ الذي لم يجعل القرآن كتابَ معارفَ تُحفظ، ولا ثقافةً تُستعرض، بل كتابَ تشكيلٍ يُعيد ترتيب الداخل، ويهدم ما تراكم من غفلة، ويوقظ ما خمد من يقين، ويصوغ الإنسان صياغةً جديدةً على مهل، حتى يُصبح قلبُه أليقَ بالعبودية، وأقربَ إلى الصدق، وأصفى في النظر إلى نفسه وإلى ربِّه.

ونصلّي ونُسلِّم على سيدنا محمدٍ ﷺ، الذي لم يكن القرآن عنده نصّاً يُتلى فحسب، بل خُلُقاً يُرى، ولم يكن الوحي عنده كلماتٍ تُسمع، بل واقعاً يُعاش، فكان قرآناً يمشي على الأرض، حتى إذا نظرتَ إليه رأيتَ أثرَ الآيات في سلوكه قبل صوته، وفي رحمته قبل خطابه، وفي ثباته قبل دعوته.

أما بعد...

فهذا كتابٌ لا يسأل: ماذا قال القرآن؟ بل يسأل سؤالاً أشدَّ وقعاً وأصدقَ مواجهةً: ماذا فعل فيك؟ وكيف مسَّ قلبك؟ وأيُّ زاويةٍ في داخلك أعاد ترتيبها أو كشفها أو هزَّها؟

هذا كتابٌ لا يُريد منك أن تُنهي ثلاثين جزءاً في عدِّ الصفحات، بل أن تُنهي ثلاثين عادةً قديمةً في سلوكك، وثلاثين غفلةً متكررةً في يومك، وثلاثين عُذراً كنتَ تؤجِّل به التغيير وتُسكِّن به ضميرك كلما داهمتك آية.

هذا الكتاب لا يُعيد تفسير الآيات تفسيراً تقليدياً، ولا يُضيف شرحاً يُكدِّس المعاني، بل يحاول أن يضع قلبك في موضع المواجهة الصريحة، جزءاً بعد جزء، حتى لا تبقى القراءة عبوراً سريعاً بين السطور، بل تتحوّل إلى تحوُّلٍ حقيقيٍّ في الداخل، يُرى أثره في القرار قبل اللسان، وفي السلوك قبل الدموع.

سنمشي مع القرآن كما رُتِّب في المصحف، نحترم بناءه، ونصغي لمساره، لكننا لن نمرَّ به كما مررنا من قبل؛ سنتوقّف حيث يجب أن نتوقّف، ونسأل حيث يجب أن نسأل، ونُواجه أنفسنا حيث كنّا نُفضّل الصَّمت، وسنخرج بعد كل جزءٍ بسؤالٍ ثقيل: هل تغيّر فينا شيء، أم اكتفينا بأن قلنا: قرأنا، وختمنا، ومضينا؟.

لأن القرآن لم يُنزَل ليُختم في الصدور ثم يُغلق، بل ليُقيم الإنسان على ميزانه، وليبني في داخله يقيناً، ويُصحّح مساره، ويهذّب شهوته، ويضبط خوفه ورجاءه، ولأن أخطر ما في كثرة التلاوة أن نعتاد الصوت حتى يفقد الدهشة، وأن نألف الآيات حتى لا تعود توقظ فينا سؤالاً أو تقلق فينا راحة.

فإن دخلتَ هذه الرحلة، فادخلها بقلبٍ مستعدٍّ أن يُزعزَع، لا بقلبٍ يبحث عن طُمأنينةٍ سريعةٍ تُسكِّنه دون أن تُغيِّره، وادخلها وأنت مستعدٌّ أن تُراجع نفسك قبل أن تُراجع غيرك، وأن تسمح للآية أن تقول لك: قف هنا، فهذا موضعك.

فهذا كتابٌ عنوانه: «**حتى يُغيّرك القرآن... رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً**»، فإن خرجتَ منه كما دخلت، ولم يتبدّل فيك قرارٌ، ولم تُصحَّح فيك عادة، ولم ينكشف لك عيب، فاعلم أن المشكلة لم تكن يوماً في الآيات، بل في المسافة التي أبقيتَها بينك وبينها.

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ليس هذا الكتاب مشروع قراءةٍ جديدة للقرآن، ولا محاولةً لإعادة تفسير ما فُسِّر، ولا سعياً إلى استعراض ترابطٍ بنيويٍّ يُدهش العقل فحسب، بل هو قبل ذلك كلّه محاولةُ اقترابٍ صادق من سؤالٍ ظلَّ يتكرّر في داخلي بإلحاحٍ لا يهدأ: لماذا نقرأ كثيراً... ولا نتغيّر كثيراً؟ ولماذا تمرّ الأجزاء علينا عاماً بعد عام، فنختمها بألسنتنا، بينما تبقى في داخلنا مناطق لم تمسّها آية، ولم تُربكها كلمة، ولم تُجبرها على مراجعةٍ حقيقية؟

لقد تعلّمنا أن القرآن **كتاب هداية**، لكننا كثيراً ما تعاملنا معه **كتابَ معلومات**، وتعلّمنا أنه **نور**، لكننا اكتفينا بأن **نُحسن تلاوته** دون أن نفتح له نوافذ قلوبنا، وتعلّمنا أنه **شفاء**، لكننا لم نُعرّض **جراحنا** له تعريضاً صريحاً، بل مررنا به مروراً آمناً لا يُكلّفنا شيئاً من عاداتنا ولا يزعزع ترتيب أولوياتنا، حتى أصبح من الممكن أن يختم المرء المصحف مراراً، ويبقى كما هو، لم يُزَح من داخله حجرٌ قديم، ولم يُزرَع في قلبه يقينٌ جديد.

هذا الكتاب ينطلق من قناعةٍ عميقة أن المشكلة ليست في قِلّة القراءة، بل في **قِلّة التعرّض**، وأن الخلل ليس في وضوح الآيات، بل في **استعداد القلوب**، وأن أعظم ما يمكن أن نخسره ليس أن نفوّت ختمةً في رمضان، بل أن نفوّت فرصةَ **أن تُعيدنا آيةٌ واحدة إلى أنفسنا**، وأن تضعنا في **مواجهةٍ** مع غفلةٍ طال أمدها أو **انحرافٍ** تسلّل إلينا بهدوء.

ومن هنا كانت فكرة هذه الرحلة: أن نسير مع القرآن كما رُتِّب في المصحف، جزءاً بعد جزء، لا لنحصي موضوعاته فحسب، ولا لنربط سوره ربطاً

نظرياً، بل لنكتشف ماذا يريد أن يصنع فينا ونحن نعبره، وأن نقرأ كل جزء قراءةً بنيويةً تُظهر مساره العام، ثم قراءةً قلبيةً تكشف أمراضنا على ضوء آياته، ثم قراءةً عمليةً تُحوّل المعنى إلى قرارٍ وسلوكٍ وتغيير.

سنلتزم بتقسيم الأجزاء كما هي في المصحف، لأن هذا هو البناء الذي تعوّد عليه القارئ في تلاوته اليومية، لكننا في الوقت نفسه لن نقطع السورة عن وحدتها إن امتدّت عبر أكثر من جزء، بل سنشير إلى سياقها الكامل، ونحترم بنيتها، حتى لا يكون التحليل تجزئةً تُفقد المعنى عمقه، ولا يكون الالتزام الشكليّ عائقاً عن الفهم المتكامل.

لن يكون هذا العمل تفسيراً تقليدياً يستعرض أقوال المفسّرين في كل آية، ولا بحثاً أكاديمياً يُغرق القارئ في التفاصيل اللغوية والبلاغية، مع أهميتها وجلال قدرها، وإنما سيكون قراءةً تربويةً بنائيةً تسأل في كل جزء:

١. ما القضية المركزية التي يدور حولها؟
٢. ما الأمراض التي يكشفها في القلب؟
٣. ما الانحرافات التي يحذّر منها؟
٤. ما ملامح الشخصية التي يريد أن يصوغها؟
٥. ثم تنتهي بسؤالٍ شخصيٍّ مباشر: ماذا سأفعل بعد أن قرأتُ هذا الجزء؟

إننا في هذه الصفحات لا نضع أنفسنا في موضع المعلِّم الذي يُملي على القارئ ما ينبغي أن يفهمه، بل في موضع الرَّفيق الذي يسير معه في الطريق ذاته، ويضع قلبه هو أيضاً تحت ضوء الآيات، ويعترف أن القرآن أكبر من أن يُحاط به، وأعمق من أن يُستوفى، وأجلّ من أن يُختزل في منهجٍ واحد أو قراءةٍ واحدة، غير أننا نرجو أن تكون هذه القراءة مدخلاً إلى علاقةٍ أصدق، ومواجهةٍ أشجع، وتغييرٍ أعمق.

فإن وجدتَّ في نفسك مقاومةً لبعض ما سيأتي، أو شعرتَ أن بعض الأجزاء

يضغط على مناطق حساسة في داخلك، فلا تعجل بالدفاع عن نفسك، ولا تُسرع إلى إسكات الصوت، بل قف قليلاً، وقل:

←لعلّ هذه هي النقطة التي يريد القرآن أن يبدأ منها فيَّ،

←ولعلّ التغيير لا يبدأ دائماً من الراحة، بل من الارتباك الصَّادق.

هذه ليست رحلة ثلاثين يوماً، بل رحلة ثلاثين مواجهة، وليست ثلاثين محطة قراءة، بل ثلاثين فرصة مراجعة، فإن صدقت النيّة، وأُحسن الاستماع، وأُعطيَت الآيات حقّها من التوقّف والتفكّر، فربما خرج القارئ من هذه الرحلة وهو يسأل سؤالاً جديداً لم يكن يسأله من قبل: لستُ أريد أن أعرف القرآن أكثر... بل أريد أن يُعيدني القرآن إلى نفسي، وأن يُقرّبني من ربّي، وأن يجعل بيني وبين الغفلة مسافةً لا تعود كما كانت.

والله ولي التوفيق.

✍المؤلف: دريد إبراهيم الموصلي

التاريخ: رمضان – ١٤٤٧ هـ

٢٠٢٦

منهجية الكتاب

هذا الكتاب لا يُبنى على تفسيرٍ تقليديٍّ يستقصي الأقوال، ولا على خواطرَ وعظيةٍ متفرقة، بل يقوم على منهجٍ بنيويٍّ مساريٍّ تزكويٍّ منضبط، يتعامل مع كل جزءٍ من القرآن بوصفه وحدةً إيمانيةً متكاملة، لها روحٌ جامعة، ومحورٌ مركزي، ومسارٌ متدرّج، وذروةٌ دلالية، وخاتمةٌ تُحمِّل القارئ مسؤولية التغيير.

الالتزام بتقسيم الأجزاء كما رتّبها المصحف ليس التزاماً شكلياً، بل هو اختيارٌ تربويٌّ مقصود، لأن القارئ المعاصر يعيش القرآن غالباً من خلال هذا التقسيم، خاصة في المواسم التعبدية، غير أن هذا الالتزام لا يعني عزل الجزء عن سياق سوره، بل يُراعى البناء الكامل للسورة إذا امتدّت عبر أكثر من جزء، ويُشار إلى ما قبله وما بعده عند الحاجة، حتى لا يُقرأ المقطع قراءةً مبتورةً تُفقده عمقه.

- يعتمد الكتاب في كل جزء على قالبٍ ثابتٍ في بنيته، متدرّجٍ في معالجته،
- يبدأ بعنوانٍ جامعٍ يُعبّر عن القضية الإيمانية الكبرى لذلك الجزء،
- ثم بمدخلٍ وجدانيٍّ تأسيسيٍّ يسير مع ترتيب الآيات كما وردت في المصحف، لا بوصفها موضوعاتٍ منفصلة، بل كرحلةٍ واحدةٍ مترابطة، يُراعى فيها تسلسل الخطاب القرآني، ويُستخرج منها الرابط النفسي والإيماني الذي ينتظم بدايتها بخاتمتها.

  ولا يُذكر من الآيات إلا ما يخدم هذا المسار، مع الالتزام بالضبط العقدي في التعبير، وتجنّب العبارات الموهمة، والابتعاد عن التهويل العاطفي غير المنضبط، مع قوةٍ بيانيةٍ واضحةٍ بلا تكلفٍ ولا إسراف.
- بعد المدخل التأسيسي، تُعرض الخريطة البنيوية للجزء، لا في صورة تعدادٍ تقريريٍّ جاف، بل في نقاطٍ عميقةٍ مختصرة، تكشف مراحل البناء القرآني في ذلك الجزء، وتُبيّن كيف ينتقل الخطاب من تأسيسٍ إلى مواجهةٍ إلى تقويمٍ

إلى تثبيت، حتى يدرك القارئ أنه أمام مسارٍ متكامل، لا أمام آياتٍ متجاورة.

- ثم يُستخرج المحور الإيماني المركزي للجزء، وهو القضية الجامعة التي تنتظم جميع مقاطعه، ويُصاغ في عباراتٍ واضحةٍ غير موسّعة، شاملةٍ للجزء كله، مستندةٍ إلى نصوصه، خاليةٍ من التأويل المتكلف، منضبطةٍ بأصول الاعتقاد.
- بعد ذلك تُكشف الانحرافات التي يحذّر منها الجزء، وتُقسّم إلى مستوياتٍ عقديةٍ وأخلاقيةٍ واجتماعيةٍ ونفسية، لا بوصفها تصنيفاتٍ نظرية، بل باعتبارها انحرافاتٍ حيّةٍ يُظهرها النص القُرآني في سياقه، ويُحذّر منها في واقعه، ويُبيّن مآلاتها.
- ثم يُعرض وصفُ الملامح الشَّخصية التي يصنعها هذا الجزء فيمن تلقّاه بصدق، فلا يُكتفى بذكر الأوامر والنواهي، بل يُسأل: أي إنسانٍ يريد هذا الجزء أن يُكوّن؟ أي قلبٍ؟ أي عقلٍ؟ أي سلوكٍ؟.
- ويتبع ذلك بيان أمراض القلوب التي يعالجها الجزء، انطلاقاً من الآيات نفسها، لا بإسقاطاتٍ معاصرةٍ مُتكلّفة، بل بقدر ما يشهد له السياق، ويحتمله المعنى، ويُقرّه تفسير أهل العلم.
- ثم ينتقل الكتاب من التحليل إلى المواجهة، عبر اختبارٍ ذاتيّ عميق، تُطرح فيه أسئلةٌ لا تُضيف معلومات، بل تكشف مواضع الانكشاف في القلب، وتمنع القارئ من الانتقال إلى الجزء التالي قبل أن يُجيب بصدقٍ عن أثر ما قرأه في نفسه.
- ويُختم كل جزءٍ بخطة تغييرٍ عمليةٍ مختصرة، تُترجم المعاني إلى سلوكٍ قابلٍ للتطبيق، ولو في حدّه الأدنى، لأن المقصود من القراءة ليس زيادة الوعي فحسب، بل تحريك الإرادة وصناعة قرارٍ جديد.
- ثم تأتي خاتمةٌ وجدانيةٌ منضبطة، تُلخّص روح الجزء، وتُعيد القارئ إلى المقصد

الأكبر: أن يكون القرآن مُشكِّلاً للداخل، لا زينةً للظاهر.

- ولا يقف العمل عند حدود الجزء الواحد، بل يُبيَّن في ختام كل فصلٍ الترابط الموضوعي والعقدي والبياني والوجداني بينه وبين ما قبله وما بعده، حتى تتكوّن عبر الثلاثين جزءاً رحلةٌ متدرجة، لا محطاتٍ منفصلة.

ومن أصول هذا المنهج كذلك:

١) الاقتصاد في الاستطراد الفقهي واللغوي والجدلي، فلا يُذكر من ذلك إلا ما يخدم البناء العام،

٢) والرجوع إلى المعاني المعتبرة في كتب التفسير الموثوقة عند الحاجة،

٣) والالتزام بالضبط العقدي في العبارات،

٤) وتجنّب تحميل النص ما لا يحتمل،

٥) واحترام وحدة الخطاب القرآني كما أنزله الله.

وهكذا لا يكون الهدف أن يُكمل القارئ ثلاثين جزءاً، بل أن لا يُكملها كما بدأها، حتى يصدق عليه العنوان المختار لهذا العمل:

حتى يُغيّرك القرآن... رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً.

كيف يقرأ القارئ هذا الكتاب؟

هذا الكتاب لا يُقرأ كما تُقرأ سائر الكتب؛ فلا يُناسبه الاستعجال، ولا يُجديه المرور السريع، ولا يليق به أن يكون رفيقَ أوقات الفراغ فقط، بل هو كتابُ رحلةٍ داخلية، وكلُّ رحلةٍ تحتاج استعداداً، وصدقاً، وتدرّجاً، وإرادةَ مواجهةٍ لا مجرّد فضولٍ معرفي.

أول ما ينبغي أن يدركه القارئ أنه لا يدخل هذه الصفحات ليجمع أفكاراً جديدة، بل ليُعرِّض قلبه لضوءٍ قد يكشف ما لم يكن يرغب في رؤيته، ولذلك فليقرأ كل جزءٍ بعد أن يقرأه من المصحف، أو على الأقل وهو يستحضر آياته في ذهنه، حتى لا يكون التحليل منفصلاً عن النَّص، ولا يكون الكلام عن القرآن بغير قرآن.

لا يُستحسن أن يقرأ القارئ أكثر من فصلٍ واحدٍ في جلسةٍ واحدة، لأن كل فصلٍ يمثّل جزءاً كاملاً من القرآن، وكل جزءٍ مشروعُ مراجعةٍ مستقل، والأولى أن يمنح نفسه وقتاً بين فصلٍ وآخر، يتأمّل فيه، ويكتب ملاحظاته، ويجيب بصدقٍ عن الأسئلة المطروحة، ويُحدّد قراراً عملياً يلتزم به قبل أن ينتقل إلى الجزء التالي.

وليكن في ذهن القارئ أن هذا الكتاب ليس بديلاً عن التفسير، ولا عن مجالس العلم، بل هو رفيقُ محاسبةٍ ذاتية، يساعده على أن يرى نفسه في مرآة الآيات، ولذلك فليقرأه بروح الطالب الذي يريد أن يتعلّم عن نفسه قبل أن يتعلّم عن غيره، وبقلبٍ مستعدٍّ أن يعترف بالخلل، لا أن يبحث عن عباراتٍ تُطمئنه دون تغيير.

ويُستحسن أن يحتفظ القارئ بدفترٍ خاصٍ بهذه الرحلة، يُدوّن فيه الآيات التي هزّته، والمواضع التي شعر أنها تُخاطبه مباشرة، والقرارات التي عزم عليها، لأن التغيير الذي لا يُوثَّق قد يذوب مع الأيام، أما التغيير الذي يُكتب ويُراجع فيثبت ويترسّخ.

ومن المهم أيضاً أن يُقاوم القارئ إغراء إسقاط كل ما يقرأه على الآخرين، فليس المقصود أن يبحث في كل جزءٍ عمّن تنطبق عليه الآيات من الناس، بل أن يسأل نفسه: أين أنا من هذا الخطاب؟ وهل في داخلي شيءٌ من هذا المرض؟ وهل في حياتي أثرٌ لهذا الانحراف الذي يحذّر منه القرآن؟

فإن وجد في نفسه ضيقاً عند بعض المقاطع، أو مقاومةً خفيّةً لبعض الأسئلة، فليعلم أن هذه اللحظات هي أثمن ما في الرحلة، لأن التغيير يبدأ غالباً من موضع الألم، لا من موضع الرضا، ولأن القرآن إذا لامس موضعاً حساساً في القلب، فذلك دليل حياة، لا دليل إدانةٍ فحسب.

وليقرأ هذا الكتاب على مهلٍ، بلا سباقٍ مع الزمن، فإن الغاية ليست إنهاء الصفحات، بل أن ينتهي من عادةٍ قديمة، أو يُصلح خللاً متكرراً، أو يفتح باباً كان مغلقاً بينه وبين ربّه، فإن خرج من كل جزءٍ بقرارٍ صغيرٍ صادق، فقد قرأ القراءة التي أُريدت له، وإن أنهى الكتاب كله دون أن يتغيّر في داخله شيء، فليعد النظر في طريقة قراءته قبل أن يُعيد النظر في الكتاب.

لماذا عُنون الكتاب بهذا العنوان؟

لم يكن اختيار عنوان «**حتى يغيّرك القرآن... رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً**» اختياراً بلاغيّاً لجذب الانتباه، ولا عبارةً وجدانيةً تُقال في لحظة حماس، بل كان خلاصةَ سؤالٍ عميقٍ ظلّ يُلحّ: لماذا نقرأ القرآن كثيراً... ولا يتغيّر فينا كثيرٌ من الأشياء التي نعلم يقيناً أن القرآن جاء ليُغيّرها؟

قُدِّم الفعل «**يُغيّرك**» على كل شيء، لأن القضية هنا ليست في زيادة المعرفة، ولا في تحسين الأداء الصوتي، ولا في إتقان أحكام التلاوة، مع جلالة قدر ذلك كله، وإنما في التحوّل الداخلي؛ في أن ينتقل القارئ من حالٍ إلى حال، ومن ضعفٍ إلى قوة، ومن غفلةٍ إلى يقظة، ومن عادةٍ موروثةٍ إلى عبوديةٍ واعية، فالقرآن لم يُنزَل ليُحفظ في الصدور فقط، بل ليُحدث أثراً ظاهراً في السلوك والقرار والنظرة إلى الحياة.

واختيرت صيغة الغاية «**حتى**» لأن التغيير ليس نتيجةً آليةً لمجرّد القراءة، بل هو مقصدٌ يُسعى إليه، وغايةٌ تُطلب بصدق، فمن قرأ القرآن طلباً للتغيير تغيّر، ومن قرأه طلباً للاطمئنان العابر أو للإنجاز العددي فقد يخرج منه كما دخل، فالعنوان يحمّل القارئ مسؤولية النِّيَّة، ويُذكّره أن الغاية ليست إنهاء ثلاثين جزءاً، بل أن تنتهي منه ثلاثون عادةً كانت تُثقله.

وأمّا وصفها بـ«**رحلة القلب**» فلأن التغيير الحقيقي لا يبدأ من الذهن وحده، بل من الداخل؛ من مواضع الخوف والرجاء، ومن مناطق التعلّق والتردّد، ومن مساحات الرياء والصدق، فالقرآن يخاطب العقل ليُقنعه، لكنه يخاطب القلب ليُحرّكه، وهذه الرحلة ليست انتقالاً بين صفحات، بل انتقالاً بين حالاتٍ شعوريةٍ وإيمانيةٍ يتدرّج فيها القارئ مع كل جزء.

وجاءت عبارة «**عبر ثلاثين جزءاً**» لتؤكد أن الأمر ليس تأملاً عابراً في سورةٍ

واحدة، ولا وقفةً موسميةً مع مقطعٍ محدد، بل مسارٌ متكامل يسير مع البناء المصحفي كما هو، جزءاً بعد جزء، بحيث يُنظر إلى كل جزءٍ بوصفه محطةً في طريقٍ طويل، يُضيف لبنةً جديدةً في بناء الإنسان، ويُصلح زاويةً من زواياه، حتى تكتمل الصورة في نهاية الرحلة.

فالعنوان إذن ليس وعداً أدبياً، بل تحدٍّ صريح: إن دخلتَ هذه الصفحات، فادخلها وأنت مستعدٌّ أن تسمح للقرآن أن يُغيّرك فعلاً، وأن يعيد ترتيب أولوياتك، وأن يضعك أمام حقيقتك، فإن انتهت الرحلة وقد تبدّل فيك شيء، ولو يسيراً، فقد صدق العنوان، وإن خرجتَ منها كما دخلت، فليس في العنوان مبالغة، بل في الاستعداد نقصٌ لم يُستكمَل بعد.

وقفة قبل أن نبدأ... هل أنت مستعد أن تتغيّر؟

قبل أن نفتح الجزء الأول، وقبل أن نسير مع أول آية في هذه الرحلة، لا بد أن نتوقف قليلاً، لا مع القرآن، بل مع أنفسنا، لأن المشكلة في كثير من الأحيان لا تكون في وضوح الخطاب، بل في استعداد المتلقي، ولا في قوة الحجة، بل في صدق الرَّغبة في التبدُّل، فكم من إنسانٍ سمع الحق وعرفه، ثم عاد إلى عاداته القديمة كأن شيئاً لم يكن، لا لأنه لم يفهم، بل لأنه لم يرد أن يدفع ثمن الفهم.

هذه الرحلة لن تكون آمنةً تماماً، لأنها قد تكشف لك جوانب كنت تفضّل أن تبقى في الظِّل، وقد تضع يدها على مواضع ضعفٍ اعتدت تبريرها، وقد تسألك أسئلة لا تملك لها جواباً جاهزاً، فهل أنت مستعد أن ترى نفسك كما هي، لا كما تحب أن تتخيّلها؟ وهل أنت مستعد أن تعترف أن بعض ما تقرأه ينطبق عليك، لا على غيرك فقط؟

القرآن حين يخاطب المؤمنين لا يخاطبهم بوصفهم كاملين، بل بوصفهم في طريق الكمال، وحين يحذّر من النفاق أو الغفلة أو التعلّق بالدنيا، فهو لا يقصد طائفةً بعيدةً عنا دائماً، بل يفتح لنا باب المحاسبة، حتى لا يتسلّل إلينا شيء من تلك الصفات ونحن نظن أننا في مأمنٍ منها، ولذلك فإن القراءة الصادقة تبدأ من سؤالٍ واحد: **أين أنا من هذا الخطاب؟**

لا تدخل هذه الرحلة لتبحث عن تأييدٍ لما تعتقده مسبقاً، ولا لتجمع عباراتٍ جميلة تُشاركها مع الآخرين، بل ادخلها وأنت تنوي أن تسمح للآية:

١. **أن تُربك يقينك الكسول،**
٢. **وأن تُصحّح فهمك،**
٣. **وأن تُغيّر قراراً كنت تؤجّله،**

فإن لم تكن مستعداً لذلك، فستخرج من هذه الصفحات كما دخلت، وستبقى الآيات بعيدةً عن موضعها الحقيقي في حياتك.

اجعل بينك وبين هذا الكتاب عهداً صريحاً:

←أن لا تمرّ على جزءٍ إلا وقد سألت نفسك بصدقٍ عمّا يجب أن يتغيّر،

←وأن لا تنتقل إلى الجزء التالي إلا وقد اتخذت قراراً عملياً، ولو كان صغيراً،

لأن التغيير لا يحدث دفعةً واحدة، بل يتكوّن من قراراتٍ صغيرةٍ متراكمة، ومع كل جزءٍ يُقرأ بوعي، تُزال طبقةٌ من الغفلة، ويُعاد ترتيب زاويةٍ من زوايا القلب.

فإن كنت مستعداً لأن تُراجع نفسك، وأن تسمح للقرآن أن يكون ميزانك لا مجرد نصٍّ محفوظ، فافتح الصفحة التالية، وابدأ الجزء الأول، لا بعين القارئ فقط، بل بقلب الباحث عن التغيير،

.... فهنا تبدأ الرحلة حقاً.

الجزء الأول: من "إيّاك نعبد" إلى "صبغة الله"

تأسيسُ الإنسان الموحِّد: قلبٌ يسلِّم، وعقلٌ يَثبت، وحياةٌ تُصاغ على الهداية لا على الهوى..

المدخل التأسيسي: هذا الجزء... رحلةٌ واحدة لا مقاطع

يبدأ القرآن هنا من بوّابةٍ صغيرةٍ في اللفظ عظيمةٍ في المعنى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم؛ كأنّه يعلّمك أول الأدب مع القرآن الكريم: أن لا تدخل على الوحي بلا اسمٍ تتبرّك به، ولا على الدين بلا ربٍّ تتعلّق به، ولا على الحياة بلا رحمةٍ تُحسن بها الظنّ بربّك وتُحسن بها السير إليه.

ثم ترفع الفاتحة سقف العلاقة كلّه: الحمد لله ربّ العالمين... ليست كلمة افتتاحٍ تُقال؛ بل إعلانُ مرجعيةٍ كبرى: ربٌّ واحد، وتربيةٌ واحدة، ومآلٌ واحد. ثم يعرّفك الفاتحة على وجه الطريق قبل تفاصيل الطريق: رحمةٌ لا تَنسخ الملك، وملكٌ لا يُنقص الرحمة؛ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ... مَالِكِ يَوْمِ الدِّين؛ حتى لا تُبتلى بتصور عن إلهٍ تتخيّله رحمةً بلا حساب، ولا تُبتلى بدينٍ تتصوّره حساباً بلا رحمة.. وبعد أن يثبّت التصوّر، يُلقي عليك العهد: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين؛ توحيدٌ في القصد، وتوحيدٌ في الاعتماد، ثم سؤالٌ واحدٌ يختصر العمر: اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيم؛ لأنّ الإنسان لا يضلّ غالباً وهو يكره الهداية، بل يضلّ وهو يظنّ أنه على شيء، ولذلك خُتمت الفاتحة بميزانٍ يكشف حقيقة "الطريق": صراطُ المنعَم عليهم... لا صراط من عرفوا فغضب الله عليهم، ولا صراط من ضلّوا عن العلم والهدى.

ثم تأتي البقرة لتقول: ما سألتَه في الفاتحة ليس شعاراً؛ هذا "الكتاب" هو جوابُ "اهدنا"... ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ؛ ليس لأنّ كل أحدٍ سيؤمن به، بل لأنّ هدايته لا تُنال بعينٍ متلاعبة ولا بقلبٍ مُراوغ.

يضع لك منذ البداية معالم "المتقين" لا بوصفهم متصوفةً خارج الحياة، بل بوصفهم إنساناً متوازناً: غيبٌ يُصدَّق، وصلاةٌ تُقام، ورزقٌ يُنفق، ووحيٌ يُتّبع، وآخرةٌ يُوقَن بها؛ ثم يفرز الواقع كما هو: هناك من أغلق قلبه، لا لأنّ الدليل لم يبلغه، بل لأنّ الاستكبار سدّ المنافذ؛ وهناك صنفٌ أخطر: يُظهر الإيمان ليكسب به موضعاً، ويُخفي خلافه ليصنع به أماناً، فيعيش خداعاً للنفس قبل خداع الناس، ويُسمّي الفساد إصلاحاً، ويطلب لنفسه لقب "العقل" وهو في الحقيقة يسخر من أهل الإيمان ويستوحش من صدقهم.

ولأنّ القرآن لا يكتفي بوصفٍ نظري، يضرب مثلاً يفضح طبيعة هذا الانحراف: نورٌ يلمع لحظةً ثم يذهب، ومطرٌ ورعدٌ وبرقٌ يَفزع منه القلب المريض، فيضع أصابعه في أذنيه من الصواعق؛ أي لا يريد أن يسمع ما يُقلقه من الحقّ، لا لأن الحقّ غامض، بل لأنّ الحقّ يُلزمه.

ثم تنتقل السورة من تشخيص القلوب إلى خطاب الإنسانية كلّها: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم؛ عبادةُ الخالق الذي جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل ماءً فأخرج رزقاً؛ فمن عرف ذلك لم يضع لله ندّاً في الحُبِّ أو الخوف أو الطاعة. ثم يعلو التحدّي: إن شككتم في هذا الوحي فأتوا بسورةٍ من مثله... فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاعرفوا أنّ القضية ليست "نقاشاً ثقافياً" بل نجاةً أو هلاكاً؛ نارٌ وقودها الناس والحجارة للكافرين، وبشرى جناتٍ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فيُعاد بناء ميزان الرجاء والخوف على أساسٍ صحيح: لا أمانَ بلا إيمان، ولا نجاةَ بلا عمل، ولا عملَ بلا أصلٍ يُغذّيه.

ثم يريك القرآن شيئاً من سُنن الهداية: الله يضرب الأمثال بما شاء، لا حياء في بيان الحقّ؛ فتظهر الفروق: قلبٌ مؤمنٌ يرى المثل حقّاً من ربّه فيزداد فهماً، وقلبٌ كافرٌ يجعل من المثل مادةَ سخرية: ماذا أراد الله بهذا؟ وكأنّه لا يسأل طلباً للفهم، بل طلباً للاعتراض.

وهنا يُعرّفك القرآن على حقيقة "الفسق" الذي يُضلّ به صاحبه: نقضُ العهد، وقطعُ ما أمر الله به أن يوصل، والإفساد في الأرض؛ ثم يقلب عليك السؤال الذي يكسر الغفلة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ أي إنكارُ الله ليس نقص معلومات، بل انهيارُ إنصافٍ في القلب.

ثم يفتح لك باب "أصل الإنسان" ليضعك في موضعك الحقيقي: أنت خليفةٌ في الأرض، لكنّك لست ربّاً فيها؛ خلقٌ مُكرَّمٌ بالتعليم، لا مُؤلَّهٌ بالتقديس.. الملائكة تسأل عن الفساد وسفك الدماء، والرَّبُّ يجيب بعلمٍ لا يحيط به الخلق.. ثم يُعلّم آدم الأسماء، فتظهر منزلة العلم، ويظهر أن التفضيل لا يكون بالدعوى بل بالحقائق التي يضعها الله حيث شاء.. ثم يُعرض مشهد السجود، فيبرز الانحراف الأول في التاريخ: الاستكبار الذي يردّ أمر الله، فيسقط صاحبه ولو كان في موضعٍ عالي المنزلة.

ثم تُروى قصة السكن في الجنة، والنهي عن الشجرة، والزلل، والتوبة، وتلقّي الكلمات، والرجوع إلى الله... لا لتُحكى القصة، بل لتُثبت قاعدة الوجود: البشر يخطئون، لكنّ طريقهم ليس اليأس ولا التبرير، بل التوبة والرجوع، وأنّ العداوة مع الشيطان ليست فكرةً رمزيةً بل حقيقة صراعٍ ممتدّ.

ثم يأتي القانون الأعظم للحياة بعد الهبوط: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون؛ أي إنّ الأمان الحقيقي ليس في كثرة الاحتيال على الدنيا، بل في الاتباع.. ومن كفر وكذّب فالنار مأواه.

ثم يلتفت السياق إلى بني إسرائيل؛ لا لأنّ السورة تتحول إلى "تاريخ"، بل لأنّ القرآن يضع أمامك نموذج أُمةٍ رأت الآيات ثم تعثّرت في العهد؛ يذكّرهم بنعمه، وبنجاتهم من فرعون، وبفلق البحر، وبموعد موسى، وبالكتاب والفرقان، وبالغمام والمنّ والسلوى... ثم يفضح آفة "تبديل القول" و"التململ من الرزق

الواحد" وطلب الأدنى بدل الأعلى، وارتكاب الاعتداء، وقتل الأنبياء... لتفهم أن المشكلة ليست في قلّة النِعم، بل في قسوة القلب حين تتكرر عليه النِّعم فلا تُثمر شكراً ولا طاعة.

ويأتي التنبيه العقدي الدقيق: النجاة ليست بالانتساب إلى اسمٍ ولا بمجرد دعوى تاريخية؛ بل بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح على وفق ما جاء به الوحي الحقّ في زمنه، لا بتزييف الدين ولا بتحريف الكلمات ولا بكتابة الكتاب بالأيدي وبيعه بثمنٍ قليل.

ثم يضع القرآن بين يديك مشهداً ليس في ظاهره كبيراً: أمرٌ بذبح بقرة؛ لكنه في ميزان التربية اختبارُ "روح الطاعة" لا حجم التكليف.. لم يكن المطلوب معقّداً، ولم يكن الأمر محتاجاً إلى كل ذلك الاستفسار؛ لكنّ المشكلة لم تكن في "المعلومة"، بل في "الاستجابة".. كلما جاء البيانُ ازداد السؤال، لا طلباً للفهم بل طلباً للتأجيل، حتى تحوّل الامتثال البسيط إلى سلسلةٍ من التعقيد الذاتي: ما هي؟ ما لونها؟ ما صفتها؟ وكأن النفس إذا لم تُرِد الطاعة صنعت من التفاصيل حصناً تتخفّى خلفه.

وهنا يكشف القرآن أحد أخطر الانحرافات: أن يتحول السؤال من وسيلةِ هداية إلى أداةِ مراوغة.. لم يقولوا: سمعنا وأطعنا، بل قالوا: ادع لنا ربك... حتى انتهى الأمر إلى اعترافٍ متأخر: الآن جئت بالحق، وكأن الحق كان غائباً قبل ذلك! فذبحوها وما كادوا يفعلون؛ طاعةٌ متأخرةٌ بعد استنزاف القلب.

ثم يكشف السياق ما وراء القصة: جريمةُ قتلٍ وكتمانٌ ومداورةٌ في الاتهام، فجاءت المعجزة لتفضح المستور، ليظهر أن المشكلة ليست في البقرة، بل في القلوب التي قتلت وكتمت.. أُحيي المقتول بآيةٍ ظاهرة، ومع ذلك لم تلن القلوب؛ وهنا تأتي الجملة التي تفضح جوهر الداء: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ

مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.. ليست القسوة نقص علم، فقد سمعوا كلام الله، وعقلوه، ثم حرّفوه وهم يعلمون؛ القسوة اختيارٌ متكرر حتى يصير طبيعة.

ويُصوِّر القرآن المفارقة العجيبة: الحجارة نفسها قد تتفجر منها الأنهار، وقد تشقق فيخرج منها الماء، وقد تهبط من خشية الله؛ أما القلب إذا أغلق نفسه على العناد، فقد يكون أشدّ جموداً من الجماد.. وهنا يرتبط هذا المقطع بكل ما قبله في السورة:

← السماع بلا تسليم،

← العلم بلا خشوع،

← الآية بلا أثر.

ثم يُعرّي طبقةً أخرى من الانحراف: ازدواجية الخطاب؛ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم... ليست القضية شكاً معرفياً فقط، بل خوفُ انكشافٍ ومصالح.. دينٌ يُستعمل في العلن، ويُفرّغ في السر، وتحريفٌ يُمارس بعد الفهم لا قبله.

بهذا المشهد تتضح خطورة ما حذّر منه السياق منذ البداية: نقض العهد، وتحريف الكلم، وكتمان الحق، والتلاعب بالألفاظ.. فالبقرة ليست قصةً رمزية؛ إنها مرآةٌ تُريك كيف يتحول الدين من تسليمٍ بسيط إلى جدلٍ معقّد حين يفسد القلب، وكيف يفضح الله المستور ولو أحاطه أهله بالتمويه.

وهنا يتبيّن الخيط الذي يصل هذا المقطع بكل ما بعده: من لم يتعلم من "البقرة" روح الطاعة، سيسقط في "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ"، ومن قسا قلبه عند إحياء ميتٍ لن تلينه كثرة الآيات، ومن اعتاد التحريف سيجد في كل وحيٍ جديد ما يحسده أو يجحده.

فالمشكلة لم تكن في التكليف، بل في القلوب التي تستقبل التكليف.

ثم يمرُّ بك القرآن على صورٍ من التحايل الديني:

← ادعاء الأماني،

← وتحويل الدين إلى "ضمانات" وهمية: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة...

فيسقط هذا الوهم: ليس بينك وبين الله عقدُ أمانٍ من عند نفسك، وإنما الميزان: سيئة تُحيط بصاحبها فتُهلكه، أو إيمانٌ وعملٌ صالحٌ فيُنجّيه الله برحمته وعدله.

ثم يفتح لك باباً كبيراً في الأخلاق والاجتماع:

١. توحيدٌ لا ينفصل عن برّ الوالدين،
٢. والإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين،
٣. وحسن القول للناس،
٤. وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛

ثم يفضح التناقض القاتل: أن تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض؛ وأن تُحرّم أمراً ثم تتورط فيه ثم تطلب لنفسك مخارج.

ثم تتوالى صور الاعوجاج: الاستكبار عند مجيء الرسل بما لا تهوى الأنفس، ونسبة الغفلة إلى القلوب: قلوبنا غلف... والحقيقة أنها قلوبٌ طُبع عليها بكفرها؛ ثم يجيء الوحي الجديد مصدقاً لما معهم، فيكفرون به حسداً وبغياً، فيتراكم عليهم غضبٌ على غضب.. ثم ينكشف حرصهم على الحياة، حتى لو عُمّر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بناجيه من العذاب.

ثم يضع القرآن قاعدةً عقدية مُهمّة في باب الإيمان بالملائكة والوحي: من عادى جبريل لأنّه حامل الوحي فقد عادى ما أنزل الله تعالى، فليس العداء هنا لشخصٍ أو اسم، بل لرسالةٍ.

ثم يأتي الحديث عن السِّحر وما تتلو الشياطين، ليفصل بين مقام النبوّة ومقام الشيطنة، ويبين أن تعلم السِّحر وطلب التفريق بين المرء وزوجه بابُ فسادٍ لا

بابُ معرفة، وأن الضَّرر لا يقع استقلالاً عن مشيئة الله وقدره، لكنه يقع بسبب اختيار الإنسان للشرّ وتقديمه ما يضرّه على ما ينفعه.

ثم ينتقل القرآن إلى أدبٍ ظاهره لفظٌ وباطنه دين: لا تقولوا راعنا... لأنّ اللسان قد يكون ثغرةَ أهل السُّخرية والالتواء، فالكلمة بابُ فتنةٍ إذا تُركت بلا تهذيب.

ثم يضع لك قانون النسخ والتشريع في سياق الملك: لله ملك السموات والأرض، وهو المشرّع الحكيم، يبدّل من الأحكام ما يشاء لحكمةٍ ورحمة، لا لعبثٍ ولا لتناقض.

ثم يفضح حسد أهل الكتاب ومحاولة ردّ المؤمنين بعد إيمانهم، ويأمر بالعفو والصفح حتى يأتي أمر الله، ويعيدك إلى الأصل العملي الذي يثبت في الفتن: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنّ كل خيرٍ تقدمه لنفسك تجده عند الله.

ثم يواجه "احتكار النجاة": لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى... فيردّ القرآن القضية إلى معيارها الحق: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ؛ تسليمٌ وإحسانٌ، لا مجرد تسمية.

ثم يذكر تنازع اليهود والنصارى مع أنهم يتلون الكتاب، ويكشف أن الخصومة إذا خرجت من ميزان الوحي تحولت إلى أهواء متقابلة.

ثم يفتح أفقاً يُعلّمك ألّا تظنّ أن تغيّر القبلة يعني تغيّر الإله، ولا أن تتوهّم أن الله يُحاط به أو يُحدّه مكان؛ فالله سبحانه عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه كما يليق بجلاله، وهو مع عباده بعلمه وإحاطته وقدرته، لا تخفى عليه خافية؛ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فحيثما وُجّه العبد بأمره فثمّ طاعته، والقبلة امتثالٌ لأمره لا تحديدٌ لذاته، والله واسعٌ عليم.

ثم يقطع أصلاً من أصول الشرك العقدي: قولهم اتخذ الله ولداً... سبحانه؛ له ما في السماوات والأرض، وهو بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

ثم يطمئن قلب النبي ﷺ أن مهمته البلاغ، وأنه لا يُسأل عن أصحاب الجحيم، ويقرر سنّةً اجتماعيةً ثابتة: ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ... فميزانك هدى الله لا رضى الناس.

ثم يصف أهل الكتاب الذين يتلون الكتاب حق تلاوته: الإيمان ليس معرفةً لغوية، بل تلاوةُ حقٍّ تثمر اتباعاً.. ثم يعود إلى بني إسرائيل بالذكر والتحذير من يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ثم يفتح مشهد إبراهيم عليه السلام: ابتلاءٌ يُتمّ الكلمات، وإمامةٌ لا تُنال للظالمين، وبيتٌ مثابة وأمن، وطهارةٌ للبيت من أجل الطائفين والعاكفين والركع السجود، ودعاءٌ جامع: بلدٌ آمن ورزقٌ لأهله... مع بقاء السُّنّة: من كفر يُمتّع قليلاً ثم يُضطر إلى عذاب النار.

ثم يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد ويقولان: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا... فيُعلّمك أن البناء العظيم يبدأ بخوف عدم القبول.. ثم دعاء الإسلام والتوبة، ثم دعاء الرسالة: رسولٌ يتلو الآيات ويعلّم الكتاب والحكمة ويزكّي.

ثم يظهر معيار "الرغبة عن مِلّة إبراهيم": سفه النفس، لا نقص الحجة.

ثم وصية إبراهيم ويعقوب: لا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. ثم سؤال يعقوب لبنيه: ماذا تعبدون من بعدي؟ كأنّ سؤال الخاتمة هو سؤال البداية: **العبادة**.

ثم يختم هذا المقطع بتقرير "العنوان الجامع" للهوية: ليست يهودية ولا نصرانية، بل ملّة إبراهيم حنيفاً؛ ويؤمر المؤمنون بإعلان إيمانهم بكل ما أنزل الله، بلا تفريق بين الرسل..

ثم يجيء الختام الذي يضمُّ كل ما سبق: صِبْغَةَ اللَّهِ... أي هويةٌ تتلوّن بها الروح لا شعارٌ على اللسان؛

١. صبغةٌ تُخرج الإنسان من التلون للناس إلى الإخلاص لله،
٢. ومن الجدل إلى العبادة،
٣. ومن الدعوى إلى الاستسلام.

ويختم القرآن هذا المقطع بتكرارٍ مقصودٍ عميق الدلالة يقطع آخر خيوط التعلّق بالماضي على وجهٍ مغلوط، فيقول: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، وكأنّه ينزع من النفس ذلك الاتكاء الخفيّ على التاريخ، ويُسقط من يدها حجّة الانتساب، ويغلق أمامها باب الاحتماء بالأسماء الكبيرة؛ فالتاريخ في ميزان الوحي ليس جداراً يُختبأ خلفه، ولا نسباً يُتّكأ عليه، ولا شرفاً موروثاً يُغني عن صدق الحاضر، وإبراهيم عليه السلام ليس رصيداً عاطفياً يُستحضر عند المفاخرة، ولا يعقوب ضمانةَ نجاةٍ تُستعمل في الجدل، ولا موسى وثيقةَ انتماءٍ تُرفع في وجه الخصوم؛ لكلٍّ ما كسب، ولكم ما كسبتم، فلا يُنقِذك صدقُ غيرك إن لم تصدق، ولا يرفعك مقامُ سلفٍ إن لم تُقِم أنت العهد.

جاءت هذه الآية في موضعها بعد جدل الهوية مباشرة، وبعد السؤال المحتدم: من كان على ملة إبراهيم؟ وبعد إعلان الإيمان الجامع بكل الرسل بلا تفريق، فكأنّ القرآن يحسم النزاع بكلمةٍ فاصلةٍ لا تترك للنفس مهرباً: لا تُحاكموا أنفسكم بأسماءٍ مضت، بل بأعمالٍ تُنجَز الآن، ولا تُقِيموا وزنكم عند الله بماضي أمّةٍ، بل بحاضركم أنتم، فالدين في ميزان الوحي مسؤوليةٌ شخصيةٌ قائمةٌ على الكسب والعمل، لا وراثةٌ رمزيةٌ تُتناقل بالشعار، والانتساب بلا اتباع لا يصنع نجاةً، كما أنّ خطأ السابق لا يُحمَّل اللاحق إلا إذا اختار أن يسير على دربه ويُعيد إنتاج انحرافه.

ولهذا تكرّرت الآية نفسها مرتين في السياق؛ لأن النفس ميّالةٌ بطبعها إلى الاتكاء على الماضي، مرّةً في سياق مفاخرة أهل الكتاب بآبائهم وأنبيائهم وكأنّ الشرف ينتقل تلقائياً عبر السُّلالة، ومرّةً في سياق تثبيت الأمّة الجديدة حتى لا تقع في المرض نفسه فتصنع من انتمائها لإبراهيم أو انتسابها للوحي الجديد ذريعةَ اطمئنانٍ كاذب، فالتكرار هنا ليس إعادة عبارةٍ بل تثبيت قاعدة، وليس تكرار لفظٍ بل ترسيخ ميزان؛ الميزان فرديٌّ في الحساب، والشرف بالاتباع لا بالانتساب، والأمّة لا تُبنى باستدعاء الأمجاد بل بتحقيق العهد الذي حملته.

وهكذا يُغلق القرآن باب التعلّل بالتاريخ قبل أن يفتح باب تحويل القبلة في الجزء الثاني، حتى لا يظنّ أحدٌ أن التغيير انتقالُ نسبٍ من أُمَّةٍ إلى أُمَّة، أو استبدالُ اسمٍ باسم، بل هو انتقالُ مسؤوليةٍ إلى من يصدق مع العهد ويستجيب للأمر دون مراوغة، وبهذا يكتمل الخيط بين ملّة إبراهيم التي حُرِّرت من الاحتكار، وصبغة الله التي تُغَيِّر الداخل لا اللافتات، وتحذير بني إسرائيل من الانزلاق إلى الاتكاء على الماضي، وبداية بناء الأمّة الوسط التي ستُختبر لا بأصولها التاريخية بل بصدق طاعتها، فتظهر الآية في حقيقتها لا تقريراً تاريخياً عابراً، بل جراحةً عقديةً دقيقةً تُزيل وهمَ الوراثة في باب النجاة، وتُعيد الإنسان إلى موضعه الحقيقي أمام الله: **مسؤولاً عمّا كسب، لا عمّا انتسب.**

الخريطة البنيوية لهذا الجزء

- الفاتحة: دخول العبد على الله تعالى باسم الرحمة... ثم اعترافٌ بالربوبية... ثم انكسار العبادة... ثم طلب الهداية... ثم خوف المصيرَين.
- البقرة افتتاحاً: القرآن "لا ريب" لا يُقدَّم كخطابٍ معلوماتي... بل كميزانٍ يفرز القلوب: هدى للمتقين فقط.

- ملامح المتقين: غيبٌ يضبط الداخل... صلاةٌ تضبط الجوارح... وإنفاقٌ يفضح حقيقة التعلُّق.
- أصل النجاة: الإيمان بالوحي كله... لا انتقاء... ولا تمييز هوى.
- اليقين بالآخرة: ليس فكرة... بل رقيبٌ يصنع الاستقامة.
- ثم المفارقة الكبرى: بعد "المفلحين" مباشرةً... "الكافرين"... ليُفهَم أن الطريقين متجاوران لا متباعدان.
- ختم القلب: حين يتحول الإصرار إلى طبعٍ داخلي... لا يعود الإنذار يوقظ.
- المنافقون: خطرٌ داخل الصَّف... لسانٌ يقول "آمنا"... وقلبٌ ينكر الإيمان.
- مرض القلب: يبدأ خفيفاً... ثم يكبر لأنه يُغذّى بالتبرير.
- شعار المفسد: "إنما نحن مصلحون"... أخطر فسادٍ هو الذي يلبس ثوب الإصلاح.
- احتقار أهل الإيمان: علامة سقوطٍ داخلي... لأن المتكبر لا يحتمل نور الصادقين.
- ازدواجية الهوية: "آمنا" أمام المؤمنين... و"إنا معكم" أمام الشياطين... سقوطٌ بلا كُلفة.
- الاستهزاء بالله: ليس سُخرية لفظ... بل عقوبة أن يُترك الإنسان في طغيانه يعمَه.
- التجارة الخاسرة: يشتري الضَّلالة بالهدى... ويظنها صفقة ذكاء.
- أمثال المنافقين: نورٌ يُطفأ... وحيرةٌ في الظلمات... ورعبٌ من الصواعق... لأن الداخل خائفٌ من الحقيقة.

- النداء الجامع: "يا أيها الناس" قبل تفاصيل الشريعة... لأن أصل الدعوة عبودية الرَّب لا انتماء الاسم.
- دلائل الربوبية: خَلقٌ... وتسخيرٌ... ورزقٌ... ثم الخلاصة: لا أنداد.
- تحدّي القرآن: الحجة ليست عاطفة... بل برهانٌ يعجز عنه البشر.
- معادلة النجاة: إيمانٌ وعملٌ... لا تمنٍّ ولا ادّعاء.
- الأمثال: الله تعالى لا يستحيي من مثالٍ صغير... لأن القضية ليست حجم المثال... بل صدق القلب في تلقيه.
- الموقف من المَثل: المؤمن يزداد يقيناً... والكافر يزداد اعتراضاً... فالمشكلة ليست في النص... بل في النفس.
- الفسق تعريفاً: نقض العهد... قطع ما أمر الله به... إفسادٌ في الأرض... ثم اسم الحقيقة: خاسرون.
- سؤال الوجود: كنتم أمواتاً فأحياكم... ليُقال لك: من أحياك أول مرة... يملك أن يحييك ثانية.
- العلم الإلهي: خلقٌ محيط... وسماءٌ مسوّاة... ليُكسر وهم المصادفة.
- بداية قصة الإنسان: "خليفة" قبل "ابتلاء"... التكريم سابقٌ على التكليف.
- تعليم الأسماء: قيمة الإنسان في المعرفة... لا في الشكل ولا في القوة.
- امتحان إبليس: أصل السقوط كِبرٌ لا شبهة... واستعلاءٌ لا دليل.
- الجنة والحدّ: النعمة واسعة... لكن لها باب طاعةٍ واحداً لا يُتجاوز.
- الزلة: الشيطان لا يهدم بالإقناع الكبير... بل بانزلاقٍ صغير.
- العداوة: الصراع قديم... بين هدايةٍ ووهم... لا بين أشخاص فقط.
- قانون الهداية: "فمن تبع هداي"... النجاة ليست ادعاء حُب... بل اتباع.

- بني إسرائيل: نعمةٌ تُذكَّر... وعهدٌ يُستدعى... لأن سقوط الأُمم يبدأ بنسيان المِنن.
- لبس الحق: أول انحراف العلماء... أن يخلطوا... وأن يكتموا.
- التناقض الفاضح: تأمرون بالبر وتنسون أنفسكم... أخطر سقوطٍ أن تصير آياتك ضدك.
- الاستعانة: الصبر والصلاة... ثقيلة إلّا على الخاشعين... لأن الخشوع هو مفتاح الاحتمال.
- قسوة القلب: قد تكون الحجارة ألين... حين يتحول القلب إلى صخرة لا تهتز.
- التحريف: يسمعون كلام الله ثم يبدلونه وهم يعلمون... الجريمة هنا ليست الجهل... بل الخيانة.
- الأُمِّيُّون: دينٌ بلا فهم... أماني بلا علم... فتبدأ صناعة الوهم باسم الدِّين.
- أخطر جريمة: يكتبون الكتاب بأيديهم... ثم يقولون "هذا من عند الله"... تزويرٌ بلباس الوحي.
- أماني النجاة: "لن تمسنا النار"... تديّنٌ يطلب صكّ أمانٍ بلا توبة.
- القاعدة العادلة: من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته... فالنار... ومن آمن وعمل... فالجنَّة.
- ميثاق الأخلاق: توحيد... بر والدين... إحسان... قول حسن... صلاة وزكاة... ثم العبرة: العهد يُنقض بسهولة.
- قتال النفس: تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم... انهيار الأُمة يبدأ من الداخل.

- الإيمان الانتقائي: تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض... هذا دين الهوى لا دين الله تعالى.
- سنة التكرار: كلما جاء رسول... واجهته النفس بما لا تهوى... فتكذيبٌ أو قتل.
- "قلوبنا غلف": قناع المثقف المتكبر... يدّعي أن المشكلة في قابلية القلب لا في عناده.
- حسد الحق: يعرفون الكتاب... فلما جاءهم ما عرفوا... كفروا به... لأن العائق ليس الدليل بل الحسد.
- حربهم على النور: من كان عدواً لجبريل... فهو عدو للوحي... لأن المشكلة مع الهداية نفسها.
- نقض العهود: تاريخٌ يتكرر... لأن نفس العلة تتكرر.
- السِّحر والتفريق: الشياطين لا تبني... بل تُفرّق... وأخطر التفريق بين الزوجين.
- التحذير الصريح: "إنما نحن فتنة فلا تكفر" ... ثم الناس يركضون وراء ما يضرُّهم.
- النَّسخ: التشريع ليس عبثاً... بل تدرّج حكيم... والله على كل شيء قدير.
- ولاية الله: لا ولي ولا نصير من دونه... كل سندٍ سواه هشّ.
- حسد أهل الكتاب: يريدون ردّكم كفاراً... فانتبهوا: الصراع على إيمانكم لا على آرائكم.
- ميزان العبودية: أقم الصلاة وآتِ الزكاة... ثم القاعدة: ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه.

- وهم الاحتكار: "لن يدخل الجنة إلا..." ... ثم الرد: الإسلام وجهاً لله مع الإحسان... لا بطاقة طائفة.
- توحيد الجهات: لله المشرق والمغرب... فلا تُقدّسوا المكان وتنسوا المعبود.
- تنزيه الله: "سبحانه بل له ما في السماوات والأرض" ... الرد على كل تصورٍ يُنقص من صورة الله سبحانه وتعالى.
- نهاية هذا الجزء: رسم الهوية الجامعة... "قولوا آمنا" ... لا تفريق بين الأنبياء... ونهاية الطريق: "ونحن له مسلمون".

المحور الإيماني المركزي

الهدايةَ ليست فكرةً تُقال، بل عبوديةٌ تُعاش؛ تبدأُ بتعريفِ العبدِ بربّه في الفاتحة ثناءً وتوحيداً واستعانةً وسؤالَ هدايةٍ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم يفتحُ مطلعُ البقرةِ جوابَ هذا الدعاء بأنَّ الهدايةَ في هذا الكتاب لا تُعطى لكلِّ أحد، بل تُمنحُ لأهلِ التقوى والصدقِ في التلقي والعمل ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فيُفرَزُ الناسُ أمام الوحي ثلاثَ خرائطَ قلبيةٍ كبرى:

١. قلبٌ يؤمنُ بالغيب ويقيمُ الصلاةَ ويُنفقُ ويوقنُ بالآخرة فيكونُ على هدىً وفلاح ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾،
٢. وقلبٌ أعرضَ حتى استحقَّ الختمَ فصار الإنذارُ عنده سواءً ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾،
٣. وقلبٌ يلبسُ الإيمانَ ويُضمرُ المرضَ ويُنتجُ الفسادَ وهو يتوهّمُ الإصلاح ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛

ثم يُنادى الناسُ كلُّهم إلى أصلِ النجاة: عبادةُ الربِّ وحدَه وخلعُ الأنداد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ و﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ويُثبِّتُ اليقينُ بأنَّ هذا الكلامَ حقٌّ من عند الله لا يُعارَض ولا يُجارَى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا

نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، ثم تُوضَعُ أمام القلبِ سُنّةُ الطريق: وعدُ الجنةِ لمن آمنَ وعمل، ووعيدُ النارِ لمن كفرَ وأعرض ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ و﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ وبعدها يَعرضُ الجزءُ أصلَ حكايةِ الإنسانِ في الأرض: خلافةٌ وابتلاءٌ وتعليمٌ وتوبةٌ وعداوةٌ مع الشيطان، وأنَّ النجاةَ ليست بالنسب ولا بالشعار، بل باتّباع هدى الله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ثم تأتي مرآةُ بني إسرائيل لتقول: إن فسادَ الدين يبدأ من نقض العهدِ وكتمان الحقِّ ولبسِه بالباطلِ واتباعِ الأماني وشراءِ الآيات بثمنٍ قليل، وأنَّ العبادةَ بلا امتثالٍ تُنتجُ قسوةً لا خشيةَ فيها ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وأنَّ التوحيدَ الحقَّ يَنسفُ كلَّ دعوى في الولد والشريك: ﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾؛ فخلاصةُ هذا الجزء كلّه أنَّ "الصراطَ المستقيم" الذي سألته في الفاتحة ليس مجرد اتجاهٍ في الدعاء، بل طريقُ قلبٍ يتّقي، ويصدقُ مع الكتاب، ويعبدُ الله وحده، ويثبتُ على عهده، ويهربُ من خداع النفس والنفاق والتحريف، لأنَّ الهدايةَ رحمةٌ، لكنها لا تسكن إلّا قلباً سلّمَ قيادَه للوحي.

إذن الجزء الأول تأسيسُ "العبد الموحِّد" الذي يسير إلى الله على بصيرة: يعرف ربَّه بأسمائه وصفاته بلا تحريفٍ ولا تمثيل، ويعرف نفسه بضعفها وابتلائها، ويعرف طريقه بميزان الهداية لا بميزان الأماني؛ فتتحول العبادة من عادةٍ إلى عهد، ومن شعارٍ إلى صبغة.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء

❖ الانحراف العقدي: أن يتحول التوحيد إلى دعوى بلا عبودية، أو إلى رحمةٍ بلا حساب، أو إلى اعتمادٍ على الأسباب كأنها مستقلة، أو إلى تحريفٍ للوحي وكتابةٍ للدين على الهوى، أو إلى مسالك الشياطين في السحر والباطل، أو إلى الغلو في حق الله بقول الولد، أو إلى عداوة الوحي بحجة

عداوة جبريل، أو إلى احتكار النجاة بالاسم والانتماء.

- ❖ الانحراف الأخلاقي: النفاق العملي الذي يلبس وجهين، والكذب الذي يصير مرضاً قلبياً، والسُّخرية من أهل الإيمان، ونقض العهود، وقطع الأرحام والمواثيق، وبيع الدين بثمنٍ قليل، والتحايل على النصوص، وقسوة القلب بعد النِّعم، وطلب الأدنى وترك الأعلى، وغلظة اللسان التي تصنع فتنة من كلمة.
- ❖ الانحراف الاجتماعي: ادعاء الإصلاح مع صناعة الفساد، وإشاعة الاستعلاء على "السُّفهاء" وهم أهل الإيمان، وتفكيك المجتمع بالتفريق بين الزوجين وبثّ أبواب الضرر، وتديّنٌ يُهمل الوالدين والضعفاء، وتدينٌ انتقائي "نؤمن ببعض ونكفر ببعض"، ونزاعات أهل الكتاب التي تصير صراع هوية بلا حق.
- ❖ الانحراف النفسي: حبّ الحياة الذي يُغلق باب الحقّ، والحسد الذي يردّ الإنسان عن الإيمان مع وضوحه، والخوف من التكاليف الذي يدفعه لوضع أصابعه في أذنيه من صواعق الحق، ووهم الأماني (لن تمسّنا النار...) الذي يصنع مخدّراً روحياً، والتعالي الذي ورّط إبليس ثم يتكرر في صورٍ جديدة، وتبرير الخطأ بدل التوبة الصادقة، والتعلّق بظاهر المعرفة دون التحول بها إلى سلوك.

ملامح الشخصية التي يصنعها هذا الجزء

١. إنه يصنع إنساناً يبدأ يومه بـ "بسم الله" لا كتعويذة، بل كإقرار مرجعية؛
٢. يثبت قلبه على ربٍّ رحمنٍ ملك، فلا يتيه بين قسوةٍ تُقنطه ورخاوةٍ تُغريه.
٣. يصنع عبداً صريحاً في عبادته: "إياك نعبد" في المقصد، "وإياك نستعين" في الاعتماد؛ فلا يُحسن الكلام عن الله ثم ينهار عند أول امتحان.
٤. يصنع عقلاً متقياً لا يتعامل مع الوحي كحقل جدل، بل كطريق هداية؛

٥. يعرف أن الهداية لها شروطها: صدقٌ، وخشوعٌ، واستجابة.
٦. يصنع إنساناً يكره النفاق لأنه يكره خداع النفس،
٧. ويعرف أن أخطر الكذب هو الذي يُلبس لبوس الإصلاح.
٨. يصنع شخصاً لا يحتكر النجاة بالاسم ولا يسوّق الأماني،
٩. ويعيش الدِّين في أخلاقه مع والديه والضعفاء، وفي ضبط لسانه، وفي ترك التحايل، وفي تسليم الوجه لله مع إحسان.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء

١. يعالج مرض "الرِّيبة" التي تتحول إلى موقف دائم لا إلى سؤال بحثٍ عن الحق،
٢. ويعالج مرض "التلون" بين المؤمنين والشياطين،
٣. ومرض "الاستعلاء" الذي يرى أهل الإيمان سفهاء،
٤. ومرض "الحسد" الذي يردّ صاحبه عن الحق مع معرفته،
٥. ومرض "قسوة القلب" بعد النعم،
٦. ومرض "الأماني" التي تُستعمل لتعطيل التوبة والعمل،
٧. ومرض "حبّ الحياة" حين يصير غايةً تبتلع الآخرة،
٨. ومرض "الانتقائية" في الدين،
٩. ومرض "اللسان الملتبس" الذي يجعل من الكلمة سهماً في جسد الأخوة،
١٠. ومرض "الاعتماد على غير الله" حين تُنسى الاستعانة ويُؤلَّه السبب في القلب.

اختبار ذاتي عميق... أسئلة مواجهة لا معلومات

← هل أنا أقول "إياك نعبد" ثم أعيش في يومي كأنّ الاعتماد كله على نفسي أو على الناس؟

←وهل أطلب الهداية في الفاتحة ثم أتعامل مع القرآن كأنه معرفة عامة لا طريق حياة؟

←أين انكشف قلبي في هذا الجزء: عند آيات المتقين... أم عند آيات المنافقين؟

←هل وجدتُ نفسي أستريح لصفةٍ وأضيق من صفة؟

←وهل ضيقي كان من الحق... أم من تكلفته؟

←أي آية أربكتني حقّاً: آية "ختم الله على قلوبهم" فأخافتني من سوء الخاتمة؟ أم آية "يخادعون الله" فكشفت لي حيلةً أمارسها على نفسي؟ أم آية "لا تلبسوا الحق بالباطل" فذكّرتني بمواطن تلبيس؟ أم آية "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" فعرّت انتقائيةً عندي؟ أم آية "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى" فواجهت حاجتي لرضى الناس؟

←ما السلوك الذي أؤجّل تغييره وأنا أعلم أنه لبّ الطريق لا هامشه:

١. صدق التوبة بدل تبرير الزلل؟
٢. ترك كلمةٍ موهمةٍ أو أسلوبٍ فيه سخرية؟
٣. ردّ الحقوق أو وصل ما قطعت؟
٤. إخراج صدقةٍ أؤخرها؟
٥. صلاةٌ أؤديها بلا إقامة؟
٦. ظلمٌ صغير أسميه "واقعية"؟
٧. عادةٌ أُصرّ أن تبقى مع أن القرآن يطلب "صبغة" لا "اسماً"؟

←هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟ إذا كنتُ أفرح بوصف المتقين وأستثقل لوازمه... فأنا مُخاطَب.

←وإذا كنتُ أستنكر النفاق على غيري وأغفل عن صوره في نفسي... فأنا مُخاطَب.

← وإذا كنتُ أتعلق بالأماني وأؤجل العمل... فأنا مُخاطَب.
← وإذا كنتُ أبحث عن هدايةٍ تُرضي الناس لا ربّ الناس... فأنا مُخاطَب.

خطة التغيير كطريقٍ قصيرٍ لكنه صريح

خُطَّةُ التغيير في الجزء الأول ليست "كثرة معلومات" ولا "تحسين سلوكيات" قبل أن يُعاد بناء الأصل... هذا الجزء يضعك من أول سطر أمام سؤالٍ قاطع: هل أنت عبدٌ حقّاً أم مجرّد متديّنٍ يعرف الألفاظ؟ لأن الفاتحة تفتح عليك باب العبودية من الداخل لا من الخارج؛ تُسَمِّي الله، ثم تُحَمِّده، ثم تُعَرِّفه لنفسك "ربّاً" و"رحماناً" و"مالكاً" ثم تُوقِفك وقفة الفصل:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... فإذا لم تتغيّر علاقتك بهذه الجملة فلن يغيّرك شيء مهما قرأت؛ ولذلك هذه "الخطة القصيرة الصريحة" تمشي معك خطوة خطوة كما يمشي هذا الجزء معك:

١. ابدأ من إصلاح مرآة القلب لا من إصلاح صورة الوجه؛ اجلس دقيقة واحدة يومياً قبل أي عمل صالح واسأل: لمن أفعل هذا؟ هل أنا أعبد الله أم أعبد شعوري وسمعتي وارتياحي؟ ثم اقطع التردد وقلها بعهدٍ صريح:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي لا شريك في العبادة ولا شريك في الاعتماد... فإذا وجدتَّ قلبك يتعلّق بغيره فاعرف أن الخلل ليس في العبادة بل في "المعبود في عينك"؛ فارجع إلى تعريفات الفاتحة:﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ لأن الذي لا يرى ربوبية الله لا يثبت، والذي لا يذوق رحمته يقسو، والذي لا يستحضر يوم الدين يتهوّن.

٢. ثبّت "هوية المتقين" قبل أن تبحث عن تفاصيل الطريق؛ فالقرآن هنا لا يبدأ بتجميل المؤمن... بل بتعريف الصنف الذي سينتفع:﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ثم يضع لك شروطاً صريحة ليست شعراً: إيمان

بالغيب، إقامة صلاة، إنفاق، يقين بالآخرة... اجعلها اختباراً أسبوعياً لا فكرةً عامة: هل صلاتي "تقام" أم "تؤدّى"؟ هل في مالي لله شيء ثابت أم صدقات مزاج؟ هل يقيني بالآخرة يُغيّر قراراتي أم هو معلومة محفوظة؟ فإن صدقت في هذه الأربعة ستشعر أن القرآن صار يهديك لا أنك أنت تقرؤه فقط.

٣. اكتشف مرضك قبل أن تطلب دواءك؛ لأن هذا الجزء يُعرّف لك ثلاث طبقات بشرية في سطور قليلة:

- كافرٌ ختم على قلبه،
- ومنافقٌ يتكلّم بلسان الإيمان وقلبه يخادع،
- ومؤمنٌ يتقوّى بالغيب ويقيم الصلاة...

فالتغيير الصريح يبدأ من سؤال جارح: في أيّ خانةٍ أتحرك غالباً؟ لأن المنافق ليس شخصاً بعيداً دائماً... المنافق قد يكون "سلوكاً" يدخل على المؤمن حين يقول ما لا يعيش، ويُصلح صورته ويُفسد سريرته، ويبرّر فسادَه بكلمة "أنا مصلح"؛ والقرآن يفضحه بوضوح:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ثم يقطع عليك الحيلة:﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾... فاجعل لك قاعدة يومية: أيُّ معصيةٍ أُلبسها ثوب "الضرورة" و"العذر" و"الظرف" سأُسمّيها باسمها الحقيقي: **فسادٌ يحتاج توبة لا تبرير.**

٤. غيّر وقودك الداخلي: من "الانفعال" إلى "الخشية"؛ لأن القلب قد يمرّ عليه نورٌ لحظة ثم يُسلَب... والقرآن ضرب لك مثلاً مخيفاً: نارٌ اشتعلت ثم أُطفئت وبقيت الظلمات... فالتغيير هنا أن تتوقف عن العبادة التي تُشبه "ومضة" وتدخل في العبادة التي تُشبه "جذراً"؛ علامة الجذر: أن تحب الطاعة حتى حين لا تشعر، وأن تترك المعصية حتى حين تشتهي، وأن تثبت

على القرآن حتى حين يثقل... لا تطلب من قلبك أن يشتعل دائماً... اطلب منه أن يَصدُق دائماً.

٥. انقل خطاب القرآن من "يا أيها المؤمنون" إلى "يا أيها الناس" واجعله خطاباً لك؛ لأن هذا الجزء يفتح النداء الأعظم الذي يختصر كل شيء:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثم يضع لك ميزان التوحيد العملي: (﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾... الأنداد ليست أصنام حجر... الأنداد اليوم قد تكون "هوىً" تُطيعه، أو "شخصاً" تُرضيه ولو بسخط الله، أو "عادةً" تمنعك من التوبة، أو "شاشةً" تسرق عمرك، أو "نفساً" تعلّقك بصورتك... فاجعل مهمة أسبوعك كسر ندٍّ واحد فقط، ندٍّ واحد بقرار واحد:

- حذف بابٍ يجرّك،
- قطع علاقة فتنة،
- توبة من مال حرام،
- إغلاق متابعة تفسد قلبك،
- صلح مع رحم...

لا تُكثّر... اكسر واحداً بصدق وسترى أثر التوحيد فوراً.

٦. اعقد صُلحاً مع "البيّنة" ولا تُساكن الشَّك؛ فالقرآن وضع لك طريقاً واضحاً: إن كنت في ريب فالمعيار ليس جدلاً طويلاً بل تسليمٌ لكتابٍ تحدّى البشرية:﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ... فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ...﴾ ثم يُذكّرك أن القضية ليست "نقاشاً" بل مصيراً:﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾... فخطوة التغيير هنا أن تتوقف عن إطعام الشُّكوك بالمحتوى والتعليقات والجدالات، وتبدأ بإطعام اليقين بالقرآن والصلاة والذكر والعمل...

لأن الشَّك ليس مجرد فكرة؛ الشك بابٌ يتسلّل منه الشيطان ليؤخر قرار الاستقامة.

٧. ثبّت ""المعنى الكبير"" الذي نسيه كثيرون: أنت مخلوقٌ لرسالة لا لعبث؛ هذا الجزء يأخذك إلى أصل الخليفة في الأرض، وإلى قصة السجود والاستكبار... ليقول لك: معركتك الأولى ليست مع الناس بل مع إبليس الذي يريدك أن تتكبر أو تيأس أو تبرّر... فإذا رأيت بذرة استعلاء في قلبك فاعرف أنها من إرث ""أبي واستكبر"" لا من نور ""سبحانك لا علم لنا""... وقل لنفسك كلما ارتفع صوتك على أحد: أنا عبدٌ تعلّم من الملائكة الأدب:﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

٨. اجعل ""التوبة"" بابك اليومي لا حدثاً موسميّاً؛ لأن آدم لم ينجُ بعصمة... نجا بتوبة... وهذا درسٌ صريح لمن يستحي أن يعود:﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾... فاختر ""كلمات توبة"" ثابتة تكررها بوعي بعد كل زلة: استغفارٌ حاضر القلب، وندمٌ صادق، وقطعٌ لسبب المعصية... ثم لا تُسوّف؛ لأن التأخير هو بوابة إبليس الأذكى.

٩. احذر من أعظم آفة في الجزء الأول: أن تأمر بالبر وتنسى نفسك؛ هذه الآفة لا تُصيب العامة فقط... تصيب طلاب العلم والدعاة والقراء والناشطين... القرآن يصفعها بلا مجاملة:﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ... أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾... فاجعل لك عهداً: كل كلمة وعظٍ تقولها لغيرك اجعل لها ""شاهداً"" في حياتك قبل أن تنام... ولو عملاً صغيراً... حتى لا تتحول كلماتك إلى شهادة عليك.

١٠. لا تخطئ في قراءة قصص بني إسرائيل؛ ليست قصة قومٍ مضوا... بل مرآة ""نمط"" يتكرر: تلبيس الحق بالباطل، كتمان الحق، نقض العهد، العبادة مع المعصية، التديّن مع القسوة... والخطر أن تتحول القصة إلى شماتة بدل

توبة... فالتغيير هنا أن تقرأها كرسائل لك: لا تُلَبِّس، لا تكتم، لا تنقض، لا تقل سمعنا وعصينا بلسان الحال، لا تستبدل الأدنى بالذي هو خير... واجعل لكل آفةٍ منها "تصحيحاً" عمليّاً في أسبوعك.

١١. واختم خطتك كل ليلة بسطرين صريحين لا ثالث لهما:

- هل ازداد نصيبي من "إياك نعبد" أم ازداد نصيبي من "أنا أريد"؟
- وهل قَلَّت أندادي اليوم أم كثرت؟

فإن وجدت الأنداد تزيد فارجع فوراً إلى أصل الخطة: تعريف الله في قلبك، ثم عقد العبودية معه، ثم صلاة تُقام، ثم صدقة تثبت، ثم توبة تقطع، ثم صدق يُنجي... لأن هذا الجزء كله يريد أن يصنع لك إنساناً واحداً:

عبداً لا يتلاعب... وموحداً لا يشارك... ومؤمناً لا ينافق... وسالكاً لا يتيه.

خاتمة وجدانية مزلزلة

يا صاحبَ القرآن... قبل أن تُغلق هذا الجزء الأول... لا تُغلقه كمن أنهى "قراءة"... بل كمن خرج من غرفةِ محاكمةٍ عادلةٍ... وقف فيها قلبُه وحده بلا شهودٍ ولا محامين... لأن هذا الجزء لم يُرِد أن يُعطيك معلومات... بل أراد أن يسألك سؤالاً واحداً يوجع الصادقين: هل أنت من المتقين الذين يهديهم الكتاب... أم من الذين يمرُّ عليهم الكتاب ولا يمرّ عليهم الهدى؟ ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

لا تخدع نفسك... فليس كل من لمس المصحف صار قريباً... وليس كل من بكى ساعةً صار ثابتاً... وربما يكون أخطر ما في الطريق أن تُصلّي... ثم تخرج كما دخلت... وأن تقول "آمنا" ثم تمشي بقلبٍ ينافق... وأن تتكلم عن الله كثيراً...

ثم لا تَعرفه حين تُبتلى... فالقرآن من أول صفحاته يضعك بين ثلاثة أبواب:

← بابُ من خَتم الله على قلبه فصار لا يسمع إلا صدى نفسه...

← وبابُ من يقول "آمنا" وهو في داخله يخادع...

← وبابُ من آمن بالغيب فأقام الصلاة فصار للهدى أهلاً...

فاختر بابك ولا تؤجل الاختيار؛ لأن أخطر الخسارات ليست أن تعصي... بل أن تعصي ثم تُبرّر... أن تفسد ثم تتجمّل... أن تضيع ثم تقول: إنما نحن مصلحون... والقرآن لا يترك لك ستاراً تتخفى خلفه:﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾.

يا صاحبي... الفاتحة ليست افتتاحاً يُقرأ... الفاتحة عقدُ حياة... هي لحظةُ تحديد الاتجاه... إما أن تقولها وأنت صادق فتتحول إلى عبدٍ حُرٍّ من كل شيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى... وإما أن تقولها بلسانك ويبقى قلبك معلقاً بغيره... وإياك أن تظن أن الله تعالى يرضى من عبدٍ يقف بين يديه ثم يخرج يستعين بغيره كما لو أن "إياك نستعين" مجرّد لفظ... بل إنها قَسَمٌ يوميٌّ يتكرر، ومن خان القسم خان الطريق:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم اسمعها كما لو أنها تُقال لك الآن: لا تجعل لله أنداداً... لا تجعل خوفك نِدّاً... ولا شهواتك ندّاً... ولا صورتك أمام الناس ندّاً... ولا رضا فلان ندّاً... ولا هاتفك ندّاً... ولا مالك ندّاً... لأن النِّدّ قد لا يُسجد له... لكنه يُطاع... يُقدَّم... يُخشى... يُرجى... وهذه هي السَّجدة التي تُهلك كثيرين وهم لا يشعرون:﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وإن أردت علامةً تعرف بها أين تقف... ففتّش عن موضعين لا يكذبان: موضعُ "الصلاة" عندك... وموضعُ "المال" عندك... لأن المتقين في أول الطريق وُصِفوا بهذه العلامات لا بكثرة الكلام:﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

﴿يُنفِقُونَ﴾... فالصلاة التي لا تُقيمك تُصبح حركاتٍ تبرئ الذِّمة ولا تبرئ القلب، والمال الذي لا يخرج منه شيءٌ لله هو وثنٌ صامتٌ في الجيب.

ثم انتبه... أخطر آيةٍ في هذا الجزء ليست التي تخوّفك من النار... بل التي تُخيفك من نفسك... حين يأمرك القرآن أن لا تكون واعظاً مفلساً... ولا داعيةً مكسور السريرة... ولا طالب علمٍ ينسى نفسه وهو يفتش عن عيوب الناس... لأنك إن فعلت ذلك صرتَ أول من تحترق به كلماتك:﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

يا صاحب القرآن... لا تُغادر الصفحة وأنت كما أنت... لا تُغادرها وأنت تؤجّل توبةً تعرفها... ولا تُغادرها وأنت تُجمّل ذنباً تعلمه... ولا تُغادرها وأنت تُمسك هاتفك بنفس اليد التي أمسكت المصحف ثم تعود لنفس الطريق وكأنَّ الله لم يكلّمك... لأن الذي يخرج من القرآن بلا أثرٍ لا يحتاج مزيد صفحات... يحتاج لحظة صدقٍ واحدة... لحظةً تُسقط فيها الأقنعة وتقول: يا رب... أنا الذي كنت أخادع نفسي... أنا الذي كنت أُصلح ظاهري وأترك قلبي يفسد... أنا الذي كنت أقرأ لأطمئن لا لأتغيّر... فاقلبني إليك قلباً جديداً.

واذكر... أن آدم لم يكن نبيّاً لأنه لم يخطئ... بل لأنه عرف باب الرجوع... سقط ثم قام... زلّ ثم تاب... ونجا لأنه لم يُجادل في الذنب ولم يُزيّنه... بل عاد بكلماتٍ صادقة... فليكن بابك مثل بابه... لا مثل باب إبليس الذي استكبر فخسر:﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

اختم هذا الجزء الآن... لكن لا تختمه على قلبٍ مغلق... اختمه على قرارٍ واحدٍ واضحٍ لا مراوغة فيه: أن تُصلح سِرّك قبل علنك... وأن تُقيم صلاةً تُقيمك... وأن تُخرج من مالك ما يطهر قلبك... وأن تكسر ندّاً واحداً ينازع

الله في روحك... وأن تترك معصيةً واحدة كنت تُسمّيها "صغيرة" وهي عند الله ليست صغيرة... ثم قل لنفسك في آخر الليل: إن كنتُ اليوم قد صدقتُ مع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فسيُفتح لي الطريق... وإن كنتُ اليوم قد كذبتُ مع هذه الكلمة فسأبقى أقرأ وأبقى كما أنا... وأخشى أن أكون ممن يقرؤون النور ثم يمشون في الظلام.

اللهم اجعل القرآن فالكريم سكينتنا إذا اضطربنا... ومرآتنا إذا تزيّنا... وحبلَنا إذا انقطعنا... واجعلنا من الذين إذا سمعوا كلامك لم يكتفوا بالفهم... بل استجابوا... لأن النجاة ليست أن تعرف... بل أن تُسلِّم... وأن تتحول... وأن تصير... كما يريد الله لك... لا كما تريد أنت لنفسك.

الرسالة التي يوجهها الجزء الأول الى المسلمين؟

- الهداية ليست شعاراً يُقال، بل صراطٌ يُسلك؛ دعاءُ الفاتحة يُطالِبك بالتحوّل لا بالمعلومة.
- القرآن "جوابُ اهدنا"؛ فمن لم يتغيّر به فمشكلته ليست في الدليل بل في القلب الذي لا يريد لوازم الحق.
- معيار المسلم الحقيقي: عملٌ يصدِّق الغيبَ، وصلاةٌ تُقيم العهد، وإنفاقٌ يقتل عبودية المال، ويقينٌ بالآخرة يُعدّل الاتجاه.
- أخطر الأعداء ليس من خارج الصفّ فقط، بل "مرض الداخل": إيمانٌ باللسان، ومكرٌ بالنفس، وإصلاحٌ يُسمّى فساداً.
- الدين يبدأ من التوحيد ثم يفيض على الحياة؛ لا توحيدَ صحيحاً مع نِدٍّ في الحب أو الخوف أو الطاعة.
- لا تَغترّ بالتاريخ ولا بالأسماء؛ النجاة ليست وراثةً ولا انتساباً، بل مسؤوليةُ "ما كسبت" أنت الآن.
- قصتك أنت مع آدم عليه السلام: خطأٌ يقع، وتوبةٌ تُصلح؛ طريق العودة

ليس اليأس ولا المكابرة بل الرجوع والكلمات.

- الشيطان ليس فكرة؛ هو خصمٌ يُتقن الإزاحة البطيئة: من وضوح الحق إلى تسويف الالتزام ثم إلى قسوة القلب.
- الأُمم تُهزم حين تتحايل على التكليف؛ كثرةُ السؤال للتفلّت، والتعقيد بدل الامتثال، علامةُ قلبٍ يكره الأمر.
- الآيات لا تنفع من لا يُنصِف؛ فالقسوة قد تجعل الحجر ألين من قلبٍ رأى ولم يخضع.
- لا أمنَ بلا إيمان، ولا نجاةَ بلا عمل، ولا عملَ بلا أصلٍ يحييه؛ الرجاء والخوف يُبنيان على هذا الميزان.
- الرسالة النهائية للجزء: قبل أن تُطالِبك الأحكام بتفاصيلها... يُطالِبك القرآن بقلبٍ صادقٍ يُسلِّم ويستقيم.

تسمية السورة باسم البقرة:

ليست تسمية سورةٍ في القرآن عملاً عابراً، ولا اختياراً تاريخيّاً مرتبطاً بأشهر قصة فيها، بل هي في الغالب مفتاحٌ دلاليٌّ يُلقي ضوءاً على روح السورة كلّها، وسورة البقرة ليست استثناءً؛ فاختيار حادثة ذبح البقرة عنواناً لها لم يكن لأن القصة أطول مشاهدها، ولا لأنها أعجب أحداثها، بل لأنها تكشف المرض الذي تُعالجه السورة منذ بدايتها حتى نهايتها:

١. مرضُ التلكّؤ أمام الأمر،
٢. والتحايل على التكليف،
٣. والتردّد حين يُطلب منك الامتثال الصريح.

قصة البقرة في ظاهرها أمرٌ بسيط: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، لا تعقيد في التكليف، ولا غموض في الطلب، ولا تفصيل في الشروط، كان يكفي أن تُذبح أي بقرة وينتهي الأمر، ولكن الذي حدث أن السؤال لم يكن بحثاً عن

الفهم، بل كان هروباً من التنفيذ؛ فسؤالٌ بعد سؤال، وتفصيلٌ بعد تفصيل، حتى ضاق الخيار واتّسع العناد، وكأنَّ السورة تقول منذ اسمها: **الخطر ليس في صعوبة الأمر، بل في صعوبة القلب الذي يتلقّاه.**

ومن هنا نفهم لماذا وُضعت هذه القصة في قلب السورة التي تُنشئ أمّةً جديدة؛ فقبل أن تتكاثر الأحكام، وقبل أن يُكلَّف المسلمون بالصلاة والزكاة والصيام والجهاد وتحويل القبلة، كان لا بد أن يُغلق باب التردّد النفسي الذي أسقط من قبلهم، لأن الأُمَّة التي تُناقش كل أمر بروح التفلّت لا بروح الامتثال، ستتحوّل الأحكام في يدها إلى جدلٍ طويل بلا أثر.

وسورة البقرة من أولها إلى آخرها تبني هذا المعنى: تبدأ بـ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وتكشف المنافق الذي يُخادع، وتعرض بني إسرائيل وهم يتثاقلون عن الأمر، ثم تذكّر بعهد إبراهيم الذي قام على التسليم، ثم تختم بدعاء: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وكأنَّ اسم السورة يقف في المنتصف شاهداً على الفرق بين جيلٍ قال عملياً: "سألنا وتلكّأنا وكدنا لا نفعل"، وجيلٍ يُراد له أن يقول بصدق: "سمعنا وأطعنا"... فالبقرة ليست حيواناً في قصة، بل مرآةً لقلبٍ حين يُؤمر:

←هل يُسلّم؟ أم يُجادل؟

←هل يتواضع؟ أم يستكبر؟

←هل يسأل ليعمل؟ أم يسأل ليهرب؟

ولهذا جاء بعدها مباشرة قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾، لأن كثرة المجادلة في موطن الطاعة تُورث قسوة، والقسوة تُغلق باب الهداية.

ومن هنا كانت التسمية رسالةً خفيّة: احذروا أن تكونوا أُمّة "وما كادوا يفعلون"، وكونوا أمّة "سمعنا وأطعنا"، فإن الدين لا يقوم بكثرة الأسئلة، بل بصدق التسليم، ولا تُحفظ الأُمة بكثرة الشعار، بل بسرعة الاستجابة حين يأتي الأمر من الله تعالى.

حين يلمع اللَّون... ويُختبر القلب: بين صفرة البقرة وذهبية العجل

ليس اللون الأصفر في قصة البقرة رمزاً معلّقاً في فضاء التأويلات، ولا إشارةً خفيّةً تحتاج إلى مفاتيح سرّية لفهمها، بل هو وصفٌ محدَّدٌ صريحٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، وصفٌ يدلّ في لغة العرب على الصفرة المشرقة الزاهية التي تُدخل البهجة في النفس، لا صُفرة المرض ولا شحوب الذبول، ولا يحمل النصّ في ذاته أيّ دلالةٍ على رمزيةٍ غامضة، وإنما جاء هذا الوصف نتيجةَ تضييقٍ تدريجيٍّ سببه كثرةُ أسئلتهم وتفريعاتهم، حتى تحوّل الأمر البسيط إلى تحديدٍ دقيقٍ بعد أن كان يسعهم الامتثال من أول سؤال.

ومن جهة التفسير المعتمد، لم يثبت في كتب التفسير الموثوقة أنّ اختيار اللون الأصفر كان إشارةً مقصودةً إلى العجل الذهبي الذي عبدوه حين ذهب موسى لميقات ربّه، فلا يوجد نصّ صحيح صريح يربط بين الصفرة هنا وذهبية العجل هناك، ولذلك لا يجوز أن يُجعل هذا الربط تفسيراً شرعيّاً يُنسب إلى مراد الله، لأن القول على الله بغير علم منزلقٌ خطير، والفرق بين التفسير النقليّ والتأمل التربويّ فرقٌ يجب أن يبقى واضحاً لا يختلط.

لكن من زاوية الاعتبار والتأمل التربوي – لا من باب الجزم التفسيري – يمكن أن يُلحظ تقاطعٌ معنويٌّ يُثير العظة دون أن يُبنى عليه حكم، ذلك أن بني إسرائيل فُتنوا من قبل ببريق الذهب فصنعوا عجلاً جسداً له خوار، وكان الذهب في حسّهم رمز الزينة والقيمة واللمعان، ثم يُؤمرون بعد ذلك بذبح بقرةٍ صفراء فاقعة تسرّ الناظرين، أي أن ما يسرّ العين ويلمع في البصر لا يجوز أن يتحوّل إلى موضع تقديسٍ أو تعلّقٍ يُقدَّم على أمر الله، بل قد يكون هو نفسه موضع الاختبار.

هنا لا نقول إن الصفرة رمزٌ للعجل، بل نقول إن المشهدين يضعان القلب أمام سؤالٍ واحد: هل كل ما يُعجبك بصرك ويُغريك لمعانه يُقرِّبك من العبادة؟

أم قد يكون هو العائق الأكبر عن الطاعة؟ وهل تستطيع أن تذبح ما يُفتن قلبك إن تعلّق به، أم أنك تبحث عن مسوّغاتٍ وتأجيلاتٍ وأسئلةٍ طويلة حتى تهرب من التنفيذ؟

فإذا جمعنا المشهدين على مستوى التربية لا على مستوى التفسير، رأينا خيطاً دقيقاً ممتدّاً: عند ميقات موسى غلبهم بريق الذهب فعبدوا العجل، وفي قصة البقرة غلبهم التعلّق والتعقيد حتى كادوا لا يفعلون، وفي الحالتين لم تكن المشكلة في المادة المصنوعة ولا في لون الحيوان، بل في القلب الذي يضع القيمة فيما يلمع لا فيما يأمر الله به، قلبٌ إذا رأى البريق انجذب، وإذا سمع الأمر تردّد، وإذا طُلب منه الامتثال بحث عن التفصيل المرهق بدل الخضوع السريع.

ومن هنا تتجلّى الرسالة الكبرى: ليست القضية لوناً ولا شكلاً، بل موضع الطاعة من القلب، قلبٌ فُتن يوماً بالذهب حتى صنع إلهاً من معدن، ثم تردّد يوماً في ذبح بقرةٍ حتى ضاق عليه الأمر، وفي كلا الامتحانين كان السؤال واحداً لا يتغيّر: هل تُقدّم ما تحبّ عيناك... أم ما يأمر به ربّك؟ وهل تُسلم حين لا تفهم الحكمة كاملة... أم تجعل الفهم شرطاً سابقاً على الامتثال؟

إنها ليست قصة لونٍ في حيوان، بل قصة نورٍ في قلب، فإن أشرق القلب بالتسليم لم يضرّه لونٌ ولا بريق، وإن تعلّق القلب باللَّمعان أضاعه الذهب والبقرة معاً.

الجزء الثاني: من تحويل الوجهة إلى بناء الأمّة: امتحانُ الاتّباع، وميثاقُ الشريعة، وولادةُ الشهود

المدخل التأسيسي للجزء

هذا المقطع يفتتح رحلته من نقطةٍ تبدو في ظاهرها "اتجاهاً" في الصلاة، لكنها في حقيقتها بوّابةُ فرزٍ داخليّ للقلوب؛ فالقرآن يُنبئك منذ اللحظة الأولى أن السفهاء سيجعلون من التحوّل مادةَ سخريةٍ وتشغيبٍ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ...﴾، ثم يردّك الردّ المؤسِّس الذي يقطع التعلّق بالأمكنة لذاتها: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، فالاتجاه ليس هو الإله، ولا الجهة هي القيمة، وإنما القيمة في الامتثال لمن يملك الجهات كلّها، ثم يرفعك من سؤال "أين نتجه؟" إلى سؤال "مَن نكون؟" لتأتي الكلمة التي تعلن هويةً ورسالة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، وسطاً في ميزان الحق والعدل والشهادة، لا وسطاً في تمييع الحدود ولا في ذوبان الهوية، ثم يصرّح بسبب هذا التحوّل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ... إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، فهذه ليست حركةَ بدنٍ نحو الكعبة، بل امتحانُ قلبٍ نحو الوحي، ثم يطمئن القلوب على ما سبق من عباداتٍ على القبلة الأولى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، ليبقى المؤمن مطمئنّاً أن الله لا يضيع طاعةً صدرت عن امتثالٍ صادق، وأنه ﴿بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم ينتقل الخطاب إلى تثبيت الحقّ في وجه تشويش أهل الكتاب، فيؤكد أن هذه القبلة حقٌّ من ربك، وأن الفريق الذي أوتي الكتاب يعرفه معرفةَ يقينٍ ثم يكتمه ظلماً: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ﴾، ويُغلق عليك باب الارتياب: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، ثم يضع قاعدةً جامعةً تُعلّمك ألّا تتحوّل القضايا الرمزية إلى ساحات خصامٍ بلا ثمرة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، فالمنافسة الحقيقية ليست في الجدل حول الاتجاه، بل في

السبق إلى الخير حيثما كنت، ومع ذلك يعيد الأمر بتولية الوجه شطر المسجد الحرام تكراراً مقصوداً؛ لأن بناء الأمّة لا يقوم على معنى داخليّ مجرّدٍ بلا التزامٍ ظاهر، ولأن الرموز حين تُوضع في محلّها تصبح حراسةً للمعنى لا بديلاً عنه، ثم يبيّن الحكمة الاجتماعية في هذا الضبط: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، ويقطع خوف القلوب من ضغط المخالفين: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، ويُعلن أن هذا المسار كله إتمامُ نعمةٍ وهدايةٌ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ثم يفتح لك أفق الرسالة: هذه الأمّة الوسط لا تُترك بلا تزكيةٍ وتعليم، بل تُربَّى برسولٍ منها يتلو الآيات ويزكّي ويعلّم الكتاب والحكمة ويعلّم ما لم تكونوا تعلمون، فالمقطع هنا يربط "القبلة" بـ"التزكية" ربطَ البنية لا ربطَ المصادفة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ...﴾، ثم يجعل الذكر والشكر عنوان الاستقامة بعد الهداية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، ويضع أدوات الثبات حين تتكاثر التكاليف: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، ثم يواجهك بحقيقة الطريق دون إبهام: الطريق ليس شعاراتٍ بل ابتلاء، وفي الابتلاء تتمايز النفوس، فتأتي آيات الشهادة والحياة بعد الموت ومعاني البلاء والخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ثم تُربّي لسان المؤمن على كلمة العبودية الجامعة عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وتختم هذا الباب بوعد الهداية والرحمة لمن يصبر.

ومن ميدان الابتلاء ينتقل بك إلى ميدان الشعائر التي تُعلِّم الطاعة العملية دون حرجٍ ولا تعقيد: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، ثم يلتفت إلى خطرٍ يُهدّم البناء من داخله: كتمان العلم والبينات بعد ظهورها، فيعلن اللَّعن على من يكتم، ويستثني التائب المصلح المبيِّن، ثم يقرّر أصل الأصول بعد هذا كله ببيانٍ صافٍ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، ثم يفتح نافذة الآيات الكونية التي تقيم الحجّة على العقول: خلق السماوات والأرض، اختلاف الليل

والنهار، جريان الفلك، إنزال الماء، بث الدواب، تصريف الرياح والسحاب، ثم يكشف مرضاً قلبياً يفسد معنى الإله الواحد: اتخاذ الأنداد بالمحبة والتعظيم، ويقابل ذلك بوصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾، ثم يريك مآلات التعلّق بغير الله يوم تنقطع الأسباب وتتبرأ القيادات من الأتباع، ليعود القلب إلى موضعه الصحيح.

ثم يعود الخطاب إلى الناس بأمر الحلال الطيب والتحذير من خطوات الشيطان، ويضع قاعدةً تحمي باب الاعتقاد من الانحراف: الشيطان لا يكتفي أن يأمرك بالسُّوء والفحشاء، بل يدفعك إلى أخطر ذلك كله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم يفضح آفة التقليد الأعمى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، ويصف حال من لا يعقل ولا يهتدي، ثم يوجّه المؤمنين للشكر على الطيبات، ويبيّن المحرمات بوضوحٍ، ثم يعيد التحذير من كتمان الوحي وبيعه بثمنٍ قليل، لأن المجتمع الذي تُشترى فيه القيم يفقد ميزان النجاة.

ثم تأتي الآية المفصلية التي تمنع اختزال الدين في رموز واتجاهات: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ...﴾، فيُعرّف البر تعريفاً جامعاً يجمع أصول الإيمان وثمار العمل: إيمانٌ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وإنفاقٌ مع محبة المال في مصارف الرحمة، وإقامةُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، ووفاءٌ بالعهد، وصبرٌ في البأساء والضراء وحين البأس، ثم يختمها بميزان الصدق والتقوى، وكأن القرآن يقول: القبلة تعلّمك الامتثال، وهذه الآية تُعلِّمك ألَّا تقف عند الصورة وتترك الجوهر.

وبعد بناء المعنى ينتقل بك إلى بناء المجتمع بالأحكام التي تحفظ الدماء والحقوق وتمنع الفوضى: تشريع القصاص بوصفه حياةً للألباب، ثم أحكام الوصية وما يتصل بها من إصلاحٍ إن خيف الجور، ثم ينتقل بك إلى مدرسة التقوى العملية: الصيام، ليجعله وسيلةً لا غايةً شكلية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ويبين أيامه ورخصه، ويضع رمضان في مركزه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ

الْقُرْآنُ﴾، ثم يُدخل في قلب هذا الباب آية القرب والدعاء لتفهم أن التكليف ليس قسوةً بل صلة: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾، ثم يبيّن حدود الصيام وآدابه ومعاني الاعتكاف، ويغلق باب أكل الأموال بالباطل والتلاعب بالقضاء، ثم يضع قاعدة دخول البيوت من أبوابها لتستقيم المناهج، ثم يفتح باب القتال بضوابطه ليحمي الدين والناس من الفتنة والعدوان، ويجعل التقوى حاضرة في ردّ الاعتداء والإنفاق وعدم الإلقاء إلى التهلكة.

ثم يسير بك في مواسم العبودية الجامعة: الحج والعمرة، وأحكام الإحصار والهدي، وأشهر الحج، واجتناب الرَّفث والفسوق والجدال، والتزوّد بالتقوى، والذكر في المشعر، والإفاضة والاستغفار، ثم يختم هذا المشهد بإصلاح المقاصد في الدعاء: من الناس من يطلب الدنيا وحدها، ومنهم من يجمع خير الدنيا والآخرة، ثم يأمرك بذكر الله في أيام معدودات لتبقى العبادة ممتدة لا لحظةً وتنقطع، ثم يكشف لك نموذجين متقابلين في الناس: من يُعجبك قوله ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ثم يفسد في الأرض، وفي المقابل من يَشري نفسه ابتغاء مرضات الله، ثم يأتي النداء الجامع الذي يلخّص معنى الدين كله بعد تفصيل الأحكام: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، فلا انتقائية، ولا نصفُ طاعةٍ مع نصفِ اتباعٍ للهوى، ثم يحذّرك من الزلل بعد البينات، ويُذكّرك بعاقبة تبديل نعمة الله.

ومن هذا كله ينتقل بك إلى سُنن الصراع بين الحق والباطل: زينة الدنيا للكافرين وسخريتهم من المؤمنين، ثم يضع التاريخ في سياقه الصحيح: الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله النبيين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأن الاختلاف بعد البينات هو بغي، ثم يخاطب المؤمنين خطاب الواقعية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾، فلا جنةً بلا ابتلاء، حتى يبلغ الأمر مبلغ الزلزلة ويقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله، ثم يأتي الجواب

المطمئن: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، ثم يعود إلى تفاصيل النفقة ومصارفها، ثم يشرّع القتال مع بيان أنه مكروه للنفس وقد يكون خيراً، لأن علم الله محيط وعلم العبد محدود، ثم يبيّن أحكام الشهر الحرام والفتنة والردة وحبوط الأعمال، ثم يثبت أفق الرجاء للمؤمنين المهاجرين المجاهدين، ثم يأتي ضبطٌ تربويٌّ لمسائل تهذيب المجتمع: الخمر والميسر بميزان الإثم والنفع وأن الإثم أكبر، وأحكام الإنفاق، واليتامى وإصلاحهم، ثم أحكام الأسرة: النكاح وضبط اختيار الشريك على الإيمان، وأحكام المحيض والطهارة، وآداب الأيمان وعدم جعل اسم الله عُرضةً، ثم يتسلسل بك في أحكام الطلاق والعدّة والحقوق والمعروف وعدم الإضرار، والرضاعة والنفقة، والوفاة والعدة والمتاع، ثم يعود إلى حراسة الصلاة في كل ذلك: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾، حتى في الخوف رجالاً أو ركبانا، ثم يمضي بك إلى مشاهد من تاريخ بني إسرائيل بعد موسى لتقرأ سُنن النفوس حين تطلب القتال ثم تتولى، وحين تعترض على اختيار الله لطالوت بمعايير المال والنسب، فيقرر أن الاصطفاء قد يكون بالعلم والجسم، ويجعل للملك آيةً بالتابوت فيه سكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، ثم يأتي امتحان النهر الذي يفرز الصابرين من المتعجلين، ثم مشهد المواجهة مع جالوت حيث تتكلم قلةٌ مؤمنة بميزان اليقين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾، ثم دعاء الثبات والصبر والنصر، ثم تقع الهزيمة بإذن الله ويُقتل جالوت ويؤتى داود الملك والحكمة، ويُختم المشهد بقاعدةٍ تحفظ حركة التاريخ من الفساد العام: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، ثم يثبت أن هذا كله آياتٌ تُتلى بالحق وأن الرسول من المرسلين.

بهذا الترتيب المتصل يتضح أن الجزء ليس "موضوع تحويل قبلة" ثم "موضوع بر" ثم "موضوع صيام" ثم "قصة طالوت"؛

١. بل هو رحلة بناءٍ واحدة تبدأ بامتحان الاتباع في رمزٍ ظاهر،

٢. ثم تخرج إلى تعريف هوية الأمة الوسط ووظيفتها في الشهادة،
٣. ثم تنتقل إلى صناعة القلب بالذكر والصبر والعبادة،
٤. ثم تقيم التوحيد في العقل بالآيات، وتُطهره من الأنداد،
٥. ثم تبني المجتمع بالشرائع والأخلاق والحدود،
٦. ثم تُعدّ الأمة لسُنن الابتلاء والصراع،
٧. ثم تختم بمشهد تاريخي يُعلّم أن النصر ليس بكثرةٍ ولا بزينة، بل بتصفية الصف وثبات القلب واتّباع الأمر.

هذه رحلة الجزء: هويةٌ تُختبر... عبوديةٌ تُربّي... شريعةٌ تُقيم العدل... مجتمعٌ يُحرس... وقلبٌ يُنقّى.

الخريطة البنيوية لهذا الجزء

- تحويل القبلة: زلزال يفضح القلوب قبل أن يغير الاتجاه.
- "السُّفَهَاءُ": كل اعتراض على أمر الله هو اعتراض على ربوبية الله لا على التفصيل.
- المشرق والمغرب لله: المكان ليس معبودا... المعبود هو الذي يأمر بالمكان.
- "أُمَّةً وَسَطاً": هوية تحمل مسؤولية... لا شعار يعلق.
- الشهادة على الناس: لا تعطى لمن يعيش لنفسه... بل لمن يقيم الحجة بسلوكه.
- "لِيَعْلَمَ": الامتحان يظهر الاتباع... ويسقط الانقلاب على العقبين.
- "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ": الطاعة القديمة محفوظة... فلا يُرعبك تغير التكليف.
- رضا النبي بالقبلة: أحبّها قلبه... ولم يسبق بها أمرَ ربّه؛ فالعاطفة تُهذَّب بالطاعة.
- تكرار الأمر بالقبلة: تثبيت لا تردد... وحسم لا مساومة.

- أهل الكتاب يعرفون الحق: المعرفة وحدها لا تنقذ... إن لم تسلم.
- "وَإِنَّ فَرِيقاً لَيَكْتُمُونَ": أخطر خيانة أن تُدفن الحقيقة وأنت تعرفها.
- "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ": نهاية الجدل... وبداية التسليم.
- "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ": اختلاف المسارات لا يبرر ترك السباق إلى الخيرات.
- "فَاسْتَبِقُوا": الدين حركة قلب وجوارح... لا وقوف عند الخصومات.
- "لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ": قطع ثغرة التشغيب... وإغلاق باب التشكيك.
- "فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي": انتقال مركز الخوف من الخَلق إلى الخَالق.
- "وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ": الطاعة باب تمام النِّعمة... لا مجرد اختبار عابر.
- إرسال الرسول: النعمة ليست معلومات تتلى... بل تزكية تولد.
- "فَاذْكُرُونِي": الذكر هو عقد الولاء الحقيقي... لا مجرد ترديد.
- "أَذْكُرْكُمْ": أعظم الجزاء... أن تكون مذكورا عند الله تعالى.
- "وَاشْكُرُوا": الشُّكر حماية النِّعمة من التحول إلى اعتياد.
- الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة: الثبات لا يصنع بالحماس... بل بالوقود اليومي.
- "وَلَا تَقُولُوا... أَمْوَاتٌ": ميزان الدنيا مقلوب... وأهل الآخرة أحياء.
- الابتلاءات الخمس: خوف وجوع ونقص... لتعرف حقيقة "المتوكل" لا كلامه.
- كلمة الصابر :"إِنَّا لِلَّهِ": عودة الملكية إلى مالكها... وعودة القلب إلى ربه.
- "صَلَوَاتٌ وَرَحْمَةٌ": الجزاء ليس سلامة الطريق... بل ثبات القلب.
- الشعائر: الطواف بين الصفا والمروة... تدريب على أن الحركة لله عبادة.
- كتمان البينات: جريمة إخفاء النور... لا جهالة السائل.
- التوبة لها شرطها :"تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا"... إصلاح بعد كتمان لا اعتذار عابر.

- توحيد الألوهية: "إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ": بعد التربية والابتلاء يعود الأصل: لا شريك لله تعالى.
- آيات الكون: الخلق والليل والبحر والرياح... ليست مشاهد... بل مفاتيح يقين.
- أنداد الحُب: أخطر الشِّرك ليس سجود حجر... بل قلب يحب غير الله كحب الله تعالى.
- يوم الانكشاف: الأتباع يتبرؤون... والأسباب تتقطع... ويبقى العمل وحده.
- "كُلُوا حَلَالاً طَيِّباً": العبادة تبدأ من لقمة نظيفة لا من دمعة عابرة.
- خطوات الشيطان: الانحراف لا يبدأ بقفزة... بل بسلم صغير من التبرير.
- "أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ": الكارثة الكبرى... دين بلا علم.
- تقليد الآباء: حين يصير الماضي حجة لإغلاق العقل.
- مثل الناعق: يسمع الصوت... ولا يفهم النداء... دين السَّماع بلا وعي.
- خطاب المؤمنين في الأكل: "وَاشْكُرُوا": النعمة تربي العبودية لا الغفلة.
- تحريمات محددة: دين يضبط الشهوة... ويترك باب الضرورة رحمة.
- كتمان الكتاب وبيع الدين: من يأكل ثمنا قليلا... يأكل نارا.
- "لَيْسَ الْبِرَّ": تصحيح صاعق... البرُّ ليس اتجاه الوجه... بل اتجاه القلب والحياة.
- تعريف البر: عقيدة كاملة... ومال يُنتزع من الحب... ووفاء وصبر في الشِّدة.
- بداية التشريعات: من "البر" إلى "القصاص"... لأن الإسلام ينتقل من القلب إلى المجتمع.
- القصاص حياة: عدل يمنع سيل الدَّم... لا قسوة انتقام.

- الوصية: ترتيب الحقوق قبل الرحيل... لأن الموت يكشف حقيقة الإنسان.
- الصيام: عبادة تعيد بناء التقوى... لا تعيد ترتيب الوجبات فقط.
- رمضان والقرآن: موسم نزول ليصير موسم تحول.
- "فَإِنِّي قَرِيبٌ": قلب الصيام دعاء... وقلب الدعاء حضور.
- أحكام الليل والحدود: رحمة تراعي الضعف... وحدود تحفظ الطريق.
- تحريم أكل الأموال بالباطل: التقوى لا تعيش مع الرشوة والالتفاف.
- الأهلة: الزمن نفسه عبادة... حين يربط بالمواقيت لا بالفوضى.
- "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا": الدين طريق صحيح... لا حيل متدينة.
- القتال: دفاع بلا اعتداء... لأن الشريعة تمنع الظلم باسم القوة.
- "الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ": المعركة الكبرى على الدين والهوية لا على الأرض فقط.
- النفقة وعدم التهلكة: الجهاد بلا بذل انهيار... والبذل بلا حكمة تهلكة.
- الحج: تجريد من الرَّفث والفسوق والجدال... لأن المقصود قلب لا سفر.
- الزاد الحقيقي: التقوى... لا كثرة المتاع.
- نموذج الدعاء: من يطلب الدنيا وحدها يفلس... ومن يجمع حسنة الدارين ينجو.
- نموذج المنافق الألد: جمال الكلام لا يمنع فساد القلب.
- نموذج الباذل: من يشتري نفسه لله... لا يبيع دينه لمدح الناس.
- "ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً": لا تُجزئ الإسلام... فتأخذ ما يوافقك وتترك ما يكلفك.
- سُنَّة الابتلاء: الجنة ليست تمنيا... بل زلزلة تخرج "متى نصر الله".

- "أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ": قرب النصر يقاس بصدق الثبات لا بساعة التقويم.
- الأسئلة التشريعية المتتابعة: القرآن يصنع أُمَّة تسأل لتهذب... لا لتجادل.
- الخمر والميسر: ميزان صريح... ما يفسد القلب ولو نفع الجيب يقطع.
- اليتامى: معيار الإيمان ليس كثرة النوافل... بل سلامة الضُّعفاء تحت يدك.
- الزواج: المفاضلة بالإيمان لا بالإعجاب... لأن البيت دين لا شهوة.
- الطهارة: حتى أدقّ خصوصيات الإنسان تُربّى على منهج الله... لأن التقوى لا تتجزأ بين العَلن والسِّرّ.
- الأيمان: الدين لا يستعمل كستار للهروب من البر والإصلاح.
- الطلاق والعدة: التشريع يحمي الكرامة... ويمنع العبث بالمرأة.
- "وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً": أخطر اللعب... أن تلعب بالنَّص.
- الرَّضاع: رحمة التدرج في الأسرة... وإغلاق أبواب الضَّرر المتبادل.
- العدة والوفاة: حتى الحزن له شريعة... لتصان النفوس من الفوضى.
- الصلاة الوسطى: في وسط تفاصيل الأسرة والمال... تعود الصلاة لتقول: أنا العمود.
- قصة الموت ثم الإحياء: الأمة قد تموت خوفا... ثم تبعث إذا رجعت لربها.
- "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ": تحويل المال من ملك متوهم... إلى باب قُرب.
- طالوت: القيادة ليست نسبا ولا مالا... بل اصطفاء ومعايير ربانية.
- النَّهر: امتحان الشهوة الصغيرة قبل معركة المصير.
- القلة المؤمنة: لا ترى العدد... ترى اللقاء بالله تعالى.
- دعاء المعركة: صبر وتثبيت ونصر... قبل أي خطة.
- داود وجالوت: قد يخرج النصرُ من أصغر جندي... إذا كان الله معه ناصراً ومؤيّداً.

- "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ": سُنة حماية الأرض... أن يدفع الفساد بوجود أهل الحق.
- ختم المقطع :"تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ": كل هذا ليس تاريخا... بل ميزانا حاضرا.

المحور الإيمانيّ المركزي في هذا الجزء:

تحويلُ الدِّين من "رمزٍ نؤدّيه" إلى "اتباعٍ نُسلِّم له"، ومن "هويةٍ ننتسب إليها" إلى "عهدٍ نثبت عليه"؛ فالقضية ليست قبلةً تُبدَّل، ولا شعيرةً تُؤدَّى، ولا حكماً يُتلى... بل قلبٌ يُمتحَن:

←هل يتبع الرسول إذا تغيّر الأمر، أم ينقلب على عقبيه؟

←وهل يجعل معيار الحقّ "ما يرضاه الله" أم "ما يرضاه الناس"؟

ومن هنا تُبنى الأُمَّة الوسط التي تشهد للناس:

١. أُمَّةٌ تُقيم التوحيد محبةً وخضوعاً بلا أنداد،
٢. وتستعين بالصبر والصلاة،
٣. وتستقبل الابتلاء بوعد الهداية،
٤. ثم تحمل الشريعة في المال والدم والأسرة والمواسم والجهاد بلا انتقائية، حتى يتكوّن صفٌّ ثابتٌ لا تُغريه الدنيا ولا تُسقطه كثرة الخصوم.

أخطرُ الانحرافات التي يحذِّر منها هذا الجزء... لأنها تُفسد البناء من جذوره لا من ظاهره

هذا المقطع لا يكتفي ببناء الأمّة تشريعاً، بل يحرسها من الداخل بتحذيرٍ متكرّر من انحرافاتٍ إن تسلّلت إلى القلب أفسدت الاتجاه قبل أن تُفسد الحركة، وغيّرت المعنى قبل أن تغيّر الصورة؛ فهو يرسم خريطة أخطارٍ أربعة:

عقديّة، وأخلاقيّة، واجتماعيّة، ونفسيّة، وكلّها متداخلة، يبدأ أحدها في القلب وينتهي أثره في المجتمع.

- ❖ الانحراف العقدي: أخطر ما يُهدَّد به البناء هو أن يتحوّل التوحيد إلى شعارٍ لا سلطان له على المحبّة والطاعة، ولذلك جاء البيان الصريح: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ثم كشف صورة الانحراف: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، فالخلل ليس في لفظ "الله واحد"، بل في توزّع المحبة والهيبة والولاء بين الله وغيره، ثم يضيف انحرافاً آخر لا يقل خطراً: القول على الله بغير علم، لأن الشيطان لا يكتفي بالفحشاء بل يدفع إلى تحريف المرجعية نفسها: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم يفضح كتمان الحق بعد معرفته، لأن كتمان البينات يبدّل النعمة ويستبدل الهدى بالضَّلالة؛ فالعقيدة هنا ليست فكرةً نظرية، بل أمانةُ صدقٍ في التلقي والبلاغ.
- ❖ الانحراف الأخلاقي: الجزء يُظهر أن فساد الخلق ينسف صدق الإيمان ولو بقيت الشعائر قائمة؛ لذلك لا يُعرِّف البرّ باتجاه الوجه، بل يربطه بالصدق والوفاء والصبر وبذل المال على حبّه، ثم يكشف نموذجاً خطيراً: من يُعجبك قوله ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، يسعى في الأرض ليفسد ويهلك الحرث والنسل؛ فالنفاق العمليّ هنا ليس مجرد تناقض، بل خطرٌ على العمران كله، ويُضاف إليه أكل أموال الناس بالباطل، وشراء الهدى بثمنٍ قليل، وتحويل اسم الله إلى أداةٍ لتغطية الهوى؛ فالأخلاق ليست زينةً جانبية، بل ضمانةُ بقاء الشريعة حيّة.
- ❖ الانحراف الاجتماعي: المجتمع قد ينهار لا لأن أحكامه ناقصة، بل لأن أفراده يتعاملون معها بانتقائية؛ ولذلك جاء النداء الجامع: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، فلا يؤخذ من الدين ما يوافق الهوى ويُترك ما يخالفه، ثم يُحذّر

من التقليد الأعمى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، لأن المجتمع الذي يقدّس الموروث بلا ميزانٍ يفقد القدرة على تصحيح مساره، ويُحذّر من التلاعب بالقضاء والمال والطلاق والوصايا، لأن الظلم حين يتكرّر في هذه المفاصل يُنتج بيئةً تُربّي الظالم والمظلوم معاً على اختلال المعيار؛ فالشريعة هنا تحمي الأسرة والمال والدم، لأن اختلالها يُنتج فساداً ممتدّاً لا يقف عند الفرد.

- الانحراف النفسي: أخطر ما يُرى في هذا المقطع هو ضعف الثبات عند الامتحان؛ فقد يطلب الناس القتال ثم يتولّون إذا كُتب عليهم، وقد يعترضون على اختيار الله لطالوت بمعايير المال والمكانة، وقد يشرب الأكثرون من النهر مع أن الشرط واضح، فالمشكلة ليست في وضوح الأمر بل في قدرة النفس على تحمّله؛ لذلك تتكرّر معاني الصبر، والاستعانة بالصلاة، والرضا بقضاء الله، والتسليم بأن ما نكرهه قد يكون خيراً لنا، وما نحبّه قد يكون شرّاً لنا، ويأتي السؤال الزلزالي: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾ ليُخرج الوهم من القلب؛ فالنفس التي لم تُدرَّب على احتمال الابتلاء ستنكسر عند أول ضغطٍ اجتماعي أو اقتصادي أو عسكري.

وهكذا يتبيّن أن هذه الانحرافات الأربع ليست عناوين متفرّقة، بل دائرةٌ واحدة: يبدأ الخلل حين يُضعِف القلب صلته بالله، فينعكس على الخلق، ثم يختلّ به ميزان المجتمع، ثم تظهر الهشاشة عند أول امتحان؛ ولذلك جاء هذا الجزء ليبني الاتباع أولاً، ثم يحرسه بالتوحيد، ويثبّته بالأخلاق، ويؤطّره بالشريعة، ويختبره بالابتلاء، حتى تتكوّن أُمّةٌ لا تُسقطها الشُّبهة، ولا تشتريها الشَّهوة، ولا تُخيفها الكثرة.

ملامح الشخصية التي يصنعها هذا الجزء

هذا الجزء لا يقدّم أحكاماً متتابعة فحسب، بل يصوغ إنساناً مخصوصاً؛ إنساناً تحوّلَت عنده القبلة من مجرّد اتجاهٍ إلى معنى الاتّباع، ومن حركةِ وجهٍ إلى ثباتِ قلب، فخرج منه نموذجٌ يمكن أن يُبنى عليه مجتمعٌ كامل.

- أول ملامحه: شخصيةٌ مُسلِّمةٌ للوحي تسليماً واعياً؛ لا تُعلِّق طاعتها على استحسان العقل أو ضغط الناس، بل تجعل معيارها: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، فإذا تغيّر الأمر تبع الرسول لا العادة، وإذا قامت الشُّبهة رجع إلى الحق لا إلى الجمهور، فهو يدرك أن الاتّباع امتحانٌ مستمرّ لا موقفٌ عابر.
- وثانيها: شخصيةٌ توحيديةُ القلب؛ لا تُجزّئ المحبة ولا تُوزّع الهيبة، تعرف أن الإله واحد، وأن المحبة الأعظم يجب أن تكون له، فلا تتخذ أنداداً في التقديس أو الولاء، ولا تقول على الله ما لا تعلم، ولا تشتري الحق بثمنٍ قليل، بل تعيش يقظةً عقديّة تحرس أفكارها من الانحراف قبل أن تحرس سلوكها.
- وثالثها: شخصيةٌ أخلاقيةٌ صادقة؛ لا يُغريها جمال القول إن خلا من الصدق، ولا تنخدع بمظاهر البر إن غاب جوهره، فهي تعلم أن البرّ إيمانٌ عميق، وبذلٌ على حبّ المال، ووفاءٌ بالعهد، وصبرٌ عند الضيق، فلا تُمارس التدين كصورةٍ اجتماعية، بل كحقيقةٍ عمليةٍ تتجلى في العطاء والثبات.
- ورابعها: شخصيةٌ منضبطةٌ بالشريعة في أدقّ تفاصيل الحياة؛ في المال والقصاص والوصية، في الصيام والدعاء، في الأسرة والطلاق والرضاعة، في الحرب والسلم، فلا ترى في الأحكام قيوداً خارجية، بل سياجاً يحفظ كرامتها وعدلها، فتدخل في السلم كافّة، لا انتقائيةً ولا ازدواجاً بين الخاص والعام.

- وخامسها: شخصيةٌ صابرةٌ عند الابتلاء؛ تعرف أن الطريق ليس مفروشاً بالطمأنينة الدائمة، وأن الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس جزءٌ من سُنن السير، فإذا زُلزلت لم تسقط، وإذا تأخّر النصر لم تيأس، وإذا كُرهت التكاليف لم تعترض، لأنها تعلم أن الله يعلم وأنها لا تعلم، وأن نصر الله قريب ولو بدا بعيداً.
- وسادسها: شخصيةٌ واعيةٌ لسُنن التاريخ؛ لا تنخدع بزينة الدنيا، ولا تُصاب بالذهول أمام كثرة الباطل، ولا تظنّ أن القلة المؤمنة عاجزة، بل تؤمن بأن فئةً قليلةً قد تغلب فئةً كثيرةً بإذن الله، وأن الاصطفاء ليس بمعايير المال والنسب، بل بالعلم والقوة والأمانة، فتقيس الأمور بميزان الوحي لا بميزان السُّوق.
- وسابعها: شخصيةٌ جامعةٌ بين العبادة والعمران؛ تذكر الله في المواسم، وتذكره في المعاملات، تقيم الصلاة وتحفظ الحقوق، تصوم وتصلح، تجاهد وتبني، تدعو وتعمل، فلا تفصل بين الروح والحياة، ولا بين المسجد والمجتمع، لأن الله علّمها أن الدين كلٌّ متكامل.

هذه الشخصية التي يصنعها الجزء ليست مثاليةً حالمة، ولا متشدّدةً منغلقة، بل وسطاً شاهداً؛ تعرف وجهتها، وتعرف ربّها، وتعرف حدودها، وتعرف سُنن الطريق، فإذا تغيّرت الظروف لم يتغيّر ميزانها، وإذا تبدّلت الاتجاهات بقي قلبها ثابتاً نحو الحق.

أمراض القلوب التي يعالجها هذا الجزء

هذا الجزء ليس انتقالاً في الأحكام فقط، بل هو انتقالٌ في تشخيص العِلَل الباطنة التي تُفسد علاقة الإنسان بربّه وبالناس وبنفسه؛ فهو يضع يده على أمراضٍ دقيقةٍ لو تُركت لاستحالت الشريعةُ معها شكلاً بلا روح، والهويةُ اسماً بلا مضمون.

- أول هذه الأمراض: مرضُ التعلّق بالصورة دون المعنى؛ أن يتحوّل الدين إلى اتجاهٍ أو شعارٍ أو جدلٍ حول الرموز، بينما يغيب الاتباع الصادق، فجاء تحويل القبلة ليُظهر من يتبع الرسول تسليماً، ومن يتعلّق بالمألوف عادةً، ثم جاءت آية البرّ لتعلن أن البرّ ليس مجرّد تولية وجه، بل إيمانٌ وعملٌ وصبر، فالقلب الذي يتوقّف عند الشكل يُعالَج هنا بإعادة ربطه بالجوهر.
- وثانيها: مرضُ ضعف التوحيد الخفيّ؛ أن يتوزّع الحبّ والولاء والهيبة بين الله وغيره، أو أن يُقال على الله بغير علم، أو يُكتم الحقّ بعد معرفته، فجاء البيان الصريح بإفراد الله بالمحبة الأشدّ، والتحذير من الأنداد، وفضح كتمان البينات، ليُطهَّر القلب من شركٍ خفيّ أو تحريفٍ في المرجعية.
- وثالثها: مرضُ النفاق الأخلاقيّ؛ أن يُعجبك القول في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في القلب، ثم يكون صاحبه ألدّ الخصام يسعى في الأرض فساداً، فجاء التشخيص القرآنيّ دقيقاً ليكشف أن العبرة ليست بحلاوة العبارة، بل بصدق السَّريرة وثمرة السلوك، فالقلب الذي يطلب السُّمعة أو يتزيّن بالكلمات يُردّ إلى ميزان الصدق.
- ورابعها: مرضُ التقليد الأعمى والجمود على الموروث؛ أن يُقال: نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، فالقلب الذي يُسلّم زمامه للعرف بلا ميزانٍ من وحيٍ يُصاب بالعَمى، فجاء القرآن يُحرّر العقل من عبودية الآباء كما يُحرّر القلب من عبودية الشهوات.
- وخامسها: مرضُ التردّد عند التكليف والنكوص عند الابتلاء؛ أن يطلب الناس القتال ثم يتولّوا إذا كُتب عليهم، أو يعترضوا على اختيار الله لطالوت بمعايير المال، أو يشربوا من النَّهر مع وضوح الشرط، فجاءت هذه المشاهد لتكشف هشاشة القلب الذي يحبّ الشعارات ولا يحتمل التضحيات، ويُعالَج بالصبر، وبالاستعانة بالصلاة، وباليقين أن نصر الله قريب.

- وسادسها: مرضُ القلق الوجوديّ والخوف المفرط من الفقد؛ فالآيات تضع المؤمن أمام سُنن الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا لتكسره، بل لتُدرّبه على كلمة التسليم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، فالقلب الذي يظنّ أن الاستقرار حقٌّ دائم يُشفى بمعرفة أن الابتلاء جزءٌ من الطريق، وأن الهداية مقرونة بالصبر.
- وسابعها: مرضُ ازدواجية التَّدين؛ أن يؤخذ من الدين ما يوافق الهوى ويُترك ما سواه، فجاء النداء الجامع: الدخول في السِّلم كافة، لأن القلب الانتقائيّ لا يثبت طويلاً، ولا يُنتج أمةً شاهدة، فالمعالجة هنا بإعادة بناء العلاقة مع الشريعة على أنها كلٌّ لا يُجزَّأ.
- وثامنها: مرضُ الغفلة عن سنن التاريخ والاغترار بزينة الدنيا؛ فالذين زُيّنت لهم الحياة الدنيا يسخرون من الذين آمنوا، والقرآن يعالج هذا الوهم بتثبيت الميزان الآخرويّ، وبعرض سُنّة التدافع، وبإظهار أن القلة المؤمنة قد تغلب الكثرة إذا صدق القلب.

بهذه المعالجات يتكوّن قلبٌ متوازن؛ لا يتعلّق بالشكل دون المعنى، ولا يُشرك في المحبة، ولا يبيع الحقّ، ولا يتراجع عند الشدّة، ولا يختزل الدين، ولا يغترّ بزينةٍ عابرة، بل يسير بوعيٍ وثبات، يعلم أن الامتحان سنّة، وأن النجاة في الاتباع الصادق، وأن الله لا يضيع إيمان من صدق معه.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق... أسئلةُ مواجهةٍ لا أسئلةُ معلومات

هذا الجزء لا يُقرأ ليُحفَظ، بل ليُواجَه؛ فهو لا يسألك عمّا تعرف، بل عمّا تُخفي، ولا عمّا تتلو، بل عمّا تُقدِّم عند الامتحان؛ لذلك اجلس مع نفسك لا لتبحث عن إجابةٍ صحيحة، بل عن قلبٍ صادق.

١. هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟ حين سُمِّي السفهاء، هل بحثتُ عنهم في الخارج أم خفتُ أن أكون منهم إن اعترضتُ على أمرٍ لا يوافق هواي؟

٢. حين قيل: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، هل تذكّرتُ مواقف أخشى فيها الناس أكثر مما أخشى الله؟.

٣. حين نُوديتُ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، هل شعرتُ أن الخطاب يتجاوزني لأنني "ملتزم"، أم أدركتُ أن الانتقائية قد تتسلّل إليّ في تفاصيلٍ أبرّرها لنفسي؟

٤. أين انكشف قلبي؟

←أكان عند آية المحبّة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾، فوجدتُ في قلبي محبّاتٍ تتقدّم على طاعة الله؟

←أكان عند مشهد من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، فشعرتُ أن دعائي يختزل الحياة في مطالب عاجلة؟

←أكان عند قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، فاكتشفتُ أنني أريد الراحة بلا ابتلاء، والنصر بلا صبر، والنتيجة بلا ثمن؟

←أكان عند آيات المال والقصاص والطلاق، فوجدتُ نفسي أبحث عن مخارج تُبقي لي مصلحتي ولو على حساب العدل؟

٥. أيُّ آيةٍ أربكتني؟

←هل أربكتني آية تحويل القبلة لأنها تجرّدني من تعلّقي بالمألوف؟

←أم آية البرّ لأنها كشفت أن صوري الدينية لا تكفي؟

←أم آية: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، لأنها وضعت لساني تحت ميزانٍ دقيق؟

←أم آية: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأنها تُسقط يقيني الزائد بنفسي وبحُكمي على الأحداث؟

فالآية التي تُربكك غالباً هي التي تلمس موضع الضعف لا موضع الاطمئنان.

٦. ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

← هل أؤجّل إصلاح علاقتي بالمال مع أنني أقرأ آيات الإنفاق؟

← هل أؤجّل ضبط لساني مع أنني أخاف أن أقول على الله ما لا أعلم؟

← هل أؤجّل تصحيح نيّتي في العبادة مع أن البرّ ليس تولية وجهٍ فحسب؟

← هل أؤجّل حسم تردّدي في طاعةٍ واضحة لأنني أبحث عن راحةٍ نفسية لا عن صدقٍ عملي؟

← هل أؤجّل المصالحة أو ردّ المظالم مع أن الشريعة فصلت في الحقوق بوضوحٍ لا لبس فيه؟

هذا الاختبار ليس ليُشعرك بالذنب، بل ليُوقظك؛ فالجزء كلّه بُني ليُخرج من داخلك إنساناً يدخل في السِّلم كافّة، لا يتعلّق بالشكل دون الجوهر، ولا يهرب من التكليف، ولا يختبئ خلف العادة، بل يقف أمام الآية كأنها نزلت عليه الآن، ويسأل نفسه بصدق: **إن طُلب مني اليوم أن أغيّر وجهتي... هل سأتبع؟**

أريد خطة التغيير كطريقٍ قصيرٍ لكنه صريح

- خُطَّةُ التغييرِ هنا ليست "برنامجَ وِردٍ" يُضاف... بل "بوصلَةُ قلبٍ" تُعادُ معايرتُها؛ لأن هذا الجزء يبدأ بتحويلةِ القبلة ليقول لك: ليس المهمُّ أينَ اتَّجهتَ بوجهِك... بل لمن تتَّجهُ بقلبِك،
- ثم يُؤسِّسُ معنى الأُمَّةِ الوسط لا بوصفٍ تشريفيٍّ فارغ... بل بوصفٍ تكليفيٍّ ثقيل: شهادةٌ على الناس،
- ثم يسكبُ عليك جرعاتِ الابتلاء لتفهم أن الهداية لا تُصان بلا صبرٍ وصلاة،

- ثم يفتحُ بابَ الحُبّ: إمّا حبُّ الله الذي يطغى على كل حب... وإمّا أندادٌ تُزاحمه في قلبك،
- ثم يختمُ بالبرِّ الحقيقي: ليس شكلاً ولا شعارات... بل إيمانٌ يُترجمُ إلى مالٍ يُنفَقُ لله، وصلاةٍ تُقيمُك، وزكاةٍ تُطهِّرُك، ووفاءٍ يُثبتُك، وصبرٍ يُعرِّفُك بنفسك... فهذه "الخُطَّةُ القصيرة الصريحة" إن أردتَ أن يغيّرك هذا الجزء حقّاً:

١. ابدأ من "تصحيح الوجهة" لا من تحسين الأداء؛ اسأل نفسك بصراحة: ما هي قبلةُ قلبي الآن؟ من الذي أُرضيه؟ من الذي أخشاه؟ من الذي أنتظرُ منه التقدير؟ ثم خذ قراراً واضحاً: أنا لا أعيش على تصفيق الناس ولا على اعتراضهم... أنا أتجه حيث أمرني الله، وأرضى بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيّاً، واجعل هذا القرار أصلاً لا عاطفةً عابرة، وكرّره كلما اضطربت: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.
٢. ثبِّت "هوية الوسط" داخل سلوكك اليومي لا داخل خطابك؛ الوسط ليس رماديّاً ولا متذبذباً... الوسط هو العدلُ والثباتُ والتوازنُ تحت النص، أن تكون رحيماً بلا تمييع، قويّاً بلا قسوة، ثابتاً بلا غِلظة، شاهداً على الناس بأخلاقك قبل كلامك؛ كل يوم اسأل: هل أنا أُقَرِّبُ الناسَ من الحق أم أُنفِّرُهم منه؟ هل أنا أُجمِّلُ الدين أم أُشوِّهه؟ واجعل معيارك ليس "كيف يروني" بل "هل أنا صادق الاتباع؟" ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً...﴾.
٣. حوِّل الذكر من "تسبيحٍ باللسان" إلى "علاقةٍ بالله"؛ اجعل لك لحظةً ثابتة كل يوم – ولو خمس دقائق – لا تريد فيها شيئاً من الدنيا، فقط تقول: يا رب، أنا لك... ثم اجعل الذكر وعداً متبادلاً لا عادة: أنت تذكره فيذكرك، أنت تشكره فيزيدك، أنت تعود إليه فيفتح لك، لا تُعامل

الذكر كأداة تحسين مزاج... بل كعهد قربٍ وولاية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.

٤. اجعل "الصبر والصلاة" أولَ ردّةِ فعلٍ لا آخرَ حلّ؛ حين يجيء خوفٌ أو جوعٌ أو نقصٌ أو ضغطٌ أو أذى... لا تبدأ بالشكوى للناس ثم تختم بآية؛ ابدأ فوراً بركعتين خفيفتين واستعانةٍ صادقة ثم افعل ما تستطيع من الأسباب؛ لأن هذا الجزء يفضح من يظن أن الإيمان كلامٌ في الرخاء... ويكشف أن الثبات يُصنع تحت الاختبار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم تذكّر قانون الطريق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ...﴾.

٥. تدرّب على "جملة النَّجاة" حتى تصير طبعاً لا تكلُّفاً؛ عند أول صدمة كبيرة أو صغيرة، لا تسمح لقلبك أن يتشظّى بالاعتراض، امسكه بهذه العبارة واجعلها سياجاً للعقل والوجدان: إِنَّا لِلّهِ ... وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ... افهم معناها عمليّاً: أنا ملكُه يتصرّف فيّ بحكمة... وأنا راجعٌ إليه فيُعوّضني أو يُطهّرني أو يرفعني، ثم ابكِ بعدها إن شئت... لكن لا تعترض: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

٦. نقِّ قلبك من "الأنداد" قبل أن تُكثِر النوافل؛ الندّ ليس صنماً فقط... الندّ شيءٌ يأخذ من قلبك ما لا يجوز إلا لله: خوفٌ يُسيّرك، شهوةٌ تُذلّك، شخصٌ تُقدّمه على أمر الله، صورةُ ذاتك أمام الناس، المال حين يصير معبوداً خفياً؛ اكتب ندّاً واحداً تشعر أنه ينازع الله في قلبك، واختر خطوةً عمليةً لكسره خلال أسبوع: قطع عادة، ترك متابعة، مصالحة، صدقة، اعتذار، قرار شجاع... ثم راقب قلبك كيف يخفّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً... وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾.

٧. انقل البرّ من "اتجاهٍ وشعار" إلى "بذلٍ وعهدٍ وصبرٍ"؛ إذا أردت علامةً

صريحةً على أنك تغيّرت: فتّش جيبك لا لسانك... لأن البرّ في هذا الجزء يُقاس بما تُعطي وأنت تُحب، وبما تفي به حين يكلّف، وبما تصبر عليه حين يؤلم، وبما تُقيمه من صلاةٍ تُهذّبك لا صلاةٍ تُنهي فرضاً؛ ضع لنفسك "برّاً واحداً" هذا الأسبوع: صدقةٌ ثابتة ولو قليلة، صلةُ رحمٍ مقطوعة، مسكينٌ تُسعفه، يتيمٌ تُفرحه، عهدٌ تفي به بعد أن كنت تُسوّف، خصومةٌ تُنهيها لله... ثم انظر كيف تتبدّل روحك:﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ... وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ... وَالصَّابِرِينَ...﴾.

٨. أغلق باب "التديّن الموروث" وافتح باب "الاتباع الواعي"؛ أخطر ما يوقف التغيير أن تقول: هكذا وجدنا الناس... هكذا تربّينا... هكذا يفعلون... هذا الجزء يصفعك: الاتباع ليس تقليداً أعمى، بل خضوعٌ للوحي ولو خالف العادة، ولو أغضب السفهاء، ولو جعلك غريباً في قومك؛ كلما وجدت نفسك تبرّر بمعيار المجتمع قل لنفسك: أنا أتبع ما أنزل الله لا ما ألفيتُ عليه الناس:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾.

٩. اجعل "الاستجابة" معيارك في الدعاء لا "التجربة"؛ لأن هذا الجزء يعطيك آيةً لو فهمتها تغيّرت علاقتك بالله: هو قريب... يجيب... لكن المطلوب منك ليس أن تُجرّب الدعاء كمن يجرّب وصفة... ولا أن تُجرّب الله سبحانه وتعالى - فالله تعالى لا يُجرَّب - بل أن تستجيب أنت أولاً: تترك معصية، تُصلح قلباً، تُعيد صلاة، تُبرئ ذمة، تُغيّر مساراً... ثم ادعُ بثقة القريب لا بتردد البعيد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ... فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾.

١٠. وفي النهاية... لا تجعل هذا الجزء "قراءةً" تُغلقها... اجعله "محكمةَ

قلبٍ"؛ كل ليلة اسأل نفسك سؤالين فقط، وسيكونان طريقاً قصيراً لكنه صريح:

←ما النَّدُّ الذي سقط اليوم من قلبي؟

←وما البِرُّ الذي وُلد اليوم في سلوكي؟

فإذا لم يسقط نَدٌّ ولم يولد بِرٌّ فاعرف أن الوجهة تحتاج تصحيحاً من جديد... لأن القرآن لا يريد منك أن تتقن الاتجاه... بل أن تتقن الاتباع، ولا يريد منك أن تُحسن الصورة... بل أن تُحسن الصِّلة.

خاتمةٌ وجدانيّةٌ... تهزّ ما بقي ساكناً

ليس هذا الجزء انتقالاً من قبلةٍ إلى قبلة، بل انتقالٌ من قلبٍ إلى قلب، وليس حديثَ اتجاهٍ في الصلاة فحسب، بل حديثَ اتجاهٍ في الحياة كلّها، فالسؤال الذي يطرحه عليك ليس: أين تُولّي وجهك؟ بل:

←لمن تُسلِّم وجهك إذا تبدّل الأمر،

←وإذا ارتفعت الكلفة،

←وإذا ضاق الطريق،

←وإذا جاءك التكليف على خلاف ما اعتدتَ وألفتَ واستحسنتَ.

لقد مررتَ بآياتٍ تُبدِّل الاتجاه فتُعلن أن المرجعية طاعةٌ لا عادة، ثم بآياتٍ تُعرِّف البرّ تعريفاً يخلع عنه قشرته الشَّكلية ليُنزله في ساحة الإيمان والإنفاق والصبر، ثم بآياتٍ تُقيم التوحيد في أعلى ذُراه، ثم بأحكامٍ تضبط المال والدم والأسرة حتى لا يبقى الدين مشاعر بلا نظام، ثم بنداءاتٍ صريحة تطالبك أن تدخل في السِّلم – الإسلام –كافّة لا مجتزئاً ولا منتقياً، ثم بمشاهد ابتلاءٍ وزلزلةٍ تُخبرك أن الطريق ليس مفروشاً بالتصفيق بل بالثبات، ثم بتاريخٍ يُعيد السُّنن إلى مواضعها ويكشف لك كيف تنحرف الأُمم حين يختلّ القلب وإن صحّ الشعار،

وكلّ ذلك لم يكن ليملأ ذاكرتك بمعلوماتٍ إضافية، بل ليكشف موقع قلبك من العهد.

فإن خرجتَ من هذا الجزء وما زلتَ تتجادل حول الرموز، وتفتّش عن التأويلات، وتؤجّل المواجهة الحقيقية مع نفسك، ولم تُغيِّر موقع قلبك من الهوى إلى الاتباع، فقد مررتَ بالجزء ولم تمرّ بك آياتُه، وإن خرجتَ منه وأنت تُحبّ ما كنتَ تحبّ، وتخاف ما كنتَ تخاف، وتؤجّل ما كنتَ تؤجّل، وتعتذر بالأعذار نفسها التي كنتَ تلوذ بها قبل أن تقرأ، فاعلم أن القبلة تغيّرت في النصّ، ولم تتغيّر في داخلك، وأن التحويل كان في الجغرافيا لا في الجِهة التي يسكنها قلبك.

هذا الجزء لا يريد منك خطبةً بليغةً ولا حماساً عابراً، بل يريد منك قراراً واضحاً لا يحتمل التورية:

١. أن تختار الاتّباع على الهوى حين يتعارضان،
٢. وأن تختار الحقّ على الراحة حين تتزاحم الخيارات،
٣. وأن تختار الثبات على الإعجاب بالذات،
٤. وأن تختار الدخول في السِّلم كافّة لا على قدر ما يرضيك ويُريحك ويُبقي لك مساحاتٍ آمنة من التنازل المؤجَّل.

فاسأل نفسك سؤالاً لا مهرب منه ولا التفاف حوله:

- لو نزل الأمر اليوم بما يخالف ما ألفتُه وتربّيتُ عليه واستأنستُ به، هل أتبع أم أبحث عن مخارج؟
- لو خُيّرتُ بين رضا الناس ورضا الله، أيّهما أقدّم حين تكون الكلفة حقيقية؟
- لو طُلب منّي أن أذبح تعلّقاً أحبّه، أو عادةً أستأنس بها، أو مصلحةً أحرص عليها، هل أمتثل صادقاً أم أجادل كما جادل من قبلُ حتى أضيّق الأمر على نفسي؟

إن لم تُهزّك هذه الأسئلة من الداخل، فاقرأ من جديد قراءةَ من يطلب الهداية

لا قراءةَ من يطلب التأكيد لما عنده، وإن هزّتك وأقلقتك وفتحت في صدرك صراعاً، فهذه ليست علامة ضعف، بل علامة حياة، فبداية الطريق ليست الاطمئنان الكاذب، بل الانتباه الصادق.

فالقرآن لا يريد منك دمعةً عابرةً تذوب مع أول انشغال، ولا انفعالاً مؤقتاً ينطفئ مع أول ضغط، بل يريد قلباً إذا قيل له: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ ولّى بلا تردّد، وإذا قيل له: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ دخل بلا تجزئة، وإذا قيل له: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ثبت ولم ينسحب حين طال الطريق.

هنا فقط تكون من الأُمة الوسط حقّاً لا اسماً، وهنا فقط لا تكون القبلة قد تغيّرت خارجك فحسب، بل تغيّرت فيك، في قراراتك، في أولوياتك، في خوفك ورجائك، في حبّك وبغضك، في ميزانك الذي تزن به الدنيا والآخرة، وحينها يكون الجزء قد أدّى رسالته، لا لأنك فهمته، بل لأنك سلّمت له.

الرسالة التي يوجهها الجزء الثاني الى المسلمين؟

- الدينُ امتحانُ اتّباعٍ لا امتحانُ ذوقٍ ولا تعوّد.
- ثباتُ القلب يُقاس عند تبدّل الأوامر لا عند ثبات العادات.
- اللهُ هو المِلكُ والاتجاهُ والمرجع... لا الناس ولا العُرف.
- السَّفَهُ يبدأ حين يُحاكم الوحيُ إلى ألسنة السَّاخرين.
- الأمةُ الوسط تُولَد من طاعةٍ تُخالِف الهوى وتَصمد للضجيج.
- الشهادةُ على الناس مسؤوليةُ عدلٍ لا امتيازُ اسمٍ ولا لقب.
- الاتباعُ للرسول ميزانُ الصدق... لا كثرةُ الكلام عن الحق.
- الحقُّ قد يُعرَف ثم يُكتَم... وأخطرُ الكتمان ما كان عن علم.
- الرِّيبةُ في الحق مرضٌ... واليقينُ عبادة.
- الاستباقُ إلى الخيرات يقتلُ فتنةَ المقارنات والجدالات.
- الخشيةُ من الناس تُسقطُ الهيبةَ من الله.

- الذكرُ شفاءُ الانقطاع... والشُّكرُ حارسُ النِّعم.
- الصبرُ والصلاةُ مِعراجُ الثبات عند أول زلزلة.
- البلاءُ غربالُ الإيمان... لا دليلُ غضبٍ مُطلق.
- الإرجاعُ إلى الله يَمنعُ انهيار القلب عند المصيبة.
- شعائرُ الله تُعاش طاعةً لا تُجادَل عادةً ولا تُفرَّغ معنى.
- التوحيدُ ليس فكرةً؛ هو محبةٌ خالصةٌ تُسقط الأنداد.
- فتنةُ الأنداد تُولَد من قلبٍ يُسوي في الحبّ بين الخالق والمخلوق.
- الشيطانُ يبدأ بخطوةٍ صغيرة... ثم يُنهي الطريق كله.
- أعظم الجرأة: أن تقول على الله ما لا تعلم.
- الاتباعُ للآباء بلا بيّنة هو صورةٌ مهذّبة للضَّلال.
- الحلالُ الطيب عبودية... لا مجردُ ذوقٍ ولا رفاه.
- شرعُ الله رحمةٌ وحدودُه صيانةٌ لا تضييق.
- البرُّ حقيقةٌ جامعة: إيمانٌ وعهدٌ وبذلٌ وصبرٌ وعدل.
- الدماءُ لا تُحرس بالشعارات... بل بالقصاص والحقّ.
- الوصيةُ تربيةٌ على العدل قبل الرحيل.
- الصيامُ مدرسةُ التقوى لا موسمُ جوعٍ بلا أثر.
- القرآنُ هدىً وفرقان... لا زينةُ صوتٍ ولا طقسُ شهر.
- القربُ الإلهي يُبنى بدعاءٍ صادقٍ واستجابةٍ عملية.
- حدودُ الشهوات تُصانُ لأنها طريقُ سلامٍ لا طريقُ قمع.
- المالُ إذا دَخَلَه الباطل صار ناراً ولو كثر.
- التقوى هي بابُ الدخول الصحيح... لا الالتفاف من خلف البيوت.
- الجهادُ ميزانُ إرادةٍ: من يقاتل للدين لا للغضب والعدوان.
- الإحسانُ يمنعُ التهلكة... والبخلُ يفتحُ باب السقوط.

- الحجُّ يُربّي على ترك الرَّفث والفسوق والجدال... ليُعيد الإنسان.
- الذكرُ بعد المناسك يفضحُ من لا يذكر إلا الدنيا.
- الحسابُ قريب... فلا تُؤجّل قلبك.
- من يُعجبك قوله قد يُهلك الحرثَ والنسل.
- العزّةُ بالإثم علامةُ قلبٍ لا ينكسر للحق.
- شراءُ النفس ابتغاء مرضاة الله قمةُ الحرية.
- الدخولُ في السِّلم كافّة نهايةُ التديّن الانتقائي.
- الزَّلل بعد البيّنات خيانةُ وضوحٍ لا غفلةُ جهل.
- السُّننُ ثابتة: الرسلُ جاؤوا ليرفعوا الخلاف... فزاد البغي الخلاف.
- نصرُ الله قريب... لكنه يُعطى بعد الزلزلة لا قبلها.
- الإنفاقُ يطهّر علاقةَ القلب بالمال ويُعيد ترتيب الولاءات.
- قد تكرهُ ما فيه خيرُك... وقد تحبُّ ما فيه هلاكُك.
- الارتدادُ يبدأ من تراجعٍ صغيرٍ عن الأمر... ثم ينتهي بخروجٍ كامل.
- الهجرةُ والجهادُ رجاءُ رحمة... لا تجارةُ صورةٍ ولا بطولة.
- الخمرُ والميسر يبدآن منفعةً ويختمان قلباً مكسوراً.
- إصلاحُ اليتامى ميزانُ الأخلاق... لا خطابةُ عاطفة.
- الزواجُ عبادةُ اختيارٍ إيمانيّ لا صفقةُ إعجاب.
- الطهارةُ تهذيبُ شهوةٍ لا تعظيمُ جسد.
- الأيمانُ تُحاسَب بنية القلب لا بلغط اللسان.
- الطلاقُ حدٌّ يُدار بإحسان... لا سلاحُ انتقام.
- إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بمعروف... هو ميثاقُ كرامة.
- الصلاةُ الوسطى عنوانُ قلبٍ لا يغفل في الزحام.
- الخوفُ لا يُسقط العبادة... بل يُغيّر صورتها ويبقي جوهرها.

- الموتُ والحياة بيد الله... فلا يَخدعك سببٌ ولا عدد.
- الإنفاقُ قرضٌ لله... واليدُ التي تُعطي تُربّي نفسها قبل أن تُغني غيرها.
- طلبُ الملك بلا طاعة يفضح حبّ القيادة لا حبّ الحق.
- اختيارُ طالوت يُعلّمك: المعيار عند الله علمٌ وجسمٌ وأهليةٌ لا نسبٌ ولا مال.
- الآيةُ لا تُطلب للتسلية... بل لتثبيت اليقين.
- النهرُ يفضح الشهوة: من لم يملك عطشه لن يملك معركته.
- كثرةُ العدو لا تُرعب من يوقن باللقاء.
- الدعاءُ قبل المواجهة هو سلاحُ القلة أمام الكثرة.
- النصرُ من عند الله... وداودُ يفتح باباً لا تفتحه الأعداد.
- لولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض... فالثباتُ عبادةُ عمران.

الترابط الموضوعي والبياني بين الجزء الأوّل والجزء الثاني

الجزء الأوّل والجزء الثاني ليسا كتلتين منفصلتين؛ بل هما مرحلتان في بناءٍ واحد:

- الأوّل يضع "التأسيس الذي يمنع الانخداع"،
- والثاني ينقل هذا التأسيس إلى "هويةٍ وشرعةٍ وامتحانٍ وحياة".
- الأوّل يعرّفك من الداخل: من أنت أمام القرآن؟ مؤمنٌ يتّقي، أم كافرٌ يُغلق، أم منافقٌ يلتفّ؟
- والثاني يعرّفك على الأرض: كيف تُترجم التقوى إلى قبلةٍ وهويةٍ وعدلٍ وحدودٍ ونظام مجتمع؟
- فالأوّل يفضح الأمراض،
- والثاني يصف العلاج في الميدان.

موضوعيّاً يبدأ الجزء الأوّل بالكتاب نفسه: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ثم يصنع ثلاث خرائط بشرية كبرى:

← قلبٌ يصدّق ويُقيم ويُنفق،

← وقلبٌ يُكابر فيُختم عليه،

← وقلبٌ يلبس الإيمان ويُضمر المرض ويُنتج الفساد.

ثم يوسّع الدائرة من تعريف القلوب إلى تعريف العهد: من نقض الميثاق، وكتمان الحق، وشراء الآيات بثمن قليل، وتبديل الألفاظ، وتحريف المعاني، والاتكاء على الأماني، إلى تقرير أصل التوحيد وتنزيه الله عن الولد، والتحذير من اتباع الأهواء بعد العلم، ثم يعود في النهاية إلى محور إبراهيم عليه السلام بوصفه "أصل الملة" لا بوصفه "اسماً في التاريخ"، ليحسم: الدين ليس تراثاً تتوارثه وتجادل به، بل ملةٌ تُسلم فيها الوجه لله.. هنا يكتمل البناء الأول: تعريف المصدر، وتعريف الإنسان أمام المصدر، وتعريف انحراف أهل الكتاب حين يتحول الدين إلى "ملفّ هوية" أو "ورقة تبرير" أو "أماني"، ثم فتح بوابة إبراهيم عليه السلام كجسرٍ إلى الأمّة الجديدة.

ثم يأتي الجزء الثاني فيلتقط هذا الجسر مباشرة: فإذا كان الجزء الأول ختم بمِلّة إبراهيم عليه السلام، فالجزء الثاني يفتتح بمشهد تحويل القبلة إلى بيت إبراهيم عليه السلام نفسه: كأن القرآن يقول لك: تلك الملة ليست شعاراً يُذكر، بل وجهةٌ تُعاش، وليست انتساباً لفظياً، بل طاعةٌ تُمتحن.. فـ"سيقول السفهاء" امتدادٌ طبيعي لسفه الأوّل: هناك من كتم الحق وهو يعلم، وهنا من يُجادل في الحق بعدما تبيّن.. هناك من لبس الحق بالباطل، وهنا من يحاول صناعة "حجة اجتماعية" على المؤمنين؛ والجواب في الجزأين واحد في جوهره: ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾، فلا تخشوا الناس واخشون.. الذي بُني في الجزء الأول كقاعدة معرفية ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يتحول في الجزء

الثاني إلى قاعدة ثبات عملي ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾..

ثم إن خرائط البشر في الجزء الأول تتحول في الجزء الثاني إلى خرائط سلوك وتشريع: المتقون الذين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ يظهرون في الجزء الثاني بصورة أدق: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾؛ وكأنَّ آيات البر في الجزء الثاني هي التفصيل التطبيقي للمتقين في مطلع الجزء الأول، نقلت التقوى من عنوانٍ إلى ملامح.. والمنافق الذي ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ يعود في الجزء الثاني بصورة أخطر: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾؛ فالمرض الذي كشفه الجزء الأول يتحول في الجزء الثاني إلى مشهد فسادٍ اجتماعي يفضحه الوحي بلا مواربة. والكافر الذي ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يظهر في الجزء الثاني في صورة حب الدنيا والسُّخرية من المؤمنين وتزيين الحياة؛ فالختم في الجزء الأول له ثمرته في الجزء الثاني: احتقار الحق وأهله.

والجزء الأول ركّز على كبرى آفات العلم: كتمان الحق، كتابة الكتاب بالأيدي، تحريف الكلم، شراء الآيات بثمن قليل؛ فيأتي الجزء الثاني ويجعل ذلك محوراً أخلاقياً خطيراً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ

مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ثم يضع ميزان النجاة: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾؛ فالمعرفة في القرآن ليست مادةً تُحفظ، بل أمانةٌ تُبلَّغ، ومن خانها أفسد الدين في الناس، وهذا هو الخيط الذي يصل تحذيرات بني إسرائيل في الجزء الأول بمشهد اللعن والوعيد في الجزء الثاني.

وأمّا التوحيد، فالجزء الأول يرسّخه بوصفه أصلاً معرفياً في مواجهة التحريف: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ – ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ – ﴿ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾؛ ثم يأتي الجزء الثاني ليكشف الشرك الخفي في المحبة والاتباع: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ ثم يترجم التوحيد إلى واقع: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾؛ فالتوحيد الذي يثبت في الذهن في الجزء الأول، يُختبر في المحبة والطاعة والسلوك في الجزء الثاني.

ثم إن الجزء الأول يضع الإنسان أمام سُنّة الابتلاء المعرفي: وجود الحق لا يمنع الافتتان، ووجود النبي لا يمنع الانحراف؛ ولذلك حذّر من نقض العهد وتبديل النعمة والأماني.. فيأتي الجزء الثاني فيُحوّل هذا التحذير إلى سنّة ابتلاء وجودي: خوفٌ وجوعٌ ونقصٌ وزلزلةٌ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؛ لتفهم أن الطريق ليس برهانا ذهنيا فقط، بل صبرٌ في "الواقع"، وأن مَن نجح في فتنة العلم قد يسقط في فتنة الألم، ولذلك قرن الله الصبر بالصلاة، والذكر بالشكر، والتقوى بالمناسك، لتبقى العبادة هي التي تحمل الإنسان عند انكسار الدنيا.

ثم تأتي الشريعة في الجزء الثاني امتداداً مقصوداً لتشريح الانحراف في الجزء

الأول: الجزء الأول فضح فساد الدين حين يتحول إلى تلاعب؛ والجزء الثاني يضع الحدود حتى لا يعود التلاعب ممكناً: في الدم (القصاص)، وفي المال (تحريم أكل الأموال بالباطل)، وفي البدن والشهوة (حدود الصيام)، وفي البيت (أحكام النكاح والطلاق والرضاع والعدّة)، وفي الجماعة (ضوابط القتال ورفع الفتنة)، وفي المناسك (الحج بلا رفث ولا فسوق ولا جدال).

كأن الجزء الثاني يقول: بعدما عرفتَ كيف يفسد الناس الدين بالتحريف والكتمان والهوى... ها هي حدود الله التي تحرس المعنى من أن يتحول إلى لعبة.

بيانيّاً أيضاً، هناك ترابط في الإيقاع والانتقال: الجزء الأول يكثر فيه أسلوب الكشف والتعرية والمقابلة بين الأصناف، واستعمال الأمثال (مثل النار والصيب) وتصعيد التحذير (ويل... غضب... لعن...) لأن المرحلة مرحلة "هزّ الوهم"... أما الجزء الثاني فيتدرج من فتنة السفهاء إلى تأسيس الأمة الوسط، ثم ينسج نغمة "الوجهة/الهداية/الابتلاء" ثم يسكبها في قالب التشريع، بحيث لا يشعر القارئ أن الأحكام سقطت من السَّماء فجأة؛ بل يراها نتيجةً طبيعية لبناء هويةٍ وشهادةٍ وتقوى. وحتى "البر" جاء في موضعه البياني كقنطرة: بعد حديث القبلة والوجهة ليحسم أن الشريعة ليست شكليات؛ ثم يفتح باب التفاصيل: قصاص، وصية، صيام، مال، حج، أُسرة... وكأنَّ البناء البياني يقول: ما دام البر ليس جهةً فحسب، فهذا هو البر حين يصير حياة.

وخيط إبراهيم عليه السلام هو الحبل الأوضح بين الجزأين: الجزء الأول أعاد الناس إلى مِلّة إبراهيم ونفى عنها الشرك والتزييف، والجزء الثاني ثبّت القبلة إلى بيت إبراهيم، ثم أتمّ تعريف "الملة" بعبارة جامعة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾؛ فإبراهيم في الجزء الأول "أصل الهوية"، والقبلة في الجزء الثاني "شعار الهوية العملي"، والبرّ في الجزء الثاني "حقيقة الهوية الأخلاقية"، والحدود "حراسة الهوية من العبث".

وخلاصة الترابط: الجزء الأوّل يقول لك: احذر أن تخدعك الأسماء والانتسابات؛ فالقضية قضية قلبٍ وعهدٍ وصدقٍ أمام الوحي.

والجزء الثاني يقول لك: احذر أن تخدعك الشعارات والشكليات؛ فالقضية قضية دخولٍ كامل في الإسلام، تُترجم في العبادة والمعاملة والبيت والمجتمع والجهاد والمال.

الأوّل يضع المرآة، والثاني يضع الطريق.. الأوّل يكشف "من أنت"، والثاني يطالبك أن تكون "ما ينبغي أن تكونه"؛ من كتابٍ يهدي... إلى أمةٍ تشهد... إلى شريعةٍ تبني... إلى ابتلاءٍ يصفّي... إلى قلبٍ يثبت.

الجزء الثالث: من "العروة الوثقى" إلى "لن تنالوا البرّ"

هذا الجزء يُخرِجُ التوحيدَ من الفم... ويضعه على مفاصل المال والولاء والاتباع والفتنة.

مدخل وجداني تأسيسي

أخطر ما يمكن أن يحدث للمؤمن بعد أن يعرف الحقّ... أن يظنّ أن معرفة الحقّ تعصمه من الفتنة، وأن وضوح الدليل يكفي ليضمن له الثبات، وأن انتسابه للحقّ يحفظه من الانزلاق، بينما القرآن يفتتح هذا الجزء بهزّةٍ تربوية عنيفة تُسقط هذا الوهم من جذوره؛ فهو لا يبدأ بقصة كافرٍ جحد من أصل الرسالة، ولا بجهل جاهلٍ لم تبلغه البيّنة، بل يبدأ بذكر الرسل أنفسهم، بتفضيلهم، برفع درجاتهم، بتكليم الله لبعضهم تكليماً، وبتأييد بعضهم بروح القدس، ثم ينتقل مباشرةً إلى مشهدٍ صادم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ... إلى أن قال...... وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا...﴾؛ أي إنّ وضوح النبوّة لم يمنع الاختلاف، وإنّ ظهور المعجزة لم يمنع التنازع، وإنّ نزول الوحي لم يُلغِ حقيقة الاختبار، فالمشكلة لم تكن يوماً في قِلّة البيان، بل في اضطراب القلوب بعد البيان، ولم تكن في غياب النور، بل في ضعف الاستمساك به.

كأنّ القرآن يقترب منك ويسألك بصرامةٍ لا تسمح بالمراوغة: إذا كانت أممٌ رأت أنبياءها، وسمعت الوحي غضّاً طريّاً، وشهدت الآيات رأي العين، ثم اختلفت واقتتلت، فبماذا تطمئن أنت؟

← أبعلمٍ حفظتَه؟

← أم بتاريخٍ تنتمي إليه؟

← أم باسمٍ تتزيّا به؟

← أم بجماعةٍ تظنّ أنّ كثرتها تعصمك؟

←أم بشعارٍ ترفعه فتظنّ أنّه يحميك من نفسك؟

إنّ المسألة أعمق من كلّ ذلك، لأنّ الاختلاف الذي مزّق الأُمم لم يبدأ من ضعف النَّصّ، بل من ضعف الولاء، وحين يختلّ الولاء يتحوّل الدين من تسليمٍ خالصٍ لله إلى ساحة صراعٍ بشريٍّ تتنازعها الأهواء، فيُقاتِل كلُّ فريقٍ تحت لافتة الحقّ، بينما قلبه لم يُسلّم كلَّه للحقّ.

ثم ينتقل بك النص فجأةً إلى الإنفاق قبل يومٍ لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة؛ أي قبل أن يأتي يومٌ تُسحَب فيه من يدك كلّ وسائل الاتّكاء التي تُخدِّر بها قلبك اليوم: لا صفقات تنقذك، ولا علاقات تُخلّصك، ولا مجاملات تشتري لك طريقاً، ولا "واسطة" تُمرِّر لك نجاةً بلا إذن الله ورضاه، فهل فهمتَ الآن لماذا يبدأ الجزء بالتوحيد وينزل إلى المال؟ لأن أكثر الناس لا يسقطون في باب "هل الله موجود؟" بل يسقطون في باب:

- من الذي أطيعه حين تتعارض مصلحتي مع أمر الله؟
- ومن الذي أُقدِّمه حين يهدّد الخوف رزقي؟
- ومن الذي أُعظِّمه حين تُغري الشُّهرة قلبي؟.

ثم تأتي آية الكرسي لا كآية فضلٍ تُقرأ لتُحصِّنك شكلياً... بل كإعلانٍ كونيّ يضع الله تعالى في قلبك حيث يجب أن يكون: الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، الذي لا تقع شفاعةٌ عنده إلا بإذنه، الذي أحاط علمه بكل شيء، والذي لا يثقله حفظ السماوات والأرض... فكيف بعد هذا "التعريف الرباني" يبقى في قلبك مساحة خوفٍ من البشر تُقدَّم على أمره؟ وكيف يبقى في قلبك تعظيمٌ لشيخٍ أو جماعةٍ أو مالٍ أو منصبٍ حتى يصير ذلك "طاغوتاً" خفياً تُطيعُه حيث ينبغي أن تطيع الله؟

هذا الجزء لن يسألك: هل تؤمن بالله؟ فهذه قضية قد حُسمت عندك لفظاً، لكنه سيسألك:

١. هل كفرتَ بالطاغوت حقّاً؟
٢. هل قطعتَ علائق القلب التي تزاحم التوحيد؟
٣. هل إذا جاء الاختبار في الرزق أو الخوف أو السُّمعة أو الجماعة أو المصالح، بقيتَ مع الله وحده، أم تلوّنتَ بحسب الموجة؟

سيُريك أنّ أخطر مواضع السقوط ليست في ميادين السيوف، بل في ميادين القلوب؛

- في لحظة خوفٍ تُقدّم فيها الأمان الدنيويّ على أمر الله،
- في لحظة طمعٍ تُغلّب فيها المكسب على التقوى،
- في لحظة إعجابٍ تُعظّم فيها نفسك أو شيخك أو جماعتك أو فكرتك حتى تُزاحم بها مقام الربوبية في قلبك من حيث لا تشعر،

ولهذا تأتي كلمةُ الفصل... لا لتُرخّص للناس باطلهم... بل لتضع للقلوب معيارَ صدقها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾... أي إن الدين لا يُزرع في القلب بالعصا، ولا يُنتَجُ بالإجبار، ولا يُصنع بضغط الجماعة... لأن الإيمان حقيقةٌ تُبصِر بها الروحُ ثم تُسلِّم... لكن هذه الآية لا تقول: "اجعلوا الحقَّ نسبيّاً"، ولا تقول: "سوّوا بين الهدى والضلال"... بل تُعلن أن الهدى قد تبيّن، وأن الطريق قد بان، وأن الله لا يريد من عباده "أجساداً منقادة" بلا قلوب... بل قلوباً تعرف فتختار، وتبصر فتسير، وتسمع فتستجيب... ولذلك جاء بعدها مباشرةً ميزانُ النجاة لا ميزانُ الانتماء: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾... كأن القرآن يقول لك: لا يكفي أن تقول "أنا مسلم"... ولا يكفي أن تنبهر بالدليل... ولا يكفي أن تميل إلى الحقّ... بل لا بد أن تقع "قطيعةٌ" في داخلك... قطيعةُ ولاءٍ ومرجعية... قطيعةُ تحكيمٍ واتّباع... قطيعةٌ تجعل الله وحده هو المعبودُ المطاعُ المشرّعُ المحبوب... ثم بعد ذلك تجيء طاعتُك للخلق في المعروف، وعدلك مع الناس، وبرّك وإحسانك...

لا لأنهم يملكون قلبك... بل لأن الله أمر قلبك بذلك.

والطاغوت في القرآن ليس "شتمةً" تُلقى جزافاً، ولا كلمةً تُستخدم لتصفية الخصومات، بل هو كلُّ ما يُتجاوز به الحدُّ حتى يأخذ في القلب مقاماً لا يليق إلا بالله..

- طاغوتٌ يَصرفك عن حكم الله،
- أو يُجمِّلك عن معصية الله،
- أو يُرهبك حتى تبيع دينك،
- أو يُغريك حتى تُبدِّل مبادئك.
- قد يكون صنماً يُعبد،
- وقد يكون هوىً يُتَّبع،
- وقد يكون شهوةً تُشرّع،
- وقد يكون خوفاً يُملي عليك قراراتك،
- وقد تكون "مصلحة" تُسكِتك عن الحق ثم تُسمي ذلك "حكمةً" وهي في حقيقتها استسلام،
- وقد يكون بشراً تُطيعهم في معصية الله ثم تُسمّي ذلك "واقعيةً" لتُخدِّر ضميرك.

وهنا يهتزُّ القارئ لأنه يكتشف أن أعظم الأصنام ليست تلك التي تُنصب في الساحات، بل تلك التي تُخفى في الصدر، وأن أخطر الطواغيت ليست التي تُرى بالعين، بل التي تُرى عند أول مفترق: **عندما يتعارض الوحي مع رغبتك، ومع سمعتك، ومع مكسبك، ومع راحتك.**

ثم يجرُّك الجزء إلى مشاهد الإحياء لا لتصنع منها حكاياتٍ عجيبة، بل لتكسر في داخلك وهماً خبيثاً اسمه "استحالة التغيير".

← جدالُ إبراهيم عليه السلام مع المتكبّر الذي خدعه الملك؛ رجلٌ ظن أن

السلطان يُغني عن البرهان، فإذا بالحجة تُبهته كما يُبهت السيفُ الورقة.

← ثم قصةُ الذي مرَّ على قريةٍ خاويةٍ على عروشها فاستبعد الحياة، فجعله الله يرى بعينه أن الذي يُميت يُحيي، وأن الذي يُفني يُنشئ.

← ثم سؤالُ إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لا شكّاً في قدرة الله، بل زيادةَ طمأنينةٍ كما يزداد ضوءُ النهار وضوحاً.

وكأن القرآن يهمس لك:

١. كلُّ ما تراه اليوم مستحيلاً في إصلاح نفسك يستطيع الله أن يحييه،
٢. وكلُّ ما تراه قويّاً لا يُغلب يستطيع الله أن يُسقطه بحجةٍ واحدة،
٣. وكلُّ ما تخافه على رزقك بيد الله.

- فكيف تخاف الفقر حتى تبخل؟
- وكيف تُحمّل الحرام لأن "الحياة صعبة"؟
- وكيف تُزيّن لنفسك أكلَ الرِّبا أو أكلَ حقوق الناس لأن "الظروف قاسية"؟

إن الذي يُحيي العظام وهي رميم أيسر عليه أن يفتح لك باباً حلالاً، لكن المشكلة ليست في قلة الأبواب، المشكلة في **قلة اليقين**.

ثم يبدأ الامتحان الحقيقي في المال لأن المال هو المكان الذي يظهر فيه "صدق العروة الوثقى" أو كذبها.

- صدقةٌ يُحبطها منٌّ فتتحول العبادة إلى استعلاء،
- وعطاءٌ يفسده رياءٌ فتتحول القربة إلى إعلان،
- وخوفٌ من الفقر يُثقِّل يدك حتى تمسك رزقك كأنك خلقتَه،
- وشيطانٌ يعدك الفقر ويأمرك بالفحشاء،
- وربٌّ يعدك مغفرةً وفضلاً.

وهنا لا يكتفي القرآن بأن يقول لك "أنفق"، بل يكشف لك المعركة التي تجري في داخل صدرك بين وعدين:

١. وعدُ الشيطان الذي يضغط على أعصابك،

٢. ووعدُ الرحمن الذي يطمئن قلبك.

فإذا عرفتَ أين يقف قلبك بين الوعدين عرفتَ أين يقف توحيدك.

ثم يصل التحذير إلى ذروةٍ مخيفة: الرِّبا ليس "معاملة" فقط، ولا مجرد "سلوك اقتصادي"..

- الربا انقلابٌ على معنى الرحمة،
- وتمردٌ على معنى البركة،
- واغتيالٌ لمعنى العدل لأنه يجعل المال سيّداً، والإنسان وقوداً، والضعيفَ فريسةً.

ثم يعلن القرآن عن هذا الانقلاب بأشد صيغةٍ تهزّ القلب: "حربٌ" من الله.

أي أنّ القضية ليست رقماً يزيد، بل روحٌ تموت، وبركةٌ تُمحَق، ومجتمعٌ يتآكل من الداخل.

ومن هنا ينبغي أن تُصفّى العبارة: لا نقول "الرِّبا حرب على معنى الرحمة" وحده، بل نقول:

← هو محقٌ للبركة،

← وظُلمٌ للعباد،

← ومخالفةٌ لأمر الله،

← ومفسدةٌ عامة،

لأنه يجرح أصلَ الاستقامة التي يُبنى عليها المجتمع.

ثم تأتي آيةُ الدَّين، أطولُ آيةٍ في القرآن، لا لتُثقِل عليك الورق، بل لتُربيك على أن التقوى ليست "دمعةً" فقط ولا "حرارةً" عابرة.

التقوى أيضاً كتابةٌ وتوثيقٌ وشهادةٌ وعدلٌ ووضوحٌ وحقوقٌ لا تُؤكل بالحيل،

← لأن بعض الناس يتدينون في السجود، ثم يفسدون في العقود.

←يعبدون الله في المصحف، ثم يظلمون الناس في الورقة.

والقرآن يريد أن يطهر هذا الانفصام، يريد أن يقول لك: لا تجعل عبادتك ستاراً لفساد معاملتك، ولا تجعل ذكرَ الله غطاءً لأكل حقوق عباده.

ثم يختم آخرُ البقرة بما يشبه "الميثاق" لا "الخاتمة": ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.. كأن النهاية التي يريدها الله منك ليست أن تقول: "زادني هذا الجزء معلومات"، بل أن تقول: "زادني هذا الجزء تسليماً".

١. تسليماً في العقيدة،
٢. وتسليماً في المال،
٣. وتسليماً في الحقوق،
٤. وتسليماً في التعامل مع النفس حين تتلوّى.

ثم دعاءٌ يضعك في موضعك الحقيقي: عبدٌ ضعيف، لا يثبت إلا بتثبيت الله، ولا ينجو إلا برحمة الله، ولا يحمل التكليف إلا بعون الله.

ثم تبدأ آل عمران مباشرةً وكأنَّ القرآن يوقظك من جديد قبل أن تتراخى: ﴿الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.. نفس المركز، نفس القلب، نفس القضية، لأن "الْحَيُّ الْقَيُّومُ" ليس لفظاً يُتلى، بل معنىً إن دخل القلب سقطت الأصنام الصغيرة كلها.

ثم ينقلك إلى أخطر ملفٍّ في "منهج تلقي الوحي": المحكم والمتشابه، لا لترفٍ علمي، بل لتحذيرٍ مصيري..

- هناك من يجعل القرآن سلّمَ هداية، وهناك من يجعله سلّمَ فتنة.
- هناك من يردّ المتشابه إلى المحكم فيسلم قلبه،
- وهناك من يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل فيزيغ قلبه ثم يظن أنه "يفهم".

ثم يجيء الدعاء الذي يفضح احتياجك الحقيقي: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ

هَدَيْتَنَا﴾، لأن الهداية ليست نقطة وصول بل سيرٌ يحتاج تثبيتاً، ولأن القلب قد يعرف ثم ينحرف، وقد يبدأ ثم يسقط، وقد يمسك بالعُروة لحظةً ثم يتركها عند أول ضغط، ولا عصمة لقلبٍ إلا أن يمسكه الله.

ثم تعرض السورة فتنة الدنيا في أجمل صورها: النساء، والبنون، والقناطير، والخيل، لا لتُحرّم الزينة، بل لتكشف لك كيف تتحول الزينة إلى وثنٍ إذا صارت معياراً للقرار.

ثم يضع القرآن أمامك بديلاً يختبر صدقك: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ﴾، ثم يصف أهل الإيمان الحقيقي لا بالشعارات ولا باللافتات، بل بسماتٍ لا تُصنع للمظاهر: الصابرين، والصادقين، والقانتين، والمنفقين، والمستغفرين بالأسحار.

ثم تأتي شهادة التوحيد في صيغةٍ لا تُقرأ ببرود: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.. ليست شهادةَ "معلومة"، بل شهادةُ "حُكم" و"حق" و"عهد".

ثم شهادةُ الملائكة وأولي العلم، لتُصفّى فكرةٌ قد يلتبس بها بعض الناس:

← أن العلم إذا لم يقدك إلى التوحيد والانقياد فهو علمٌ ناقص،

← وأن التوحيد إذا لم يزدك خشيةً وعدلاً واتباعاً فهو توحيدٌ لفظيٌّ لا يقوم به قلب.

ثم يعلنها القرآن صريحة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾... أي أن الحق بعد البيان واحد، وأن النجاة لا تكون بتسييل الحدود حتى تُصبح بلا معنى.

لكن هذا لا يلغي العدل مع المخالف ولا الإحسان إليه ولا الدعوة بالحكمة، بل يضع ميزان "الحق" ثابتاً حتى لا يتحول "التسامح" إلى تمييعٍ للوحي، ولا تتحول "المجاملة" إلى بيعٍ للميزان.

ثم يفتح ملفَّ أهلِ الكتاب: تحريفٌ ولبسٌ وكتمانٌ ومكر، لا لتغذية الكراهية، بل لتحصين القلب من الوقوع في نفس المسار، مسار "لَيِّ النصوص"

لإرضاء الرغبات، لأن التحريف الأكبر قد يبدأ في أُمَّة القرآن لا بحذفِ الآيات، بل بتأويلها على مقاس الهوى.

ثم يضع أمامك معيار الاتباع القاطع الذي يُسقط كل ادعاء: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.. فالحب ليس أغنيةً في الفم،

- الحب انقياد،
- الحب طاعة،
- الحب أن تُقدِّم أمر الله على راحتك،
- وأن تجعل سنة النبي ﷺ ميزان حياتك لا زينة خطابك.

ثم تأخذك السورة إلى قصة آل عمران: نذرٌ وابتلاءٌ وتربيةٌ في المحراب، ورزقٌ بلا حساب، ودعاءُ زكريا، واصطفاءُ مريم وطهرُها، وبشارةُ عيسى ومعجزاته بإذن الله، لتُصفّى العقيدة من الغُلوّ ومن الجفاء معاً: لا نرفع بشراً فوق مقامه، ولا نجحد آية الله في خلقه.

ثم تقريرٌ حاسمٌ يقطع التعلق بالأوهام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، ثم دعوة إلى كلمة سواء، ثم تتوالى التحذيرات من المكر وأكل أموال الناس بالباطل، ثم ميثاق النبيين بنُصرة الرسول الخاتم، ثم السؤال الذي يجلد القلب: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

← أي هل تبحث عن "دينٍ مريح" لأن التكليف ثقيل؟

← هل تريد "إسلاماً بلا كلفة" لأن الطريق صعب؟

← هل تريد "هويةً بلا عبودية"؟

ثم تأتي نهايةُ الجزء كالسَّهم في القلب لا كجملةٍ للزينة: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.. كأن القرآن يقول لك: كل هذا البناء العقدي والتوحيدي والمنهجي سيُصدَّق أو يُكذَّب هنا، عند "المحبوب" الذي تُمسكه يدك وتخاف عليه أكثر مما تخاف على قلبك.. هنا تُختبَرَ **العُروة الوثقى**:

١. هل هي في لسانك أم في قبضتك؟
٢. هل هي في دمعتك أم في فاتورتك؟
٣. هل هي في دعائك أم في تنازلك؟
٤. هل هي في مواعظك أم في قدرتك على أن تقول لله تعالى: يا ربِّ خذ ما أُحب، ولا تترك قلبي أسيراً له؟.

الخريطة البنيوية للجزء

- تفضيلُ الرسل: المقامات تتفاوت لكن الرسالة موحدة..
- مع وضوحِ البيّنات: الاختلافُ قدرُ الامتحان لا نقصُ الدليل.
- بعد النور: قد يقع الاقتتال... حين يُستبدل الاتّباعُ بالهوى.
- مشيئةُ الله في الصراع تعني أن ما يحدث ليس كله محبوباً لذاته... لكنه يقع بعلمٍ وحكمةٍ ليظهر الحقّ ويُربّي القلوب ويكشف الصادق من المدّعي.
- نداءُ الإنفاق قبل اليوم: الوقتُ رأس مالٍ لا يعود.
- يومٌ بلا بيع: سقوطُ البدائل حين تُغلق أبوابُ الدنيا.
- يومٌ بلا خُلّة: العلاقاتُ لا تُنقذ إن لم يُنقذك عملُك.
- يومٌ بلا شفاعة: لا نافذةَ تُفتح إلا بإذنٍ وعدل.
- آيةُ الكرسي: إعلانُ السيادة الكاملة... قبل كلِّ تكليف.
- الحيُّ القيّوم: حياةٌ لا تنطفئ... وقيامٌ لا يكلّ.
- لا سِنة ولا نَوم: ربٌّ لا يغيب... فلا تغفل.
- مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: القلبُ لا يليق أن يتعلّق بغير المالك.
- "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ": عظمةُ الوقوف بين يديه تُسقط كل اتكالٍ فارغ.
- علمٌ محيط: أنتَ مكشوفٌ قبل أن تتكلم.
- "وَلَا يُحِيطُونَ": العقولُ تَسجُد حين تعرف حدَّها.
- سعةُ الكرسي: اتساعُ السُّلطان... وطمأنينةُ المؤمن.

- "وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا": حفظُ السماوات والأرض لا يُثقله ولا يُعجزه.
- العَليُّ العَظِيم: علوُّ القهر... وعظمةُ الحق.
- لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ: الإيمانُ قرارُ قلبٍ لا قهرُ يد.
- قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ: الطريقُ واضح... والحجةُ قائمة.
- الكفر بالطاغوت أولاً: قطيعةٌ قبل وصال – تخلية –.
- الإيمان بالله: امتلاءٌ بعد فراغ – تحلية –.
- العُروة الوُثقى: تمسّكٌ لا يُكسَر... لمن صدق.
- وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ: يسمعُ رجفةَ الداخل... ويعلمُ سرَّ الاختيار.
- ولايةُ المؤمنين: انتقالٌ من ظلماتٍ متراكمة إلى نورٍ واحد.
- ولايةُ الطاغوت: خروجٌ من نورٍ فطري إلى ظلماتٍ مركبة.
- أصحاب النار: نهايةُ المسار حين تُستبدل الولاية.
- مجادلةُ الملك: فتنةُ السُّلطة حين تتكلم بلسان الربوبية.
- "أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ": تلبيسُ المعنى بحيلةٍ رخيصة.
- حجةُ الشمس: الحقُّ يقطع الجدال بضربةٍ واحدة.
- بُهتَ الكافر: لحظةُ سقوط الزيف أمام برهانٍ صريح.
- قريةٌ خاوية: سؤالُ اليأس حين يواجه خرابَ الواقع.
- إماتةٌ ثم بعث: درسُ الزمن... حين ينهار تقديرُ الإنسان.
- "لم يتسنّه": آيةٌ في الرزق الذي لا تفسده السنون.
- الحمار والعظام: إحياءُ الدليل في أبسط ما يُرى.
- "أَعْلَمُ أَنَّ اللّه": تحوّلُ الشَّك إلى يقينٍ مُشاهَد.
- "أَرِنِي كَيْفَ": طلبُ زيادةِ طمأنينة... لا نقضُ إيمان.
- "بَلَى وَلَكِن": الإيمانُ درجات... والقلبُ يطلب تثبيتاً.
- الطير والأجزاء: برهانُ الإحياء يُركَّب أمام العين.

- "يَأْتِينَكَ سَعْياً": الحياةُ بأمر الله... لا بسبب الأسباب.
- "عَزِيزٌ حَكِيمٌ": قدرةٌ لا تُغلَب... وحكمةٌ لا تُتَّهَم.
- مثلُ الإنفاق: بذرةٌ صغيرة... تُخرج مضاعفاتٍ لا تُحصى.
- "وَاللّهُ يُضَاعِفُ": الرزقُ ليس حساباً... بل فضلاً.
- إنفاقٌ بلا منّ: الصدقةُ تموت إذا أُتبعت بالإذلال.
- "وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ": طمأنينةُ من أعطى لله لا للناس.
- قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ: كلمةٌ تداوي... خيرٌ من مالٍ يجرح.
- "غَنِيٌّ حَلِيمٌ": الله تعالى لا يحتاجُ عطاءك... لكنه يحلمُ على تقصيرك.
- إبطال الصدقات: الرياءُ نارٌ تأكل الأجر من الداخل.
- صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ: عملٌ ظاهر... قلبُه حجر.
- وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً: امتحانٌ يكشف فراغ الإخلاص.
- جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: قلبٌ مرتفع... يعطي ولو قلّ المطر.
- وَابِلٌ فَطَلٌّ: الثباتُ لا يتوقف على كثرة الظروف.
- "بَصِير": يرى ما لا يراه الناس: نيةُ المنفق.
- جنةٌ تحترق: لحظةُ الحسرة حين تضيع ثروة العمر في آخره.
- الكِبر والذرية الضعفاء: أشدُّ ما يؤلم: ضياعُ السَّند عند الحاجة.
- إعصارٌ فيه نار: فتنةٌ خاطفة... تحرق سنواتٍ صامتة.
- الإنفاق من الطيبات: الله تعالى طيّب... لا يقبل خبيثاً.
- "وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ": لا تُهدِ لله ما تستحي أن تأخذه.
- "غَنِيٌّ حَمِيدٌ": يُغنيك ثم يحمدك إن شكرت.
- وعدُ الشيطان: يُخوّفك بالفقر ليُمسك يدك.
- أمرُه بالفحشاء: يبدأ من المال... لينتهي إلى السقوط.
- وعدُ الله: مغفرةٌ وفضل... بدل فقرٍ متوهَّم.

- "وَاسِعٌ عَلِيمٌ": سعةُ العطاء مع علمٍ بما في القلب.
- الحكمةُ عطية: من رُزقها رُزق خيراً كثيراً.
- تذكّرُ الألباب: العاقلُ لا يُخدع بزينة التخويف.
- علمُ النفقة والنذر: لا شيء يضيع... حتى لو خفي.
- إبداء الصَّدقات: إعلانُ الخير إذا سلم من الرِّياء.
- إخفاؤها للفقراء: سترٌ يُنبت أجراً أعظم.
- "ويُكفِّر": المالُ قد يكون مَحاةَ الذنوب إذا صدق.
- الهداية ليست عليك: لا تملك القلوب... فطهِّر نيتك.
- "وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ": تصحيحُ البوصلة قبل المسير.
- "يُوَفَّ إِلَيْكُم": العطاء لا يُنقص... بل يعود كاملاً.
- فقراء محصورون: كرامةُ التعفف تُخفي الحاجة.
- "تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ": أهل الصدق لا يصرخون بسؤال.
- "لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً": الفقرُ عندهم حياءٌ لا ابتزاز.
- إنفاق الليل والنهار: ثباتُ العبادة في كل حال.
- سِرّاً وعلانية: إخلاصٌ لا يتلوّن بالمشهد.
- الرِّبا: اضطرابُ الرُّوح حين يأكل المالُ قلبه.
- "إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا": حيلةُ التبرير حين يُغلق الضمير.
- "وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا": الحدُّ الفاصل بين رزقٍ ونار.
- "فَلَهُ مَا سَلَفَ": بابُ الرجوع مفتوح قبل الإصرار.
- "وَمَنْ عَادَ": العودةُ بعد العلم إعلانُ حربٍ على النفس.
- يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا: بركةٌ تُسحَب ولو كثُر الرَّقم.
- وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ: زيادةٌ مباركة ولو قلّ العطاء.
- فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ: أي إنَّ الإصرار على الربا ليس خطأً عابراً...

بل إعلانُ تمرّدٍ يستجلب مواجهةَ غضبِ الله وعقوبته.

- "فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ": عدلُ الشريعة حتى مع العاصي التائب.
- لا تظلمون ولا تُظلمون: ميزان لا يميل.
- ذو عسرة: رحمة الإمهال قبل قسوة التحصيل.
- "وَأَنْ تَصَدَّقُوا": العفو أحيانا أعلى من الحق.
- "وَاتَّقُوا يَوْماً": استدعاء الآخرة في منتصف المعاملات.
- "ثُمَّ تُوَفَّى": لا خصم ينسى... ولا حق يضيع.
- آية الدَّين: الإيمان يدخل أدق تفاصيل السُّوق.
- الكتابة بالعدل: توثيق يحرس القلوب من سوء الظَّن.
- الإملاء على صاحب الحق: مسؤولية الاعتراف قبل المطالبة.
- السَّفيه والضعيف: الشريعة تحفظ حقه بحارس عادل.
- الشهادة: حماية للحقوق من مزاج اللحظة.
- رجل وامرأتان: توثيق لا انتقاص... في باب تكثر فيه الغفلة.
- "أَنْ تَضِلَّ": وقاية من نسيان الإنسان لا من قدره.
- لا تسأموا: الحقوق الصغيرة تبنى منها المظالم الكبيرة.
- تجارة حاضرة: التيسير حيث لا يخشى النزاع.
- لا يضار كاتب ولا شهيد: العدل لا يستغل.
- الرهن في السَّفر: حلول واقعية لحفظ الأمانة.
- أداء الأمانة: دينك يقاس حين تغيب العيون.
- كتمان الشهادة: "آثِمٌ قَلْبُهُ" قبل أن تكون آثم جوارحه.
- محاسبة السَّرائر: حتى ما في النفس داخل الحساب.
- "فَيَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ": بابان... يفتحان بصدقك أو إصرارك.
- إيمان الرسول والمؤمنين: القدوة تبدأ من التسليم.

- "لَا نُفَرِّقُ": وحدة الإيمان بلا انتقائية.
- "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا": شعار أهل العهد لا أهل المزاج.
- "غُفْرَانَكَ": الطاعة لا تغني عن افتقار المغفرة.
- "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ": رحمة التكليف... لا قسوة العجز.
- "لَهَا مَا كَسَبَتْ": عدل الجزاء... لا يحمل أحد عن أحد.
- دعاء الختام: اعتراف، وطلب عفو، واستمداد نصرة.
- افتتاح آل عمران: توحيد يتكرر... ليحفظ القلب من التشتت.
- تنزيل الكتاب بالحق: معيار الصدق وسط الضجيج.
- التوراة والانجيل والفرقان: وحدة الوحي... وتعدد الامتحان.
- "لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ": الطمأنينة لمن صدق... والرُّعب لمن نافق.
- التصوير في الأرحام: ربوبية تسبق كل استكبار.
- محكم ومتشابه: ميزان القراءة بين هداية وفتنة.
- زيغ القلوب: يتبع المتشابه ليصنع فتنة لا فهما.
- الراسخون: إيمان يسلم... لا عقل يتلاعب.
- دعاء الثبات: الخوف من الزيغ بعد الهدى.
- "جَامِعُ النَّاسِ": أفق اليوم الآخر يردع الغرور.
- المال والولد: سقوط الاتكال على الزينة.
- دأب فرعون: تكرار سنن الهلاك مع تكرار الكفر.
- "سَتُغْلَبُونَ": تهديد الغرور قبل أن يصير حقيقة.
- آية الفئتين: النَّصر من الله لا من العدد.
- زينة الشَّهوات: اختبار القلب حين تتجمل الدنيا.
- "أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ": نقل البوصلة من المتاع إلى المآب.
- جنات ورضوان: الجزاء ليس نعيما فقط... بل رضا.

- صفات المتقين: صبر وصدق وقنوت وإنفاق واستغفار.
- شهادة الله والملائكة وأولي العلم: التوحيد قائم بالقسط.
- الدين عند الله الإسلام: توحيد الانقياد لا تعدد الأهواء.
- اختلاف أهل الكتاب: بغي بعد العلم... لا جهل قبل البيان.
- "أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ": الاستسلام وجهة لا جدال.
- قتل الأنبياء وقتل الآمرين بالقسط: كراهية العدل علامة سقوط.
- "لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ": أمان كاذب يصنع الجرأة على الذنب.
- "مَالِكَ الْمُلْكِ": تفويض يهدم عبادة المناصب.
- "بِيَدِكَ الْخَيْرُ": القلب يهدأ حين يرى المصدر واحدا.
- الولاء: لا تتخذوا الكافرين أولياء... حماية الهوية من الذوبان.
- "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا": رخصة دفع الضَّرر بلا بيع الدين.
- تحذير الله نفسه: أخوف التحذير حين يكون من الرَّحمن.
- "إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي": الحب يترجم اتباعا.
- طاعة الرسول: مقياس صدق الدعوى.
- الاصطفاء: اختيار الله لعباده ليس وراثة للغرور بل للعبودية.
- قصة مريم: الطهر يبدأ من نذر صادق.
- "إِنِّي أُعِيذُهَا": الأم تسلم ابنتها قبل أن تمسكها.
- رزق مريم: حين يفتح الله بابا بلا حساب.
- يحيى: عطاء بعد يأس... ليكسر قانون "المستحيل".
- "كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ": ختم على كل قوانين العادة.
- اصطفاء مريم: تكريم بالطَّهارة لا بالضجيج.
- بشارة عيسى: خلق بأمر "كن" لا بمعايير البشر.
- معجزات عيسى: "بِإِذْنِ اللَّهِ" كي لا تسرق الربوبية.

- دعوة عيسى: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ": الأنبياء يردون الناس إلى الله.
- الحواريون: النُّصرة أولا لله... قبل نصرة الأشخاص.
- مكروا ومكر الله: سقوط التدبير أمام تدبير الحق.
- رفع عيسى وتطهيره: حماية الله لرسله من تشويه المبطلين.
- اتباع فوق كفر: الغلبة ليست دائما بالسَّيف... قد تكون بالبقاء.
- مثل عيسى كمثل آدم: هدم التأليه بإرجاع الأصل إلى الخلق.
- "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ": قطع الشك... وإغلاق باب المراء.
- المباهلة: لحظة الفصل حين يعجز البرهان عن كسر العناد.
- "كَلِمَةٍ سَوَاءٍ": دعوة جامعة تعيد الدين إلى أصل التوحيد.
- وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً: أخطر الشرك أن يلبس لباس الطاعة.
- جدلهم في إبراهيم: الخصومة حين تسلب من العقل.
- "هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ": فضيحة الكلام بلا علم.
- "حَنِيفاً مُسْلِماً": تعريف الهوية قبل صراع الشعارات.
- أَولى الناس بإبراهيم: القرب بالاتباع لا بالنسب.
- ود أهل الكتاب: مشروع الإضلال لا يتوقف.
- لبس الحق بالباطل: تلويث النور ليضيع الناس.
- خطة الإيمان ثم الكفر: حرب نفسية لزعزعة الثبات.
- "الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ": كسر احتكار الهداية والرَّحمة.
- الأمانة بالقنطار والدينار: الأخلاق تختبر في المال.
- "لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ": عنصرية تنتج ظلما مبررا.
- "يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً": بيع الدين بصفقة.
- لا يكلمهم الله ولا ينظر: أقسى عقوبة حرمان القرب.
- "يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ": تحريف ناعم يصنع كفرا صلبا.

- لا يكون لبشر أن يقول: عبيدا لي... أخطر انحراف: تأليه الدعاة.
- "كُونُوا رَبَّانِيِّينَ": العلم عبودية لا سيطرة.
- ميثاق النبيين: وحدة الصف النبوي حول خاتم الرسالة.
- "فَمَنْ تَوَلَّى": الفسق يبدأ من نقض العهد.
- "وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ": الكون كله يسجد... فلا تتكبر.
- إعلان الإيمان بكل الكتب والرسل: قلب بلا انتقائية.
- "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ": وضوح النهاية لمن بدل الطريق.
- كفر بعد إيمان: سقوط بعد معرفة أشد من جهل.
- اللعنة والخلود: ثمرة الإصرار لا خطأ العابرين.
- باب التوبة: الرحمة تفتح لمن أصلح لا لمن اعتذر.
- ازدياد الكفر: مرحلة الإغلاق حين يتكرر الرفض.
- موت على الكفر: فداء الأرض ذهبا لا يشتري لحظة نجاة.
- "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ": ذروة الامتحان في ما تحب لا في ما تترك.
- الإنفاق مما تحب: صدق القلب يقاس عند المفارقة.
- "وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ": لا شيء يضيع... لأن الله به عليم.

وهذا التدرج النفسي مقصود:

١. يثبت "من هو ربك"،
٢. ثم يختبر "من هو ربك في قراراتك"،
٣. ثم يعرّيك "كيف يفسد الناس الدين حين يزيغ القلب"،
٤. ثم يسألك: هل أنت من أهل الاتباع أم أهل الانتقاء؟
٥. ثم ينهي الطريق بسؤالٍ لا يُجاب بالكلام بل بالفعل: هل تقدر أن تُقدّم لله ما تحب؟.

المحور الإيماني المركزي

انتقالُ القلب من الاتّكال على "الأسباب" إلى الاعتصام بـ **الحيِّ القيّوم**؛ ومن دينٍ يُستهلك في الطقوس والمعلومات إلى دينٍ يُترجَم في **الإنفاق**، و**القطيعة مع الطاغوت**، و**الاختيار الحُرّ للإيمان**، و**تصحيح معنى الولاية** ...ثم امتداد هذا التوحيد إلى افتتاح آل عمران حيث يُعاد تثبيت "المصدر الواحد" للكتاب والقدر والرزق والتصوير والهداية، فتتعرّى أوهامُ أهل الكتاب، وتنكشف فتنةُ المتشابه، ويُعاد ضبط البوصلة: **الإسلام هو الاستسلام**، لا جدلٌ ولا انتقائية؛ وأن ذروة الامتحان ليست في القول... بل في **مفارقة ما تُحبّ**: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

أخطر الانحرافات التي يُحذّر منها هذا الجزء

- انحرافٌ عقديّ: أن يتحوّل الإيمان إلى "انتسابٍ لفظيّ" مع بقاء المرجعية عند غير الله: التحاكم للطاغوت، وطلب الولاية من غير الوليّ الحق، والاتكال على شفاعةٍ بلا إذن، أو على خُلّةٍ وعلاقاتٍ تُغني عن التوبة؛ وأن يُستبدَل التسليمُ بالاعتراض، فيُعبد "المزاج" باسم الفهم، ويُجزّأ الدين باسم الواقعية، ويُفتَن القلب بالمتشابه ليصنع تأويلاً يُوافق هواه لا هدايةً تُوافق الحق.
- انحرافٌ أخلاقيّ: فسادُ العمل بعد ظاهره: إبطال الصدقات بالمنِّ والأذى، والإنفاق رياءً لا ابتغاء وجه الله، وكتمانُ الشهادة، و"ليُّ اللسان" وتحريفُ المعاني، ولبسُ الحقّ بالباطل، وبيعُ العهد بثمنٍ قليل؛ أخلاقٌ تُجمّل القبح وتُقدّم "حُسن الكلام" على صدق السلوك.
- انحرافٌ اجتماعيّ: هدمُ نسيج المجتمع من باب المال والحقوق: الرِّبا بوصفه حرباً على العدالة، وأكلُ أموال الناس بالباطل، وتضييعُ التوثيق والبينات حتى تتسع الخصومات، واستسهالُ ظلم الضعفاء (فقيرٌ، يتيمٌ، مَدينٌ،

مستضعف)، وصناعةُ طبقيةٍ دينية أو عِرقية: "ليس علينا في الأميين سبيل"؛ مجتمعٌ يُدار بالتحايل بدل القِسط، وبالعصبية بدل الشهادة.

- انحرافٌ نفسيّ: ميلُ القلب إلى "الأمان الكاذب" وإدمان التبرير: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾، والخوف من الناس أكثر من الخوف من الله، وعبوديةُ الشهوة حين تتزيّن الدنيا (نساء/مال/ولد/منصب)، والحسدُ والاعتراضُ على قسمة الله، والانسحاب الداخلي من الامتحان: يعرف الحق ثم يكتمه، يسمع النداء ولا يعيه، يطمئن للعادة ويهرب من التحوّل.

ملامحُ الشَّخصيَّةِ الَّتي يَصْنَعُها هٰذا الجُزْء

١. شخصيةٌ موحِّدة المرجعية: ترى المصدر واحداً: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فلا تتوزّع بين وسائط، ولا تُعلّق قلبها بخُلّةٍ أو شفاعةٍ أو منصب؛ تُحسن الظَّنّ بالله، وتخافه أكثر ممّا تخاف الناس، وتُسَلِّم حين يُحسَم الحقّ.

٢. شخصيةٌ حرّةُ الاختيار: تؤمن بلا إكراه، وتكفر بالطاغوت عن وعي، فتختار الولاية لله اختياراً لا مجاملة؛ تعرف أن الرُّشد تبيَّن، وأن الامتحان يُظهر الاتباع.

٣. شخصيةٌ أمينةٌ في المال والحقوق: تكتب، وتُشهِد، وتُقِرّ بالحقّ قبل أن تطالب به؛ لا تملّ من توثيق الصغير والكبير، ولا تستغلّ الثغرات؛ تكره الرِّبا لأنه حربٌ على العدل، وتحبّ الصدقة لأنها نماءٌ للروح قبل المال.

٤. شخصيةٌ مُحسِنةٌ في العطاء: تنفق ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسها؛ لا تتبع صدقتها منّاً ولا أذى؛ تُخفي حيث يكون الإخلاص أزكى، وتُظهر حيث تكون القدوة أنفع؛ تبذل ممّا تُحبّ لا ممّا تَفْضُل.

٥. شخصيةٌ راسخةٌ في الفهم: تميّز بين المحكم والمتشابه؛ لا تتبع المتشابه طلباً لفتنة، ولا تُسيّس النَّصّ لخدمة الهوى؛ تقول: "آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا"، وتدعو: "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا".

٦. شخصيةٌ ثابتةٌ أمام الزينة والتهديد: لا يغرُّها المال والولد، ولا تفتنها زينة الشَّهوات؛ تسمع: "ستُغلبون" فتزداد يقيناً، وترى آية الفئتين فتوقن أن النصر من الله لا من العدد.

٧. شخصيةٌ ولاؤها لله أوّلاً: تحفظ هويتها من الذوبان، وتعرف رخصة التَّقيَّة عند الضرورة بلا بيعٍ للدين؛ تُحذِّرها الآيات من أمانٍ كاذب، ومن حبٍّ بلا اتباع.

٨. شخصيةٌ ربّانيةٌ في العلم والدعوة: لا تُؤلّه الدعاة، ولا تلبس الحقّ بالباطل؛ تكون "ربّانية" بما تعلّم وتدرّس؛ ترى وحدة الرسالات، وتُعلن الإيمان بكلّ الكتب والرسل بلا انتقائية.

٩. شخصيةٌ مُبتلاةٌ مُتزكِّية: تفهم أن القصص ليست تاريخاً بل ميزاناً حاضراً؛ ترى في إبراهيم ويحيى ومريم وعيسى نماذجَ اصطفاءٍ وطهرٍ وثبات؛ تعرف أن العاقبة للمتقين، وأن الغلبة قد تكون بالبقاء لا بالسيف.

١٠. شخصيةٌ مُحاسِبةٌ لنفسها: تستحضر يوم "ثم تُوفّى"، وتعلم أن ما في النفس داخل الحساب؛ تجمع بين "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" و"غُفْرَانَكَ رَبَّنَا"، بين العمل والافتقار.

١١. شخصيةٌ مُتَّزنةٌ في الرجاء والخوف: تقرأ: "فيغفر... ويعذّب" فتسير بين بابين؛ لا يأمنُ مكر الله، ولا يقنط من رحمته؛ تعرف أن "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا"، فتجتهد بطمأنينة.

١٢. شخصيةٌ تُعيد تعريف البرّ: لا تكتفي بواجهةٍ دينية؛ تبلغ البرّ حين تُنفق ممّا تُحبّ؛ تفهم أن الذروة في المفارقة لا في الادّعاء، وأن ما تُنفقه لا يضيع لأن الله به عليم.

هـذه شخصـيةٌ قلبُهـا موحِّـد، وعقلُهـا راسـخ، ومالُهـا أمـين، وولاؤهـا واضـح، وعطاؤها خالص، وخطوتها ثابتة... تمشي في السُّوق كما تمشي في المحراب، لأن الوليَّ واحدٌ، والغايةَ واحدة.

أمراضُ القلوب التي يُعالِجُها هذا الجزء

١. مـرضُ التعلّـق بغـير الله: قلـبٌ يتكـئ علـى خُلّـةٍ أو شـفاعةٍ أو منصـبٍ أو نسبٍ... فيأتي هذا الجزء ليعيده إلى "الحيّ القيّوم"، ويهدم أمانَ الوسائط، ويُذكّره أنّ الولاية لله وحده، وأنّ الحبّ إن لم يُترجَم اتباعاً فهو دعوى بلا روح.

٢. مرضُ الانتقائية في الإيمان: الإيمان بما يوافق المزاج وترك ما يُكلِّف؛ فيُعالج ذلـك بإعـلانٍ جـامع: "لا نُفـرِّق"، وبتكـرار توحيـد المرجعيـة، وبكشـف خطورة اتباع المتشابه طلباً للفتنة.

٣. مرضُ الأمـان الكـاذب: "لـن تمسّنا النـار"... ثقـةٌ مُخدِّرة تُنتج جُرأةً على الذنب؛ فيوقظ القلب بذكر اليوم الآخر، وبتذكير "ثم تُوفّى"، وأنّ الحساب يشمل السرائر.

٤. مرضُ الرِّياء وحبّ الصورة: إنفاقٌ يُتبع منّاً وأذًى، أو يُراد به مدح الناس؛ فيُعالجه بميزان الإخلاص: ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من النفس، وأنّ القول المعروف خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى.

٥. مرضُ البُخل والخوف من الفقر: وعدُ الشيطان بالفقر يُجمِّد اليد؛ فيُعالَج بوعد الله بالمغفرة والفضل، وبصورة الحبة التي تُنبت سبع سنابل، وباليقين أن الصدقة نماءٌ لا نقص.

٦. مرضُ الظلم المالي وأكل الحقوق: التهاون في التوثيق، وكتمان الشهادة، واستغلال الضعفاء، والرِّبا؛ فيُعالجه ببناء ضميرٍ أمين: اكتبوا، أشهدوا، لا تُضارّوا، لا تظلمون ولا تُظلمون.

٧. مرضُ الحسد والاعتراض على القسمة: الضيق من فضل الله على غيرك؛ فيُعالجه بقوله: "الفضل بيد الله"، وبمشاهد الاصطفاء في آل عمران، حيث العطاء اختيارٌ ربانيّ لا ميدانَ للغيرة المسمومة.

٨. مرضُ الغرور بالعلم والجدل: ليُّ الألسنة، ولبسُ الحق بالباطل، والخصومة بلا علم؛ فيُعالجه بمنهج الراسخين: "آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا"، وبفضيحة الجدل حين يُسلب من العقل.

٩. مرضُ التذبذب والزَّيغ بعد الهدى: قلبٌ يَميل مع الشُّبهات؛ فيُعالجه بدعاء الثبات: "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا"، وبالتمييز بين المحكم والمتشابه.

١٠. مرضُ عبودية الشَّهوة وزينة الدنيا: افتتانٌ بالمال والولد والجاه؛ فيُعالجه بنقل البوصلة: "أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ"، وبوعد جناتٍ ورضوان، وبتهديد "ستُغلبون" لكلّ غرورٍ أرضي.

١١. مرضُ القسوة تجاه الضعفاء: فقيرٌ يُحسب غنيّاً لتعفّفه، ومَدينٌ يُضيَّق عليه، ويتيمٌ يُستغلّ؛ فيُعالجه بإحياء الرحمة: نظرةٌ إلى ميسرة، والإنفاق سرّاً وعلانية، وحفظ الأمانة.

١٢. مرضُ الجفاف الروحي: عملٌ بلا افتقار؛ فيُعالجه بخاتمةٍ تُعلّم التوازن: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا... غُفْرَانَكَ رَبَّنَا"، بين الطاعة والاعتراف، بين الاجتهاد والرجاء.

١٣. مرضُ القنوط واليأس: استبعاد المستحيل؛ فيُعالجه بمشاهد مريم ويحيى وعيسى: "كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ"، ليعود القلب إلى الرجاء بعد انسداد الأسباب.

١٤. مرضُ الاستعلاء الديني: احتكارُ النجاة، وازدراءُ الآخرين؛ فيُعالجه بكلمةٍ سواء، وبإعلان الإسلام استسلاماً لا تعالياً، وبكشف أن البغي بعد العلم هو أصل السقوط.

هذا الجزء يُعيد هندسة القلب: يقطع تعلّقه، ويُهذّب خوفه، ويُطهّر نيّته، ويُقيم ميزانه، ويُعلّمه أن البرّ ليس ادّعاءً... بل بذلٌ ممّا تُحبّ، وأن النجاة ليست شعاراً... بل صدقاً بين يدي الله.

الاختبار الذاتي الذي لا يُجامل:

١) هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

← حين أقرأ عن الرِّبا... هل يضطرب حسابي أم يطمئنّ ضميري؟

← حين أسمع: "لا تظلمون ولا تُظلمون"... هل أفتّش في تعاملاتي أم أكتفي بإدانة غيري؟

← حين أقرأ: "سمعنا وأطعنا"... هل هي كلمتي حين يوافقني الحكم فقط... أم حين يُكلِّفني؟

إذا لم أشعر أن الآيات تخاطبني أنا... فبماذا أخاطَب؟

٢) أين انكشف قلبي؟

← عند المال؟ حين يُطلب منّي أن أُنفق ممّا أُحبّ؟

← عند الولاية؟ حين يتعارض رضا الناس مع رضا الله؟

← عند المتشابه؟ حين أبحث عمّا يُريح رأيي لا عمّا يُرضي ربّي؟

← عند الزينة؟ حين تتجمّل الدنيا فأؤجّل الآخرة؟

٣) أيُّ آيةٍ أربكتني؟

← هل أقلقني: "فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله"؟]

← أم أزعجني: "ولا تكتموا الشهادة"؟

← أم أحرجني: "لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما تُحبّون"؟

الآية التي أربكتك... هي الآية التي كشفت موضع المرض.

٤) ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

← دينٌ بلا توثيق؟

← صدقةٌ يُتبعها منٌّ خفيّ؟

← ولاءٌ مرتبك؟

← خوفٌ من الفقر يُجمّد يدي؟

← حبٌّ لا يُترجَم اتباعاً؟

٥) ثم اسأل نفسك بصراحة:

← لو متُّ الليلة... أيّ ملفٍّ سيُفتح أولاً؟

← وأيُّ آيةٍ ستكون شاهدةً لي... وأيُّها ستكون شاهدةً عليّ؟

هذا الجزء لا يطلب منك أن تحفظه... بل أن تكتشف نفسك داخله.

خطة التغيير كطريقٍ قصيرٍ لكنه صريح

خطةُ التغيير في هذا المقطع طريقٌ قصيرٌ لكنه صريحٌ؛ يبدأ بتكسير الوهم، وينتهي بميزانٍ لا يُجامل، وما بينهما قرارٌ واحدٌ يتكرر حتى يصير أنت...

١. اكسر أوّل فتنةٍ في الداخل قبل أن تبحث عن فتنة الخارج... لا تُقدِّس الأشخاص ولا تُعلِّق إيمانك على وجود "الصالحين" ولا تظنّ أن العلم وحده يمنع السقوط... فحتى تحت نور النبوة يقع الاختلاف لتفهم أنّ القلب إن لم يُزكَّ صار الحقُّ عنده سلاحاً لا هداية... ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ... وَلَكِنِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

٢. اقطع تعلّقك بالضّمانات قبل أن تتكلم عن الطاعات... قد يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ تُطلب بغير إذن... فليكن أمانك فيما تُقدِّمه لا فيما تملكه... قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

٣. ثبّت صورة "القيّوم" فوق خوفك وخطتك ورزقك... فإذا استقرت سيادة الله في القلب سقطت أصنام القلق والناس والمستقبل بلا معركة...﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

٤. اجعل "الشفاعة" تصحيحاً للتوحيد لا نافذةً للأماني... لا أحد يشفع استقلالاً ولا أحد يملك لك شيئاً دون إذن... فطهِّر قلبك من الاتكاء على غير الله...﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

٥. ابدأ الدين من نقطة القطيعة لا من نقطة الزينة... اكفر بالطاغوت أولاً ثم آمن بالله... لا تُجمّل الظاهر لتخدع الداخل... ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾.

٦. حدِّد ولايتك الآن... من الذي يقود قراراتك عند الغضب والشهوة والخوف؟ فإن لم يكن الله فكل "إصلاح" بعدها ترميمٌ فوق أساسٍ مكسور... ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

٧. لا تُهزم بالجِجاج... الطغيانُ يُحبّ أن يجعل الإيمان مناظرةً... فإذا رأيت قلبك يتغذّى على الجدل فارجعه إلى بداهات الربوبية... ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

٨. ابنِ يقينك على مشاهد الإحياء... لا تيأس من خرائبك الداخلية... فالذي يحيي بعد الموت يحيي قلبك بعد موته... ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩. اطلب طمأنينة القلب بالفعل الصادق لا بالاستعراض... اجعل لك "طاعةً ثابتة" تُطمئن بها قلبك كما طلب إبراهيم عليه السلام الطمأنينة لا الشك... ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

١٠. اجعل الإنفاق تربيةً لا حملة... فالحبّة قد تصير سبعمائة... لكن بشرط سلامة القلب من المنّ والأذى... ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ... وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾.

١١. اقطع سُمّ الإحسان: المنّ والأذى... فمن أفسد نيته أحرق أجره وإن كثر عطاؤه... ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذًى﴾ – ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾.

١٢. لا تصدّق أكذوبة الشيطان: "الكرم يساوي الفقر"... وصدّق وعد الله: "المغفرة والفضل"... ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾.

١٣. اختم طريقك بمعيارٍ لا يظلم: يومٌ تُعرض فيه الأعمال ويظهر فيه الصدق من التزيّن... فليكن آخر ما يوقظك كل ليلة: الرجوع إلى الله... ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١٤. واجعل "الميثاق" قانونك اليومي... سمعنا وأطعنا... لا سمعنا وناقشنا... ولا سمعنا واعتذرنا... ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

١٥. ضع عنواناً واحداً لنهاياتك... لا تُغادر الدنيا على العادة ولا على الانتماء ولا على الحماس... بل على "حقيقة الإسلام" الذي تُسلم به وجهك وتتبع الرسول... ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ – ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

١٦. لا تتوهّم البرّ ما دمتَ تُنفق من الفائض وتُمسك المحبوب... فالبرّ لا يُنال بالكلام ولا بالانفعال ولا بكثرة الادّعاء؛ البرّ يُفْتَحُ حين تُقدِّم لله ما تُحبّ لا ما تستغني عنه... ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

الطريق ليس طويلاً... لكنه صريحٌ؛ قرارُ قطيعةٍ مع الوهم، وقرارُ صدقٍ مع الله يتكرّر حتى يصير أنت.

ومن أراد البرّ حقّاً فليُقدِّم أحبَّ ما يملك، ثم يمضِ إلى الله خفيفَ القلب، واضحَ الولاية، صادقَ الرجوع.

خاتمة وجدانية مزلزلة للجزء

ليس هذا الجزءُ صفحاتٍ تُقرأ على عجلٍ ثم تُطوى، بل هو مرآةٌ ثقيلةٌ تُحمل إلى القلب، تُرِيك صورتك كما هي لا كما تحبّ أن تراها؛ فكلُّ آيةٍ فيه إمّا أن ترفعك درجةً في الصدق، أو تفضح فيك شقّاً خفيّاً لم تُصلحه بعد، وكلُّ مقطعٍ فيه ليس سؤالَ معلوماتٍ بل سؤالَ موقف، لا يسألك ماذا عرفت، بل يسألك ماذا غيّرت، لا يسألك كم حفظت، بل يسألك أين سلّمت، وأين خضعت، وأين انكسرت بين يدي ربّك.

إن كنت خرجتَ منه ولم تهتزّ علاقتك بالمال، ولم تُراجِع ولاءك، ولم ترتبك أمام قوله: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ"، ولم تخشع سرّاً عند قوله: "ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ"، فاعلم أن القراءة مرّت على عينيك ولم تمرّ على قلبك، وأن الكلمات لامست سمعك ولم تُلامس جذر إرادتك؛ فهذا الجزء يقطع الأعذار، ويُسقط الأمان الكاذب، ويهدم الاتكال على الناس، وينزع عنك وهم "أنا بخير" دون فحصٍ حقيقي، ويضعك أمام خيارٍ صريحٍ لا يحتمل المراوغة: إمّا أن تكون عبداً خالصاً يُعيد ترتيب قلبه وماله وولائه على ضوء الوحي، أو تصنع لنفسك نسخةً مخفّفةً من الدين تُريحك ساعةً ولا تُنجيك أبداً.

ستقف يوماً، وستُتلى عليك هذه الآيات لا لتتدبّرها بل لتُحاسَب بها، وستسمع "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" لا كشعارٍ محفوظٍ تتزيّن به، بل كشهادةٍ إمّا أن تُنقذك لأنك عشتها، أو تُدينك لأنك ادّعيتها، فاختر الآن قبل أن يُقال لك: "ثُمَّ تُوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ"، واختر وأنت في زمن الإمكان لا في زمن الحساب.

اللهم لا تجعلنا ممّن عرفوا الحقّ فجادلوا، ولا ممّن سمعوا فسوّفوا، ولا ممّن أُعطوا فبخلوا، ولا ممّن قالوا "آمَنَّا" ولم يُسلِموا، واجعلنا ممّن إذا قيل لهم اتّقوا اتّقوا حقّاً، وإذا قيل لهم أنفقوا أنفقوا صدقاً، وإذا قيل لهم سلّموا سلّموا طوعاً ومحبةً، فإن لم يتغيّر فينا شيءٌ بعد هذا الجزء، ولم تهتزّ فينا منطقةُ الأمان المزيّف، ولم نُراجع مواضع التعلّق والهوى، فماذا ننتظر ليوقظنا، وأيُّ نداءٍ بعد كلام الله سيهزُّنا؟

هذا الجزء يمسك قلبك ويقول لك:

١. إن لم تقع القطيعة في الداخل فلن تمسك العروة الوثقى،
٢. وإن لم يُصلَح مالك وحقوقك فلن يصدق توحيدك،
٣. وإن لم تُحكم تلقيك للقرآن فزيغُ المتشابه ينتظرك،
٤. وإن لم يتحول الحُب إلى اتباع فالحب دعوى،
٥. وإن لم تُقدّم لله مما تحب فلن تبلغ البرّ مهما كثرت أعمالٌ لا تمس قلبك.

فإن خرجت من هذا الجزء كما دخلته فالمشكلة ليست في الآيات، المشكلة أن العروة الوثقى مرَّت على لسانك، ولم تُمسك قلبك بعد.

الرسالة التي يوجهها الجزء الثالث الى المسلمين؟

- الإيمانُ ليس معرفةَ الدليل... بل ثباتٌ عند الاختلاف.
- قد يَظهر الحقُّ ثم تُولدُ الفتنةُ من داخله... فالعبرةُ بمن يثبت لا بمن شهد.
- اللهُ تعالى يُجري سُننَه... ليَظهر الصادقُ من المتعلّق بالأسماء لا بالنتائج.
- لا يُنجيك شرفُ الانتساب... إذا خانت الإرادةُ طريقَها.

- الإنفاقُ قبل الحساب... لأن المالَ آخرُ حصونِ النفس.
- يومٌ لا بيعَ فيه... يعني: لن تشتري نجاتك حين يفوت وقتُ العمل.
- لا خُلّةَ هناك... يعني: لا صداقةَ تُنقذك إن لم يُنقذك صدقُك.
- لا شفاعةَ هناك... يعني: لا أملَ بلا إذنٍ وصدقٍ وخضوع.
- آيةُ الكرسي تُعلّمك: من عرف "الحيَّ القيوم" استحيا أن يتوكّل على الميتين.
- لا ينامُ ربّك... فكيف ينامُ قلبُك عن مراقبتِه؟
- العلمُ كلُّه تحت مشيئتِه... فالتكبّرُ جهلٌ مُقنَّع.
- الكفرُ بالطاغوت ليس شعاراً... بل قطيعةٌ داخلية مع كلِّ مُضلٍّ يُطاع.
- العروةُ الوثقى تُمسَك بالبراءةِ من الباطل... لا بمجرد حبِّ الحق.
- الولايةُ ليست كلاماً... نورٌ يُخرِجُك من ظلماتِك أو يُعيدُك إليها.
- من جعل للطاغوت ولايةً... فقد اختار طريقَ الظُّلمة ولو صلّى.
- الحُجّةُ تُسقِطُ المتكبّر... إذا كان في القلب بقيةُ عدل.
- الطغيانُ يبدأ حين يتكلّم الجهل بثقة: "أنا أُحيي وأميت".
- الله يُحيي بعد الموت... ليُحيي فيك اليقين بعد اليأس.
- سؤالُ إبراهيم "ليطمئن قلبي" يُعلّمك: الإيمانُ يطلب زيادةَ طمأنينة لا ذريعةَ شَك.
- الصدقةُ ليست مالاً يُخرَج... بل قلبٌ يُطهَّر من المنّ والأذى.
- الرياءُ يُحرِقُ العمل... كما يحرق الإعصارُ الجنةَ عند العجز والحسرة.
- الطيبُ في الإنفاق امتحانٌ لمن يدّعي حبَّ الله... لا لمن يطلب ثناءَ الناس.
- الشيطانُ لا يحاربك بالمعصية أولاً... بل بوعدِ الفقر.
- الحكمةُ رزقٌ من الله... لا شهادةٌ من الناس.
- ما تُخفيه من صدقةٍ يُصلحك... قبل أن يُصلح فقيراً.

- الرزقُ ليس دليلَ رضا... بل قد يكون استدراجاً أو ابتلاءً.
- الربا حربٌ على بركةِ الحياة... قبل أن يكون ذنباً في الأوراق.
- "فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ" تعني: بعضُ المعاصي ليست زلّة... بل إعلانُ تمرّد.
- الدينُ لا يُدار بالمزاج... بل بالكتابة والعدل والشهادة، فإن ضاع مالك بعدها فلا تلومنَّ إلَّا نفسك.
- توثيقُ الحقوق عبادةٌ... لأنه يمنع ظلمَ القلوب عند الخصومة.
- كتمانُ الشهادة جريمةُ قلب... قبل أن تكون جريمةَ لسان.
- سيُحاسبك الله على ما في نفسك... لتعرف أن النجاة تبدأ من الداخل.
- "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" ليست عبارة... بل هويةُ قلبٍ لا يناور.
- "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا" تربيةٌ على الصدق لا على التراخي.
- السمعُ والطاعة طريقُ غفران... والجدلُ طريقُ قسوة.
- بدايةُ آل عمران تضعك أمام أصلٍ واحد: لا يُصلحك إلا "الحيُّ القيوم".
- الزيغُ يبدأ باتّباع المتشابه... لا بنقص المعلومات.
- الراسخُ لا يطلب التشغيب... بل يقول: "كلٌّ من عند ربّنا".
- الشهواتُ زينةُ اختبار... لا كرامةُ إنسان.
- المتاعُ قليل... ليَسقط وهمُ الخلود في الدنيا.
- أحببتَ الله؟ إذن الاتباعُ برهان... لا ادّعاء.
- اصطفاءُ الله لعباده ليس مادةَ حسد... بل مادةُ خضوع.
- أهلُ العلم ليسوا زينةَ مجالس... بل ميزانُ فتنة.
- أعظم الخسارة: أن تُدعى إلى كتاب الله ثم تُعرض.
- الغرورُ الدينيّ أخطرُ من الذنب... لأنه يُسمّي الهلاك أماناً.
- العهدُ مع الله لا يُباع... ولو بكنوزِ الأرض.
- من حرّف الكلم... حرّف طريقَه قبل أن يحرّف لفظَه.

- الرَّبانيةُ ليست لقباً... بل أثرُ تعليمٍ وخشيةٍ وسلوك.
- الإسلامُ ليس خياراً ثقافياً... بل تسليمُ وجهٍ وقرارُ مصير.
- "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ" تختصر الطريق: البرُّ ثمنُه ما تحب.

الترابط الموضوعي والبياني بين الجزء الثاني والجزء الثالث

من بناء الهوية الشرعية... إلى امتحان الولاء القلبي تحت سلطان القيّوم

الترابط الموضوعي والبياني بين الجزء الثاني والجزء الثالث ليس انتقالَ أوراقٍ تُقلَب، ولا انتقالَ دروسٍ تُستكمَل، بل انتقالُ مرحلةٍ في صناعة الإنسان،

← انتقالٌ من إقامة الشريعة في الظاهر إلى امتحان حقيقة التوحيد في الباطن،

← انتقالٌ من بناء الأُمَّة نظاماً وأحكاماً وحدوداً إلى اختبار القلب مرجعيةً ومقصداً وولاءً،

← انتقالٌ من سؤال: كيف تعيش الدِّين؟ إلى سؤالٍ أخطر وأعمق وأشد مساءلةً: لمن تعيش الدِّين حين تتعارض المصلحة مع النص، والراحة مع التكليف، والصورة مع الحقيقة.

الجزء الثاني جاء بعد تأسيس الهداية ليبني هويةً واضحةً لأُمَّةٍ لا تذوب في غيرها ولا تتكبر على غيرها، أُمَّةٍ تعرف قبْلتها كما تعرف وجهتها، وتحمل شريعتها كما تحمل اسمها، فكان تحويل القبلة إعلاناً عقديّاً عظيماً بأن المرجعية ليست تقليداً تاريخيّاً ولا حنيناً عاطفيّاً إلى ماضٍ مألوف، بل طاعةٌ لله ورسوله ولو خالفت الأعراف واهتزت النفوس وتكلم المرجفون، وكان وصف الأمَّة بالوسطية تثبيتاً لمعنى الشهادة لا لمعنى التسييل، وفرض الصيام تدريباً على كبح الشهوة حتى لا تتحول الحرية إلى انفلات، وتشريع القتال ضبطاً للقوة حتى لا تتحول الغيرة إلى عدوان، وأحكام الأسرة والطلاق والرضاع والقصاص والإنفاق إقامةً لمجتمعٍ منضبطٍ بالوحي لا تحكمه الأهواء ولا تُديره الانفعالات، فخرج القارئ من سؤال الهوية النظرية إلى سؤال التطبيق الواقعي: كيف تُقيم الهدى في

حياتك؟ وكيف تُجسِّد الوحي في تفاصيل يومك؟

لكن القرآن وهو العليم بدقائق النفس لا يترك البناء الخارجي قائماً على قلبٍ لم يُمحَّص، لأن الأمة قد تُقيم الشعائر، وتنتظم مؤسساتها، وتُحسن خطابها، وتُظهر انضباطها، ومع ذلك تتسلل إليها علّةٌ خفية تُفسدها من الداخل، علّةُ اضطراب الولاء، علّةُ ازدواج المرجعية، علّةُ أن يكون الله حاضراً في الشعار وغائباً عند القرار، وهنا يأتي الجزء الثالث لا ليُشكّك في الشريعة ولا ليُضعف البناء، بل ليُفكّك القلب الذي سيحمل هذا البناء، ليمنع أن تُحمَل الشريعة بقلبٍ لم يُحسم توحيده، ولم تُقطع صلته بالطواغيت الصغيرة التي تتخفى في هيئة مصلحة أو خوف أو قبول اجتماعي.

في الجزء الثاني كان الحدث المركزي تحويل القبلة، وكان المعنى أن الهوية ليست أرضاً تُورث بل اتجاهاً يُختار تعبّداً لله، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، فالفرز قائمٌ على الاتباع لا على الانتساب، لكن الجزء الثالث يبدأ بذكر الرسل ثم بذكر الاقتتال بعدهم، ليقول إن الاتباع الأول لا يعني العصمة من الفتنة اللاحقة، وإن وضوح الدليل لا يمنع من انحراف القلوب إذا اضطرب الولاء، وإن الاختبار لا ينتهي عند لحظة الطاعة الأولى بل يبدأ بعدها، لأن الله لم يعد أحداً بالعصمة بمجرد الانتساب، بل وعد بالثبات لمن تمسّك به حقّاً، وثبّت قلبه على الحي القيوم لا على الزخم الجماعي ولا على وهج البدايات.

في الجزء الثاني شُرع القتال منضبطاً بأمر الله وتحت رايته، وجاءت قصة طالوت وجالوت لتُظهر صف الإيمان حين يثبت أمام قلة العدد وكثرة العدو، أما في الجزء الثالث فيُذكر الاقتتال بعد الرسل ليُفرّق عقديّاً بين الجهاد المشروع الذي يُقام ابتغاء وجه الله وتحت سلطان الوحي، وبين الاقتتال الذي ينشأ من هوى النفوس بعد وضوح الحق، فالمشكلة ليست في السلاح بل في القلب الذي يحمله، وليست في القوة بل في نية استعمال القوة، فالجزء الثاني علّمك متى

يُشرع القتال، والجزء الثالث يحذّرك من أن يتحول القتال إلى صراعٍ على الدنيا تحت لافتة الدين إذا لم يُحسم الولاء لله وحده ولم تُطهّر النية من شهوة الغلبة والانتقام وحب الظهور.

وفي الجزء الثاني ورد الإنفاق في سياق اجتماعي عام، تربيةً على البذل وتنظيماً للتكافل وتخفيفاً عن المحتاجين، أما في الجزء الثالث فيُعاد فتح ملف المال لكن بوصفه مرآةً للتوحيد لا مجرد أداةٍ للعدالة الاجتماعية، فتأتي مثل الحبة التي تُضاعف، والتحذير من المنّ والأذى الذي يُحبط، وفضح الرياء الذي يُحوّل القربة إلى صورة، ووعد الشيطان بالفقر الذي يزرع الخوف في الصدر، ووعد الله بالمغفرة والفضل الذي يطمئن القلب، ثم إعلان الحرب على الربا لا بوصفه مجرد زيادةٍ مالية، بل بوصفه نظامَ ظلمٍ يُناقض العدل ويُجسّد اعتماداً على ربحٍ مضمونٍ يُضعف معنى التوكل ويقتل روح البركة، ثم تأتي آية الدين لتُثبت أن التقوى ليست ارتجالاً ولا فوضى، بل كتابةٌ وتوثيقٌ وشهادةٌ وانضباط، وكأن القرآن يقول إن فساد المال ليس خللاً اقتصادياً فحسب، بل عرضٌ لخللٍ أعمق في التوحيد والعدل والصدق مع الله.

وفي قلب هذا الجزء تتوسط آية الكرسي لتعيد تعريف مركز الكون في وجدان المؤمن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حياةٌ كاملة لا يلحقها نقص، وقيوميّةٌ شاملة يقوم بها كل شيء ولا يقوم هو بأحد، وعلمٌ محيط لا يغيب عنه مثقال ذرة، وسلطانٌ مطلق لا يُزاحمه سلطان، وشفاعةٌ لا تكون إلا بإذنه، ليُهدم في القلب كل تعظيمٍ مزاحمٍ لمقام الربوبية، فلا يُرفع نبيٌّ فوق منزلته، ولا يُعصم عالمٌ من الخطأ، ولا تُقدَّس جماعةٌ بحيث تُصبح مرجعاً فوق النص، ولا يُستبدل الاعتماد على الله بالاعتماد على الوسائط، ولا يُفهم الأمن على أنه نتاج قوةٍ بشرية، بل ثمرةُ اتصالٍ صادقٍ بالحي القيوم.

ومن أعظم الروابط البيانية أن اسم "الحي القيوم" الذي يتوسط الجزء الثالث

يعود في مطلع آل عمران، ليؤكد أن كل ما سبق من أحكامٍ وحدودٍ وتكاليف لا يُفهَم ولا يُحمَل إلا في ظل هذا الاسم، وأن من لم يستقر في قلبه معنى القيومية اضطرب عند اضطراب الأسباب، وانهار عند تبدل الأحوال، وبحث عن ركنٍ آخر يستند إليه غير الله.

ثم يُختم الجزء الثالث بقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ليُغلق الدائرة التي فُتحت عند تحويل القبلة، هناك كان الامتحان: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، وهنا يُعلن الاتباع الكامل تسليماً لا مساومة فيه، وإقراراً بالعجز لا غرور فيه، ودعاءً يستحضر الافتقار: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، ليبقى القلب مفتوحاً على رحمة الله لا مغلقاً على ثقته بنفسه، عارفاً أن الثبات ليس بصلابة الطبع بل بعون الله، وأن حمل التكليف ليس بقوة الإرادة وحدها بل بتوفيق الرب.

ولو أردنا أن نلخص هذا الترابط تلخيصاً مصفى عقديّاً لقلنا إن الجزء الثاني يقيم الشريعة في حياة الأمة، والجزء الثالث يُنقّي التوحيد في قلب الأمة؛ الجزء الثاني يبني الهوية الشرعية، والجزء الثالث يختبر صدق الولاء الذي يحمل هذه الهوية؛ الجزء الثاني ينظّم المجتمع بأحكامٍ واضحة، والجزء الثالث يحرس القلب من أن ينحرف بهذه الأحكام إلى تعصّبٍ أو ظلمٍ أو استعلاء؛ الجزء الثاني يضع القبلة أمام عينيك، والجزء الثالث يضع القيوم في قلبك؛ الجزء الثاني يعلّمك كيف تُقيم الدين في الواقع، والجزء الثالث يسألك: هل الدين هو الذي يُقيمك عند التعارض؟

ومن لم يُحصّن قلبه بمعاني الجزء الثالث قد يحمل أحكام الجزء الثاني بعقلٍ فقيه ولسانٍ بليغ وتنظيمٍ محكم، لكنه يبقى معرّضاً للانزلاق حين تهبّ فتنة المال أو الخوف أو الهوى، لأن العبرة ليست بكثرة البناء بل بصلابة الأساس، والأساس هنا ليس إلا توحيداً خالصاً، وولاءً صادقاً، وتسليماً لا يتلوّن مع الظروف ولا

ينكسر عند أول ضغط، فالشريعة بلا توحيدٍ راسخ قد تتحول إلى لافتة، والهوية بلا ولاءٍ خالص قد تصبح قناعاً، والبناء بلا إخلاصٍ داخلي قد ينهار من صدعٍ صغير لا يراه الناس، وهنا يهتز القارئ حين يدرك أن أخطر ما يُهدد الأمة ليس جهل الأحكام، بل ضعف التوحيد الذي يحمل الأحكام، وأن النجاة ليست بكثرة الشعارات، بل بصدق العروة التي يُمسكها القلب حين يُختبر وحده أمام الله سبحانه وتعالى.

الجزء الرابع: من حبلِ الله تعالى... إلى ميثاقِ البيوت

من "بيتٍ وُضِعَ للناس" إلى "ميثاقٍ غليظ"... توحيدٌ يُعيدُ بناء الهوية، ثم شريعةٌ تُقيمُ العدلَ في البيتِ قبل السُّوق، وفي الرحم قبل الساحة، وفي الضعيف قبل القوي.

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ للجزء الخامس

هذا الجزء لا يبدأ من "حكمٍ فرعيّ" ولا من "تفصيلٍ فقهيّ"؛ بل يبدأ من سؤالِ الصدق مع الوحي: من أين تأتي الشريعة؟ ومن يملك حقَّ التحليل والتحريم؟ ولذلك يفتتح بتصحيحِ مصدرِ الأحكام، ويكشف كيف يُولَدُ الانحرافُ حين يتحوّل الدينُ إلى أهواءٍ تُلبَسُ لباسَ نصٍّ مقدّس؛ فـ(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ)، ثم يأتي التحدّي الذي يقطع الجدل من جذره: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)؛ أي إن صدقَ الدليل لا يُقاسُ بحماسةِ الدعوى، بل بوضوحِ النصّ، وإن الافتراء على الله ليس خطأً معرفياً فقط، بل ظُلمٌ يُحطِّمُ معنى العبودية، لأن أعظم الظلم أن تُنسب إلى الله شريعةٌ لم يأذن بها.

ثم ينقلُك الجزءُ من معركةِ التحريف إلى مركزِ الهوية الجامعة: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)؛ فالدين في أصلِه ليس عنواناً تاريخياً، ولا ميراثاً قوميّاً، ولا امتيازاً يُحتكَر، بل هو انحيازٌ كاملٌ إلى التوحيد الخالص الذي لا يلتفت إلى الشرك ظاهراً ولا مستتراً.. ومن هنا تُفتَحُ بوابةُ "البيت"؛ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ)، و(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)؛ كأن القرآن يثبتُ أن التوحيد ليس فكرةً معلّقة في الذهن، بل مركزُ اجتماعٍ بشريٍّ يقصده الناس ليتعلّموا معنى الأمن حين يكون الله هو المقصود، ثم يجيء التكليف الذي يربط

الروح بالفعل: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)؛ لتظل العبادةُ طريقاً لله لا طقساً ثقافياً، ولتظل الاستطاعةُ ميزانَ عدلٍ لا بابَ حرجٍ ولا مجالَ مباهاة، ثم تأتي الجملة الحاسمة التي تُسقطُ وهم الاحتياج من ذهن البشر: (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)؛ فالله لا تزيده طاعةُ المطيعين، ولا تنقصه معصيةُ العاصين، وإنما نفعُ الأمرِ يعودُ على الإنسان نفسه.

ومن البيتِ الحرام إلى "سبيل الله" ينتقل السياقُ إلى مواجهةِ الصدِّ عن الحق، فيُخاطَب أهل الكتاب: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)، ثم: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ)؛ هنا يُعرّي القرآنُ أخطرَ جريمةٍ فكريةٍ واجتماعية: أن تتحوّل المعرفةُ إلى أداةِ إضلال، وأن يصبح الدينُ سُلّماً للمنافسة لا باباً للهداية، ثم يلتفت الخطابُ إلى المؤمنين كي لا يُؤخذوا من موضعِ السذاجة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)؛ ليست القضيةُ كراهيةَ أحد، بل حمايةُ الإيمان من التلاعب، لأن الضعف يبدأ غالباً حين يستعير القلبُ ميزانَه من خصومه، وحين يُسلّمُ عقلَه لمن يزيّن له الانحراف بعباراتٍ مُنمّقة.

ثم يجيء السؤال الذي يُعيد المؤمن إلى وعيه: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)؛ وكأن المعنى: إن أعظم أسباب الثبات أن تبقى قريباً من الوحي ومجالسه، وأن لا تترك نصَّ الله يُقرأ خارجَ حياتك، ثم تُؤسَّس قاعدةُ النجاة الجامعة: (وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)؛ الاعتصام ليس شعاراً، بل تمسُّكٌ يَجمعُ قلبك على مرجعيةٍ واحدة حين تتنازعك المرجعيات.

ومن هنا يدخل الجزءُ إلى قلبِ بناءِ الأمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)؛ فالمطلوب ليس "لحظة تدين" بل "نهاية

ثابتة"، ثم تأتي الآية التي تختصرُ مشروعَ الجماعة المؤمنة: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)؛ لأن التوحيد إذا لم يُنتج وحدةً راشدةً صار في الواقع فكرةً مهجورة، ثم يستدعي القرآن ذاكرة التحول الكبير: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا)؛ ليُذكّرك أن الأُخُوَّة ليست ترفاً اجتماعياً، بل نجاةٌ من حفرةٍ كانت تبتلعُ الإنسان وهو يظنُّ أنه يعيش، وأن التفرّق ليس اختلافاً في الأذواق، بل طريقٌ إلى عذابٍ عظيم إذا صار منهجاً بعد قيام البيّنات: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

ثم لا يترك الجزءُ الأمةَ بلا وظيفةٍ تحرسُ هويتها: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)؛ لأن المجتمع الذي لا يملك آليةَ تصحيحٍ داخليٍّ يتحوّل تدريجياً إلى جسدٍ يبرّر مرضه بدل أن يعالجه، ثم تُرفع "شهادة الشرف" بشرطها: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)؛ فخيريّة الأمة ليست لقباً محفوظاً، بل تكليفٌ ومسؤولية، ثم يضع القرآن ميزانَ العدل حتى مع المختلف: (لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) و(يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)؛ كي لا يختطفك التعميم، ولا يُعلّمك الصراعُ ظُلمَ الناس، فالعقيدةُ لا تسمح لك أن تُسقط العدل حين ترتفع الخصومة.

وبعد تأسيس الهوية ووحدة الصَّفّ، يفتح الجزءُ باباً من أبواب الوعي السياسي والاجتماعي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً)؛ لأنه ليس كل قربٍ بريئاً، وليس كل ابتسامةٍ ودّاً، ولأن البطانةَ هي موضعُ القرار ونافذةُ الأسرار، ثم يفضح القرآن اضطرابَ العلاقات حين تُبنى على عاطفةٍ غير منضبطة: (هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ) و(وَإِذَا لَقُوكُمْ

قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)؛ فيُعلّمك أن معيارَ الثقة ليس ما يُقال أمامك، بل ما يثبتُ عند غيابك، وأن القلبَ لا يقرأ الخطر من الكلمات وحدها بل من (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).. ومع هذا كلّه لا يأذن لك القرآن أن تنفعل خوفاً أو تتكسّر رُعباً، بل يربطك بالقاعدة الواقية: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)؛ فالصَّبرُ والتقوى هما حصنُ الداخل حين تضطربُ معادلات الخارج.

ثم يأخذك السِّياق إلى ساحةٍ تاريخيةٍ تتحول فيها السُّنن إلى دروسٍ عملية: من مشاهد إعداد المؤمنين للقتال، إلى ذكر بدرٍ والنصر: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)، إلى بيان أن النصر ليس من العدد بل من عند الله: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)، ثم إلى التحذير الشديد من الرِّبا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً)؛ كأنَّ القرآن يقول: لا يصلحُ أن تتحدث عن النصر وأنت تفتكُ بروح المجتمع اقتصادياً، ولا يصلحُ أن تنشد قوةً تُبنى على ظلمٍ ماليّ يلتهم البركة ويصنع قسوةً خفية.. ثم يفتح باب السِّباق إلى المغفرة والجنة: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)، ويقدّم ملامح المتقين في سلوكٍ حيٍّ لا في شعارات: (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، ثم يقرّر قاعدةَ التعافي من الذنب دون تزييف: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ... وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)؛ فيُبقي بابَ الرجوع مفتوحاً، ويغلق بابَ التبرير والإصرار.

ثم يضعك القرآن أمام سُنن التاريخ: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)؛ ليس لتتسلّى بالقصص، بل لتتعلّم أن الطريق له قوانين، وأن الأُمم تُهزم حين تفسد معاييرها، ويأتي التثبيت الواقعي: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، ثم يشرح لك لماذا تتداول

الأيام بين الناس: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) و(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا)؛ فالمحنة ليست عبثاً، بل تمحيصٌ يكشف المعادن ويُطهّر الصفوف.

وفي منتصف هذه التربية القاسية يجيء المحكّ الأكبر: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)؛ ليس تقليلاً من قدره ﷺ، بل حمايةٌ للإيمان من الارتباط بالأشخاص على حساب الحق، كي لا تنقلب القلوبُ إذا تغيّر الظرف أو غاب القائد، ثم يفتح لك القرآن بابَ النِّيَّة التي تُسقط كثيراً من الناس في لحظة: (وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا)، ثم يعرض نماذج الثبات عبر التاريخ: (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ)، ويجعل دعاءهم عنواناً للمنهج: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا).

ثم يفضح القرآن جرحاً نفسياً خطيراً يظهر في الأزمات: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) وأحاديثُ (لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)؛ فيُعلّمك أن الهزيمة قد تبدأ من تفسيرٍ فاسدٍ لقدر الله تعالى، وأن القلب إن لم يُنقَّ من سوء الظَّنِّ صار يطعن في حكمة الله وهو يظنُّ أنه "يفهم الواقع".

وفي مقابل ذلك يقدّم نموذج القيادة الرَّبانية التي تحفظ الجماعة رغم الجراح: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)، ثم يثبت مبدأ الشورى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)، ويثبت مبدأ العزم والتوكل: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)، ثم يقطع وهم الاتكال على الأسباب المجردة: (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ).

ويأتي التحذير من الغلول: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ)، ثم يضع الميزان الفاصل: (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ) و(هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ)؛ فالقيمة ليست بالادعاء ولا بالصورة، بل بالاتباع الذي يُثمر رضواناً أو يسوق إلى سخط.. ثم يُذكّرك بِمنّة الرسالة: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ... يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)؛ لئلا تتحول التربية إلى جلدٍ للنفس بلا أمل، بل تبقى موصولةً بالمِنَّة والرحمة.

ثم ينتقل الجزء إلى مواطن الفزع والطمأنينة: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)، ثم صورةُ الاستجابة بعد الجراح: (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ)، ثم معادلةُ الثبات أمام التخويف: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)؛ هنا تبلغ التربية ذروتها: الخوفُ الحقيقي ليس من "الناس" بل من انكسار القلب أمامهم، والطمأنينة ليست إنكاراً للخطر بل توحيداً للمصدر.. ثم يحذّر من البخل حين يصير عقيدةً عملية: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ) و(سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ لأن المال إذا صار معبوداً التفّ على صاحبه يوم القيامة، ومع ذلك يبقى المعنى الحاكم فوق كل شيء: (وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

ثم يواجه القرآن كلماتٍ تَسقُط فيها الهيبة من القلب: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)؛ فيكتب الله عليهم قولهم، ويذكر قتلهم الأنبياء بغير حق، لتفهم أن التطاول على الله تعالى يبدأ غالباً من تضخم النفس بالمال والجاه، ثم يقرر ميزان المصير الجامع الذي لا ينجو منه أحد: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) و(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) و(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) و(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)، ثم يُهيّئك للثبات في طريق الحق: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى كَثِيراً) ويضع لك الميزان الذي يحفظك: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

ثم يفضح مرضَ إخفاء الحق: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)، فالحق لا يُخان بالسِّلاح فقط، بل

يُخان بالصَّمت أيضاً، ثم يأتي مرضٌ آخر: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا)؛ فيُعلّمك القرآن أن عبادة السُّمعة أخطر من كثيرٍ من الخطايا لأنها تُزيّف صورة الإنسان حتى يظن نفسه صالحاً وهو يطلب المدح لا الحق.

ثم يفتح لك نافذة التوازن العميق: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)؛ هؤلاء الذين (يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فيولد من التفكر دعاءٌ نقيٌّ بلا تكلّف: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)... ثم (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)... ثم (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا)... ثم (وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)، ثم يأتي جواب الله تعالى الذي يربط الإيمان بالعمل والابتلاء: (أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى) مع ذكر طريق الثمن: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا)، لتدرك أن الوعد لا يُعطى للأماني، بل لمن دفع ثمن الصدق.

ثم يختم آل عمران بتحرير القلب من خداع القوة الظاهرة: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ)، وفي المقابل: (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ)؛ ثم يقرر عدل الله في الناس: (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)؛ كي تبقى القاعدة: الحكم على القلوب بالميزان لا بالانتماء، ثم يأتي الختام العملي الصريح: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)؛ كأنَّ الرحلة كلّها تُختَصر في ثباتٍ طويل النفس، ومصابرةٍ أمام ضغط الواقع، ورباطٍ يحرس الثغور الظاهرة والباطنة.

ومن "أمةٍ" تُبنى على الاعتصام والصبر، ينتقل القرآن مباشرةً إلى "بيتٍ"

يُبنى على التقوى والعدل؛ فتبدأ سورة النساء بنداء الإنسانية كلها إلى أصل الخلق: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)؛ لتستقر في النفس أن الأُسرة ليست عقداً اجتماعياً فقط، بل امتدادٌ لأصلٍ واحد، وأن العبث بحقوقها عبثٌ بجذر الإنسان.. ثم يدخل الخطاب إلى حماية الضعفاء في أول محطةٍ تشريعية: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) و(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) و(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)؛ لأن المجتمع الذي يلتهم اليتيم إنما يعلن سقوط أمانته قبل أن يتحدث عن إصلاحه.

ثم يفتح باب النكاح في سياق القسط باليتامى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)؛ لتفهم أن الشريعة حين تنظّم العلاقة الزوجية تربطها بالعدل لا بالشّهوة، ثم يأمر بإيتاء النساء صدُقاتهن نحلةً: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)، وينهى عن تمكين السُّفهاء من الأموال التي جعل الله لكم قياماً: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)؛ لأن المال إذا صار في يد السَّفيه أفسد الإنسان وفسد المجتمع.

ثم تُستكمل منظومة الأمانات: (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) مع منع الإسراف والبدار: (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا) ومع الإشهاد: (فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ)؛ لتتعلم الأُمة أن الشفقة لا تعني التفريط، وأن الحماية لا تعني الإهانة، وأن التوثيق يقطع أبواب التهمة.

ثم تُفتَح أبواب المواريث: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)؛ فيُنتزع المال من مزاج الأقوياء إلى قسط الله، ويُردّ الحق إلى أصحابه دون منٍّ ولا استجداء، ثم تُذكر حدود الله والفوز العظيم

لمن أطاع: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ... وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ... وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)، والوعيد لمن عصى وتعدّى: (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً... وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ)؛ لأن القضية ليست توزيعاً مالياً فقط، بل طاعةٌ أو تمرّد.

ثم تأتي أحكام الفاحشة في بدايتها، وتفتح باب التوبة القريب: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ)، وتغلق باب توبة الاحتضار: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)؛ لتُقيم ميزان "الوقت" في التوبة، فلا يتحوّل الدين إلى تأجيلٍ دائم.

ثم ينتقل السياق إلى حماية المرأة من ظلمٍ اجتماعيّ كان راسخاً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) ثم الميزان الجامع: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)؛ لتفهم أن صلاح البيت ليس في شعارات الرجولة، بل في المعروف الذي يحفظ الكرامة.. ثم يأتي التحذير الصريح من أخذ شيءٍ مما أُعطيت المرأة ولو كان قنطاراً بغير حق: (وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)، ويُذكّرك القرآن بسرّ العلاقة: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً)؛ فالعلاقة الزوجية ليست مجرّد متعةٍ عابرة، بل ميثاقٌ غليظ تُبنى عليه حقوقٌ وأمانات.

ثم يُغلَق بابٌ من أبواب الفساد الاجتماعي: (وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ)؛ ويُذكر بعده حدّ الطُّهر في العلاقات: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ... وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)؛ لتُضبط شهوة الإنسان بقانون الطُّهر، ولتكون الأسرة بناءً آمناً لا حقلَ فوضى.

هذه هي رحلة الجزء الخامس:

١) تصحيحُ مصدر الدين قبل أن تتشعّب الفروع،

٢) تثبيتُ الهوية على مِلة إبراهيم،

٣) بناءُ الأمة على الاعتصام والصبر،

٤) ثم إقامةُ العدل في المال والبطانة والمعركة والنية،

٥) ثم إنزالُ هذا كله إلى أرض البيت:

← يتيمٌ لا يُؤكل حقه،

← وامرأةٌ لا تُظلَم،

← ومالٌ لا يُبدَّد،

← وميثاقٌ لا يُخان،

← وحدودٌ لا تُجعل محلَّ مزاج؛

ليخرج القارئُ من هذا الجزء وهو يفهم أن القرآن لا يصنع "متديناً يكثر كلامه"، بل يصنع إنساناً تُرى أمانته في المال، وتُرى عدالته في الأسرة، وتُرى بصيرته في العلاقات، وتُرى ثباته عند الابتلاء، وتُرى عبادته حين لا يراه أحد.

الخريطةُ البنيويّةُ لآياتِ الجزء الرابع:

- تصحيحُ بوّابةِ التشريع: لا تحريمَ بلا نصّ، ولا دينَ بلا بيّنة: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).
- قطعُ جذرِ الافتراء: أخطرُ الظلم أن تُنسبَ شريعةٌ إلى الله بلا إذن: (فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).
- تثبيتُ الهوية على الصدق الإلهي لا على دعاوى البشر: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً).
- توحيدٌ يصنعُ مركزاً جامعاً لا فكرةً معلّقة: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً).

- أمنٌ حقيقيٌّ يبدأ من قداسةِ المقصد: (وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً).
- عبادةٌ تُترجمُ الاستطاعةَ إلى فعلٍ بلا حرجٍ ولا تزيين: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً).
- تحريرُ القلب من وهم أنَّ "الله محتاج": الدينُ لك لا له: (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ).
- فضحُ جريمةِ الصدّ: المعرفةُ إن لم تُصلح صارت خيانةً مضاعفة: (لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ).
- تحصينُ الإيمان من "التوجيه الخارجي" الذي يسرقُ البوصلة: (إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً... يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ).
- استدعاءُ الوعي: الإيمان لا يليق به الغفلة وهو بين آياتٍ ورسول: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ).
- قاعدةُ النجاة الجامعة: لا ملجأ إلا الاعتصام: (وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).
- التقوى ليست لحظةً... بل خاتمةُ حياة: (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ).
- وحدةُ الأُمة: ليست خياراً اجتماعياً بل طوقُ نجاة: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا).
- ذاكرةُ التحوّل: الأُخُوَّةُ نعمة... لا عادة: (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ... فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً).
- تحذيرُ ما بعد البيّنات: التفرّقُ بعد النور سقوطٌ مُستحق: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا... مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ).
- وظيفةُ الحراسة الداخلية: خيريةٌ تُصان بالفعل لا بالاسم: (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ).
- عدلٌ يمنعك من التعميم حتى في الخصومة: (لَيْسُوا سَوَاءً).

- بصيرةُ العلاقات: البطانةُ بابُ هدمٍ إن فُتح بغير وعي: (لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ).
- معيارُ صدق القرب: ما وراء الوجوه أصدق من الوجوه: (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ).
- حصانةُ الداخل: الصبرُ والتقوى أقوى من كيد الناس: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً).
- سنّةُ النَّصر: ليس من العدد... بل من عند الله: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ).
- إصلاحُ الاقتصاد قبل رفع الشعارات: الرِّبا جرحُ أمة: (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً).
- ملامحُ المتقين: الإنفاق– ضبط الغضب– العفو– الإحسان: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ).
- علاجُ الذنب: ذكرٌ واستغفارٌ بلا إصرار: (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا).
- قراءةُ التاريخ كمرآة: السُّنن لا ترحم المكذّبين: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ).
- الثباتُ في الاضطراب: لا وهنَ ولا انكسارَ مع الإيمان: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا).
- تمحيصُ الصفوف: الابتلاءُ غربالُ القلوب لا عبثٌ: (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا).
- تحريرُ التوحيد من "عبودية الأشخاص": (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ).
- ميزانُ النية: الدنيا تفضحُ من كان يعبد النتائج: (وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا).
- ثباتُ الرَّبانيين: سقوطُ الجسد لا يعني سقوطَ الطريق: (فَمَا وَهَنُوا... وَمَا ضَعُفُوا).

- كشفُ مرضِ سوء الظَّنّ بالله وقت الأزمات: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ).
- قيادةٌ تُمسكُ القلوب: لينٌ... عفوٌ... شورى... توكّل: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ).
- قطعُ الغشّ الداخلي: الغُلول يهدمُ بركةَ المشروع: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ).
- المفاصلةُ الكبرى: رضوانٌ أو سخط: (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ).
- حياةُ الشهداء: الطمأنينةُ حين يفقد الناسُ المعنى: (بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).
- معادلةُ التخويف: الناسُ يجمعون... والقلبُ يتوحّد: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).
- تحذيرٌ من البُخل: المالُ يُطوّق صاحبه يوم القيامة: (سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ).
- قانونُ النهاية: موتٌ... ثم حساب... ثم فوزٌ أو خسران: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ).
- سُنّةُ الطريق: الابتلاءُ قَدَرُ الصادقين: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ).
- خيانةُ العلم: كتمانُ الحقِّ جريمةُ أهل "الميثاق": (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ).
- مرضُ السُّمعة: فرحٌ بالموجود... وطلبُ حمدٍ على المعدوم: (يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا).
- غذاءُ العقل والقلب: ذكرٌ... تفكّر... دعاءٌ بلا تكلّف: (يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).
- وعدُ الله: لا ضياع لعمل عاملٍ مهما كان الطريق مكلفاً: (أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ).

- تصحيحُ وهم القوة الظاهرة: تقلبهم متاعٌ قليل: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا).
- الخاتمة العملية: صبرٌ... مصابرةٌ... رباطٌ... تقوى: (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا).
- انتقالُ البوصلة من "هوية الأُمة" إلى "تقوى البيت": أصلٌ واحدٌ... وخلقٌ واحد: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ).
- أولُ العدل في الداخل: مالُ اليتيم أمانةُ الدين: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ).
- حمايةُ المال من السَّفه: قيامُ المجتمع يبدأ من قيام المال: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ).
- الزواجُ تحت سقف العدل لا تحت ضغط الشهوة: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً).
- كرامةُ المرأة حقٌّ لا مِنّة: الصداق نحلةٌ لا ثمن: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً).
- المواريث: قِسطٌ مفروضٌ يقطعُ مزاج الأقوياء: (نَصِيباً مَّفْرُوضاً).
- حدودٌ لا عواطف: طاعةٌ تُورِث فوزاً، وتعدٍّ يُورِث مهانة: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ).
- بابُ التوبة: قريبٌ لمن رجع... مغلقٌ لمن سوّف حتى الاحتضار: (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ).
- قطعُ إرثِ القهر على النساء: لا وراثةَ كرهاً ولا عضلاً: (لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً).
- الميزان الجامع للبيت: معروفٌ لا شعارات: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ).
- تحريمُ البهتان المالي: لا تأخذوا شيئاً ولو كان قنطاراً: (فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً).
- سرُّ القداسة في العلاقة: قربٌ ثم ميثاقٌ غليظ: (وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ... مِّيثَاقاً غَلِيظاً).

- سدُّ أبواب الفوضى الأُسرية: فواحشُ تُغلق... ومحارمُ تُحفظ: (إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً).

المحورُ الإيمانيُّ المركزيُّ للجزء الرابع

هو إعادةُ تثبيتِ التوحيدِ بوصفِه ""مرجعيّةَ حياةٍ"" لا ""معلومةَ عقيدةٍ""؛ توحيدٌ يبدأ من سؤال:

١) مَن يملك حقَّ التحليل والتحريم؟

٢) ثم يُعيدُ بناءَ الهوية على الصدق مع الوحي لا على الأهواء،

٣) ويصوغُ جماعةَ المؤمنين حول الاعتصام بحبل الله والوحدة والوظيفة الإصلاحية،

٤) ثم يختبرُ صدقَ هذا التوحيد في أخطر ساحات الامتحان:

←المالُ (إنفاقاً وبخلاً ورباً وأمانةً وغلولاً)،

←والولاءُ والبصيرةُ في العلاقات،

←والنِّيَّةُ تحت ضغط الابتلاء،

٥) حتى ينتهي إلى تنزيل التوحيد شريعةً في البيت:

←يتيمٌ محفوظ الحق،

←وامرأةٌ مصونة الكرامة،

←ومالٌ مضبوط،

←وميثاقٌ غليظ لا يُخَان؛

ليقول لك القرآن الكريم:

التوحيد الذي لا يُقيم العدلَ في الخاصّ... لن يصنع صلاحاً في العامّ، والتوحيدُ الحقّ هو الذي يربطك بالله حتى في أضعف مواضع الإنسان لا في أقوى شعاراته.

أخطرُ الانحرافاتِ التي يُحذِّرُ منها هذا الجزء

❖ أولاً: انحرافٌ عقديّ:

١) تحريفُ التشريع ونسبةُ الأهواء إلى الله، والجرأةُ على مقام الربوبية: (قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً).

٢) الكفرُ بالآيات مع قيام الحُجّة: (لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ).

٣) طاعةُ أهل الزيغ حتى ينقلب الإيمان: (إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ).

٤) الارتباطُ بالأشخاص بدل التعلّق بالرسالة: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ).

٥) سوءُ الظنِّ بالله تعالى في الأزمات: (يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ).

٦) الغرورُ بزينة الدنيا ونسيان المصير: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ).

❖ ثانياً: انحرافٌ أخلاقيّ

١) أكلُ الرِّبا واستباحةُ الظلم المالي: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفاً مُّضَٰعَفَةً).

٢) البخلُ واحتكارُ الفضل: (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم).

٣) الغلولُ وخيانةُ الأمانة: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ).

٤) أكلُ أموالِ اليتامى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً).

٥) ظلمُ المرأة والتعدّي على حقوقها: (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ).

٦) تجاوزُ حدودِ الله في الشَّهوات والعلاقات: (تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَاراً).

❖ **ثالثاً: انحرافٌ اجتماعيّ**

١) التفرّقُ بعد وضوح الحقّ: (وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ).

٢) تركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ).

٣) اتخاذُ بطانةٍ مفسدةٍ للقرار الجمعي: (لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً).

٤) تعطيلُ العدل في توزيع المال والميراث: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ).

٥) خيانةُ الميثاق العلمي وكتمان الحق: (لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ).

❖ **رابعاً: انحرافٌ نفسيّ**

١) الوهنُ والحزنُ المكسِر للإرادة: (وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).

٢) الارتهانُ لمدح الناس وحبُّ الصورة: (يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ).

٣) الانخداعُ بتقلّب أهل القوة: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ).

٤) اليأسُ من المغفرة أو الإصرارُ على الذنب: (وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

٥) الغفلةُ عن حقيقة الدنيا: (وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ).

هذا الجزء لا يُحذِّر من أخطاءٍ عابرة، بل من انحرافاتٍ تبدأ في القلب، ثم تتسلّل إلى الفكرة، ثم تتجسّد في السلوك، ثم تُفسِد المجتمع بأكمله إن لم تُعالَج من جذورها.

ملامحُ الشخصيّةِ التي يصنعها هذا الجزء

١) شخصيةٌ مرجعيّتُها الوحي لا الهوى... تُسلِّم قبل أن تُجادل: (وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

٢) شخصيةٌ موحّدةٌ لا تتلوّن... هويّتُها واضحةٌ في الانتماء والاتباع: (قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً).

٣) شخصيةٌ جماعيّةٌ تعتصم ولا تتفرّق... ترى الوحدةَ عبادةً لا مصلحةً: (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ).

٤) شخصيةٌ إصلاحيّةٌ فاعلة... لا تكتفي بالاستقامة الفرديّة: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ).

٥) شخصيةٌ عادلةٌ في المال... لا يفتنها ربحٌ ولا يُسقطها طمع: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ... وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ).

٦) شخصيةٌ أمينةٌ في الأمانات... لا تخون في السِّرّ ولا في العَلن: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ).

٧) شخصيةٌ رحيمةٌ بالضُّعفاء... تحفظ اليتيم وتحرس الكرامة: (وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ).

٨) شخصيةٌ متوازنةٌ في العلاقة... تُقيم "الميثاق الغليظ" على المعروف لا على الهوى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ).

٩) شخصيةٌ صابرةٌ عند الابتلاء... لا تهن ولا تنكسر أمام الصدمات: (وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).

١٠) شخصيةٌ واعيةٌ بالسُّنن... تقرأ التاريخ لتثبت لا لتجزع: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ).

١١) شخصيةٌ نقيةُ المقصد... تعمل للآخرة ولو تزيّنت الدنيا: (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ).

١٢) شخصيةٌ مفكّرةٌ ذاكرة... تجمع بين التفكّر والذكر فتستقيم رؤيتها: (ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَماً وَقُعُوداً... وَيَتَفَكَّرُونَ).

١٣) شخصيةٌ متوكّلةٌ لا يغرُّها تقلبُ الأقوياء: (حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ).

١٤) شخصيةٌ حارسةٌ للحدود... ترى التشريع حمايةً لا تقييداً: (تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ).

١٥) شخصيةٌ ربّانيةُ النَّفس... صبرٌ ومصابرةٌ ورباطٌ طويل النفس: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ).

هذا الجزء لا يصنع إنساناً كثيرَ الكلام... بل إنساناً ثابتَ الهوية، عادلَ اليد، رحيمَ القلب، بصيرَ العقل، قويَّ الإرادة، مربوطاً بالله في السُّوق والبيت وساحة الابتلاء.

أمراضُ القلوبِ التي يُعالجُها هذا الجزء

١) مرضُ الزَّيغ بعد الهداية... انحرافُ القلب حين يُفضِّل التأويل على التسليم: (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ).

٢) مرضُ ضعفِ الاعتصام... قلبٌ يتوزّع بين مرجعياتٍ متناقضة: (وَمَن يَعْتَصِمْ بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

٣) مرضُ التفرّق والأنانية الجماعية... حين يُقدَّم الانتماء الضَّيّق على حبل الله تعالى: (وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ).

٤) مرضُ الوهن النفسي... انكسار الإرادة أمام الابتلاء: (وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ).

٥) مرضُ سوءِ الظَّنِّ بالله... تفسيرُ الأحداث بعين الجاهلية لا بعين الإيمان: (يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ).

٦) مرضُ التعلُّق بالأشخاص بدل التعلّق بالحق... صدمةُ القلوب إذا غاب القائد: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ).

٧) مرضُ البُخل وحُبّ التَّملُّك... قلبٌ يرى المال أماناً لا أمانة: (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ...).

٨) مرضُ الغُلول وخيانة السِّرّ... سقوطُ الأمانة من الداخل: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ).

٩) مرضُ حُبّ المدح والصورة... عبادةُ الثناء بدل عبادة الله: (يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ).

١٠) مرضُ الاغترار بزينة الدنيا... انخداعُ القلب بالبريق المؤقت: (وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ).

١١) مرضُ كتمان الحقّ... خوفُ المكانة أكثر من خوف الله: (لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ).

١٢) مرضُ الظُّلم في العلاقات الأُسرية... قسوةٌ تُخالف "الميثاق الغليظ": (وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ).

١٣) مرضُ أكلِ حقوق الضعفاء... قلبٌ لا يرى اليتيم إلا فرصةً. (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْماً).

١٤) مرضُ الإصرار على الذنب... اعتيادُ المعصية حتى تفقد قسوتها: (وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

هذا الجزء يُعيد علاج القلب من جذوره؛ يُطهّره من الزيغ، ويقوّيه على الصبر، ويُحرّره من عبودية المال والناس، ويُعيده إلى مركزه الصحيح: عبداً معتصماً بالله، ثابتاً عند الفتنة، عادلاً عند القوة، خاشعاً عند الذكر، يقظاً عند الزَّلل.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق: أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات

←هل أنا ممّن يقرأ الآيات ليتعلّم... أم ليتحصّن بها ضدّ التغيير؟

←وهل حين سمعتُ قوله تعالى: (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ) شعرتُ أن الخطاب يعنيني أنا... أم رأيتُه موجَّهاً لغيري؟

←أين انكشف قلبي؟ أفي المال حين مررتُ على (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ...)؟ أم في الضعف حين قرأتُ (وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ) فعرفتُ كم يستخفّ الحزنُ بثقتي بوعد الله؟..

←أيُّ آيةٍ أربكتني لأنّها اقتربت من منطقةٍ أخفيها عن نفسي؟ أكانت (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) حين أدركتُ تعلّقي بالأشخاص أكثر من تعلّقي بالحق؟ أم كانت (وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) حين واجهتُ إصراري المتكرر على ذنبٍ أعرفه؟

←هل في داخلي شيءٌ من ظنّ الجاهلية إذا تأخّر النصر أو اشتدّ البلاء؟ ماذا صنعتُ حين سمعتُ (يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ)؟ هل استحييتُ من سوء ظنّي أم برّرتُه باسم "الواقعية"؟

←كيف علاقتي بالأمانة؟ هل مررتُ على (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ) كأنّها قصةٌ تاريخية، أم سألتُ نفسي عن دقائق الخيانة التي أُسمّيها "تفصيلاً بسيطاً"؟

←ما موقفي من حدود الله في بيتي ومالي وعلاقاتي؟ هل أراها حمايةً لي... أم تضييقاً عليّ؟ ماذا فعل فيَّ قوله: (تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ)؟

←هل أنا ممّن يُحبّ أن يُحمد بما لم يفعل؟ ماذا اهتزّ في داخلي عند (يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ)؟ أهو مرضٌ خفيٌّ في قلبي ينتظر فرصةً ليظهر؟

←هل أعيش للدنيا وإن رفعتُ شعارات الآخرة؟ ماذا يعني لي حقّاً: (وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ)؟ هل غيّرتُ ترتيب أولويّاتي بعد سماعها؟

←ما السلوك الذي أؤجّل تغييره رغم وضوحه؟ إنفاقٌ أعلمه ولا أفعله؟ علاقةٌ

ظالمة لا أقطعها؟ كلمةُ حقٍّ أتهرّب من قولها رغم (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ)؟

←هل أنا مستعدٌّ أن أموت على ما أنا عليه الآن؟ ماذا شعرتُ حين قرأتُ (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)؟ هل أنا على هيئةٍ أرتضي أن ألقى الله بها؟

هذا الاختبار ليس لتسجيل الإجابات... بل لكشف الصدق؛ لأن أخطر ما في القلب ليس الخطأ، بل الاعتياد عليه دون ألم، وليس الجهل، بل معرفة الحقّ مع تأجيل الانقياد له.

خطةُ التغيير... طريقٌ قصيرٌ لكنّه صريح

١) ابدأ بتثبيت المرجعيّة: أعد قرارك الأوّل: من يُحكِّم حياتي؟ اجعل الاعتصام نقطة الانطلاق لا ردّة الفعل، (وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

٢) أغلق باب التبرير فوراً: لا تؤجّل ترك ذنبٍ تعرفه، ولا تُلبِسه عذراً جميلاً؛ اقطع الإصرار قبل أن يُقسّي القلب، (وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

٣) صحّح علاقتك بالمال: حدِّد نسبةً ثابتةً للإنفاق ممّا تُحبّ، واقطع كل معاملةٍ يختلط فيها الظلم، (لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ).

٤) احمِ وحدتك من التمزّق: اترك خطاباً يُغذّي الفرقة، وابحث عن عملٍ يُقوّي الرباط. (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ).

٥) ثبّت قدميك عند الصدمة: لا تسمح لحدثٍ أن يُسقط ثقتك بوعد الله؛ راجع قلبك قبل أن تراجع الناس، (وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ).

٦) نقِّ نيّتك من عبادة الصورة: افعل العمل الذي لا يراك فيه أحد، واكسر حبَّ المدح بخطوةٍ خفيّة. (يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ).

٧) أصلِح بيتك قبل خطابك: راجع عدلك في أقرب دائرةٍ إليك؛ فالخلل في الخاصّ يهدم العامّ. (وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ).

٨) اربط قلبك بالآخرة يوميّاً: استحضر النهاية قبل القرار؛ فالذي يرى المصير يُحسن الاختيار. (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ).

٩) اصبر وصابر: حدِّد معركةً واحدةً هذا الشهر تُصرّ على الانتصار فيها، ولو صغرت؛ فالثبات تراكُمٌ لا قفزة، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ).

هذه الخطة قصيرة... لأنها لا تُكثر العناوين، وصريحة... لأنها لا تُجامل القلب؛ خطوةٌ واضحةٌ اليوم خيرٌ من ندمٍ طويلٍ غداً.

خاتمةٌ وجدانيّةٌ مُزلزِلة

هذا الجزء لا يُريد منك إعجاباً... بل انقياداً، ولا يُريد منك دمعةً عابرة... بل تحوّلاً صادقاً؛

← هو يُمسك بقلبك ليُخرجه من هوامش التدين إلى مركز العبودية،

← يُسقط عنك وهم الاكتفاء بالشعار، ويضعك أمام سؤالٍ لا مهرب منه: هل أنت حقّاً عبدٌ لله... أم عبدٌ لنسخةٍ مريحةٍ من الدين؟

← هنا تُختبر مرجعيتك، وهنا يُفضح تعلّقك، وهنا يُوزن صدقك؛ فإمّا أن تمسك بحبل النجاة: (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً) وإمّا أن تذوب في صخب المرجعيات،

← إمّا أن ترى الدنيا على حقيقتها: (وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ) وإمّا أن تُخدع ببريقها،

← إمّا أن تُسلّم لله في البيت والمال والعلاقة والقرار... وإمّا أن تُفاوضه على حدودك.

هذا الجزء لا يترك لك منطقةً رمادية؛ هو يُريدك واضحاً مع ربك، صادقاً في

نيتك، عادلاً في بيتك، ثابتاً عند بلائك، لأن النهاية ليست فكرةً تؤجَّل، بل حقيقةً قريبة: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ)، فاختر قبل أن تُختَم الصفحة، وقبل أن يُقال لك: (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ).

الرسالة التربوية والعقدية الموجَّهة لكل مسلم

- المرجعية واحدة... (قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ).
- النَّجاة في الاعتصام... (وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ).
- الوحدة عبادة... (وَلَا تَفَرَّقُواْ).
- الخيرية مسؤولية... (تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ).
- النصر من عنده... لا من عددك
- الصدمة لا تُسقط الرسالة... (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ).
- البلاء تمحيص... لا إهمال
- المال أمانة... لا هوية
- الربا حربٌ على روح المجتمع
- اليتيم معيار إنسانيتك
- المرأة ميثاقٌ غليظ... لا مزاج
- الحدود حماية... لا تقييد
- البطانة قرار... لا مجاملة
- المدح فتنة... إن لم يُضبط
- الدنيا عابرة... (مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ).
- الثبات عملٌ يومي... (ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ).
- النهاية ميزان... (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ).

هذا هو قلب الرسالة: أن تكون عبداً لله في الفكرة، وفي الموقف، وفي المال، وفي البيت، وفي البلاء... عبداً لا يتبدّل إذا تبدّلت الظروف، ولا ينهار إذا

اشتدّت العاصفة، لأن جذره ثابتٌ في قوله تعالى: (فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

الترابط الموضوعي والبياني بين الجزء الثالث والجزء الرابع

من "العروة الوثقى في القلب" إلى "حبل الله في الجماعة والبيت"

الخيطُ الذي خُتِم به الجزءُ الثالث... هو نفسُه الخيطُ الذي فُتِح به الجزءُ الرابع:

- الثالث يُقيمُ لك "العقيدةَ كجذرٍ" ثم يختبرها في المال والولاء والمعاملة،
- والرابع يُنزِل هذا الجذر على "تفاصيل العمر"؛ ليُثبت أن الإيمان ليس قناعةً في الرأس فقط، بل نظامُ حياةٍ يُحرسُ بالحدود والحقوق والمواثيق.
- في الجزء الثالث يبدأ الامتحان من الداخل قبل الخارج:

١. يهزّك من أعلى سلّم الاصطفاء ليقول إن الفتنة لا تَسقُطُ عن أحدٍ لمجرد أنه عرف الحق: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ... وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا).

٢. ثم يُدخلُك إلى قلب التوحيد الخالص: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).

٣. ثم يُحسم بابُ "القطيعة" التي لا يُقام الدين إلا بها: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى).

٤. ثم تُترجم القطيعة إلى سلوكٍ ماليّ صافٍ: (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى).

٥. ثم إلى عدلٍ اقتصاديّ يُسقط أكبر صنمٍ معاصر: (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ).

٦. ثم إلى عدلٍ توثيقيّ في المعاملات يحرس المجتمع من الفوضى والظلم: (إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ... فَاكْتُبُوهُ).

٧. ثم يُختم التسليم كله بقمة العبودية: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا).

- الجزء الرابع يأتي كجوابٍ عمليٍّ على سؤالٍ خفيٍّ تركه الثالث في القلب:

١. إذا كان التوحيد هو الولاية والقطيعة، والمال هو ميزان الصدق، فكيف تُحرس حياةُ الناس من العبث بعد أن وُضع الميزان؟ هنا يبدأ الرابع بتعرية "التحريف العملي" لا النظري فقط: (فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ).

٢. ثم يردُّ المرجعية إلى أصلها: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ).

٣. ثم يجعل الاعتصام الذي ذُكر في معنى "العروة" صورةً اجتماعيةً علنية: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا).

٤. ثم يُنزلها إلى صناعة أُمةٍ تُصلح ولا تتفرّج: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ).

٥. ثم يفتح ملفّ "تفاصيل البيت" بوصفه بوابة النجاة أو الهلاك: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) و(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) و(وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً)؛

كأنَّ القرآن الكريم يقول: من لم يَحفظ المالَ والضعفاءَ والنساءَ والمواثيق... لم يفهم حقيقة (العُروة الوُثقى) مهما رددها.

الترابط البياني بينهما:

- الثالث يضع "السُّنن الكبرى" (ولاية/طاغوت، توحيد/شرك، إنفاق/ربا، صدق/رياء، أمانة/خيانة، تسليم/اعتراض)..
- والرابع يفتح "دفتر التطبيق" داخل المجتمع والأسرة؛ ليمنع أن تتحول السُّنن إلى شعاراتٍ عاطفية بلا عدلٍ ولا رحمةٍ ولا نظام.

الترابط الوجداني بينهما:

- الثالث يُخرجك من "إسلام الانطباع" إلى "إسلام القرار"..
- والرابع يُخرجك من "إسلام القرار المجرّد" إلى "إسلام الأمانة اليومية"؛

لأنك إن لم تُترجم (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) في بيتك ومالك وضعفائك... فلن يبقى

منها إلا صوتٌ بلا روح.

الخلاصة الجامعة:

← الجزء الثالث يُعلِّمُك أن الدين يبدأ بقطعٍ داخليٍّ مع الطاغوت وبربطٍ داخليٍّ بالله تعالى..

← والجزء الرابع يُثبت أن هذا الربط لا يُصدَّق إلا حين يصير عدلاً في الأموال، وحفظاً للحدود، ورحمةً في البيوت، ووفاءً بالمواثيق... وإلا فستبقى "العروة" لفظاً في الفم لا حقيقةً في الحياة.

الجزء الخامس: من تَهذيبِ الشَّهْوَةِ إلى تَحصينِ الأُمَّة

شريعةٌ تُصلِحُ السِّرَّ والبيتَ والسُّوقَ والقَضاءَ؛ وتفضحُ النِّفاقَ حتى لا يَسوقَكَ إلى الطاغوت..

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ

يأخذك هذا الجزء من القرآن من أدقِّ مواضع الضعف الإنساني إلى أوسع ميادين الابتلاء الاجتماعي، لا ليُثقِلَكَ بالأحكام بوصفها موادَّ جامدة، بل ليُقيمَ في داخلك معنى الحراسة الربّانية:

١. حراسة الشهوة حين تُزيّن،
٢. وحراسة المال حين يُغري،
٣. وحراسة البيت حين تتنازع الأدوار،
٤. وحراسة العدل حين يُراد له أن يُستبدَل بالهوى،
٥. ثم حراسة الإيمان حين يلتفّ عليه النفاق باسم الإصلاح...

وفي كلِّ محطةٍ يُذكّرك القرآن أنّ الله تعالى لا يشرع ليُحرِجَك، بل ليُطهّرَك، وأنه يعلم ضعفك ويضع لك سُبل النَّجاة قبل أن تقع، أو يفتح لك باب التوبة بعد أن تقع...

← وأن الطريق كلَّه قائمٌ على "الهداية والبيان" لا على الغموض،
← وعلى "العدل والرَّحمة" لا على الفوضى ولا القسوة.

تبدأ الرحلة من بوّابة العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث يُقطَع طريق الفوضى من أصلها، فلا تُترك الشهوةُ لتُفسد معنى الكرامة، ولا تُترك الرغبةُ لتأكل حقّاً أو تشتري ضميراً؛ فتجيء الآية كحدٍّ فاصِلٍ بين الحلال والحرام، وتثبيتٍ لمبدأ أن الزواجَ عقدُ عفافٍ لا بابُ سِفاح، وأن ما يُؤخَذ من جسدٍ بغير صيانةٍ يُحوّل الإنسان إلى سلعةٍ ولو تزيّن بألف اسم؛ فتسمع من أول الطريق نبرةَ التحصين في

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ... فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، ثم تمتدّ المعاني لتؤكّد أنّ الشرع حين يضع الضوابط لا يُنكر الحاجة ولا يُنازع الفطرة، بل يمنع انحرافها، ويأذن بالتيسير حيث يُخشى العَنت – المشقة الشديدة الـمُهلكة –، مع بقاء "**الصبر**" أعلى مرتبةً لمن استطاع: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

ثم لا يتركك القرآن مع الحكم وحده، بل يكشف لك قلبَ التشريع ومقصده: ليس الهدف تقييدك بل إنقاذك؛ لذلك تتوالى على سمعك ثلاثُ "**إراداتٍ**" تُعرّفك بمنطق الطريق:

١. إرادة البيان والهداية والتوبة،
٢. ثم إرادةُ التائبين الصادقين أن يعودوا إلى الله، في مقابل إرادة أهل الشهوات أن يُميلوك ميلاً عظيماً،
٣. ثم إرادةُ التخفيف لأن الإنسان خُلق ضعيفاً؛

فتأتي كالأوتاد التي تُثبّت فهمك قبل التطبيق: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾.

ومن تهذيب الشَّهوة ينتقل بك إلى تهذيب المال؛ لأن كثيراً من الانهيارات تبدأ من هنا:

← مالٌ يُؤكل بالباطل،
← وصفقاتٌ تُقام على الغشّ،
← ونفوسٌ تظن أن الطريق إلى الراحة يُفتَح بظلم الناس...

فيأتي القرآن ليضع قاعدة السُّوق والبيت معاً: التراضي لا الخديعة، والرحمة لا الإهلاك، حتى يصل الأمر إلى حماية النفس من كل طريقٍ يقود إلى تضييعها أو إهلاكها، فيسمع القلب خطابَ التحريم بنبرة رحمة لا بنبرة قسوة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾، ثم يضع أمامك نتيجة العدوان والظلم إن تُرك بلا توبةٍ ولا ردّ مظالم: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً﴾، وفي المقابل يفتح باب الرجاء الواقعي: اجتناب الكبائر ليس شعاراً، بل مفتاحُ سترٍ وتكفيرٍ ومدخلٍ كريم: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾.

ثم يمسّ الجذر الخفيّ للخصومات: التمنّي والحسد ومقارنة الأرزاق؛ لأن القلوب إذا لم تُهذَّب هنا ستتعبّد للغصّة وتعيش على الاعتراض، فيأتي التوجيه ليعيد الإنسان إلى موازين العدل مع الله: لكلٍّ نصيب مما اكتسب، والطلب يكون من فضل الله لا من مراقبة ما في يد غيرك: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ... وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ثم يمضي بك إلى بناء المجتمع على قواعد الحقوق والمواريث والموالي والعهود، وأن الله شهيدٌ على توزيع الحقوق لا يغيب عنه شيء: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ... وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾.

ثم يدخل بك القرآن إلى قلب البيت حيث تتشكل النفوس الأولى، فلا يترك القيادة الأُسرية عنواناً مُطلقاً بلا ضوابط، ولا يترك الخلاف الزوجي يتراكم حتى يتحول إلى عداء؛ إنما يجعل "**القوامة**" مسؤوليةَ رعايةٍ ونفقةٍ وإصلاح، ويجعل صلاح المرأة عنوانه القنوت وحفظ الغيب بما حفظ الله، ثم يضع علاج النشوز علاجاً مرحلياً مقصوده ردّ البيت إلى السَّكن لا إذلال أحد، ويغلق باب البغي حين يعود الوفاق، ثم يفتح باب التحكيم العائلي حين يخاف الشقاق، لأن

الأُسرة حين تنكسر يُسمع صدى كسرها في المجتمع كله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ... فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ ... وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ... فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾، ثم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾.

ومن البيت يوسِّع القرآن الدائرة إلى الأخلاق العامة: توحيدٌ بلا شرك، وإحسانٌ يبدأ بالوالدين ويتسع إلى القربى واليتامى والمساكين والجيران والصاحب وابن السبيل ومن تحت يد الإنسان، ثم يُغلق باب الاختيال والفخر لأنهما يفسدان العمل من الداخل، ويكشف أن البخل ليس سلوكاً مالياً فقط بل مرضُ نفسٍ تُحب أن تَحجُب فضل الله، وأن الإنفاق إن صار رياءً فقد انقلب عبادةً للناس لا لله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾، ثم ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ... وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ثم ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾، ليضع أمامك سؤالاً صريحاً لا تهويلاً فيه: ماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله؟ ثم يقرر قاعدةً عقديةً تُريح القلب من ظنون الظلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، ويُذكّرك بمشهد الشهادة والوقوف يوم القيامة حتى لا تستخفّ بحقوق الناس ولا بخطر المعصية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

ثم يعود بك إلى صيانة الصلاة نفسها؛ لأن العبادة إذا دخلها اضطراب العقل أو تهاون الطهارة انكسر معنى الوقوف بين يدي الله، فيأتي الترتيب رحيماً واقعيّاً: لا صلاة مع سُكرٍ يذهب الفهم، ولا مع جنابةٍ إلَّا مروراً في طريق، ثم فتح باب التيمم عند فقد الماء أو العجز عنه، لأن المقصد استمرار الصِّلة بالله دون تكليف بما لا يُطاق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى

﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾.. ثم يلتفت بك إلى معركة المعنى مع أهل التحريف والطعن، لا لتعيش عقدة صراعٍ مع الناس، بل لتعرف كيف يُزوَّر الدين بالكلمة وكيف يُشترى الضلال، وكيف يلتبس الحقّ حين تُبدّل الألفاظ عن مواضعها، ومع ذلك يثبت ميزان الاعتماد: الله أعلم بأعدائكم وهو الولي والنصير، فلا تُرهبك كثرة التشويش ولا ضجيج الاتهام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً﴾، ثم يفضح "**التلاعب باللسان**" والطعن في الدين، ويبين أن الطريق الأقوَم هو السَّمع والطاعة والإنصاف: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ... طَعْناً فِي الدِّينِ﴾، ثم يجيء التحذير العقدي الأكبر الذي لا يُساوَم عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، ويقطع طريق "**تزكية النفس**" الكاذبة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾، ويكشف صورة الانحراف حين تُستبدَل هداية الوحي بالإيمان بالجبت والطاغوت: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

ثم يضع القرآن أمامك مشهد الجزاء بوضوحٍ يقطع الأعذار دون مبالغةٍ لفظية، ليحميك من الاستهانة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾، وفي المقابل يفتح باب الرجاء الصالح بألفاظٍ صافية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ... وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً﴾.

ثم يُقيم لك ميزان الدولة والقضاء والأمانة، لأن المجتمع لا يقوم على العاطفة وحدها، بل على أداء الحقوق والحكم بالعدل، ثم يربط ذلك كله باسمين يراقبانك: السميع البصير؛ كأنك تُحاكم نفسك قبل أن تُحاكم غيرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، ثم يجعل الطاعة الشرعية منضبطة بمصدرها: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فإن تنازعتم فليس الهوى مرجعاً، بل الرد إلى الله والرسول: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

ومن هنا ينكشف أخطر مفترقٍ في الرحلة: قومٌ يزعمون الإيمان ثم يريدون التحاكم إلى الطاغوت، ويصدُّون عن حكم الله، ثم إذا أصابتهم مصيبةٌ بما قدمت أيديهم جاءوا يحلفون ما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً؛ إنها صناعة النفاق حين يلبس باطلَه لباس الإصلاح، فيأتي القرآن ليعطيك معياراً باطنياً لا يخدع: الإعراض عن جدالهم، ثم الموعظة، ثم القول البليغ الذي يخترق دوافع النفس، ثم يفتح لهم باب الرجوع الصادق بالاستغفار، ويقرر أن حقيقة الإيمان ليست ادعاءً، بل تسليمٌ لا حرج معه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ... يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾، ثم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ... ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ... وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

ثم يريك القرآن أن التكاليف ليست عبثاً، وأن الخير في الاستجابة لما يُوعَظ به، وأن الثبات ثمرة طاعةٍ لا ثمرة مزاج: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾، ثم يفتح نافذة الرفقة العالية لمن أطاع: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

ثم ينتقل بك إلى واقع الصراع والحذر والجهاد، لا كدعوةٍ إلى الفوضى، بل كتمييزٍ بين الصادق والمتبطئ الذي يفرح بمصيبتك ويحزن لفضلك، وكشفٍ لمرض النفوس التي لا تريد نصرة الحق بقدر ما تريد سلامة نفسها، ثم يضع المعركة في معناها: قتالٌ في سبيل الله لمن يشتري الآخرة بالدنيا، ونصرةٌ للمستضعفين الذين لا يملكون إلا الدعاء، ثم يحدد خطّ الولاء الأعظم: سبيل الله مقابل سبيل الطاغوت، ويثبتك بحقيقة أن كيد الشيطان ضعيف مهما ضجّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ ... وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.

ثم يعيد ترتيب مشاعرك تجاه الدنيا: الموت يدرككم أينما كنتم ولو كنتم في بروج مشيّدة، فلا تَبنِ ثباتك على "ضماناتٍ أرضية"، ولا تفسّر الحسنات والسيئات بسطحية تُسقط المسؤولية أو تنفي قدر الله؛ بل يضع لك الميزان الذي يجمع بين الإيمان بالقدر ومحاسبة النفس: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾، ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ثم ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

ثم يوقظ فيك معنى "القرآن كحاكمٍ على الفوضى الداخلية" فيسأل سؤالاً يفضح الغفلة دون تجريح: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، ثم يربيك على أخلاق الجماعة: ألّا تذيع أخبار الأمن والخوف بلا ردّها لأهل الاستنباط، لأن تسرّع الكلمة قد يُسقط أُمةً كما يُسقط بيتاً: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾، ويُذكّرك بباب الشفاعة الحسنة والسَّيئة ومسؤولية التأثير: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾، ثم يربيك على جمال الردّ والتحية، لأن الدين ليس معاركَ فقط بل أدبٌ يشيع السلام: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾، ويختم هذا المقطع بتثبيت العقيدة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ثم يفتح القرآن ملفّ النفاق على مصراعيه، لا ليجعلك صيّادَ قلوب، بل ليحمي قلبك من أن يُقاد باسم "الصُّحبة" أو "الانتماء" إلى غير الولاء الإيماني؛ فيكشف تذبذبهم، وموالاة بعضهم لبعض، وتربصهم، وكسلهم في الصلاة، ورياءهم، وقلة ذكرهم لله، ثم يحسم النهاية: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ومع ذلك لا يغلق الباب؛ بل يفتح باب العودة بضوابطه:

توبة وإصلاح واعتصام بالله وإخلاص: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

وبين هذه المعاني يمرّ بك تشريعٌ يحمي الدماء من فوضى القتل، ويضبط التعامل مع من يُلقي إليك السلام، ويمنع العدوان باسم الشُّبهة، ويضع أحكام الخطأ والعمد، ويجعل التثبت أصلاً، ثم يفتح باب الهجرة لمن ضاقت به الأرض، ويعذر المستضعفين، ويشرع قصر الصلاة عند الخوف، ويذكرك أن الله لا يحب الخائن الأثيم، ويُعلّمك أدب الاستغفار، ويطهر المجتمع من نجوى الشَّر إلا ما كان بصدقة أو معروف أو إصلاح: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾، ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾، ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾.

ثم تأتي الخاتمة المعنوية التي تجمع أطراف الرحلة دون تكلّف: ليست القضية أن تتعلّق بالأماني ولا أن تتشبه بأوهام أهل الكتاب، بل:

١. أن تعمل صالحاً بإيمانٍ صادق،

٢. وأن تُسلِم وجهك لله بإحسان،

٣. وأن تقوم بالقسط ولو على نفسك،

٤. وأن تحذر مفاصل الردّة المتقلبة وموالاة الكافرين على المؤمنين،

٥. وأن لا تجلس مجلساً يُستهزأ فيه بآيات الله،

ثم بعد كل هذا البيان يجيء السؤال الإلهي الذي يقطع توهم أن الله يتشفّى بعذاب عباده، ويقرر قاعدة الرجاء المنضبط: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾... كأنَّ هذا الجزء كلّه يقول لك في النهاية: إن

الشريعة ليست سياطاً على ظهرك، بل نورٌ على طريقك؛ تفضح لك أبواب الانحراف قبل أن تدخلها، وتفتح لك أبواب الرجوع إذا زللت، وتبني لك مجتمعاً لا يُدار بالشَّهوة ولا يُحكم بالطاغوت، بل يُقام على التوحيد والعدل والأمانة والتسليم.

الخريطة البنيوية لآيات هذا الجزء

- يبدأ الجزءُ من بوابةِ صيانةِ الفطرة: تحريمٌ يحرسُ الأعراضَ ويمنعُ اختلاطَ الحقِّ بالشَّهوة، ويُقيمُ العفافَ عقداً لا نزوةً، ويجعلُ المالَ طريقَ تكريمٍ لا ثمنَ استباحةٍ ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾.
- ثم يهبطُ الخطابُ إلى واقعِ العجزِ البشريّ دون تبريرٍ للانفلات: رخصةٌ عند خوف العَنت، وتذكيرٌ بأن الصبرَ أعلى لمن استطاع، وأن بابَ السترِ مفتوحٌ لمن خاف على دينه ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.
- ثم يعلنُ القرآنُ "فلسفةَ التشريع" قبل تفاصيلِه: بيانٌ وهدايةٌ وتوبةٌ، لا غموضٌ ولا حرجٌ ولا تكليفٌ بمحال ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ... وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾.
- ويضعُ الصراعَ الحقيقيَّ في موضعه: إرادةُ الله توبةٌ وتخفيف، وإرادةُ أتباعِ الشَّهوات ميلٌ عظيمٌ وإزاحةٌ عن الجادّة ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ... أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾
- ثم يُسمّي العِلّةَ بلا تجريح: ضعفُ الإنسان... لتفهمَ أن النجاةَ ليست ادّعاء قوةٍ بل طلبُ عونٍ وصدقُ مجاهدة ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾.

• ينتقلُ الميزانُ من "شهوةِ الجسد" إلى "شهوةِ المال": لا استباحةَ لأموالِ الناس، ولا تديّنَ مع أكلِ الحرام، ولا تجارةَ بلا تراضٍ صادق ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ ﴾.

• ويُغلقُ أبوابَ الهلاك تحت ستارِ المكاسب: الرحمةُ أصلٌ، والعدوانُ طريقُ نارٍ، والإنسانُ لا يربحُ حين يظلمُ نفسه ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ... وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ﴾.

• ثم يفتحُ نافذةَ الرجاء المنضبط: اجتنابُ الكبائرِ ليس ترفاً بل بوابةُ تكفيرٍ ومدخلٌ كريمٌ وسترٌ يُعيدُ للروحِ هيبتها ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾.

• يعالجُ جذرَ النزاعات في الداخل: التمنّي والحسدُ اعتراضٌ مؤدّبٌ على القسمة، والدواءُ أن تسألَ الله فضلَه لا أن تراقبَ فضلَ غيرك ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ... وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾.

• يرسّخُ عدالةَ الحقوقِ والعهود: توزيعُ الأنصبة ليس عادةً اجتماعية بل شهادةٌ ربانية على الأمانة ﴿ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾.

• يدخلُ إلى قلبِ البيت: قِوامةٌ مسؤوليةُ رعايةٍ ونفقةٍ لا ذريعةُ تسلّط، وصلاحٌ يحفظ الغيبَ لا يستعرضُ الطاعة، وإصلاحٌ يمنعُ البغي عند رجوع الوفاق ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ... فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾.

• ثم يشرعُنُ "إنقاذَ الأسرة" عند الشقاق: تحكيمٌ من الأهلين لأن البيت إذا انكسر لم يبقَ للأمن معنى ﴿ فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ﴾.

• يربطُ التوحيدَ بالأخلاق اليومية: عبادةٌ بلا شرك، وإحسانٌ يبدأ من الأقرب ويتسع إلى المجتمع، ونهايةُ ذلك كسرُ الاختيال والفخر ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾.

- يكشفُ آفاتِ المال حين تُفسدُ الدين: بخلٌ يُقنّع نفسه بالحكمة، ورياءٌ يبيعُ الصدقة للناس، وقلبٌ لا يؤمن بالله واليوم الآخر وإن تحرّك بإنفاقٍ بلا إخلاص ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ... وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾.
- يثبّتُ قاعدةَ العدل الإلهي في الوعي: لا ظلمَ عند الله ولو بمثقال ذرة، فلا تيأسُ ولا تتّهمُ ربك حين تتأخر النتائج ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾.
- يرفعُ الستار عن يوم الشهادة: حضورُ الشهود يقتلُ الغرور، ويجعلُ الكلمةَ والقرارَ أثقلَ من أن تُلقى بغير حساب ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾.
- يطهّرُ الصلاةَ من العبث: لا وقوفَ بين يدي الله بعقلٍ غائب، ولا عبادةَ بلا طهارة، ومع ذلك لا يغلقُ الطريق عند العجز: التيممُ رحمة ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ... فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾.
- يكشفُ جذورَ التحريف والطعن: ضلالٌ يُشترى، وكلمةٌ تُلوى، ودينٌ يُهاجَم من ثغرة اللسان ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ... طَعْناً فِي الدِّينِ ﴾.
- يضعُ خطَّ النجاة العقدي الأعلى: الشركُ هو الهاوية التي لا ينجو معها عملٌ، ودونه ما يُغفر لمن شاء الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾.
- يهدمُ وهمَ تزكية النفس: الصلاحُ ليس ادعاءً ولا شهادةً ذاتية، بل تزكيةٌ يمنحها الله لمن شاء بصدقِه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ... بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾.
- يُعرّي الالتفافَ على الإيمان: حين يُستبدل نورُ الوحي بمسارات الجبت والطاغوت، يصبح "الانحراف" موقفاً لا زلّة ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.
- يوازنُ بين مشهد الوعيد والرجاء: نارٌ تُخيف لتردع، وجناتٌ تُبشّر لتثبت، والميزانُ عملٌ صالحٌ بإيمانٍ صادق ﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً ... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ﴾.

• يُقيمُ الدولةَ على معنى الأمانة لا على القوة: ردُّ الأمانات وحكمُ العدل هو جوهرُ صلاح الحكم ﴿ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾.

• يضبطُ الطاعة بالوحي: طاعةٌ لله ورسوله، ونظامٌ لأولي الأمر، لكن المرجعُ عند النزاع ليس المزاج بل الوحي ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

• يفضحُ دعوى الإيمان إذا أرادت التحاكم للطاغوت: أخطر النفاق أن يلبس الباطل لباس "الإحسان والتوفيق" ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ... إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾.

• يرسمُ معيارَ الإيمان الحقيقي: تحكيمُ الرسول، ثم زوالُ الحرج الداخلي، ثم تسليمٌ كاملٌ لا مراوغة فيه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ... وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

• يربطُ الطاعةَ بالثمرات: خيرٌ، وتثبيتٌ، وأجرٌ، وهدايةٌ... لا كلماتٌ في الهواء ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾.

• يرفعُ أُفقَ الرفقة: الطاعة تُلحقُك بركب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين... لا بمجرد العناوين ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾

• يُدخلُ المؤمنَ ميدانَ الحذر والجهاد: تمييزُ الصَّف، وكشفُ المتبطئ، وربطُ القتال بمعنى النصرة للمستضعفين لا بطلب الغلبة لنفسك ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ... وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ ... وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾.

• يرسّخُ خطَّ الولاء الأعظم: سبيلُ الله مقابل سبيل الطاغوت، وكيدُ الشيطان ضعيف مهما بدا صاخباً ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾.

- يعيدُك إلى حقيقة المصير: الموتُ يصل إليك أينما كنت، فلا تُربّي قلبك على الأمان الزائف ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.
- يوازنُ فهم قدر الله مع محاسبة النفس: كلٌّ من عند الله قضاءً، والسَّيئة تُنسب للنفس اكتساباً، فلا تتبرأ من مسؤوليتك ولا تتهم ربك ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ... وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾.
- يجعلُ التدبر شرطَ النَّجاة من التشوش: القرآن لا يُحتمل فيه تناقض لأنه من عند الله، فمن لم يتدبر بقي يتخبط ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾.
- يُربيك على عقلِ الجماعة: لا تذيع خبر الخوف والأمن، ردّه إلى أهل العلم والاستنباط؛ فالكلمة قد تجرح صفّاً كاملاً ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ... لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ ﴾.
- يُحمّلك مسؤولية التأثير: شفاعةٌ حسنة لك نصيبها، وشفاعةٌ سيئة عليك كِفلها؛ فالأبواب تفتحها كلماتُك قبل خطواتك ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ... وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً ﴾.
- يختمُ بخُلُق السَّلام: التحيةُ ليست شكلاً اجتماعياً بل عبادةُ تهذيبٍ وفتحُ قلوب ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾.
- ثم يُحاصرُ النفاق حتى لا يختبئ خلف الشعارات: تذبذبٌ، ومراءاةٌ، وكسلٌ عن الذكر، ومآلٌ خطير... وبابُ رجوعٍ لمن صدق ﴿ مُذَبْذَبِينَ ... يُرَاءُونَ النَّاسَ ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾
- ويُسدلُ الستار بسؤالٍ يُطهّر الصورة عن الله تعالى في القلب: الله لا يتشفى بعذابك، لكنه يُربيك لتشكر وتؤمن فتنجو ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾.

المحور الإيماني المركزي لهذا الجزء

إعادةُ تعريف "الإيمان" بوصفه تسليماً عمليّاً لله في ثلاث ساحاتٍ متلازمة: الشهوة، والمال، والمرجعية؛ بحيث يُقاس صدقُ الإيمان بانتقال الإنسان

١. من اتّباع الهوى إلى اتّباع الوحي،

٢. ومن التحايل على الحدود إلى تعظيمها،

٣. ومن التحاكم للطاغوت إلى التحاكم للرسول ﷺ بلا حرجٍ في الداخل.

هو جزءٌ يُربّي القلب على أن الإيمان ليس شعاراً، بل "انقيادٌ" حين تُستثار الغريزة، و"أمانةٌ" حين تُعرض المكاسب، و"مرجعيةٌ" حين يقع النزاع؛ ولذلك يجمع خيطُه بين ضبط العلاقة (العفّة والميثاق)، وضبط المعاملة (العدل والأمانات وترك أكل المال بالباطل)، وضبط الولاء والتحاكم (ردّ الأمر إلى الله والرسول والكفر بالطاغوت)، ثم يختم بأنَّ معيار الإيمان الحاسم هو الرضا بحكم النبي ﷺ من غير تضيقٍ في الصدر: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

أخطرُ الانحرافاتِ التي يُحذِّرُ منها هذا الجزء

❖ أولاً: انحرافٌ عقديّ

١) التحاكمُ إلى غير الوحي مع دعوى الإيمان: أن تقول "آمنا" ثم تجعل مرجعيتك عند النزاع إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله: (يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِ).

٢) الإيمانُ الانتقائيّ: قبولُ ما يوافق الهوى ورفضُ ما يُخالفه، مع بقاء الحرج في الصدر: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

٣) تزكيةُ النفس والتديُّنُ المتعالي: أن يعبد الإنسان صورتَه وهو يظن أنه يعبد ربَّه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ).

٤) الشركُ الصريحُ أو الخفيّ: لأن كل إصلاحٍ أخلاقيٍّ واجتماعيٍّ ينهار إن فسد أصل التوحيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.

❖ **ثانياً: انحرافٌ أخلاقيّ**

١) الانفلاتُ الجنسيّ وثقافةُ الخِدن والسرّ: سقوطُ العفاف من الداخل قبل سقوط الصورة من الخارج: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

٢) أكلُ المالِ بالباطل: أن تتحوّل المعاملةُ إلى افتراسٍ مغلّفٍ بعقود: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٣) العدوانُ على النفس أو الغير: استهانةُ الحياة حين تضعف التقوى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾.

٤) البخلُ والرياء: تجميدُ الرحمة في القلب أو تلويثُ الصدقة بالسمعة: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ... ﴾ – ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

❖ **ثالثاً: انحرافٌ اجتماعيّ**

١) تفكُّكُ الأسرة وسوءُ إدارة النزاع: حين تتحوّل القِوامة إلى تسلّط أو يتحوّل الخلاف إلى انتقام: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

٢) إضاعةُ الأمانات والعدل في الحكم: سقوطُ المجتمعات يبدأ من خيانةٍ صغيرةٍ في موقع مسؤولية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾.

٣) إذاعةُ الأخبار بلا تثبّت: صناعةُ الفوضى باسم الغيرة أو الخوف: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ﴾.

٤) الولاءُ المزدوجُ الذي يُضعف الهوية: ﴿لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

❖ رابعاً: انحرافٌ نفسيّ

١) الحسدُ والمقارنةُ القاتلة: اعتراضٌ خفيٌّ على قسمة الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٢) الخوفُ من الناس أكثر من الله: قلبٌ يختلّ ميزانه عند الشدّة:﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

٣) التهرُّبُ من المسؤولية وإلقاءُ اللوم على القدر: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

٤) ازدواجيةُ الداخل والخارج (النفاق): قولٌ أمام الناس، وصدودٌ عن الحقّ في الخلوة: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾.

هذا الجزء لا يُحذِّر من أخطاءٍ متفرّقة... بل من منظومةِ انحرافٍ كاملة تبدأ بخللٍ في التوحيد، ثم تتسرّب إلى الأخلاق، فتفسد العلاقات، ثم تستقرّ في النفس كحالةٍ من الازدواجية؛ ولذلك كان علاجُه واحداً في النهاية: تسليمٌ صادقٌ، وعدلٌ ظاهرٌ، وتوبةٌ تُصلح الداخل قبل أن تُجمّل الصورة.

ملامحُ الشخصيةِ التي يصنعها هذا الجزء

١) شخصيّةٌ مُسلِّمةٌ بلا حرجٍ داخليّ: إذا حُكم عليها بالوحي لم تبحث عن مخارج، بل انقادت بقلبٍ راضٍ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

٢) شخصيّةٌ عفيفةٌ تُدير شهوتها بميثاقٍ لا بنزوة: تعرف أن الكرامة تُحفظ قبل اللذّة: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

٣) شخصيّةٌ أمينةٌ في المال: لا ترى في المكسب غير المشروع "ذكاءً"، بل

خيانةً لله والناس: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٤) شخصيّةٌ عادلةٌ في موقع القرار: إذا وُلّيت أمانةً أدّيتها، وإذا حكمت عَدَلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾.

٥) شخصيّةٌ متوازنةٌ في البيت: تقوم ولا تتسلّط، وتُصلح ولا تنتقم، وتطلب الإصلاح لا الغلبة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

٦) شخصيّةٌ إحسانُها مُـمتدّ: عبادتُها لا تبقى في المصحف، بل تنزل إلى الوالدين والجيران والضُّعفاء: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔاً وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً﴾.

٧) شخصيّةٌ متواضعةٌ لا تُزكّي نفسها: تخاف على صدقها أكثر مما تفرح بمدحها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾.

٨) شخصيّةٌ مرجعيّتُها واضحة: إذا تنازعت رددت الأمر إلى الله والرسول، لا إلى المزاج ولا إلى الطاغوت: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٩) شخصيّةٌ ثابتةٌ أمام الخوف والضغط: لا يخيفها الناس أكثر مما تخاف ربّها: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

١٠) شخصيّةٌ واعيةٌ في تداول الأخبار: لا تُشيع الفزع ولا تُضخّم الحدث بلا تثبّت: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ﴾.

١١) شخصيّةٌ مسؤولةٌ عن نفسها: لا تُعلّق أخطاءها على أقدار الله تعالى، بل تُحاسب ذاتها: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

١٢) شخصيّةٌ متفكّرةٌ غير سطحية: تُدرك أن هذا الكتاب متناسقٌ لأنه من عند الله، فتتدبّره لا تمرّ عليه مروراً عابراً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفاً كَثِيراً﴾.

١٣) شخصيّةٌ تائبةٌ راجعةٌ إذا أخطأت: لا تُصرّ، ولا تُكابر، بل تعود بصدقٍ وإصلاحٍ واعتصام: (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ).

هذه الشخصية التي يصنعها هذا الجزء ليست "متديّناً يتكلم كثيراً"... بل إنساناً يُرى إيمانه في عدله، وتُرى عبادته في أمانته، وتُرى مرجعيته في خصومته، وتُرى تقواه حين تُغلق الأبواب ولا يراه أحد.

أمراضُ القلوبِ التي يُعالجُها هذا الجزء

١) مرضُ الازدواجيّة بين الدعوى والحقيقة: أن يقول القلب "آمنتُ" ثم يتردّد حين يُحاكَم للوحي؛ فيأتي العلاج الحاسم الذي يكشف صدق الداخل: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

٢) مرضُ الميلِ إلى الشَّهوة باسمِ التيسير: قلبٌ يُحبّ أن يُشرعن ضعفه بدل أن يعالجه؛ فيُذكِّره الوحي بأن التخفيف رحمةٌ لا فوضى: (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفاً).

٣) مرضُ اتباعِ الشَّهوات والانحراف التدريجيّ: ميلٌ يسير يتحوّل إلى سقوطٍ عظيم إن لم يُضبط: (وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً).

٤) مرضُ أكلِ المالِ بالباطل والطمعِ المُقنَّع: قلبٌ يرى في الاعتداء مهارةً لا خيانة: (لَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ).

٥) مرضُ البُخلِ وتجميدِ الرَّحمة: خوفٌ مرضيّ من الفقد يُميت الإحسان: (ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ).

٦) مرضُ الرياءِ وتلوّثِ النية: عبادةٌ تُطلب بها أعين الناس لا وجه الله: (وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ).

٧) مرضُ تزكيةِ النفس والكِبرِ الرُّوحيّ: إعجابٌ داخليّ يُعمي عن العيوب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾.

٨) مرضُ الحسدِ والمقارنةِ القاتلة: اعتراضٌ خفيّ على قسمة الله يُفسد صفاء القلب: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٩) مرضُ الخوفِ من الناس أكثر من الله: قلبٌ يضطرب أمام الضغط الاجتماعيّ أو السياسيّ: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

١٠) مرضُ إساءةِ فهمِ قدر الله وإلقاءِ اللوم على الخارج: تهرّبٌ من محاسبة النفس: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

١١) مرضُ النفاقِ والصدودِ عن الحقّ عند المواجهة: قبولٌ ظاهريّ ورفضٌ باطنيّ: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

١٢) مرضُ التعلّق بالطاغوت في لحظة النزاع: البحثُ عن حكمٍ يُرضي الهوى لا عن حكمٍ يُرضي الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ﴾.

هذا الجزء لا يعالج أعراضاً سطحيةً... بل يُشرّح القلب من الداخل:

- يُداوي شهوةً إذا انفلتت،
- وطمعاً إذا تغلّب،
- وكِبراً إذا انتفخ،
- وخوفاً إذا سيطر،
- وازدواجيّةً إذا استقرّت؛

ليُعيد القلب إلى أصل العبودية الصافية:

- ❖ تسليمٌ بلا مراوغة،
- ❖ وعدلٌ بلا هوى،
- ❖ وتوبةٌ بلا إصرار.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميقٌ... أسئلةُ مواجهةٍ لا معلوماتَ:

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء... أم أتعامل معه كأنه موجَّه لغيري فقط، فأقرأه بعين الـمُعلّق لا بعين الـمُحاسَب، وأستريحُ إلى أن "أنا لستُ المقصود" بينما القرآن لا ينادي إلا ليُوقظ فيّ ما نام؟

- حين مرّت أمامي حدودُ العفاف وميزانُ الشَّهوة... هل شعرتُ أن النصَّ يحميني ويُطهّرني، أم شعرتُ أنه "يقيدني" لأن في داخلي ميلاً خفيّاً إلى الانفلات لا أحب أن أعترف به؟
- وهل ارتجفتُ من كلمة التحصين في ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ لأنني أخاف أن يكون في سلوكي ما يقترب من السَّفح ولو بلا اسمٍ صريح؟

السَّفح في الأصل: الصبُّ والإراقة بلا ضبطٍ ولا التزام.

وفي الآية: هو الزِّنا والعلاقة المحرَّمة التي تُمارَس بلا عقدٍ شرعيٍّ ولا مسؤوليةٍ ولا عِفّة.

❖ أين انكشف قلبي حين قال الله: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾... هل التقطتُّ الإشارة أن الميل العظيم لا يبدأ بفعلٍ كبير، بل بخطوةٍ صغيرة أبرّرها، ثم تتكاثر حتى أصيرُ "أتبع" وأنا أظنُّ أني "أختار"؟.

- هل أُعامل ضعفي بوصفه بابَ توبةٍ وجهاد، أم بوصفه حجّةَ استسلام؟ وهل أنا صادق حين أستحضر قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾... أم أستعملها لأمنح نفسي رخصةً دائمة بدل أن أطلب من الله تخفيفاً يقودني إلى الإصلاح؟.
- ما علاقتي بالمال في هذا الجزء: هل أنا آكلٌ للباطل ولو في صورٍ "خفيفة" أعدّها ذكاءً ومهارةً، أم أرتعدُ من نداء الإيمان الذي

يضع خطّاً أحمر: ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾... وأين موضع "الباطل" الذي أتجاهله في حياتي لأن الناس اعتادوه؟.

- أيّ آية أربكتني لأنني شعرتُ أنها لا تترك لي مخرجَ تبرير؟ هل هي تهديدُ العدوان والظلم: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً﴾... أم هي وعدُ الكفاية لمن اجتنب الكبائر: ﴿ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ لأنني في العمق أخاف أن أكونُ متساهلاً مع كبيرةٍ أُحسن تسميتها "صغيرة"؟.
- ما السلوك الذي أؤجّل تغييره وأنا أعلم أنه أصلُ البلاء؟ هل هو عادةٌ أكررها ثم أقول "سأتوب لاحقاً"، أم علاقةٌ لا ترضي الله أُبقيها بدافع التعلّق، أم مالٌ مختلطٌ لا أريد أن أفتّش فيه، أم لسانٌ يظلم ثم يطلب المغفرة بلا ردّ حق؟ وأيُّ شيءٍ يمنعني من خطوةِ الصدق الآن؟.
- حين قرأتُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾... هل انكشف فيّ حسدٌ صامتٌ أُخفيه تحت ستار "النصيحة"، أو مقارنةٌ تسرقُ مني الرضا، أو اعتراضٌ داخلي على القسمة لا أجرؤ أن أنطق به؟ وما الاسم الذي أطلقه على هذا الحسد حتى لا أراه؟
- في بيتي... هل أنا ممن يأخذ من آية القِوامة عنواناً ويترك معناها؟
  - هل أطلب حقي وأهمل واجبي؟
  - هل أرفع صوتي باسم الإصلاح وأهدم السكينة باسم التربية؟
  - وهل أسمع التحذير واضحاً: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ فأعرف موضع البغي الذي قد يختبئ في كلمةٍ جارحة أو ضغطٍ ظالم أو تهديدٍ متكرر؟.
- وحين يصل النص إلى التحكيم والإصلاح... هل أهرب من الإصلاح الحقيقي لأنه يُكلّفني تنازلاً، فأُفضّل أن يبقى الشقاق مكتوماً لا محلولاً؟

❖ وهل أصدق في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾... أم أريد "انتصاراً" لا "إصلاحاً"؟.

❖ في علاقتي بالناس... هل إحساني واسعٌ حقّاً أم انتقائيٌّ حسب المزاج؟

❖ وهل "الجار" عندي له نصيبٌ من البر أم هو خارج حساباتي؟

❖ وهل أرتجف من هذه المرآة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ لأن في داخلي كبرياءً متخفّياً يظهر حين أختلف مع أحد أو أنفق أو أنصح؟.

❖ أين انكشف قلبي في باب الرياء:

- هل أنفق لأُرى؟.
- هل أتكلّم لأُمدَح؟.
- هل ألتزم لأحافظ على صورتي؟.
- وهل أقرأ هذه الآية ثم أمرّ عليها سريعاً لأنني أخاف أن تُسقط عني قناعاً: ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾؟.

❖ في الصلاة... هل أدخلها بعقلٍ حاضر أم بجسدٍ حاضر فقط؟ هل أعرف ماذا أقول، أم أُسرع لأفرغ؟ وهل يوجعني قوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ لأنني كثيراً لا أعلم حقّاً ما أقول من فرط الغفلة؟.

❖ عند الاختلاف والنزاع... إلى أي مرجعٍ أهرب؟ هل أبحث عن "مخرجٍ قانوني" يوافق هواي ولو كان يباعدني عن حكم الله؟ وهل تخيفني هذه المرآة: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ لأنني قد أستبدل نورَ الوحي بمحاباةٍ أو عصبيةٍ أو ضغطٍ اجتماعي؟.

❖ هل أنا ممن يكتمل إيمانه بالتسليم الداخلي، أم يطيع وهو ممتلئ اعتراضاً؟

❖ وهل أستطيع أن أنظر إلى هذا المعيار بلا مراوغة: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾... فأحدد: أين الحرج الذي يسكنني؟ وأي حكمٍ شرعيٍّ ما زلتُ أدفعه في قلبي؟

- وفي ميدان الأخبار والكلام... هل أنا ممن يذيعون كل شيء ثم يسمون ذلك "غيرةً" أو "وعياً"؟ وهل وعيتُ خطرَ نشر الخوف والأمن بلا علم: ﴿ أَذَاعُوا بِهِ ﴾... وما الخبر الذي أضرّ به غيري لأنني لم أتثبت؟
- أيُّ بابٍ من أبواب النفاق قد يمرُّ عليّ دون أن أشعر: رياءٌ في الصلاة، كسلٌ في الذكر، تذبذبٌ في المواقف، تبريرٌ باسم الإصلاح... وهل أقرأ وصفهم فأقول "ليسوا أنا" أم أتساءل: ماذا لو كان فيّ شيءٌ منهم؟ ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ ... وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.
- وأخيراً... حين أسمع سؤال القرآن الذي يقطع صورة الإله المتوهَّمة في القلب: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾... هل أشعر أن الله يدعوني للنَّجاة حقّاً، ثم أتردد؟ وما الخطوةُ الواحدةُ التي لو فعلتُها اليوم لبدأتُ أكون من أهل الشكر والإيمان لا من أهل التأجيل؟

خُطَّةُ التغيير... طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح

خطةُ التغيير ليست طريقاً طويلاً مُرهِقاً بقدر ما هي قرارٌ صريحٌ لا يحتمل المراوغة... تبدأ بأن تُسمّي موضع الخلل فيك دون تجميلٍ ولا تبرير، لأن أول الخيانة أن تُخفي المرض باسم الظروف، وأول الصدق أن تقول: هنا ضعفي، وهنا ميلي، وهنا اعتراضي الصّامت، وهنا التأجيل الذي أعيش عليه منذ سنوات... فإذا سمّيت الداء بدأ العلاج.

- **الخطوةُ الأولى:** إعادةُ المرجعية إلى موضعها، أن تُسلِّم قلبك قبل جوارحك، فلا يكون حكم الله موضوع نقاشٍ داخلي كلما خالف رغبتك، بل يكون الميزان الذي تُقاس به رغبتك، وأن تضع أمامك معياراً لا يتبدّل كل يوم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾... فإن وجدت الحرج فاعلم أن العمل المطلوب الآن هو تطهير الداخل قبل تجميل الخارج.

- **الخطوةُ الثانية:** إغلاقُ باب الشَّهوة قبل أن يتحوّل إلى عادة، لا تنتظر السقوط الكبير لتتوب، بل أوقف الخطوة الصغيرة التي تبرّرها لنفسك كل يوم، لأن الميل العظيم يبدأ بميلٍ خفيٍّ لا يُرى، فتذكّر دائماً أن هناك إرادتين تتجاذبانك: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾... وحدّد: مع أي إرادةٍ أعيش الآن؟.
- **الخطوةُ الثالثة:** تصحيحُ المال ليُستجاب الدعاء، فلا إصلاحَ مع لقمةٍ مختلطة، ولا سكينةَ مع حقٍّ في ذمتك لم تُعده، راجع تجارتك، راتبك، معاملاتك، واصدق في ميزان التراضي، لأن التغيير لا يستقر في قلبٍ يأكل الباطل ثم ينتظر نوراً، واجعل أمامك خطّاً أحمر لا تتجاوزه: ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾.
- **الخطوةُ الرابعة:** إصلاحُ البيت قبل إصلاح المنابر، ابدأ بمن تحت يدك، بطريقة كلامك، بعدلك، بصبرك، بردِّ البغي إن وقع منك، وبإرادة الإصلاح لا إرادة الانتصار، لأن البيت إذا صلح استقامت بقية المسارات، وإذا فسد بقيت الدعوة شكلاً بلا روح، واجعل نيتك واضحة: ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾... فهل أنت حقّاً تريد الإصلاح؟.
- **الخطوةُ الخامسة:** معالجةُ الحسد قبل أن يعالجك، لا تراقب ما في يد غيرك، بل اسأل الله من فضله، ودرّب قلبك على الرضا المقصود لا الرضا الاضطراري، لأن المقارنات تُفسد القلب ولو لم تتكلم بها، واستحضر هذا الميزان كلما تحركت الغصّة في صدرك: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾.
- **الخطوةُ السادسة:** إعادةُ الحياة إلى الصلاة، لا كواجبٍ يُؤدّى بل كوقوفٍ يُعاش، أدخلها بعقلٍ حاضر، وافهم ما تقول، وقلّل من الاستعجال الذي يُفرغها من أثرها، لأن الله لم يطلب منك حركةً بلا وعي، بل حضوراً يغيّرك:

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾... فاسأل نفسك: هل أعلم ما أقول؟.. أم مرَّت عليّ ولم أعرف كيف انتهت؟..

- **الخطوةُ السابعة:** تطهيرُ النيَّة في الخفاء، راقب دافعك قبل عملك، لماذا تتكلم؟ لماذا تنفق؟ لماذا تنشر؟ لأن الرياء لا يصرخ، بل يهمس في الداخل، والتغيير الصريح أن تُعيد توجيه كل عملٍ إلى وجه الله لا إلى عيون الناس، وأن تخاف من أن تكون صورتك أكبر من حقيقتك: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾.
- **الخطوةُ الثامنة:** التثبتُ قبل الكلمة، لا تُذِع خبراً، ولا تُشارك خوفاً، ولا تُضخّم حدثاً، لأن الكلمة قد تهدم ثقةً أو تزرع فتنة، وردّ الأمور إلى أهلها جزءٌ من التقوى، فلا تجعل حماسك يتقدم على حكمتك: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ... وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾.
- **الخطوةُ التاسعة:** قطعُ التذبذب في المواقف، لا تكن مع الحق حين يربح ومع غيره حين يخسر، لأن أخطر ما يُفسد القلب أن يعيش بين الضفتين بلا انتماءٍ صريح، واختر موقعك بوضوح، فالدين لا يُبنى على الميوعة: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾.
- **الخطوةُ العاشرة:** الإكثار من الاستغفار العملي لا اللفظي، أي أن يتبعه ردُّ مظالم، وتركُ ذنب، وقرارُ عدم عودة، لأن المغفرة ليست كلمةً تُقال، بل مساراً يُسلك، وأبشر أن الباب مفتوح ما دمت صادقاً: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.
- ثم اختم خطتك بهذه الحقيقة التي تُنقّي صورة الله في قلبك وتمنعك من اليأس: إن الله لا يريد هلاكك، بل يريد شكرك وإيمانك، فلا تجعل خوفك يشلّك ولا تأجيلك يخدعك، وذكّر نفسك دائماً أن النجاة أقرب مما تظن

إن صدقت الخطوة: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾... فابدأ اليوم بخطوةٍ واحدةٍ واضحةٍ لا تؤجلها، وليكن طريقك قصيراً في عدد الخطوات، صريحاً في المواجهة، ثابتاً في الاستمرار.

هذه الخطة قصيرة... لكنها صريحة: احسم مرجعيتك، أغلِق أخطر باب، طهِّر مالك، أصلِح بيتك، اضبط لسانك، نقِّ نيتك، حاسِب نفسك، ثبّت عبادتك، وتُب الآن... والباقي يأتي تبعاً لذلك.

خاتمةٌ وجدانيّةٌ مُزلزِلة

وفي نهاية هذا الجزء... لا تبقَ واقفاً عند كثرة الأحكام، بل اسأل نفسك: هل خرجتُ من هنا وأنا أخاف على قلبي أكثر مما أخاف على صورتي أمام الناس؟ لأن القرآن لم يُنزَّل ليُثقل عليك قائمةً من التعليمات، بل ليضعك أمام مرآةٍ لا تجامل، مرآةٍ تكشف لك أين تميل إذا خُيِّرت بين الله وهواك، وأين تتراجع إذا اصطدمت رغبتك بحكمه، وأين تختبئ خلف عبارات "الإصلاح" وأنت في الحقيقة تؤجّل التوبة خطوةً بعد خطوة.

هذا الجزء لم يطرق بابك بخطابٍ عاطفيٍّ عابر، بل دخل إلى أعمق مناطقك: شهواتك، مالك، بيتك، خصوماتك، صلاتك، نفاقك المحتمل، وتبريراتك الصامتة... ثم وضع أمامك السؤال الكبير الذي لا يمكن الهروب منه: هل تريد أن تتوب حقّاً أم تريد أن تبقى في منطقةٍ رماديةٍ مريحة؟ ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾... فهل تُريد أنت ذلك؟.

تأمّل كيف يختم المعاني بسؤالٍ يهزُّ الصورة التي قد ترسمها عن ربك في داخلك، صورة الإله الذي يترصّد أخطاءك ليعاقبك، فيقول لك بوضوحٍ قاطع: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾... كأنَّ العذاب ليس غايةً، بل نتيجةَ إعراضٍ أنت الذي اخترته، وكأن النَّجاة ليست مستحيلةً، بل أقرب إليك من ميلٍ صغيرٍ تُصرّ عليه.

إن أخطر ما في هذا الجزء أنه لا يترك لك منطقةَ حياد... إمّا أن تُسلّم تسليماً يريح قلبك ويُحرّرك من صراعك الداخلي: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾... وإمّا أن تبقى تعيش بين الطاعة الظاهرة والاعتراض الخفي، بين صورة المؤمن وحسرة المتردد، بين خطوةٍ نحو الله وخطوةٍ نحو ما تحبّ.

القرآن هنا لا يُهدّدك ليُخيفك فقط، ولا يُبشّرك ليُطمئنك فقط، بل يُقيمك في موضع المسؤولية؛ يُذكّرك أن الموت يدركك ولو كنت في بروجٍ مشيّدة، وأن العمل هو الفاصل لا الأماني، وأن التسويف أخطر من الذنب نفسه لأنه يُلبسك ثوب الأمان الكاذب... وأنك في كل يومٍ تؤجّل فيه إصلاحاً تعرفه، تكتب سطراً جديداً في قصةٍ قد لا تُتاح لك فرصةُ تعديلها.

فاختر لنفسك الآن موقعاً واضحاً... لا تُراوغ، لا تُؤجّل، لا تقل "سأبدأ حين تهدأ الظروف"، لأن الظروف لا تهدأ إلا في قلبٍ حسم أمره... قف أمام الله بقلبٍ صريح، واعترف، واطلب، وسلِّم، ثم سِر، ولو بخطوةٍ واحدةٍ صغيرةٍ لكن صادقة... فربُّك الذي قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ لن يضيع منك دمعةَ صدقٍ ولا قرارَ توبةٍ ولا مجاهدةَ ضعفٍ خفية.

هذه ليست نهايةَ جزءٍ من القرآن... بل بدايةُ مفترقٍ في حياتك:

← إمّا أن تخرج كما دخلت، وقد أعجبتك العبارات وأرهقتك المعاني ثم نسيتها..

← وإمّا أن تخرج وقد انكسر في داخلك شيءٌ كان يجب أن ينكسر منذ زمن... لتبدأ حياةً أخفَّ ذنباً، أصدقَ تسليماً، وأقربَ إلى الله من أي وقتٍ مضى.

الرسالة التي يوجهها الجزء الخامس الى المسلمين؟

- الدين ليس قائمةَ محظوراتٍ بل مشروعَ تحصينٍ شاملٍ يبدأ من الفطرة ويحرسُها من الانفلات، ويجعلُ العفافَ عبادةً لا عادة، ويقيمُ العلاقةَ على معنى الإحصان لا الاستهلاك ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾..
- التشريعُ بيانٌ ورحمةٌ قبل أن يكون تكليفاً، وغايةُ الأوامر أن تعودَ إلى الله لا أن تُحاصَر بالحرج ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ... وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾..
- معركتك الحقيقية ليست مع الناس بل مع الميل الخفي الذي يجرُّك خطوةً بعد خطوة بعيداً عن الجادّة ﴿ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾.
- ضعفك ليس عذراً للانحدار بل مدخلاً لطلب العون والصدق في المجاهدة ﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾.
- طهارةُ المال شرطُ طهارةِ القلب، ومن استهان بالباطل في المعاملة أظلمت بصيرته في العبادة ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾.
- اجتنابُ الكبائر ليس ترفاً أخلاقياً بل طريقُ سترٍ وتكفيرٍ ومدخلٌ كريم ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.
- الرضا بقسمة الله عبادةٌ خفية، والحسدُ اعتراضٌ صامتٌ على الحكمة ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾.
- البيتُ ساحةُ أمانةٍ لا ساحةُ صراع، والقوامةُ تكليفُ رعايةٍ لا رُخصةُ تسلّط ﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾
- الإصلاحُ يحتاج إرادةً صادقةً قبل أن يحتاج أدواتٍ ووساطات ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾.
- التوحيدُ لا ينفصل عن الإحسان الاجتماعي؛ العبادةُ الحقّة تمتدّ إلى الوالدين والجار والضَّعيف ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾.
- الرياءُ يسرقُ روح العمل ولو بدا ظاهرُه صالحاً ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾.

- عدلُ الله قاعدةُ الطمأنينة؛ لا يضيعُ عنده مثقالُ ذرةٍ من خيرٍ أو شر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾.
- الصلاةُ حضورُ قلبٍ قبل حركةِ جسد، ولا معنى لعبادةٍ بلا وعيٍ صادق ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.
- أخطر الانحراف أن تُعلن الإيمان وتبحث في الخفاء عن حكمٍ يوافق هواك ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.
- الإيمانُ ليس طاعةً ظاهريةً فحسب بل تسليمٌ داخليٌّ يزول معه الحرج ﴿ وَلَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً ... وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾.
- التدبرُ حمايةٌ من الاضطراب؛ القرآنُ متّسقٌ لأنه من عند الله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾.
- الكلمةُ أمانة؛ نشرُ الخوف أو الأمن بغير تثبّت خيانةٌ للوعي ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾.
- النفاقُ يبدأ بتذبذبٍ صغيرٍ وينتهي بدركٍ خطير ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.
- طريقُ الله واضحٌ لا منطقةَ حياد فيه؛ إمّا سبيلُ الله وإمّا سبيلُ الطاغوت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.
- الموتُ يقينٌ حاضر؛ فلا تبنِ حياتك على وهم الأمان الزائف ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾.
- السَّيئةُ مسؤوليتك ولو كان القدرُ بيد الله؛ لا تبرّئ نفسك باسم القضاء ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.
- بابُ التوبة مفتوحٌ لمن صدق، لا لمن راوغ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.
- الله تعالى لا يريد عذابك بل شكرك وإيمانك؛ النجاةُ أقربُ مما تظن إن اخترت الطريق ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾.

الترابط البنيوي والبياني والوجداني بين الجزأين الرابع والخامس...

من امتحان القلب إلى هندسة الحياة

الجزآن ليسا انتقالاً شكلياً من سورةٍ إلى أخرى، بل تحوّلٌ عميقٌ في مسار التربية القرآنية؛ انتقالٌ من هزِّ الداخل إلى ضبط الخارج، من إعادة تعريف "البرّ" في أعماق النفس إلى تنزيل هذا البرّ في تفاصيل الأسرة والمال والعدل؛ فكأنّ القرآن يقول لك: لن تُقيم مجتمعاً مستقيماً ما لم تُصلح معيارك في ذاتك أولاً، ولن تنال شرف الإصلاح وأنت لم تمتحن قلبك بعد... ولذلك جاء في آل عمران الميزان الصادم الذي يخلخل الداخل: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، ثم ما إن يُختبر حُبَّك حتى يُفتح أمامك ملفّ الحقوق الواقعية: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾، ليُصبح البرّ امتحاناً مالياً وأسرياً لا شعاراً وجدانياً.

في آل عمران تُبنى الهوية الجامعة حول "الحبل" الذي يَجمع ولا يُفرّق، ويصوغ أمةً تعرف مصدرها الواحد ومرجعها الواحد، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾، ثم في النساء تُترجم هذه الوحدة من نشيدٍ جامع إلى عدلٍ تفصيليٍّ داخل البيوت والذمم والعلاقات، لأن الأُخُوّة ليست عاطفةً عامة بل قسطاً يُقام في موضع النزاع، وأمانةً تُردّ في موضع الاختبار: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾، فكأنَّ الحبل الذي يجمع القلوب لا يصمد إن لم تُشدّ عقده بالعدل.

وفي أواخر آل عمران يرتفع بك الخطاب إلى أفق المآل، إلى ميزان الفوز الحقيقي الذي يُعيد ترتيب أولوياتك ويكسر سحر الدنيا في قلبك: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾، ثم يُدخلك في النساء إلى تفاصيل قد تبدو "أرضية" محضة؛ مواريث، زواج، تحاكم، نفقة، شهادة، ليقول لك: طريق الآخرة لا يُختصر بمشاعر عالية، بل يمرُّ من هنا...

١) من عقد الزواج،

٢) ومن توقيع البيع،

٣) ومن كلمةٍ تُقال في خصومة،

٤) ومن درهمٍ يُدفع بحقٍّ أو يُؤكل بباطل.

آل عمران تكشف سُنّة التمحيص التي تُنقّي الصفّ وتُظهر الحقائق: ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾، والنساء تضع لك ساحات الامتحان التي يتم فيها هذا التمييز واقعاً لا نظرياً؛ في مال اليتيم الذي يُؤكل ظلماً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً ﴾، وفي التحاكم الذي يكشف صدق الإيمان أو زيفه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، وفي الشّهوة التي تختبر أمانة النفس، وفي الرياء الذي يفضح صدق المقصد، فكأن التمحيص الذي أُعلن مبدؤه هناك يُفصَّل ميدانه هنا.

آل عمران تفضح انحراف "أهل الكتاب" في الكتمان والتحريف والصَّدِّ عن سبيل الله: ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، ثم النساء تكشف أن المرض ذاته قد يتسرّب إلى الداخل إن لم يُحرس القلب؛ فيتحوّل إلى تحاكمٍ للطاغوت باسم الإصلاح، وتبريرٍ باسم التوفيق: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾، فيتضح أن الانحراف لا يبدأ دائماً بكفرٍ صريح، بل قد يبدأ بتبريرٍ مُزيّن.

آل عمران تمنحك عناوين النجاة في لحظات الزلزلة الكبرى: التقوى، الصبر، الرباط، الثبات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾، ثم النساء تترجم هذه العناوين إلى أخلاقٍ عملية؛ عدلٌ ولو على النفس،

١) شهادةٌ لله ولو على الأقربين،

٢) ضبطٌ للشهوة،

٣) كظمٌ للغيظ،

٤) إنفاقٌ في الخفاء،

٥) قيامٌ بالقسط بلا محاباة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾..

فالصبر الذي يُرفع شعاراً في الميدان لا بد أن يتحول إلى نزاهةٍ في التفاصيل.

وفي آل عمران يُذكّرك القرآن بمقام إبراهيم والبيت الأول والقبلة الجامعة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، ليؤكد انتماءك لوحيٍ واحدٍ وأصلٍ واحد، ثم في النساء يُعيد تأسيس هذا الأصل على مستوى الإنسانية كلها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، فيلتقي المعنى: وحدة المصدر تقتضي عدلاً شاملاً، والتقوى فوق كل فوارق العِرق والنسب والجنس.

آل عمران تُطفئ سحر القوة والهيبة بإرجاع النصر إلى الله وحده: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾، والنساء تُطفئ سحر التبرير والادعاء بإرجاع الخطأ إلى النفس: ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، فكأنَّ الجزأين يلتقيان على قاعدةٍ واحدة:

١) لا تُقدّس الأسباب ولا تُعفِ نفسك،
٢) النصر فضلٌ من الله،
٣) والخطأ مسؤوليتك أنت.

وفي آل عمران يُذكر وصف "خير أمة" كمبدأٍ جامعٍ يرفع السقف: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾، ثم النساء تحوّل هذا الوصف من مفاخرةٍ إلى مسؤوليةٍ أخلاقيةٍ دقيقة؛ فلا خير في نجوى تُدار بلا إصلاح، ولا فضل في تدينٍ بلا أمانة، ولا دعوة بلا ورعٍ يحرسها: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

وجدان آل عمران يربّي القلب على الثبات بعد القرح، وعلى كلمة "حسبنا الله" حين تتكاثر التهديدات: ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾، ووجدان النساء يربّيه على الخشية في الخلوة، وعلى مراقبة الرّقيب حين تُغلق

الأبواب: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾، فيكتمل البناء: الثبات ليس بطولةً في الساحات فقط، بل أمانةً في الغرف المغلقة أيضاً.

وخلاصة الترابط أن آل عمران تمنحك معيار البرّ، وسُنّة التمحيص، وحبل الجماعة، وأفق المآل... ثم تأتي النساء لتُنزل هذا كله على أرض الواقع؛

١) أسرةٌ تُدار بالمعروف،

٢) مالٌ يُدار بالحق،

٣) دينٌ يُدار بالتحاكم إلى الوحي،

وإلا تحوّل التدين إلى ادّعاءٍ جميلٍ يخفي خللاً عميقاً؛ فبين قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مسافةٌ واحدةٌ فقط... مسافةُ الصدق بين ما نؤمن به في قلوبنا، وما نُقيمه عدلاً في حياتنا.

الرضا المقصود... حين يختار القلب أن يثق قبل أن يفهم

المقصود بقولنا: «درِّب قلبك على الرضا المقصود لا الرضا الاضطراري» أن هناك فرقاً عميقاً بين إنسانٍ سكت لأن الواقع غلبه، وإنسانٍ سلَّم لأن قلبه اختار الثقة بالله، فالأول هدأ لأن الخيارات أُغلقت أمامه، أما الثاني فهدأ لأن قلبه استقرّ في يد من بيده كل الخيارات.

الرضا الاضطراري هو أن تقول: "الحمد لله" لأنك لا تستطيع أن تقول غيرها، فتسكت لأنك عاجز عن تغيير ما حدث، وتبتلع الألم لأنك لا تملك ردّه، لكن في داخلك غصّةٌ لم تُشفَ، واعتراضٌ صامت لم يُحسم، وسؤالٌ خفيٌّ يتكرر: لماذا أنا؟ لماذا هكذا؟ هذا ليس رضا القلب، بل استسلام الجسد للواقع، وهو يُخفف الصدمة لحظةً، لكنه لا يُطهّر الداخل، لأن القلب ما زال يقارن، ويتحسّر، ويستعيد المشهد، ويتمنى لو كان الأمر على صورةٍ أخرى.

أما الرضا المقصود فهو اختيارٌ واعٍ، قرارٌ داخليٌّ تتخذه وأنت قادرٌ على الاعتراض لكنك تختار التسليم، تختار أن تثق بحكمة الله حتى لو لم تتضح لك، وأن تقول في داخلك قبل لسانك: ما دام من الله فهو خيرٌ لي، وإن لم أفهم وجه الخير الآن، فهو رضا ينبع من إيمانٍ بأن الله أعلم بك منك، وأرحم بك منك، وأحكم بتدبير أمرك من تقديرك لنفسك.

الرضا المقصود لا يعني أنك لا تحزن، ولا يعني أنك لا تتمنى الأفضل، ولا يعني أنك لا تسعى لتغيير الواقع، بل يعني:

١) أن قلبك مستقرٌّ مع الله أثناء السَّعي، لا مُتذمّرٌ منه،

٢) وأنك تتحرك في الحياة من موقع الثقة لا من موقع الخصومة مع قدر الله،

٣) وأنك إذا رأيت فضلاً في يد غيرك لم يتحوّل قلبك إلى مقارنةٍ موجعة، بل إلى دعاءٍ صادق، كما وجّهك القرآن: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾.

فتفهم أن الطريق ليس أن تتألم مما في يد غيرك، بل أن تطرق باب الله بما تريد، وأن ترى الفضل بيد المعطي لا في يد المخلوق.

الفرق الجوهري:

- أن الرضا الاضطراري يقول: ليس بيدي شيء،
- أما الرضا المقصود فيقول: الأمر بيد الله، وأنا أثق به،
- الأول يُطفئ الصراع خارجياً لأنك استسلمت للواقع،
- والثاني يُنهي الصراع داخلياً لأنك استقررت مع الله،
- الأول هدوءٌ قهري،
- والثاني سكينةٌ إيمانية،
- الأول قد يتلاشى عند أول ابتلاءٍ جديد،
- أما الثاني فيتحول إلى قوةٍ ثابتةٍ لا تُنتزع منك بتغيّر الظروف.

والتدريب على هذا الرضا يكون بالمراقبة الصادقة، كلما تحرّك فيك حسد، أو مقارنة، أو اعتراض، أو سؤالٌ خفيٌّ عن العدالة، لا تُسكته فقط ولا تُزيّنه بكلماتٍ جميلة، بل واجهه بشجاعة، واسأل نفسك بوضوح:

١) هل أنا واثق بحكمة الله حقّاً؟

٢) هل أؤمن أنه أعلم بي مني؟

٣) هل أريد ما يريده الله لي أم ما تريده نفسي فحسب؟

عندها يبدأ التحول الحقيقي، ويتبدل الرضا من ردّة فعلٍ اضطرارية إلى عبادةٍ مقصودة، ومن كلماتٍ تُقال إلى سكينةٍ تُعاش، ومن صبرٍ ثقيل إلى ثقةٍ عميقة تُمسك قلبك مهما تغيّرت الأحوال.

الجزء السادس: من «حراسة اللِّسان» إلى «كمال الدِّين»

حين تتحوّل الشَّريعة من أحكامٍ تُتلى إلى عهدٍ يُوقِّع عليه القلب

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ للجزء السادس

هذا الجزء لا يفتح صفحته بسؤالٍ فقهيٍّ ولا بقضيةٍ تاريخيةٍ ولا حتى بمشهدٍ وعظيٍّ مألوف؛ بل يضعك عند أصلٍ يُمسك الدين كلَّه من طرفه الأخطر:

١. طرف اللسان حين يغضب،

٢. وطرف القلب حين يختار،

٣. وطرف الإيمان حين يُمتحن بين "نصف التزام" و"كمال تسليم"؛

فتبدأ الرحلة من كلمةٍ قد تهدم إنساناً أو تُنقذه، ثم تمتدّ إلى موقفٍ عقديٍّ قد يبدو "متوازناً" وهو في الحقيقة هوّةٌ اسمها التفريق بين الله ورسله، ثم تنتهي بك إلى شريعةٍ تُؤخذ كما هي: نورٌ وميزانٌ وحكمٌ لا يخضع للأهواء ولا للضغوط ولا لابتزاز الواقع.

يفتتح الجزء بتأديبٍ دقيقٍ للقول حين يشتعل الظلم في الداخل: ليس كلُّ ما يُقال عند الألم مأذوناً به، وليس كلُّ صراخٍ "تفريغاً" مشروعاً؛ فالأصل أن الله لا يحبُّ الجهر بالسُّوء من القول، لكنه يفتح للمظلوم منفذاً بقدر ما يدفع الظلم لا بقدر ما يسترسل في التشفي، وفي هذا الميزان تتربى النفوس على أن الحق لا يحتاج فُحشاً ليُقال، وأن الانتصار لا يكون بتلويث اللسان، وأن ضبط الكلمة من أعظم صور التقوى، لأن السميع العليم يسمع نبرة المظلوم كما يسمع انحراف المعتدي: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ ثم يفتح لك باباً أوسع من مجرد كفّ الأذى: أن تُظهر خيراً أو تُخفيه، وأن تعفو عن سوءٍ وأنت قادر، فيتجلى معنى العفو لا بوصفه ضعفاً بل بوصفه عبوديةً عاليةً تُشبه اسم الله في أثره على القلب: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ

تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾... ثم يأخذك السياق من أخلاق الكلمة إلى جوهر العقيدة: فليس الخلل دائماً في المعصية الظاهرة، بل قد يكون في "صيغة الإيمان" نفسها حين يُراد للدين أن يصير انتقائيةً ذكية؛ تؤمن ببعض الرسالات وتكفر ببعضها، وتبحث عن منطقةٍ رمادية بين التسليم والرفض، كأنَّ الحق خليطٌ يمكن تعديله حسب المصلحة أو الإرث أو المزاج، فيحكم القرآن على هذا المسلك حكماً صريحاً لأنه يهدم أصل النبوّة وأصل الوحي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾، ثم يضع الخاتمة التي لا تدع للتأويل المموّه باباً: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾، وفي مقابل ذلك يرسم صورة الإيمان الذي لا يساوم على وحدة الرسالة: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾.

ومن هذا الأصل العقدي ينتقل الجزء إلى كشف سُنّةٍ متكررة: أن مشكلة كثيرٍ من أهل الجدل ليست نقص الأدلة، بل فساد الطلب؛ يطلبون آياتٍ ليست للهداية بل للمُكابرة، ولو أُعطوا ما طلبوا لصنعوا ما صنع من قبلهم، فتأتي الإشارة إلى تاريخ سؤال التعنت: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ... ﴾ ثم يُذكَّرون بما سألوا موسى أعظم منه: ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾، ثم لا يلبث التاريخ أن يكشف حقيقة القلوب: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾، ومع هذا يبقى باب الله مفتوحاً لمن يعود: ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ﴾، ثم يُستأنف تذكير الميثاق الذي لم يُرَد له أن يكون مجرد سردٍ بل شهادةً على نقض العهود: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾، و﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ﴾، و﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾، ثم ينفجر التقرير الذي يشرح "كيف يموت القلب رغم كثرة

الآيات'': ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وتظهر جرأة الادعاء التي تُغلق أبواب الإيمان: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، فيردّ القرآن ردّاً يُصفّي المعنى: ليس غطاءٌ بريء، بل طبعٌ بسبب الكفر: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾.

ثم يُعرّي الجزء وجوهاً من البهتان الذي يسبق الانحراف العقدي أو يصاحبه: بهتانٌ في حق مريم عليها السلام: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾، وادعاءٌ في حق المسيح عليه السلام يتكئ على الظّنّ لا على العلم: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾، فيأتي التصحيح الرّباني الذي لا يترك منطقةً ضبابية: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، ثم يفضح منشأ القول: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾، ويغلق الحكم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾، ويُثبت الحقيقة المقابلة: ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾، ثم يفتح نافذة مستقبلٍ غيبيٍّ بمعناه القرآني دون تهويل: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، ثم يضع مشهد الشهادة يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾.

ويستمر السياق ليقرر سُنّةً اجتماعيةً أخلاقيةً عجيبة: أن بعض التحريمات التي وقعت على من قبلنا كانت عقوبةً على الظُّلم والصِّدِّ عن سبيل الله؛ ليس لأن الطيّبات شرٌّ بذاتها، بل لأن القلوب حين تفسد تُمنع من بعض النعم تأديباً أو امتحاناً: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾، ثم يُذكر الرِّبا وأكل الأموال بالباطل ليُفهم أن الانحراف ليس فكرةً مجردة بل سلوكاً اقتصادياً يجرّ المجتمع إلى القسوة: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ و﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾.. ومع هذا لا يُغلق الباب على الجميع، بل يُنصف الراسخين في العلم والمؤمنين: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾، ثم يُلحق الإيمان بالعمل الذي

يحفظه: الصلاة والزكاة والإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾.

ثم يجيء قلب الرسالة: أن الوحي ليس حادثةً تخص مُحَمّداً ﷺ وحده، بل هو سلكٌ واحد ممتدٌّ من نوحٍ إلى خاتم النبيين، وأن مقام النبوّة ليس "اختراعاً جديداً" بل استمرارُ هدايةٍ واحدة؛ لذلك تُذكر أسماء الأنبياء لتثبيت وحدة المصدر، وتُذكر حقيقة تكليم موسى لتأكيد أن الله يرسل بالوحي على ما يشاء وكيف يشاء: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾... ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾، ثم يُبيِّن مقصد الرسالات: أن تُقطع حجج البشر بعد البيان: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾.. ثم يُضاف إلى شهادة الرسل شهادةُ الله وملائكته على صدق القرآن، شهادةٌ تُقيم الحجة من أعلى مقام: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾.

ومن هذا الموضع تتضح خطورة الصدّ عن سبيل الله: ليس مجرد اختلاف رأي، بل ضلال بعيد يجرُّ صاحبه إلى طريقٍ مسدود إن ختمه بالظلم والكفر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً﴾، ثم يُعلن الحكم على من جمع الكفر والظلم ومات عليه دون توبة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴾، ثم يذكر الطريق الذي اختاره صاحبه: ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾، لتفهم أن القضية ليست قسوةً في الخطاب بل عدلاً في المصير.

ثم يخاطب الله الناس كلهم بخطابٍ جامعٍ يزيل وهم أن الرسالة شأنٌ داخلي لفئة دون فئة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ﴾، ثم يقطع طريق الابتزاز: إن كفرتم فملك الله لا ينقص: ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.. وبعد هذا النداء العام يأتي نداء خاص

لأهل الكتاب، لا ليُهانوا ولا ليُستفزّوا، بل ليُنقذوا من الغُلوّ الذي يحوّل الأنبياء إلى آلهة: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾، ثم يُقرّر حقيقة المسيح عليه السلام بعباراتٍ تقطع الوهم دون تجريح: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾، ثم يأتي النهي الصريح عن "صيغة الثلاثة" لأن الله واحد لا شريك له: ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾، ويُنزَّه الله تعالى عن الولد تنزيهاً يصفّي العقيدة من كل توهّم: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.. ويُثبت أن المسيح والملائكة عبادٌ لا يستنكفون عن العبودية: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ثم يذكر مآل الاستنكاف والاستكبار: ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾، ويُفصّل الفرق بين الإيمان والعمل وبين الاستكبار: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، و﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

ثم تُختم سورة النساء في هذا الجزء بإعلانٍ كأنه قفلٌ ضوئيٌّ على الباب كله: ليس الطريق أذواقاً ولا ظنوناً، بل برهانٌ ونور: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾، ثم يربط النجاة بركنٍ قلبيّ عظيم: الإيمان والاعتصام بالله، لا الاعتصام بالذات ولا بالهوى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾، ثم تأتي آية الكلالة في خاتمة النساء لتقول: حتى المواريث التي يظنها بعض الناس "تفاصيل" هي من تمام الهداية، لأن الله تعالى يريد أن لا تضلوا في دينكم ولا في دنياكم ولا في حقوق الناس بعد موتهم: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ... يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ثم يفتح الجزء بوابة سورة المائدة، وكأنها انتقالٌ من "إقامة الحجة" إلى "بناء

المجتمع"؛ فإذا كانت سورة النساء قد خُتمت **بتقرير النور والاعتصام**، فإن المائدة تبدأ بنداء **الوفاء الذي يُقيم الدين** على أكتاف العقود والعهود لا على العواطف العابرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾، ثم يُضبط التعامل مع شعائر الله وحرماته، لا على طريقة التديّن العصبي، بل على طريقة التعظيم المنضبط: ﴿ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ... ﴾، ويأتي ميزان الأخلاق حين تشتعل الخصومة: أن البغضاء لا تُبيح العدوان، وأن الممنوع لا يصير مباحاً لأن الطرف الآخر ظالم: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾، ثم يضع القاعدة الجامعة لبناء الأمة: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾.

ثم يُنزل الشريعة إلى تفاصيل الطعام والحلال والحرام دون أن يُفصلها عن الإيمان، فيذكر المحرمات ويُشدّد على ما أُهِلّ لغير الله به، ويحرّم وسائل التطيّر والاقتراب من الوثنية العملية: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ... وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾، ثم تأتي لحظةٌ من أكبر لحظات هذا الجزء: إعلان اليأس في صفوف الكافرين من إطفاء هذا الدين من أصله، لا لأن المسلمين صاروا بلا ابتلاء، بل لأن الدين اكتمل في أصوله وشريعته ومعالمه: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾، ثم الإعلان الأعظم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾، ومع هذا الكمال تبقى رحمة الضرورة منضبطة: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾؛ كأنَّ الشريعة تقول: أنا كاملة، لكني لا أُغلق باب الرَّحمة على المضطر، ولا أترك باب التحايل مفتوحاً للمتجانف للإثم.

ثم يجيب القرآن عن سؤال "ماذا أُحلّ لنا؟" ليربط الطيبات بالتقوى، ويذكر صيد الجوارح المعلَّمة ليُعلِّمك أن الطاعة ليست فوضى بل انضباطٌ في الأسباب:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ... فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾، ثم تأتي أحكام المخالطة الاجتماعية التي تحفظ هوية الأمة بلا تعقيد: طعام أهل الكتاب، والزواج بالمحصنات بشروطه التي تصون العفة من العبث: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ... مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾، ثم يجيء التحذير الذي يربط "الإيمان" بالعمل حتى لا يتحول الدين إلى قشرة: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾.

ثم يدخل بك إلى طهارة الجسد بوصفها طريقاً لطهارة المعنى: الوضوء والغسل والتيمم، لا بوصفها إجراءات، بل بوصفها رحمةً ورفعاً للحرج وإتماماً للنعمة: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا...﴾، و﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾، ثم يُعلّمك مقصد التشريع: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾؛ فتفهم أن الطهارة ليست عبئاً بل نعمةً تُهيّئك للشُّكر.

ثم يوقظك من خطر النسيان: نعمة الله والميثاق الذي قيل فيه "سمعنا وأطعنا" لا ينبغي أن يتحول إلى شعارٍ محفوظ؛ لأنه يعلم ذات الصدور: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ... وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، ثم يضعك أمام وظيفةٍ أخلاقيةٍ لا تقوم الأُمة بدونها: العدل لله لا للهوى، والشهادة بالقسط لا بالعصبية، حتى مع من تكره: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾، و﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾، ثم يفتح وعد المغفرة والأجر، ويقابله بمصير التكذيب: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ و﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا... ﴾.

ثم يُذكِّرك بحماية الله الخفية حين همّ قومٌ أن يبطشوا، ليُربّي فيك التوكل

الواقعي لا التواكل: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.. ثم يعود إلى ميثاق بني إسرائيل ونقضه وتحريف الكلم ونسيان حظٍ مما ذُكّروا به، ويأمر بالعفو والصَّفح مع ثبات الحق، ليجمع بين قوة المبدأ وحكمة التعامل: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ... فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. ثم يذكر ميثاق الذين قالوا "إنا نصارى" وكيف نُسي حظٌّ مما ذُكّروا به فأُغري بينهم العداء والبغضاء إلى يوم القيامة، لتفهم أن نسيان الوحي ليس مسألة فردية بل لعنة اجتماعية تمتدّ آثارها: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ... فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾.

ثم يأتي الإعلان: رسولٌ يبيّن ويكشف ويعفو عن كثير، ومعه نور وكتاب مبين، يهدي سُبل السَّلام ويخرج من الظلمات إلى النور بإذنه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ... ﴾، و﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾، و﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ... ﴾، ثم يواجه الانحراف العقدي ببيانٍ محكم: دعوى ألوهية المسيح، ودعوى "نحن أبناء الله وأحباؤه"، ودعوى "فترة من الرسل" التي اتخذها البعض عذراً، فيأتي القرآن ليهدم العذر ويقيم الحجة: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ... ﴾، و﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ... ﴾، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا... عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾.

ثم ينتقل الجزء إلى مشهد موسى مع قومه ودخول الأرض المقدسة، لا بوصفه قصةً تُروى، بل بوصفه درساً عن "الاستجابة للميثاق" حين يتحول الخوف إلى تعطيل، وحين يقول قومٌ لنبيهم: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فيصير التيه نتيجةً منطقية لانكسار الهمة أمام أمر الله: ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ... وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ... ﴾، و﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ... ﴾،

و﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ... وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا... ﴾، و﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾، ثم حكم التيه: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾.

ثم يهبط بك إلى أول جريمةٍ في تاريخ البشر لتفهم أن الفساد يبدأ من حسدٍ صغيرٍ ثم يتضخم حتى يصير دماً: قصة ابني آدم عليه السلام، قبولُ العمل وردُّه، وحوار الخوف من الله، ثم جريمة القتل، ثم النَّدم الذي لا يردّ الميت، ثم درس الغراب الذي يفضح عجز القاتل أمام جثة أخيه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، و﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾، و﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ... ﴾، و﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً... ﴾. ثم يخرج الحكم الكلي الذي يجعل حياة الإنسان معياراً لا هامشاً: ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً... فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾.

ومن هنا تُذكر عقوبة المحاربة والفساد في الأرض لتفهم أن الشريعة ليست عاطفةً رخوة ولا عنفاً منفلتاً، بل حماية للدماء والأمن والطرقات، مع فتح باب التوبة قبل القدرة: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾، ثم الاستثناء الرحيم المنضبط: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ... ﴾.

ثم يأتي النداء الجامع للمؤمنين: التقوى، وابتغاء الوسيلة إلى الله، والجهاد في سبيله، لا بمعناه الشعاري، بل بمعناه الذي يحرّك الإرادة لتكون الحياة لله لا للهوى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ... ﴾، ثم يُعرض مشهد من يفتدي الدنيا كلها فلا يقبل منه إذا فقد الإيمان: ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً... مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾، ثم وصفُ الحسرة الأبدية لمن أراد الخروج من النار فلا يخرج: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾.

ثم تُذكر حدّ السرقة بما يحقق معنى الردع والعدل، ثم يُفتح باب التوبة لمن أصلح، ليظهر ميزان الشريعة بين حماية المجتمع وإنقاذ الفرد: ﴿ وَالسَّارِقُ

وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا... ﴾، و﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾، ثم يُختم هذا المقطع بتقرير الملك والقدرة: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾.

ثم يعود السياق إلى واقع المجتمع: منافقون يسارعون في الكفر، وسماعون للكذب، وتحريف للكلم بعد مواضعه، ومساوماتٌ على الحكم، فيجيء الأمر للرسول ﷺ بالثبات والعدل: ﴿ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ... سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ... ﴾، ثم: ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ... وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾، ثم يعرض مفارقة من يطلب التحكيم وعنده التوراة ثم يتولى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ... ﴾.

ثم يقرر القرآن حقيقة التوراة والإنجيل من حيث إنهما وحيٌ نزل هدى ونوراً في أصل نزولهما، وأن الحكم بما أنزل الله أصلٌ لا زينةٌ خطابية، ثم يبيّن أن القرآن مصدّقٌ ومهيمنٌ وحاكمٌ في النزاعات، وأن الهوى هو العدوّ الأول للتشريع: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، و﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ... ﴾، ثم: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ... وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ... ﴾، ثم يُحذّر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله، ويكشف أن الذنوب تجرُّ عقوباتٍ اجتماعيةً في دنيا الناس قبل آخرتهم: ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ... ﴾، ثم يأتي السؤال المُزلزل الذي يقطع الطريق على أي بديلٍ حضاريّ عن حكم الله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

ثم ينقلك إلى ملفّ الولاء والهوية حين تتشابك العلاقات، فيضع حدوداً تحفظ الدين من الذوبان، ويكشف أن وراء بعض التودد مرضاً في القلب لا حكمةً سياسية، وأن الفتح بيد الله لا بيد التنازلات: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ

وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء... ﴾، و﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ...﴾، ثم يحكي ندمهم حين تأتي العاقبة: ﴿ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾.

ثم يُطمئنك أن الله لا يُعجزه أن يستبدل، وأن الدين لا يتوقف على أشخاصٍ أو أمزجة: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾، قومٌ يجمعون بين الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين والجهاد والثبات أمام اللوم: ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾.. ثم يضع تعريف الولاية الذي يربط القلوب بالله ورسوله والمؤمنين العاملين: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا... ﴾، ويختم هذا المعنى بوعد الغلبة: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾.

ثم يحذر من الاستهزاء بالدين ومن تحويل الصلاة إلى مادة سُخرية، لأن الاستهانة بالمقدس ليست "مزاحاً" بريئاً بل علامة انحراف عقلٍ وضمير: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً... ﴾، و﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ﴾، ثم يواجه الخصوم بسؤالٍ يكشف أصل المشكلة: هل تنقمون إلا أننا آمنا بالله؟: ﴿ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ... ﴾، ثم يصف حال طائفةٍ غليظة القلب باللّعن والغضب وعبادة الطاغوت، لتفهم أن الانحراف العقدي ينتهي غالباً إلى طغيان عملي: ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ... وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾، ثم يكشف ازدواجية الدخول والخروج: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾، ثم يفضح الإسراع في الإثم والعدوان وأكل السحت، ويحمّل أهل العلم مسؤولية السكوت: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾، و﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾.

ثم يأتي قولٌ يجرّح جناب الله "يد الله مغلولة"، فيردّ القرآن رداً يثبت كمال الكرم والقدرة، ويُظهر أن الطغيان قد يزيد مع نزول الحق إذا كان القلب مريضاً،

ثم يذكر سنّة العداوة والبغضاء إذا لم يُتَّبع الوحي، وأنهم كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، وأن الفساد لا يحبه الله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ... بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾، و﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ... طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾، و﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ... ﴾، و﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾.

ثم يفتح القرآن باب الأمل لو وقع الإيمان والتقوى وإقامة الوحي كما ينبغي، إذ البركة ليست صدفةً اقتصادية بل ثمرةٌ إيمانية اجتماعية: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا... ﴾، و﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ... لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾. ثم يُحمّل النبي ﷺ أمانة البلاغ كاملة، مع وعد العصمة من الناس في أداء الرسالة: ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾، ثم يقرّر ميزاناً قاطعاً: لا قيمة لدعوى بلا إقامة للوحي: ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ... ﴾.

وفي وسط هذا كلّه يجيء تقريرٌ يُفهم على وجهه الصحيح: أن النجاة ليست بالانتساب، بل بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كما جاء به الوحي الحق: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. ثم يعود ليبين أن سُنّة التكذيب وقتل الرسل كانت تتكرر كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم، وأن العمى والصمم قد يعودان بعد التوبة إذا لم تُستكمل الاستقامة: ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾، و﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾.

ثم يختم المقطع الذي أوردته بتثبيت قضية التوحيد في وجه دعوى التأليه مرة أخرى، ويجعل على لسان المسيح عليه السلام دعوة العبودية لله وحده، حتى لا يلتبس الأمر على طالب الحق: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ...﴾،

و﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾، ثم يؤكد أن الشرك يحرم الجنة، وأن الظالم لا يجد أنصاراً: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ... ﴾، ثم يعود التحذير من "ثالث ثلاثة" وباب التوبة المفتوح: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ... ﴾، و﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾، ثم يختم بحقيقة بشرية المسيح وأُمّه عليهما السلام بما يردّ الغُلوّ رداً عقلياً بيانياً: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ... وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾، ثم يعلن التحدي الحاسم: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾، ويكرر ميزان الغلو واتباع الهوى: ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ... ﴾، ثم يذكر لعنة الاعتداء وترك التناهي عن المنكر، ليختم بصورة مجتمعٍ فسد حين سقطت فيه فريضة الإصلاح: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ... ﴾، و﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾، ثم يصف سوء ما قدمت الأنفس حين تولّت الكافرين: ﴿ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾، ويغلق المشهد بميزانٍ واضح: لو كان الإيمان صادقاً لاتّضح أثره في الولاء والعمل: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾.

وهكذا يتبيّن لك أن هذا الجزء رحلةٌ واحدة: تبدأ بتطهير اللسان عند الفتنة، ثم تنتقل لتطهير العقيدة من الانتقائية والغُلوّ، ثم تُقيم الحجة بوحدة الوحي وشهادة الله على رسوله، ثم تُنزّل الإيمان إلى المجتمع بعقوده وشعائره ومواريثه وطهارته وحدوده وعدله، ثم تُواجه تحريف الكلم واتباع الهوى، ثم تُعلن أن الدين قد اكتمل فلا يُزاد عليه بهوى ولا يُنقص منه بخجل؛ وأن الطريق حين يشتدّ صَخَبُه لا يُنقذك فيه إلَّا أصلان يجمعهما القرآن في كلمتين: **إيمانٌ واعتصام**... ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾.

الخريطة البنيوية لآيات هذا الجزء

- ميزانُ اللسانِ عند الغضب: لا تُشرّع قسوتك باسم الألم، واجعل للحقّ لساناً طاهراً:﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾، حتى إن ظُلِمتَ فلك أن تُبيّن مظلمتك، لكن دون تجاوزٍ أو فُحش؛ فالحقّ لا يحتاج إلى قسوة، والله لا يحب أن يتحوّل الألم إلى إساءةٍ في القول.
- بابُ النقاء الأعلى: خيرٌ تُظهره أو تُخفيه أو عفوٌ ترفعه فوق جراحك:﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ﴾، كلُّ خيرٍ تفعله – ظاهراً أو خفيّاً – يُرفعك عند الله، وأعلى منه أن تعفو عمّن أساء إليك، فتنتصر على جراحك لا على خصمك.
- خطُّ الفصل العقدي: الإيمان لا يقبل "منتصفَ طريق":﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾، الإيمان لا يتجزّأ؛ فلا يصحّ أن تختار من الدين ما يوافقك وتترك ما يخالف هواك، فقبول الحقّ كلّه هو طريق النجاة.
- وحدةُ الرسالة هي وحدةُ الانقياد: لا تفاضل بين أنبياء الله بالهوى:﴿ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾، نؤمن بجميع أنبياء الله إيماناً واحداً بلا انتقاءٍ ولا تعصّب؛ فلا نرفع بعضهم بالهوى ولا نردّ بعضهم، لأن مصدر الرسالة واحد وربّها واحد.
- سُنّةُ التعنُّت: من يطلب الآية ليتهرّب من الهداية لن تُنقذه الآيات:﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾، من يسأل طلباً للهروب لا طلباً للهداية، فمهما أُعطي من براهين لن ينتفع بها؛ لأن المشكلة ليست في قِلّة الآيات، بل في قسوة القلب.
- سقوطُ القلب بعد البرهان: وضوحُ الدليل لا يمنع فتنةَ الهوى:﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾، ليس كلُّ من رأى الدليل اهتدى؛ فالقلب إذا غلبه الهوى قد ينحرف رغم وضوح البرهان.

- الميثاقُ ليس ذكرى: العهدُ الذي لا يُعاش يتحوّل إلى حجّةٍ عليك:﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾، العهد مع الله ليس كلماتٍ تُقال، بل التزامٌ يُعاش؛ فإن لم تحفظه كان شاهداً عليك لا شاهداً لك.
- جنايةُ نقضِ العهود: تبدأُ بتبديل المعنى وتنتهي بقسوة القلب:﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾، حين يُغيَّر الحقّ عن معناه لتبرير الهوى، يبدأ الانحراف بفكرة... وينتهي بقلبٍ لا يتأثر بالحقّ.
- خدعةُ "قلوبنا غلف": تبريرٌ يبدو علماً وهو هروب:﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾، الادّعاء بأن القلوب "مغلقة" ليس عذراً علميّاً، بل هروبٌ من مواجهة الحق؛ فالذي يُعرض عن النور يُعاقَب بقسوةٍ في قلبه.
- البهتانُ بابُ الكفر: من يعتاد قذف الأطهار يسهل عليه قذف الحقّ:﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾، من يجرؤ على اتهام الأبرياء بالباطل يعتاد قلبُه الظلم، حتى يصبح إنكارُ الحقّ عليه أهون من قول الصدق.
- تحريرُ الحقيقة بلا غشاوة: ليست كلُّ روايةٍ "تاريخاً"، قد تكون ظنّاً موروثاً:﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، ليس كل ما يتناقله الناس حقيقةً ثابتة؛ فقد يُبنى اليقين على وهمٍ أو ظَنٍّ، والحقّ يُعرف بوحيٍ صادق لا بكثرة الروايات.
- الإيمانُ ليس حدساً: الدينُ علمٌ يُتلقى لا ظنٌّ يُتبع:﴿ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾، الدين لا يُبنى على التخمين والانطباعات، بل على علمٍ ثابتٍ ودليلٍ بيّن؛ فالظَّنُّ لا يصنع يقيناً ولا يقود إلى هداية.
- رفعةُ الله لعبده: حين تُغلَق الأبواب يفتح الله سماءه لمن يشاء:﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾، إذا أُغلِقت في وجهك أبواب الأرض، فثق أن الله قادرٌ أن يرفع قدرك بطرقٍ لا تخطر ببالك؛ فالنَّجاةُ والرِّفعة بيده وحده.

- عدلُ التحريم: قد تُسلب بعض الطيبات عقوبةً على فساد الطريق:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾، حين يصرُّ الإنسان على الظلم والفساد، قد يُعاقَب بسلب بعض النِّعم؛ فحفظ الطيّبات مرتبطٌ باستقامة الطريق.
- فسادُ المال يفضح فسادَ القلب: ربا وسُحتٌ ثم ادعاءُ صلاح:﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا... وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾، حين يُستباح المال بالربا والباطل، يكشف ذلك قلباً فقد خشية الله، مهما تزيّن بادّعاء الصلاح والتديّن.
- إنصافُ الرَّاسخين: ليس كلُّ من انتسب للكتاب سواءً في القلب:﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ... ﴾، الانتماء وحده لا يكفي؛ فالفضل لأهل الثبات والصدق في العلم، لا لكل من حمل الاسم أو انتسب إلى الكتاب.
- سلسلةُ الوحي واحدة: اختلافُ الشرائع لا يُسقط وحدةَ المصدر:﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾، تنوعُ الشرائع عبر العصور لا يعني تعدّد الحقيقة؛ فالوحي كلّه من عند الله، والمصدر واحد وإن اختلفت التفاصيل.
- مقصودُ الرسالة: قطعُ الحجة لا مجرد كثرةِ الكلام:﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾، أُرسلت الرسل لتقوم الحجة ويزول العذر؛ فلا يبقى لأحدٍ بعد البيان أن يقول: ما عرفتُ الطريق.
- شهادةُ الله على كتابه: حين يشهد الله يسقط جدل المترددين:﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾، إذا كان الله هو الذي يشهد لكتابه بالحق، فلا يبقى لجدل المشككين وزنٌ أمام شهادة العليم الحكيم.
- الصدُّ ليس حياداً: منعُ الناس عن الحقّ سقوطٌ بعيد:﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، الإعراض عن الحقّ ذنب، لكن الأشدّ منه أن تمنع غيرك منه؛ فالصَّدُّ ليس حياداً، بل مشاركةٌ في إضلال الطريق.
- طريقُ النهاية: من جمع الكفر والظلم بلا توبة اختار مصيره:﴿ إِلَّا طَرِيقَ

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾، من أصرَّ على الكفر والظلم حتى الموت، رافضاً التوبة، فقد اختار لنفسه طريقاً ينتهي بعقوبةٍ دائمة؛ فالمصير ثمرةُ الإصرار لا لحظةَ عثرة.

- نداءٌ للناس جميعاً: الرسالة ليست إرثاً بل حقّاً حاضراً:﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ ﴾، الرسالة ليست حكايةً من الماضي ولا ميراثاً لقبيلة، بل حقٌّ نزل ليُخاطبك أنت الآن، ويطالبك بموقفٍ لا بتصفيق.
- تنقيةُ التوحيد من الغُلوّ: التعظيمُ إذا تجاوز حدَّه صار شركاً:﴿ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾، محبة الأنبياء وتعظيمهم عبادة، لكن إذا جاوز التعظيم حدَّه فصار رفعاً لهم إلى مقام الألوهية، انقلب من حقٍّ إلى شِرك – والعياذُ بالله –.
- المسيح عبدٌ كريم: شرفُه في العبودية لا في التأليه:﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ ﴾، عظمةُ المسيح عليه السَّلام في كمال عبوديته لله، لا في رفعه فوق مقام العبد؛ فالعبودية لله شرفٌ لا نقيصة.
- البرهانُ والنور: الدينُ ليس ظلالاً، بل ضياءٌ يقود:﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾، الدين لم يأتِ ليزيد الحيرة، بل جاء بدليلٍ واضحٍ ونورٍ بيّن يهدي العقول والقلوب إلى طريقٍ مستقيم.
- مفتاحُ النجاة: إيمانٌ واعتصام... لا تزيينٌ ولا ادعاء:﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾، النجاة ليست شعاراتٍ تُرفع، بل إيمانٌ صادقٌ يُثمر تعلّقاً بالله واعتصاماً به في الشِّدّة قبل الرخاء.
- فقهُ الحقوق بعد الموت: الشريعةُ رحمةٌ حتى في ما بعد الفقد:﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾، حتى في لحظات الفقد والضعف، لم يتركنا الله للاجتهاد المضطرب؛ بل بيّن الأحكام حفظاً للحقوق ومنعاً للظلم والضياع.

- تأسيسُ المجتمع المؤمن: الدين يبدأ بعقدٍ يُحترم:﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾، المجتمع المؤمن لا يقوم على الشعارات، بل على عهودٍ تُصان وعقودٍ تُحترم؛ فحفظ العقد أساس الثقة والاستقرار.
- تعظيمُ الحرمات بلا فوضى: الشعائر تُصان لا تُستغل:﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، شعائر الله مواضعُ توقيرٍ وانضباط، لا مجالَ فيها للعبث أو الاستغلال؛ فتعظيمها يكون بالالتزام لا بالفوضى.
- أخلاقُ الخصومة: لا تجعل البغضاء فتوى للعدوان:﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ... أَنْ تَعْتَدُوا ﴾، حتى لو اشتدّت الخصومة، فلا تجعل كراهيتك مُبرّراً للظلم؛ فالعدل واجبٌ مع الموافق والمخالف على السَّواء.
- روحُ الأُمَّة: تعاونٌ على البرّ لا على التبرير:﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾، قوّة الأُمّة ليست في تواطؤها على الخطأ، بل في تساندها على الخير والحقّ، ونصحِ بعضِها بعضاً لا تبريرِ الزَّلّات.
- هويةُ الحلال: الطيّب طاعةٌ لا مزاج:﴿ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾، الحلال ليس ما تميل إليه النفس، بل ما أباحه الله؛ فاختيار الطيّب عبادةٌ وانقياد، لا ذوقٌ شخصيّ.
- قلبُ الاكتمال: اكتمالُ الدين يقطع طريق الزيادة والنقصان بالهوى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، إذا كان الله قد أكمل الدين، فلا يملك أحدٌ أن يُضيف إليه بهواه أو يُنقص منه برأيه؛ فالكمال الإلهي يقطع طريق العبث والتبديل.
- رحمةُ الضرورة المنضبطة: اضطرارٌ بلا تحايل:﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾، الضرورة تُبيح بقدرها، لا بالتحايل عليها؛ فمن اضطرّ فليأخذ بقدر الحاجة دون ميلٍ إلى المعصية أو توسّعٍ في الرخصة.

- ذكرُ اسم الله في الأسباب: الرزقُ لا يُؤخذ غفلةً:﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، اذكر اسم الله لتتذكّر أن الرزق عطيةٌ منه لا مهارةٌ منك؛ فاستحضار اسمه يحفظ القلب من الغفلة قبل أن يحفظ اللُّقمة من الحرام.
- صيانةُ العفاف: الزواجُ ميثاقٌ لا تجربة:﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾، الزواج في الإسلام عهدُ عفّةٍ واستقرار، لا علاقةً عابرةً ولا تجربةً مؤقتة؛ فهو ميثاقُ التزامٍ لا مساحةُ لهو.
- طهارةُ الطريق إلى الصلاة: العبادة تبدأ من الطُّهور:﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا... ﴾، الوقوف بين يدي الله يبدأ بتطهير الجسد، ليُذكِّرنا أن العبادة ليست حضوراً شكليّاً، بل استعدادٌ ظاهرٌ وباطن.
- مقصدُ التشريع: طهارةٌ وشكرٌ لا حرج:﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾، أحكام الله لم تُشرَع لتعذيب الناس أو تضييقهم، بل لتطهيرهم وتكميلهم؛ فالمقصد رحمةٌ وشكر، لا عسرٌ ولا حرج.
- الوعي بالميثاق: "سمعنا وأطعنا" امتحانٌ يومي:﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾، "سمعنا وأطعنا" ليست شعاراً يُقال، بل موقفاً يتجدّد كل يوم؛ أن تطيع حين يوافقك الحكم، وحين يخالف هواك سواءً بسواء.
- العدل عبادة: القسط لله لا للهوى:﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾، العدل ليس خياراً أخلاقيّاً فقط، بل عبادةٌ تُؤدّى لله؛ فميزانه التقوى لا الميل، والحقّ يُقام ولو خالف الهوى.
- النصر الخفي: بتدبيرِ الله وصرفِه كُفَّ أذاهم عنك:﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، قد لا ترى كيف حُفظت، لكن الله صرف عنك أذىً كان يمكن أن يُصيبك؛ فكم من شرٍّ كُفَّ عنك ولم تعلم به.

- تحريفُ الكلم منشأُ التشتت: تغيّرُ المعنى يلدُ صراعاً طويلاً:﴿ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾، حين يُهمل الناس بعض ما ذُكِّروا به أو يُغيّرون معانيه، يبدأ التفرّق من فكرةٍ صغيرة... ثم يمتدّ أثره صراعاً طويلاً.
- نورٌ وكتاب: الهداية ليست "تراثاً"، بل خروجٌ من الظلمات:﴿ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾، الوحي لم يُنزَل ليُحفظ في الرُّفوف، بل ليُخرج الناس من ظلمات الحيرة والهوى إلى نورٍ واضحٍ يهدي الطريق.
- استقامةُ الدعوى: الانتساب لا يغني دون إقامة الوحي:﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾، الانتماء إلى كتابٍ أو دينٍ لا يكفي؛ فلا قيمة للاسم ما لم يُقَم الوحي واقعاً يُعمل به لا شعاراً يُرفع.
- ابتلاءُ الخوف: الجبن عن أمر الله يورث التيه:﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا... ﴾، حين يتهرّب الناس من أمر الله خوفاً أو تردّداً، يضيعون الطريق ويقعون في التِّيه؛ فالتخلّي عن التكليف بدايةُ الضياع.
- أولُ دمٍ على الأرض: الحسد إذا تُرك ولم يُعالج صار قتلاً:﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾، الحسد إذا تُرك في القلب بلا علاج يبدأ خاطراً، ثم يشتدّ حتى يُزيّن لصاحبه أعظم الجرائم؛ فالشَّرُّ الكبير يولد من بذرةٍ صغيرة.
- قيمةُ النفس: قتلُ واحدٍ انهيارٌ لمعنى الإنسانية:﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾، حرمةُ النفس عظيمة؛ فمن استهان بقتل إنسانٍ واحد فقد هدم أصل الأمان الإنساني كلّه، وكأنما اعتدى على البشرية جمعاء.
- حمايةُ الأمن العام: فسادُ الطريق حربٌ على المجتمع:﴿ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ﴾، كلُّ من يشيع الرُّعب ويفسد في الأرض ويعتدي على أمن الناس إنما يعلن حرباً على استقرار المجتمع؛ فحماية الأمن من أعظم مقاصد الشريعة.

- توبةٌ قبل القبضة: الرجوعُ الصادق يمحو ما قبل القدرة:﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾، من رجع إلى الله تائباً بصدقٍ قبل أن يقع في قبضة العقوبة، فتح الله له باب العفو؛ فالتوبة الصادقة تسبق الحساب.
- قلبُ الحركة إلى الله: تقوى... وسيلة... جهاد:﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾، السير إلى الله تعالى ليس أُمنيةً تُتمنّى، بل تقوى تُحفظ، وأعمالٌ تُتقرَّب بها، وبذلٌ يُجاهد به المرء نفسه حتى يقترب حقّاً.
- الحكمُ ميزان الهوية: الهوى يفسد الدين ولو كثرت الشعارات:﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾، إذا صار الهوى هو الذي يوجّه الحكم، ضاع ميزان الدين مهما ارتفعت الشعارات؛ فالحقّ يُتَّبع ولو خالف الرغبات.
- سؤالُ الجاهلية الدائم: أيُّ حكمٍ تريد... وبأيِّ يقين؟ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾، كلما ترك الناس حكم الله وطلبوا حكم الهوى أو العادة، عادوا إلى جاهليةٍ جديدة؛ فالسؤال ليس أيُّ قانونٍ نختار، بل أيُّ يقينٍ نحتكم إليه.
- مرضُ القلوب في الولاء: خوفٌ يلبس لباس الحكمة:﴿ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾، حين يُقدَّم الخوف على الثقة بالله، يختبئ ضعفُ الإيمان وراء ستار "الحكمة"، بينما هو في الحقيقة تردّدٌ في الانحياز للحقّ.
- الاستبدال سنّةٌ ربانية: إن تخلّى قومٌ... أتى الله بغيرهم:﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾.. الدين لا يتوقف على أحد: إن تقاعس قومٌ... أقام الله غيرهم مقامهم... إذا تراجعنا... فلن يتراجع الدين: الله يأتي بقومٍ يحبهم ويحبونه.
- الغلبةُ ليست صخباً: الغلبةُ حزبُ الله لا حزبُ الأهواء:﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾، النصر الحقيقي ليس بكثرة الضجيج ولا بتضخّم الشعارات، بل بالثبات على منهج الله تعالى؛ فالغلبة لأهل الحقّ ولو طال الطريق.

- السُّخرية من الدين سقوطٌ عقلي: الاستهزاء علامة خواء:﴿ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ﴾، الاستهزاء بالدِّين ليس دليلاً على قوّةٍ فكرية، بل علامةُ خواءٍ في القلب والعقل؛ فمن عجز عن مجادلة الحقّ لجأ إلى السُّخرية منه.
- مسؤولية العلماء: الصمتُ عن السُّحت مشاركةٌ في الخراب:﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾، إذا سكت أهل العلم عن الفساد وأكل الحرام، لم يكونوا محايدين بل شركاء بالصَّمت؛ فوظيفتهم إصلاح الانحراف لا التعايش معه.
- اتهامُ الله تعالى بالبخل قمةُ الجهل: والردّ: كرمٌ مطلق:﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وصفُ الله تعالى بالبخل جهلٌ بحقيقته سبحانه؛ فهو واسعُ العطاء، يُفيض من فضله بلا حدٍّ ولا نقص.
- بابُ التوبة مفتوح: حتى بعد الغلوّ والكفر، الطريق يعود بالاستغفار:﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾، مهما بلغ الانحراف، يبقى بابُ الرجوع مفتوحاً؛ فالتوبة الصادقة تمحو ما قبلها، والاستغفار بدايةُ الطريق من جديد.
- خاتمةُ الانحراف: لا تناهٍ عن المنكر... فينزل اللعن:﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾، حين يعتاد المجتمع المنكر ولا ينهى بعضُه بعضاً عنه، يتحوّل الصمت إلى مشاركة، ويستحقّ العقوبة بسبب تعطيل فريضة الإصلاح.

وحدة المصدر وتنوّع الشرائع... كيف يجتمع الثبات والتبدّل في وحيٍ واحد؟

من الأسئلة التي تبدو في ظاهرها معقّدة، لكنها في حقيقتها بابٌ إلى فهم عميق لحكمة الله في التاريخ: لماذا اختلفت الشرائع مع أن المصدر واحد؟ ولماذا لم تكن شريعةٌ واحدة منذ بعثة نوح إلى بعثة مُحَمَّد عليهم الصلاة والسلام؟ أليس الإله واحداً؟ أليست الحقيقة واحدة؟ فكيف تتبدّل الأحكام وتتنوع الأنظمة؟

الجواب لا يُفهم إلا إذا ميّزنا بوضوحٍ بين أصلين عظيمين:

- **وحدة العقيدة...**
- **وتنوّع التشريع.**

←العقيدة واحدة لا تتبدّل ولا تتغير لأنها متعلقة بحقيقة الله وبحقيقة الإنسان وبحقيقة المصير، فالتوحيد واحد، والإيمان بالله واحد، والإيمان باليوم الآخر واحد، والإيمان بالرُّسل واحد، وأصول الأخلاق الكبرى من الصدق والعدل والرحمة والأمانة واحدة، لم يأت نبيٌّ قطّ ليقول للناس اعبدوا غير الله، ولم يأت رسولٌ ليُقرّ الشرك، ولم يأت وحيٌ ليُغيّر حقيقة الإله أو غاية الوجود، فهذه ثوابت لا تتبدل لأنها ليست مرتبطة بزمانٍ ولا بمكان، بل مرتبطة بالحقيقة المطلقة التي لا تتغير.

←أما التشريعات التفصيلية، من الحلال والحرام، والحدود، والأنظمة الاجتماعية، وأحكام المعاملات، وصور العبادات، فهذه جاءت متنوّعة باختلاف الأزمنة والأحوال، لا لأن الحق تبدّل، بل لأن تنزيله على الواقع يراعي حال المخاطبين وقدرتهم ومرحلتهم التاريخية، فالشريعة في جوهرها هداية، والهداية لا تنفصل عن واقع المهتدين.

أولاً: اختلاف الأزمنة والبيئات وحال الأمم.

البشرية لم تكن في مرحلةٍ واحدة من النضج الحضاري والاجتماعي، فقومٌ يعيشون في مجتمعات بدائية متفرقة، تحكمهم العصبيات القبلية وتغلب عليهم الخشونة، ليسوا كأُمَّةٍ تشكّلت فيها دولٌ ومدنٌ وأسواقٌ وأنظمةٌ مركّبة، وتداخلت فيها العلاقات وتشابكت المصالح، فالتشريع الرباني لا ينزل في فراغ، بل يخاطب بشراً لهم واقعٌ مخصوص، ولهذا كان من الحكمة أن تُراعى أحوالهم في بعض التفاصيل دون أن يُمسّ أصل التوحيد والثوابت الكبرى.

كما أن الطفل له منهجٌ يناسب مرحلته، لا يُعطى فيه ما يُعطى للبالغ من تكاليف ومسؤوليات، وكما أن الشاب يُخاطب بما لا يُخاطب به الصغير، كذلك تمرّ المجتمعات بمراحل من البناء والتكوين، فيُشرّع لها بما يضبطها ويهذّبها ويرتقي بها في تلك المرحلة، لا بما يُثقلها فوق طاقتها أو يُعطّل مسيرتها.

ثانياً: الابتلاء والاختبار وإظهار حقيقة الانقياد.

لو كانت شريعةٌ واحدة جامدة في كل تفاصيلها عبر جميع العصور، لانتفى معنىً عظيم من معاني الامتحان، وهو اختبار الانقياد للوحي، فالتبدّل في بعض الأحكام ليس عبثاً ولا تردداً، بل هو إظهارٌ لمن يتبع الحق لأنه من عند الله، لا لأنه ألفه واعتاده، فحين يُؤمر قومٌ بحكمٍ ثم يُنقلون إلى حكمٍ آخر بوحيٍ جديد، يظهر الصادق في تسليمه من المتردد في اتباعه.

فالابتلاء ليس دائماً في شدّة الحكم أو خفّته، بل في أصل الطاعة، هل يُسلّم القلب لأن هذا أمر الله، أم يُجادل لأنه يخالف مألوفه، وهنا تتجلّى عبودية الاتباع، لا عبودية العادة.

ثالثاً: التدرُّج في البناء والإصلاح.

بعض الأُمم عُرفت بالتمرّد والتجاوز، فشُدّد عليها في بعض الأحكام زجراً وردعاً وتأديباً، وبعض الأُمم احتاجت تخفيفاً ورحمةً وفتحاً لأبوابٍ أوسع،

فالتشديد والتخفيف كلاهما رحمة إذا وُضع في موضعه، لأن الغاية ليست إثقال البشر، بل إصلاحهم، والشرع يدور مع مصلحة العباد الحقيقية التي يعلمها خالقهم.

وحين جاءت الشريعة الخاتمة، جاءت أكثر شمولاً واتساقاً مع فطرة الإنسان، لأنها خُتم بها البناء، ولأنها موجّهة إلى البشرية كافة، لا إلى أُمَّةٍ مخصوصة بزمانٍ محدود، فاقتضت الحكمة أن تكون عامةً، متوازنةً، قابلةً لأن تُحمل في كل عصر، دون أن تحتاج إلى وحيٍ جديد يعدّل تفاصيلها.

رابعاً: إظهار وحدة المصدر رغم تنوّع الصور.

التنوّع في التشريعات مع وحدة العقيدة يُظهر أن المصدر واحد لا متعدّد، لأن الأصل الذي لا يتغيّر هو التوحيد، أما اختلاف الصور فشأنٌ في كيفية التطبيق، لا في أصل الحقيقة، كما أن النور واحد، لكن ظهوره في أوقاتٍ مختلفة ينعكس بأطيافٍ متنوعة بحسب الوسط الذي يمرّ به، فلا يقال إن النور تعدّد، بل يقال إن تجلياته تنوّعت.

فالاختلاف في التفاصيل لا يعني اختلاف الإله، بل يدل على حكمةٍ في تنزيل التشريع وفق الحاجة والمرحلة، مع بقاء الأصل الذي لا يتبدل.

خامساً: ختم النبوة واستقرار التشريع.

حين بلغت البشرية مرحلةً من التكوين يمكنها فيها حمل رسالةٍ عالميةٍ خالدة، استقرّ التشريع واكتمل، وخُتمت النُّبوَّة، فلم تعد هناك حاجة إلى شريعةٍ خاصة بقومٍ دون قوم، أو بمرحلةٍ دون مرحلة، بل جاءت رسالةٌ عامة للناس كافة، تُخاطب إنسان الصَّحراء كما تُخاطب إنسان المدينة، وتخاطب أهل القرون الأولى كما تخاطب من يأتي بعدهم، لأنها وُضعت في صورتها النهائية التي تكفي لهداية البشر إلى قيام الساعة.

وهنا تتجلّى الحكمة البالغة: ثبات العقيدة لأنها أصل الطريق، وتنوّع التشريع

في المراحل الأولى لأنه جزءٌ من بناء الطريق، ثم استقراره في الشريعة الخاتمة لأنه اكتمال البناء.

الخلاصة التي ينبغي أن تُحفر في القلب:

ليست المشكلة في أن الشرائع اختلفت، بل لو لم تختلف في مراحل التاريخ لكان ذلك منافٍ للحكمة، فالعقيدة ثابتة لأنها تتعلق بالحقيقة التي لا تتغير، أما التشريع فقد كان يسير مع حركة التاريخ حتى استقرّ في شريعةٍ خاتمةٍ عامةٍ كاملة، تحفظ وحدة الأصل، وتستوعب تنوّع الواقع.

اختلفت الشرائع لأن أحوال الناس اختلفت، وثبت التوحيد لأن الحق لا يتغيّر، **فالتشريع** يتبدّل بحكمةٍ ورحمة، أما **العقيدة** فتبقى لأنها أصل الطريق وميزان النجاة.

المحور الإيمانيّ المركزي للجزء السادس:

دينُ الميثاق... من ضبط اللسان إلى اكتمال الشريعة وحراسة القلب من السُّحت والهوى...

هذا الجزء يُقيم لك ميزان الإيمان في ثلاث ساحاتٍ متصلة لا تنفصل:

١. ساحة الكلمة والخلق،
٢. وساحة العقيدة والتسليم،
٣. وساحة الحكم والرزق والميثاق؛

- يبدأ بتأديب اللسان حتى لا يتحول الألم إلى فحشٍ في القول، ويقرر أن المؤمن لا يجهر بالسُّوء إلا لرفع ظلمٍ واقع، ثم يفتح لك باباً أعلى من الكلام وهو باب الإحسان الخفيّ والعفو والستر، ليُعلّمك أن قوة القلب ليست في فضح الناس بل في القدرة على الخير والعفو، وأن الله يسمع ويعلم ويرى ما يقال وما يُخفى وما يُعفَى عنه.
- ثم ينتقل إلى جوهر الإيمان الذي لا يقبل الانتقاء: لا دين بلا تسليمٍ لكل

رسل الله، ولا إيمان مع التفريق بين الله ورسله أو اتخاذ "طريقٍ بين الإيمان والكفر"، فالإيمان وحدةٌ لا تتجزأ، ومن حاول أن يجعل الدين أجزاءً على مزاجه فقد سقط في حقيقة الكفر، ومن آمن بالله ورسله جميعاً استحق الأجر والمغفرة والرحمة؛

- ثم يعرض هذا الجزء نموذج الاعتراضات المتكررة على الوحي، وكيف تتحول المطالبات إلى عناد، وكيف ينقلب الميثاق إلى نقض، وكيف يجرّ ذلك إلى طبعٍ على القلوب، ثم يثبت الحق في شأن عيسى عليه السلام إثباتاً يقطع الظنون: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ و﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، ليقول لك: إن الانحراف يبدأ من الظَّنِّ إذا قُدّم على اليقين، وأن التلاعب بالحقائق الدينية ليس خطأً معرفياً فقط بل فسادٌ في القلب.
- ثم يربط الجزء بين فساد الميثاق وفساد الرزق: ظلمٌ يجرّ تحريماً، وصدٌّ يجرّ لعنةً، ورِباً وأكلٌ لأموال الناس بالباطل يجرّ عذاباً، ويظهر هنا أن المال ليس رقماً بل امتحان أمانة، وأن الانحراف في المعاملة قد يكون طريقاً إلى السُّحت الذي يأكل البركة ويُقسّي القلب؛ ومع ذلك لا يظلم القرآن أحداً بالتعميم، فيستثني الراسخين في العلم والمؤمنين منهم، ليقيم ميزان العدل داخل ميزان العقيدة.
- ثم يثبت أن الرسالة واحدة من نوح عليه السلام إلى مُحَمَّد ﷺ، وأن الوحي سلسلةٌ واحدة، وأن إرسال الرسل كان قطعاً للحجة على الناس، وأن الشهادة الكبرى على هذا القرآن ليست تصفيق البشر بل شهادة الله: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾..
- ثم يختم بنداءٍ عام للبشر أن الحق قد جاء، وبرهانٍ ونورٍ مبين نزل، فمن اعتصم بالله دخل في رحمةٍ وفضلٍ وهُدي إلى صراط مستقيم، ومن استنكف واستكبر فله عذاب أليم ولا يجد ولياً ولا نصيراً.

- ثم تأتي سورة المائدة لتُترجم هذا المعنى إلى "دين ميثاقٍ عملي": ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، و﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، و﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾،
- ثم إعلان اكتمال الدين وتمام النعمة ورضا الإسلام ديناً، ليُفهم أن الشريعة اكتملت لتصنع إنساناً يفي بالعهد، ويطهر جوارحه، ويزن خصومته بالعدل، ويقيم صلته بالله على شكر النِّعمة لا على هوى النفس، ويعلم أن الله سريع الحساب.
- ويأتي ذكر السُّحت صريحاً في هذا الجزء كعلامة سقوطٍ أخلاقيٍّ وعقديٍّ معاً: سَمَّاعون للكذب وأكّالون للسُّحت..
- ثم يواجه القرآن أهل الكتاب بميزان واحد: لا غلوّ ولا قول على الله بغير الحق، ولا تحريف ولا شراء للآيات بثمنٍ قليل..
- ثم يقرر القاعدة الجامعة في اختلاف الشرائع مع وحدة المصدر: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً... وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ليغلق كل أبواب التعلل، ويعيدك إلى جوهر الطريق: **السباق إلى الخيرات لا التهرب من الميثاق.**

وخلاصة المحور:

١. هذا الجزء يُعيد تعريف الإيمان بأنه ميثاقٌ شاملٌ يضبط اللسان بالعفو،
٢. ويثبت العقيدة باليقين والتسليم لكل الرسل،
٣. ويُطهّر الرزق من الرِّبا والسُّحت وأكل أموال الناس بالباطل،
٤. ويقيم المجتمع على العدل والوفاء بالعقود،
٥. ثم يعلن اكتمال الدين ونزول النور المبين،
٦. فمن اعتصم بالله نجا، ومن استكبر وحرَّف وأكل السُّحت هلك.

أخطر الانحرافات التي يُحذّر منها الجزء السادس

❖ أولاً: الانحراف العقدي

١) انتقائيّةُ الإيمان: أن تختار من الوحي ما يُريحك، وتُقصي ما يُقيّد هواك، فتجعل نفسك ميزاناً على النصّ لا خاضعاً له، ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، والإيمان لا يُؤخذ مجزّأً؛ فمن نصب عقله حكماً على الوحي سقط من مقام العبودية إلى مقام التحكّم، وفقد معنى التسليم الذي به يكون الدين ديناً.

٢) التفريقُ بين الله ورسله: أن تفصل بين المصدر والمبلِّغ بحجة "التوازن" أو "التحفّظ"، فتقبل فكرة الإيمان بالله ثم تتحفّظ على رسله وتشريعه، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، والطعن في الرسالة طريقٌ ملتفّ للطعن في المُرسِل ولو بدا الخطاب مُهذّباً؛ لأن الرسالة ليست رأياً بشرياً بل وحياً إلهياً لا ينفصل بعضه عن بعض.

٣) الغلوّ في الأنبياء حتى التأليه: تعظيمٌ يتجاوز حدَّه المشروع فينقلب شركاً، ﴿لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، فالمحبة إذا لم تُضبط بالتوحيد تحوّلت من طاعةٍ إلى انحراف، ومن توقيرٍ مشروع إلى رفعٍ يُفسد أصل العقيدة ويهدم نقاء التوحيد.

٤) اتباعُ الظَّنّ في قضايا الإيمان: بناءُ العقيدة على التخمين والانطباع لا على البرهان واليقين، ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، فإذا صار الشَّكّ مرجعاً، وتحوّل الهوى إلى دليل، هُدم اليقين من جذوره، وصار الإيمان حالةً نفسية لا حقيقةً راسخة.

٥) تحريفُ الكلم عن مواضعه: تبديلُ المعنى ليوافق الهوى لا ليخضع له، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، يبدأ الانحراف بتأويلٍ مُريح يُخفّف وطأة التكليف...

ثم يتوسّع حتى يصير منهجاً كاملاً من التشويه، فتتبدّل المعاني وتضيع الحدود ويبقى النَّصّ ظاهراً والحقّ غائباً.

٦) استبدالُ حكم الله بحكم الجاهلية: البحث عن بديلٍ للوحي باسم "الواقعية" أو "التطوّر" أو "مواكبة العصر"، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، وحين يُقصى الوحي من ميزان الحكم تعود الجاهلية ولو تغيّرت أسماؤها وتزيّنت بشعارات حديثة؛ لأن الجاهلية ليست زمناً مضى، بل منهجاً يُقصي هداية الله عن حياة الناس.

والخلاصة الجامعة: الانحراف لا يبدأ بإنكارٍ صريحٍ يُعلن الحرب على الدِّين، بل بانتقاءٍ صغير، وتأويلٍ مريح، وظنٍّ مُتَّبع، حتى يُستبدَل الوحي كلّه باسم العقل أو المصلحة، ويظنّ صاحبه أنه ما زال مؤمناً وهو يبتعد خطوةً خطوة عن أصل الطريق.

❖ ثانياً: الانحراف الأخلاقي

١) الجهرُ بالسُّوء عند الخصومة: إطلاقُ اللسان بلا ميزانٍ ولا تقوى، فتتحوّل لحظة الغضب إلى سيلٍ من الكلمات الجارحة التي تُريق كرامة الناس باسم الألم أو الدفاع عن النفس، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، فالخصومة لا تُبيح الفُحش، والحقّ لا يحتاج إلى سبابٍ ليبقى حقّاً.

٢) البهتانُ والطعن في الأعراض: سقوطُ الأخلاق حين يسقط اللسان، فإذا تجرّأ الإنسان على اتهام الأبرياء بلا بيّنة، ونسج الأكاذيب حول الطاهرين، انكشف خلل القلب قبل فساد القول، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾، فالبُهتان ليس زلّة لفظ، بل انهيار ميزان العدالة والحياء معاً.

٣) الاعتداءُ بدافع البغضاء: تحويلُ الكراهية إلى مُبرّرٍ للظلم، وإلباسُ الهوى لباس الغيرة أو الغضب المشروع، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ تَعْتَدُوا﴾، فالعداوة

لا تُسقط العدل، والبغضاء لا تمنحك رخصةً لتجاوز حدود الله.

٤) أكلُ السُّحت والرِّبا: فسادُ الضمير في باب المال، حين يُستباح الحرام باسم الربح، وتُؤكل أموال الناس بالباطل مع ادّعاء الصلاح، ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا... وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، فاليد التي تعتاد الحرام تُضعف القلب قبل أن تُفسد السُّوق.

٥) تركُ التناهي عن المنكر: صمتٌ يُشرعن الفساد ويمنحه غطاءً اجتماعياً، فإذا رأى الناس المنكر شائعاً ولم ينهَ بعضُهم بعضاً عنه، تحوّل السكوت إلى مشاركة، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، فالأُمَّة لا تسقط فقط بفعل الخطأ، بل بصمتها عنه حتى يصبح اعتياداً.

❖ ثالثاً: الانحراف الاجتماعي

١) نقضُ المواثيق والعقود: حين تُنكَث العهود وتُكسَر العقود، لا يضيع بندٌ مكتوب فحسب، بل ينهار أساس الثقة بين الناس، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، وفي المقابل يبقى النداء الإلهي ثابتاً ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾؛ لأن المجتمع لا يقوم على المشاعر العابرة، بل على عهودٍ تُحترم ومواثيق تُصان، فإذا سقطت الأمانة سقط معها الاستقرار.

٢) التعاونُ على الإثم بدل البرّ: حين تتشكّل شبكةُ مصالح لحماية الخطأ وتبرير العدوان، يتحوّل المجتمع إلى منظومة فسادٍ متكاملة، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ فالقوة الحقيقية ليست في كثرة المتواطئين، بل في قلةٍ تتعاون على الحقّ وتمنع الشَّرّ من أن يُصبح نظاماً عاماً.

٣) موالاةُ من يحارب الدين على حساب الهوية: ذوبانٌ تدريجيّ باسم "المصلحة" أو "الواقعية"، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾، فحين يُقدَّم الولاء المخالف للهُوية الإيمانية على حساب الثبات على المنهج، يبدأ

التنازل صغيراً ثم يكبر حتى تضيع معالم الانتماء.

٤) الاستهزاءُ بالشعائر: تحويلُ المُقدّس إلى مادة سُخرية ولعب، ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾، فالضَّحك على الدين ليس خفّة ظِلّ، بل سقوطُ توقير، وإذا انهار احترام المُقدّس انهار معه ميزان التعظيم في القلوب.

٥) الفسادُ في الأرض وسفكُ الدماء: حين تُستباح النفس البشرية وتُزهق الأرواح بلا حق، ينهار معنى الإنسانية ذاتِه، ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً... فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، فحفظ الحياة ليس مسألة قانونٍ فقط، بل أصلٌ من أصول بقاء المجتمع وصيانة كرامته.

❖ رابعاً: الانحراف النفسي

١) مرضُ القلب الذي يلبس لباس الحكمة: خوفٌ من الناس أعظم من الخوف من الله، وتردّدٌ يُزيَّن باسم التعقّل، بينما حقيقته ضعفُ يقينٍ واضطرابُ ثقة، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾؛ فحين يُقدَّم حساب البشر على مراقبة الله، يبدأ الانحراف من داخل القلب قبل أن يظهر في السلوك.

٢) الاستنكافُ عن العبودية: كِبرٌ خفيّ يمنع الانقياد، وشعورٌ داخلي بأن الأمر الإلهي دون المقام الشخصي، ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾؛ فالعبودية شرفٌ لا يُدركه إلا من كسر "**أنا**" داخله، ومن أبى السجود بقلبه سقط ولو قام بجسده.

٣) الجبنُ أمام التكليف: تعطيلُ الأمر الإلهي بحجة "الواقع" أو "الظروف"، والبحث عن مُبرّرٍ للبقاء في منطقة الراحة، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾؛ فحين يتراجع الإنسان عن الواجب خوفاً، لا يحفظ نفسه بل يُورثها التِّيه والضياع.

٤) تطويعُ النفس للمعصية حتى تستسيغها: بدايةُ السُّقوط من الداخل، حين يُعاد تكرار الخطأ حتى يزول استقباحه، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾؛ فالخطيئة لا تبدأ جريمةً كاملة، بل خاطراً يُسايَر حتى يصبح قراراً لا يُستنكَر.

٥) الاغترارُ بعد التوبة والعودة إلى العمى: تكرارُ السقوط بلا يقظة، وغفلةٌ تجعل الرجوع إلى الله تعالى محطةً عابرة لا تحوّلاً حقيقياً، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾؛ فالتوبة التي لا تُثمر ثباتاً قد تتحوّل إلى دورةٍ من الرجوع والانتكاس حتى يبهت النور في القلب.

هذا الجزء لا يحذّر من أخطاءٍ عابرة، بل من مسارات انحرافٍ كاملة تبدأ بفكرةٍ صغيرة أو كلمةٍ غير منضبطة، ثم تتحوّل إلى فساد عقيدة، أو خلل أخلاق، أو انهيار مجتمع، أو مرض قلب... حتى ينتهي الإنسان بعيداً عن نورٍ أُنزل ليَهديه.

ملامحُ الشخصية التي يصنعها الجزءُ السادس

١) لسانٌ منضبطٌ عند الغضب: لا يُطلق الألم فُحشاً، ولا يجعل الظلم مبرّراً لتلويث الكلمة أو كسر الكرامة، لأن الحقّ يُقال بميزانٍ لا بانفجار، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾، فيبقى اللسان طاهراً حتى في لحظة الاشتعال.

٢) قلبٌ يعفو وهو قادر: يختار العفو لا ضعفاً بل اقتداءً بربٍّ عَفُوّ، ويرى في الصفح رفعةً لا خسارة، ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، فينتصر على جراحه قبل أن ينتصر على خصمه.

٣) إيمانٌ كاملٌ غير انتقائي: لا يُجزّئ الوحي ولا يُفاضل بين رسل الله بالهوى أو المزاج، ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، لأن التسليم كلٌّ لا يُقبل منه نصف.

٤) عقيدةٌ نقيةٌ من الغُلوّ: يُعظّم الأنبياء حقّ تعظيمهم، دون أن يرفعهم فوق

مقام العبودية، ﴿لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ﴾، فالشرف في العبودية لا في التأليه.

٥) يقينٌ لا يعيش على الظَّنّ: لا يبني إيمانه على شُبهةٍ عابرة أو روايةٍ مضطربة، ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، بل يطلب البرهان ويطمئنّ إلى العلم.

٦) مُعتصِمٌ بالله لا بالناس: مصدر أمانه وثباته من فوق لا من حوله، ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾، فلا يتقلّب مع الرياح لأن مرساته عند الله سبحانه.

٧) وفيٌّ بالعهد والعقد: يرى الوفاء عبادةً قبل أن يكون مصلحة، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، فيحفظ الكلمة كما يحفظ الصلاة.

٨) عادلٌ حتى مع من يكره: لا تُفسد البغضاء ميزان القسط، ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، فيبقى الحقّ قائماً ولو اشتدّ الخلاف.

٩) شخصيةٌ متعاونة على البرّ: تبني شبكةَ صلاحٍ لا تحالفَ إثم، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، لأن الجماعة إمّا أن ترتقي معاً أو تنحدر معاً.

١٠) مُعظِّمٌ للشعائر: لا يستهين بالـمُقدّس، ولا يحوّل العبادة إلى عادةٍ فارغة، ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، فيرى في الشَّعيرة حضوراً لا شكلاً.

١١) طاهرُ الظاهر والباطن: يعلم أن الطهارة ليست إجراءً مائياً فقط، بل تهيئةً روحيةً للقرب، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، فالنقاء طريق اللقاء.

١٢) مُستسلمٌ لحكم الله بلا مساومة: لا يبحث عن بديلٍ للوحي إذا خالف مزاجه، ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، لأن المرجعية واحدة لا تتبدّل بتقلّب الرغبات.

١٣) حارسٌ لقيمة الحياة: يرى الدَّم أمانةً عظيمة لا تُراق بشهوةٍ أو غضب، ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً... فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، فحفظ النفس حفظٌ للإنسانية.

١٤) رافضٌ للفساد في الأرض: لا يُبرّر التخريب باسم الغضب أو الغاية، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾، لأن الطريق إلى الحق لا يُعبَّد بالباطل.

١٥) شخصيةٌ تقاوم مرض القلب: لا تتذرّع بالخوف لتُبرّر التراجع عن المبدأ، ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، بل تقدّم الثقة بالله على حسابات الناس.

١٦) لا يستنكف عن العبودية: يرى شرفه في السُّجود لا في الاستعلاء، ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، لأن الكِبر بداية السقوط.

١٧) ثابتٌ أمام اللَّوم: لا يتراجع عن الحق خوفاً من كلمات الناس، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، فيمشي مستقيماً ولو تعالت الأصوات.

١٨) يعلم أنه مُستبدَلٌ إن قصَّر: يدرك أن الدِّين لا يتوقّف عليه، فيتواضع ويجتهد، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، فلا يغترّ بدوره ولا يأمن التقصير.

١٩) يعيش اكتمال الدِّين بيقينٍ ومسؤولية: لا يزيد في الوحي بهواه ولا يُنقص منه برأيه، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فيحمل الأمانة كما أُنزلت، لا كما تُشتهى.

هذه الشخصية التي يُعيد الجزء السادس تشكيلها:

شخصيةٌ واعيةٌ بالعقيدة، منضبطةٌ في الأخلاق، عادلةٌ في المجتمع، مطمئنةٌ في الداخل، معتصمةٌ بالله في الفتن... لا تُساوم على الوحي، ولا تتلوّن مع الريح، ولا ترفع صوتها فوق ميزان الله تعالى.

أمراضُ القلوب التي يعالجها الجزءُ السادس

١) مرضُ التبرير عند الغضب: حين يُقنع القلبُ نفسه أن الفُحش حقٌّ مكتسب، وأن الألم يُبيح له أن يلوّث الكلمة ويكسر الكرامة، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾، فيتحوّل الدفاع عن النفس إلى اعتداءٍ باسم الحق.

٢) مرضُ القسوة ورفض العَفْو: قلبٌ لا يعرف الارتفاع فوق الجراح، ولا يرى في الصَّفح قوةً، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، فيبقى أسير الإساءة لأنه عجز عن تجاوزها.

٣) مرضُ الانتقائية في الإيمان: قبولُ ما يوافق الهوى ورفضُ ما يُثقله، ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، فيتحوّل الوحي من مرجعٍ أعلى إلى نصٍّ يُفصَّل على مقاس الرَّغبة.

٤) مرضُ الغُلوّ في الصَّالحين: تعظيمٌ ينقلب شِركاً باسم المحبة، ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، ﴿لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، فالمحبة إذا لم تُضبط بالتوحيد أفسدت أصل الدِّين.

٥) مرضُ اتباع الظَّنّ: قلبٌ يرضى بالظِّلال بدل النور، ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، فيستبدل اليقين بتخمينٍ مريح.

٦) مرضُ تحريف المعاني: حين يُغيِّر القلب النَّصّ ليحمي شهوته، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، فيبدأ الانحراف بتأويلٍ بسيط وينتهي بتشويهٍ شامل.

٧) مرضُ الادّعاء الكاذب للبراءة: اتهامُ النصّ بدل اتهام النفس، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، فيتحوّل العجز عن القبول إلى دعوى زائفة بالطهارة.

٨) مرضُ البهتان والطعن في الأطهار: سقوطُ الضمير أمام شهوة الإسقاط، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾، فيصبح الكذب أداةَ تصفية لا أداةَ بيان.

٩) مرضُ أكل المال بالباطل: قلبٌ يتغذّى على الحرام ثم ينتظر الطمأنينة، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، فيبحث عن سكينةٍ لا تنبت في أرضٍ ملوّثة.

١٠) مرضُ نقض العهود: قلبٌ لا يرى في الوعد مسؤوليةً أمام الله، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، فيسقط ميزان الثقة من داخله قبل أن يسقط في المجتمع.

١١) مرضُ الاستهزاء بالشعائر: فراغٌ داخلي يُخفيه الضَّحك، ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾، فالسُّخرية قناعٌ لعجزٍ عن التعظيم.

١٢) مرضُ الخوف من الناس فوق الخوف من الله: ارتباكٌ يُلبس نفسه ثوب الحكمة، ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، فيُقدَّم حساب البشر على حساب الآخرة.

١٣) مرضُ الاستنكاف عن العبودية: كِبرٌ يمنع السُّجود ولو لم يُنكر اللسان، ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، فالقلب المتعالي لا يعرف طعم الخضوع.

١٤) مرضُ الجبن عن التكليف: تعطيلُ الأمر الإلهي بذريعة الواقع، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فيُختار الأمان المؤقت على الطاعة الواجبة.

١٥) مرضُ تطويع النفس للمعصية: حين تُصبح الخطيئة مقبولةً في الداخل قبل وقوعها في الخارج، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، فيبدأ السقوط فكرةً وينتهي فعلاً.

١٦) مرضُ الاعتياد على المنكر دون إنكار: موتُ الحسّ الأخلاقي تدريجياً، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، فالصّمت الطويل يُميت البصيرة.

١٧) مرضُ طلب البديل عن حكم الله: اضطرابُ اليقين حين يصطدم الهوى بالوحي، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، فيُستبدَل النور بظَنٍّ، والهدى برغبة.

هذا الجزء لا يكتفي بوصف الداء، بل يضع الدواء في موضعين متلازمين:

- **إيمانٌ كاملٌ بلا انتقائية...**
- **واعتصامٌ صادقٌ بلا تردّد..**

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق... أسئلةُ مواجهة لا معلومات

١) حين أُظلَم... هل أستعمل "حقّي" مطيّةً لفتح باب الغِيبة والتشهير والتنفيس، أم أزن كلمتي بميزان الله، فأقتصّ بقدر الحقّ دون أن أتجاوز إلى الفُحش والانتقام الخفيّ؟ ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾، فالمظلوم مأذونٌ له بالبيان لا بالانفلات.

٢) هل أنا قادرٌ على العفو... لكنّي أؤجّله لأن قلبي يحبّ أن يرى الآخر يتألّم قبل أن يسامَح، وكأنَّ شفاء الجرح لا يكتمل إلا بجرحٍ مقابل؟ ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، فالعفو رفعةٌ لا خسارة، وامتحانُ قوةٍ لا ضعف.

٣) أين أمارس الانتقائية؟ ما الحكم الذي أُجيد تلاوته وأستثنيه من التطبيق لأنه يضغط على راحتي أو مصلحتي؟ ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، فالإيمان ليس قائمة اختيارات بل تسليمٌ كامل.

٤) هل عندي "منطقة رمادية" أعيش فيها: لا أرفض الحق صراحةً، لكنّي لا ألتزم به عملياً، وأسمّي ذلك توازناً أو مرونة؟ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾، فالنصف موقفٌ لا يحسم القلب.

٥) عندما يُعرض عليّ الدليل... هل أطلب مزيداً من "الآيات" لأتخفّى وراء الأسئلة، أم لأهتدي حقاً؟ ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾، فالسؤال قد يكون طريق هداية... وقد يكون ستار هروب.

٦) ما العبادة التي أؤدّيها بظاهرها ثم أستغرب قسوة قلبي بعدها؟ هل أقول في داخلي: "قلبي هكذا" وكأنها شهادة براءة؟ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، فالقلب لا يُغلق إلا بإصرار صاحبه.

٧) ما "التحريف" الذي أفعله دون أن أشعر؟ هل أحرّف المعنى في نفسي لأُريح هواي، فأبدّل المقصد لأُبقي العادة؟ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، فالتأويل المريح قد يكون أول سلَّم الانحدار.

٨) هل وقعتُ يوماً في بهتانٍ أو ترويجِ كلامٍ عن عرضِ أحد، ثم اعتذرتُ لنفسي بحجة أن "الناس كلهم يقولون"؟ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾، فالانتشار لا يُحوّل الكذب إلى حق.

٩) أين أبني قناعاتي على الظنّ؟ ما القضية التي أستسهل فيها ترديد ما يُقال دون علمٍ ولا تثبّت؟ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، فالظَّنُّ المريح لا يصنع يقيناً صادقاً.

١٠) أين يتسرّب المال الحرام إلى حياتي تحت مسمّياتٍ نظيفة؟ وهل أتوقّع بركةً مع بابٍ مفتوحٍ للسحت؟ ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾، فاللُّقمة المشبوهة تُعتم القلب قبل أن تُثقِل الحساب.

١١) ما العقد الذي نقضته أو استهنت به؟ وعدٌ قطعته ثم أعدتُ تعريف "الوفاء" بما يناسب مزاجي؟ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، فالكلمة أمانة قبل أن تكون مصلحة.

١٢) هل أعدل مع من أكره؟ أم أن خصومتي تُسقط ميزان القسط في لساني وقراراتي؟ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، فالعدل يُختبر في ساحة الخلاف لا في مجلس الرضا.

١٣) هل أتعاون على البرّ حقاً... أم أشارك في صنع أعذارٍ تبرّر الإثم والعدوان؟ ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، فالمشاركة بالصَّمت أو التبرير شكلٌ من أشكال التواطؤ.

١٤) ما الشَّعيرة التي صارت عندي عادةً بلا تعظيم؟ وهل خفّفتُ منها بحجة "الظروف" حتى فقدتْ حرارتها؟ ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، فالشّعيرة إذا فُرّغت من روحها بقي شكلها بلا أثر.

١٥) هل في داخلي خوفٌ يُسمّي نفسه حكمة؟ أخاف على رزقي، على صورتي، على علاقاتي... فيدفعني للتنازل خطوةً بعد خطوة؟ ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، فحساب البشر لا ينبغي أن يتقدّم على حساب الله.

١٦) أين أستنكف عن العبودية؟ أمرٌ واضحٌ من الله، لكن نفسي تتكبّر عن الانقياد له في الخفاء؟ ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، فالسجود الحقيقي يبدأ من كسر الداخل.

١٧) ما "القعود" الذي أعيشه؟ تكليفٌ أعرفه... لكنّي أؤجّل الدخول فيه بلا نهاية، وأُقنع نفسي أن الوقت لم يحن بعد؟ ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فالتأجيل الطويل صورةٌ أخرى من الرفض.

١٨) ما المنكر الذي اعتدتُ رؤيته حتى برد قلبي؟ وهل صار صمتي جزءاً من المشكلة؟ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، فالموت الأخلاقي لا يأتي فجأة بل بالتدرّج.

١٩) أيُّ آيةٍ أربكتني لأنها كشفتني؟ أهي آية العدل؟ أم الوفاء؟ أم الغُلوّ؟ أم حكم الجاهلية؟ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، فالآية التي تُقلقك غالباً هي المرآة التي تحتاجها.

٢٠) وما السلوك الذي أؤجّل تغييره مع أني أعلم أنه يهدم أساس "الاعتصام" في قلبي؟ وهل أنا مستعدّ اليوم أن أختار خطوةً واحدةً عملية لا كلاماً عابراً؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ... وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾، فالهداية لا تبدأ بإعجابٍ بالسؤال، بل بصدقٍ في الإجابة.

خطة التغيير كطريقٍ قصيرٍ لكنه صريح

١) ابدأ بخطوةٍ واحدةٍ واضحةٍ لا تحتمل التأجيل، لا تُعمِّم فتقول "عندي تقصيرٌ عام"، بل سمِّ موضع الانكشاف في قلبك باسمه الصريح،

← هل هو لسانٌ منفلتٌ عند الغضب يبرّر الفُحش باسم الحق،

← أم انتقائيّةٌ في الطاعة تختار منها ما يوافق مزاجك،

← أم خوفٌ من الناس يلبس ثوب الحكمة،

← أم تساهلٌ في مالٍ مشبوهٍ تؤجّل حسمه،

← أم صمتٌ عن منكرٍ اعتدته حتى برد إحساسك به؛

قِف أمام دائك بلا تجميل وقل: هنا موضع العلاج، ومن هنا أبدأ، لأن التغيير لا يبدأ بكثرة المعلومات بل بصدق الاعتراف، ومن لم يُسمِّ داءه لن يعرف دواءه، ومن لفَّ على نفسه بالكلمات لن يصل إلى الجذر الذي يحتاج إلى اقتلاع.

٢) ثم انتقل من الاعتراف إلى قرارٍ عمليّ فوريّ لا يقبل التسويف، لا تبحث عن مشاريع كمالٍ واسعة بينما بابُ الخطر الأكبر في حياتك ما زال مفتوحاً؛ أغلقه أولاً،

← فإن كان لسانك يؤذي فالتزم صمتاً منضبطاً أسبوعاً كاملاً كلما هاج غضبك، وردّد في داخلك ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ لتتعلّم أن الحقّ يُؤخذ بميزان لا بانفجار،

← وإن كان في قلبك ميلٌ لانتقاء ما يُعجبك من الدين فاختر حُكماً واحداً ثقيلاً على نفسك وابدأ بتطبيقه فوراً لتكسر وهم ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾،

← وإن كان خوف الناس يُربكك فمارس موقفاً صغيراً صريحاً تُرضي فيه الله ولو لامك بعضهم، لتتدرّب على التحرّر من أسر ﴿تَخْشَى

﴿أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، فالشجاعة لا تُولد دفعةً واحدة بل تُبنى بخطواتٍ محسوبة.

٣) بعد القرار يأتي الانضباط اليومي، لا مشاعرَ كبيرة ولا عناوين مثالية، بل سلوكٌ بسيطٌ يتكرّر كل يوم حتى يصير عادةً جديدة؛

← راقب لسانك قبل أن ينطلق،

← ومالَك قبل أن يدخل،

← وقراراتك قبل أن تُوقَّع،

← وساعاتك قبل أن تُهدر،

← واسأل نفسك قبل كل اختيار: هل هذا حكمُ الله أم حكمُ هواي؟

فإن وجدت نفسك تميل إلى بديلٍ مُريحٍ فاستحضر السؤال الصادم ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، واجعل لك وِرداً قصيراً من قراءة هذا الجزء كل يوم لا لتجمع معلوماتٍ جديدة بل لتبقى تحت ضوءه، فالقلوب إذا ابتعدت عن النور ضعفت، وإذا طال عليها الأمد بلا تذكيرٍ قست حتى لا تشعر.

٤) ثم ثبّت قلبك بمفهوم الاعتصام لا بمفهوم الكفاءة، لا تعتمد على قوتك النفسية وحدها بل على صلتك بالله، وأكثر من الدعاء الصادق: يا رب لا تتركني لنفسي، ولا تكلني إلى ضعفي، وذكِّر نفسك أن النجاة ليست في كثرة الشعارات ولا في الصورة أمام الناس بل في حقيقة الاعتصام، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾، واجعل هذا الوعد أمامك كلما تعبت أو تردّدت؛ لأن الطريق قصيرٌ لمن صدق، وصريحٌ لمن واجه، وواضحٌ لمن قرّر أن يعيش الدين كاملاً لا مُجزّأً، حاضراً لا مؤجَّلاً، عملياً لا نظرياً، ومن اليوم لا من "غدٍ أفضل".

خاتمة وجدانية مزلزلة

في نهاية هذا الجزء لا يبقى السؤال: ماذا فهمت؟ بل ماذا سيتغيّر فيك؟ لأن القرآن هنا لا يتركك في منطقةٍ رماديةٍ آمنة، بل يضعك أمام مرآةٍ حادةٍ تكشف قلبك بلا مجاملات؛ إما أن تكون ممن يكتمل إيمانهم في الداخل كما يعلنونه في الخارج، أو ممن يعيشون ازدواجيةً هادئةً لا يسمعها الناس لكن الله يسمعها ويرى أثرها في اختياراتهم الصغيرة قبل الكبيرة، في كلمة الغضب، وفي عقدٍ تُفرّط به، وفي مالٍ تُبرّره، وفي موقفٍ تؤجّله خوفاً من دائرةٍ قد تصيبك، وكأن الآية ما زالت تُتلى عليك وحدك: ﴿ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾.

هذا الجزء لا يخيفك بالنار فقط، بل يخيفك من أن تموت وقلبك مُجزّأ، تؤمن ببعضٍ وتُؤجل بعضاً، تُعظّم اسم الله في لسانك ثم تبحث عن بديلٍ لحكمه في واقعك، فتسمع النداء الصارخ يتردّد في أعماقك: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾، وتدرك أن القضية ليست معركةً مع مجتمعٍ أو تاريخٍ أو طائفة، بل معركةُ قلبٍ يريد أن يبقى سيّداً فوق الوحي لا عبداً تحته، وأن أخطر الانحراف ليس أن ترفض الحق صراحةً، بل أن تُؤجّله حتى يبرد فيك وهجه.

ثم يفتح لك الباب الأخير، باب الاعتصام، لا لتشعر بالذنب فقط، بل لتنهض، لتفهم أن الله لم ينزل هذا النور ليُدينك ثم يتركك، بل ليهديك، ليُخرجك من ظلمات التردد إلى وضوح الانقياد، ومن قلق المساومات إلى طمأنينة التسليم، ومن ضعف الاعتماد على الناس إلى قوة الاعتماد عليه وحده، فيتردّد الوعد كأنّه يُخاطب اسمك أنت: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾.

فاختر الآن، لا غداً؛ اختر أن يكون دينك كاملاً لا مُجزّأ، صريحاً لا مُوارباً، حيّاً في سلوكك لا حبيساً في معلوماتك، اختر أن لا تكون ممن قيل فيهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، بل ممن اكتمل فيهم معنى السّمع والطاعة،

فصاروا خفافاً عند الأمر، صادقين عند الامتحان، ثابتين عند الخوف، لأن اللحظة التي تقرر فيها أن تعتصم حقاً... هي اللحظة التي يبدأ فيها طريق الرَّحمة، ويُعاد فيها تشكيل قلبك على ضوءٍ لا ينطفئ.

الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من هذا الجزء

- الإيمان ليس انتقاءً مريحاً بل تسليمٌ كاملٌ لا يقبل التجزئة، فإمّا أن تدخل في الدين كُلِّه أو تبقى ممزّق القلب بين هوىً ووحي ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾.
- العقيدة تُصان من الغُلوّ كما تُصان من الجحود، فالمحبة التي تتجاوز مقام العبودية تنقلب شركاً، والتعظيم إذا خرج عن حدّه هدم التوحيد ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾.
- لا تبنِ يقينك على الظُّنون، فالدين نورٌ يُتلقّى بعلمٍ لا بأصداء الشُّبهات ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾.
- لسانك مقياس قلبك، فحين يشتدّ الخصام يظهر معدن الإيمان ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾.
- العفو رفعةٌ لا تنازل، والقدرة على الانتقام اختبارٌ لمعنى التقوى في الداخل ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.
- الوفاء بالعقود ليس سلوكاً اجتماعياً فحسب بل عبادةٌ تُراقَب من الله سبحانه وتعالى ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾.
- العدل لا يُعلَّق على مشاعر الكراهية، فالتقوى تُقاس حين تختلف لا حين توافق ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾.
- التعاون إمّا أن يكون جسراً إلى البرّ أو شبكةً تُكرّس الإثم، ولا منطقة رمادية بينهما ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾.

- الشعائر ليست طقوساً بل حدودُ هويةٍ تحفظ القلب من الذوبان ﴿ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾.
- المال امتحانُ صدقٍ خفيّ، فالسُّحت يُطفئ نور الطاعة ولو كثرت الأعمال ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾.
- نقض الميثاق بدايةُ قسوة القلب، والتحريف الداخلي يسبق التحريف اللفظي ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾.
- الخوف من الناس إذا سبق الخوف من الله انقلب إلى مرضٍ يُعطّل الحق ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.
- الاستنكاف عن العبودية كِبرٌ خفيّ ولو لم يُعلن صاحبه الرَّفض صراحةً ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾.
- ترك المنكر دون إنكار يميت الإحساس تدريجياً حتى يُصبح الفساد مألوفاً ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.
- الحكم لله وحده، وكل بحثٍ عن بديلٍ مريح هو انزلاقٌ نحو جاهليةٍ مُقنّعة ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.
- قيمة النفس عظيمةٌ عند الله، والاعتداء عليها سقوطٌ في ميزان الإنسانية ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾.
- الدين اكتمل فلا يُزاد فيه بهوى ولا يُنقص منه بخجل، ومن رام تحسينه بغير وحي فقد اتهمه بالنَّقص ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.
- النَّجاة ليست في الادّعاء بل في الاعتصام الصادق الذي يُحوّل الإيمان من فكرةٍ إلى حياة ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾.

الترابط الموضوعي والبياني والوجداني بين الجزأين الخامس والسادس

❖ الجزء الخامس يضع "أساس البناء من الداخل" قبل أن يريك "صدام البناء مع الخارج"؛

١) ففيه تُنقَّى الشهوة حتى لا تتحوّل إلى هويةٍ تبتلع الإيمان،

٢) وتُنقَّى الأموال حتى لا تصير ديناً موازياً،

٣) وتُنقَّى العلاقات حتى لا تُدار بالعنف والهوى والأنانية،

٤) ثم يُختم هذا الأساس بنداءٍ جامعٍ يردّك إلى الأصل الذي لا يقوم شيءٌ بدونه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللّٰهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾.

٥) ثم يضع أمامك "مفتاح الاجتماع" في الحياة كلّها: ﴿ إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾.

٦) ويُغلق باب التسيّب في المرجعية بإقفالٍ قاطع: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ... وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾.

❖ ثم يأتي الجزء السادس كامتدادٍ طبيعيّ: بعدما تأسَّس قلبٌ يعرف حدوده مع الشهوة والمال والسلطة والبيت... يبدأ الامتحان الأكبر:

١) امتحان "الهوية والولاء والتشريع" حين تتشابك الأهواء بالمصالح، وحين يغري الناسُ الناسَ بأن تُخفِّف من دينك لتُقبل، أو تُساوم على حكم الله لتنجو، أو تُبدّل معيار العدل حين تشتعل الكراهية؛ ولذلك يفتتحه بعقدٍ شاملٍ لا ينهض المجتمع بدونه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾.

٢) ثم يُعلّمك أن العدل لا يُدار بالمزاج ولا بالثأر بل بالتقوى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ... اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

٣) ثم يعلن اكتمال المرجعية كي لا تظلّ تبحث عن بديلٍ "أخفّ" أو "أكثر مسايرة": ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.

الترابط البياني بينهما أن الخامس يكرّر "يريد الله... يريد الله... يريد الذين

يتبعون الشهوات" فيكشف صراع الإرادات داخل الإنسان: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ... وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ ثم السادس يترجم هذا الصراع إلى "مفاصل حياة" خارجية: عقود، شعائر، أحكام، ولاء، عدل، تحاكم... وكأنَّ القرآن يقول:

← الإرادة التي لم تُهذَّب في الداخل ستُفسد الخارج حتماً،

← والداخل الذي لم يستقم على التسليم سيبحث عن ثغرةٍ حين تُعرض عليه فتنة الحكم والهوى.

والترابط الوجداني أن الخامس يلمس ألم الإنسان وضعفه ويُطمئنه أن الشريعة لم تُنزَل لتعذيبك بل لتطهيرك وتخفيفك: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ثم السادس يرفعك من "الضعف" إلى "الوفاء" ومن "الخوف" إلى "الثبات" ومن "الحياء من الناس" إلى "الحياء من الله"، ويُعيد ترتيب الخشية: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾..

← لأن من خاف الناس في الجزء الخامس تهرّب من حكم الله تعالى في السادس..

← ومن صدق مع الله في الخامس ثبت على شريعته في السادس.

وبالنتيجة:

- الخامس يبني الإنسان الذي يَصلُح أن يُحمَل الأمانة في بيته ونفسه وماله،
- والسادس يختبر هذا الإنسان: هل سيبقى أميناً حين تُفتح عليه أبواب المصالح والتحالفات والضغوط والتأويلات؟ وهل سيظلّ يُحاكم إلى الوحي حقاً أم سيبحث عن "حكم جاهلية" يوافق رغباته؟ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾.

الجزء السابع: حين تُغربِلُكَ الآيات: من دمعةِ الحقّ إلى فتنةِ الشَّهوة... ومن توحيدِ إبراهيم إلى بصائرِ اللَّطيف الخبير.

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ

المدخل لهذا الجزء لا يُشبِه افتتاحَ مقالاتٍ متناثرة، لأنّ الآيات هنا لا تُلقي عليك "معلومات" بل تُجري عليك "غربلةً"؛

١) تبدأ من زاويةٍ قد يظنّها الناسُ رخوةً عاطفيةً فإذا هي بابُ هدايةٍ عظيم،

٢) ثم تمضي بك إلى منطقةٍ أخطر: منطقةِ الانحراف الذي يتزيّن باسم "الدين"،

٣) ثم تحرّك إلى امتحان الشَّهوة والاعتياد واليمين والمال،

٤) ثم تضعك أمام سؤال الاستقامة في الاختبار،

٥) ثم تُعلّمُك كيف تُقيم الوزن بين الخبيث والطيب ولو انخدعت بكثرة الخبيث،

٦) ثم تؤدّب فضول الأسئلة التي تفتح أبواباً لا تُغلق،

٧) ثم تُسقط أوثان العادات الجاهلية التي تُشرّع من غير سلطان،

٨) ثم تُقيمك على أصلٍ كبير: أن تُصلح نفسك دون أن تُصادِر على الله حكمه على غيرك،

٩) ثم تختم بك بالمشهد الأعظم: مشهد الرسل يوم الجمع، ومشهد عيسى عليه السلام وما جرى في قومه، ليظهر لك أن القضية من أولها إلى آخرها قضيةُ توحيدٍ وصدقٍ واتباعٍ وخوفٍ بالغيب، لا قضيةُ أسماءٍ وراياتٍ وأحساب.

يفتتح هذا الجزء من سورة المائدة بمشهدٍ يُعلّمك أن الخصومة ليست دائماً ضدّ "أشخاص" بقدر ما هي ضدُّ "حقائق"، وأن القرب من المؤمنين ليس

ادّعاءً ولا نسباً، بل هو تواضعٌ للحق حين يسمعونه؛ فحين يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فهو لا يبني ميزاناً ساذجاً ثابتاً على "أسماء الطوائف"، بل يلفت القلب إلى عِلّةٍ تربويةٍ عقديةٍ دقيقة: (الاستكبار) هو العائق الأكبر عن رؤية الحق، وحين يقلّ الاستكبار تتهيّأ النفس لسماع الهدى، ولهذا يأتي المشهد التالي كترجمةٍ عملية لا كحُكمٍ نظري: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ثم يخرج الإيمان من كونه "إعلاناً" إلى كونه "حُجّةً على النفس": ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ فتكون الخاتمة الطبيعية: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾ ثم يُغلَق الباب بميزان العدالة: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾؛ وكأنَّ الجزء يهمس لك منذ اللحظة الأولى: ليست العبرة بمن يدمع، بل بمن يدمع "مما عرف من الحق" ثم يثبت على مقتضاه.

ثم لا يتركك القرآن تستريح في دفء الدموع طويلاً، لأنّ أخطر ما يفسد الدين أن يتحوّل إلى "تشددٍ على النفس" أو "تجاوزٍ لحدود الله" باسم الورع؛ فيأتي النهي الجامع الذي يُنقّي مفهوم الزهد من الانحراف: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ثم يربط الطيّب بالتقوى لا بالشّهوة المنفلتة: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾، فإذا استقام ميزان "الحلال الطيب" جاء ميزان "اللسان والعهد"؛ لأن التدين الذي لا يضبط وعده وقَسَمه تدينٌ قابلٌ للانهيار في أول مفترق، ولهذا تأتي آية الأيمان لتقول لك: إن الله لا يحاسبك

على لغوٍ لا قصد له، لكنه يحاسبك على ما عُقِّدَ في القلب وعُقِدَ باللسان: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ... وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ فالشُّكر هنا ليس كلمة، بل شكرٌ يضبط اللسان فلا يجعل اسم الله سلعةً على طرف اليمين.

ومن ضبط اليمين ينتقل القرآن إلى ضبط أخطر ما يفسد العقول والبيوت: ما يُسكر القلب قبل أن يُسكر الجسد، وما يُقامر بالزمن قبل أن يُقامر بالمال؛ فتأتي آية الخمر والميسر كقاعدة تطهير لا كوعظٍ عابر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ثم يكشف القرآن سرّ المعركة: ليست مع "مادةٍ" بل مع "خُطةٍ"؛ خُطةٍ تريد أن تصنع بين المؤمنين عداوةً وبغضاء، وأن تقطعهم عن ذكر الله وعن الصلاة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾؛ ثم تأتي كلمةُ الحسم التي تعيد للدين مركزه: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ... ﴾ لأن الذي يتهيب "اجتنبوه" ثم يلين أمام ضغط العادة يحتاج أن يُذكَّر أن الرسول إنما عليه البلاغ المبين، وأنك أنت الذي تختار مقامك من الطاعة أو التولي: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾.

ثم يضع القرآن عدلاً دقيقاً حتى لا يلتبس على الناس بابٌ من أبواب الفقه فيظنونه تساهلاً في الحرام، فيقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ... ﴾ لكنه لا يتركها جملةً محتملة، بل يبني سُلّماً تربوياً واضحاً: (اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) ثم (اتقوا وآمنوا) ثم (اتقوا وأحسنوا)؛ وكأنَّ الآية تُعلّمك أن السلامة ليست مجرد تركٍ، بل انتقالٌ في مقامات القلب من أصل الإيمان إلى دوام التقوى إلى مقام الإحسان: ﴿ ... ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومن هنا يبدأ امتحانٌ عمليٌّ يفضح حقيقة الخوف بالغيب؛ ليس امتحاناً في ساحة حرب، بل امتحاناً في لحظة قدرةٍ سهلة، في شيءٍ قريبٍ من اليد والرُّمح، لأن أعظم الفتن ما كان "في المتناول": ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ... ﴾ ثم تأتي أحكام الصَّيد في الإحرام لا لتكون "تفاصيل فقهية باردة"، بل لتكون دروسَ حدودٍ: أن الحرم ليس مكاناً فقط بل حالةُ تعظيم، وأن العبادة ليست شعوراً بل التزامُ حدٍّ حين تتهيأ القدرة على تجاوزه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ... ﴾ ثم يفتح باب الرخصة فيما أحل الله من صيد البحر وطعامه، ويشدّد فيما حرم من صيد البر للمُحْرِم، ليبقى الميزان قائماً بين الإباحة والتحريم دون اضطراب: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ... وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً... ﴾ ثم ترتفع بك الآيات إلى مركز الرموز الجامعة في الأمة: الكعبة والبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد، لا كتعظيمِ حجرٍ بذاته، بل كقيامٍ للناس يقوم به أمنهم ونظامهم وشعائرهم، وكدلالةٍ على إحاطة علم الله: ﴿ جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ... ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ثم يأتي الميزان الذي يقطع الغرور من جذره: ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ويُعاد التأكيد: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ... ﴾ لأن كثيراً من الناس يتخذون الدين ساحةَ جدلٍ مع الرسول وأهل الحق، بينما القضية الحقيقية هي ما تُبدون وما تكتمون.

ثم يجيء هذا الجزء بقاعدةٍ تُصلح الذائقة قبل أن تُصلح الحركة: ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ... ﴾؛ فهنا تُهذّب الآيات وهماً منتشراً: أن كثرة الباطل دليلُ قوته، وأن انتشار الخبيث دليلُ أنه "واقعٌ لا يُقاوَم"، فيقول القرآن: لا يستويان ولو أدهشك العدد، لأن ميزان الله ليس

ميزان السُّوق ولا مزاج الجمهور، ثم يُعلّق الفَلَاح بأهل الألباب الذين يراجعون المعايير من الداخل: ﴿ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ومن الذائقة ينتقل إلى تربية السؤال؛ لأن السؤال قد يكون بابَ علمٍ وقد يكون بابَ شقاءٍ إذا كان فضولاً يفتّش عمّا سكت عنه الشرع رحمةً وتخفيفاً، فتأتي الآية لا لتقتل التفكير، بل لتقتل العبث: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ... ﴾ ثم يبيّن أن السؤال في زمن التنزيل قد يُكشَف به الحكم، لكن العفو فيما سكت عنه قائم، وأن الله غفور حليم، ثم يضع مثال التاريخ: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ﴾؛ أي أن العبث بالأحكام يجرُّ إلى التمرُّد على أصل الإيمان.

ثم يلتفت القرآن إلى تشريعاتٍ جاهلية صنعها الناس من أهوائهم ثم ألصقوها بالدين: ﴿ مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ... ﴾ ليعلن أن التشريع بلا وحي افتراء، وأن المشكلة ليست في الجهل فقط بل في تعمّد الكذب على الله، ثم يُعرّي حجة التقليد التي تُغلق باب الحق: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا... ﴾؛ وفي هذا الموضع لا يتركك القرآن تقف عند نقد الآخرين، بل يعيدك إلى نفسك دون أن يوقعك في الغرور أو القسوة، فيأتي الميزان الذي يُساء فهمه إذا بُتر عن سياقه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ... ﴾؛ أي الزموا إصلاح أنفسكم وثبات هدايتكم، ولا تجعلوا ضلال غيركم ذريعةً لترك الاستقامة، ثم تذكروا أن المرجع إلى الله جميعاً، فينبئكم بما كنتم تعملون، فلا ينجو أحدٌ بمجرّد شعورٍ أو شعار.

ثم يفتح القرآن باب "العدل" في الشهادة والوصية عند السفر والموت، لأن الدين الذي يُحسن الخطابة ثم يفسد عند الحقوق دينٌ ناقص، فتأتي الآيات لتُربي الأُمة على توثيق الشهادة، وعلى صيانة الأيمان، وعلى الخوف من كتمان شهادة

الله، وعلى تصحيح مسار الشهادة إذا ظهر خللها؛ فلا يكتفي القرآن بالمثال المثالي، بل يعالج حتى احتمال الخيانة داخل منظومة الشهادة نفسها، لتبقى العدالة قائمة: ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ... ﴾ إلى تمام السياق في ردّ الأيمان وإقامة البديل بالحق، وكأن الشريعة تقول لك: **التقوى ليست خلوةً فقط، بل نظامُ أمانٍ للناس.**

ثم تنقلك السورة إلى مشهدٍ من أهيب مشاهد القيامة: يوم يجمع الله الرسل فيُسألون، فيقولون ما يليق بمقام العبودية: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾؛ هذا ليس نفياً لعلمهم بما وقع في أقوامهم من حيث البلاغ، وإنما هو إرجاعُ الأمر في دقائق المحاسبة والحكم النهائي إلى علم الله المحيط الذي لا يشاركه فيه أحد، ليُطهِّر قلب الداعية من دعوى الإحاطة، ويُطهِّر قلب السَّامع من تعظيم البشر تعظيماً يرفعهم فوق حدّهم.

ثم يأتي الحديث عن عيسى ابن مريم عليه السلام في سلسلة نعمٍ ومعجزاتٍ كلُّها مربوطة بميزانٍ عقديٍّ صريح لا يحتمل الوهم: ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ... وَإِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي... وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي... وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي... ﴾؛ تكرار ﴿ بِإِذْنِي ﴾ هنا ليس تزييناً لفظياً، بل هو قفلُ التوحيد الذي يمنع تسلل الغُلو، ثم يُذكِّر بكفّ أذى بني إسرائيل، وبأن تكذيبهم جاء رغم البينات، ليكون هذا أصلاً في فهم النفس البشرية: قد ترى الحق ثم تنكره إذا انحبست في الاستكبار أو الهوى.

ثم يجيء ذكر الحواريين وما أُوحي إليهم: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي... ﴾ فتظهر مدرسة "النُّصرة" الصادقة.

ثم تتقدم قصة المائدة لتصنع ميزاناً في "الطلب"؛ فليس كل طلبٍ آيةً

مذموماً إذا كان لتطمئن القلوب وتقوم الحجة، لكن ليس كل طلبٍ بريئاً من آثار المسؤولية؛ ولذلك يأتي السؤال بصيغته: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً... ﴾ فيرد عيسى عليه السلام بتقوى تردّ الطلب إلى مقام الإيمان: ﴿قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم يشرحون مقاصدهم: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا... ﴾ ثم يأتي الدعاء: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً... ﴾ فيكون الجواب الإلهي مقروناً بتحذيرٍ لا يليق معه اللَّعب بعد الآية: ﴿ قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾؛ هنا يُعلّمك القرآن أن المعجزات ليست للفُرجة، وأن زيادة البيان تزيد المسؤولية.

ثم تُختَم السورة بالمشهد الذي يُنهي كل طريقٍ يوصل إلى الغُلو في الصالحين، وبأوضح صيغةٍ على لسان عيسى عليه السلام في يوم الجمع: ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ فيكون الجواب تسبيحاً وتنزيهاً وتحديداً للحد: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... ﴾ ثم يضع عيسى خلاصة دعوته: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ... ﴾ ثم يسلم العلم والشهادة لله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ... ﴾ ثم يرد الأمر إلى حكمة الله وعدله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ثم تأتي الخاتمة التي تضع الصدق تاجاً على كل ما سبق: ﴿ قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ... ﴾ ثم يعلن ملكه المطلق: ﴿ لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾؛ وكأنَّ الجزء يقول لك:

١) إن الدموع إن لم تُنتِج صدقاً فهي لحظةٌ عابرة،

٢) وإن الطاعة إن لم تُنتِج اتّباعاً فهي عادة،

٣) وإن الورع إن لم يُضبط بالوحي فهو اعتداء،

٤) وإن السؤال إن لم يُؤدَّب صار باب فتنة،

٥) وإن الباطل وإن كثر يبقى خبيثاً،
٦) وإن الشهادة إن لم تُصن صارت خيانة،
٧) وإن الغُلو في الصَّالحين هو آخر طريق الانحراف حين تضيع الحدود.

ثم تنفتح سورة الأنعام في الجزء نفسه كأنها تضع لهذا البناء "أساس التوحيد" الذي لا يقوم شيء بدونه؛ فتبدأ بالحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم يقرر واقعاً مؤلماً: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾، وتُذكّرك بأصل الخلق والأجلين وعلم الله بالسر والجهر: ﴿ وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ... ﴾ ثم تصف إعراض المكذبين، وتفتح نافذة التاريخ: أُممٌ مُمكَّنة أهلكها الله بذنوبها، لتعلم أن "القوة" لا تمنح حصانةً من سُنن الله.

ثم تعالج طلب الآيات على طريقة المكذبين، وتبين أن الوحي ليس خاضعاً لابتزازهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ... ﴾ مع تقرير أن الله قادر ولكن أكثرهم لا يعلمون، ثم تأتي لفتة الرحمة العظمى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ في قلب السورة، لتفهم أن القهر الإلهي الذي ستراه في مشاهد القيامة ليس ظُلماً بل عدلٌ صادرٌ عن ربٍّ كتب على نفسه الرَّحمة.

ثم يعلو صوت التوحيد الصافي: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً... ﴾ مع إعلان البراءة من الشرك، ثم تقرير أن أهل الكتاب يعرفون الحق معرفةً واضحة: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُم...﴾ وأن الظلم الأكبر هو الافتراء على الله وتكذيب آياته.. ثم تمضي السورة في عرض مشاهد الحشر والإنكار ثم انكشاف الكذب على النفس، وتعرض صورة من يسمع ولا يفقه وقد جُعل على قلبه أكنّة وفي أذنه وقر، حتى إذا جاء يجادل قال: ﴿ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾، وتصف صنفاً ينهى عن الحق وينأى عنه، فيجمع لنفسه خسرانين.

ثم تريك مشهد الوقوف على النار وتمنّي الرجعة، ثم تقرر حقيقةً عنيدة: لو

رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه، ثم دعواهم: ليست إلا حياتنا الدنيا، ثم وقوفهم على ربهم وسماع السؤال القاطع: ﴿ أَلَيْسَ هَـذَا بِالْحَقِّ ﴾، ثم الحسرة على التفريط وحمل الأوزار، ثم جملة الميزان التي لا يملك معها القلب أن يتهرّب: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ... ﴾، ثم تسلية النبي ﷺ بأن تكذيبهم ليس تكذيباً لشخصه بل جحودٌ بآيات الله، ثم تسلية ثانية بسير المرسلين قبله وصبرهم حتى أتاهم نصر الله، ثم يقرر أن الهداية بيد الله، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين.

ثم يقطع الطريق على أوهام "الحياة بلا حساب": ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ... ﴾، ثم يقرر قاعدة الكائنات: الدواب والطير أممٌ أمثالكم، ثم إلى ربهم يُحشرون، ثم يضع بصيرةً في سنن القسوة: أخذ الأمم بالبأساء والضَّرّاء لعلهم يتضرَّعُون، لكن القلوب إذا قست زيّن الشيطان لها أعمالها، فإذا نسوا ما ذكروا به فُتحت عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا أُخذوا بغتة، ليعلم القلب أن الغفلة قد تأتيك في ثوب "الانفتاح".

ثم يأتي سؤال يهزّ الإنسان: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم... ﴾ من إله غير الله يأتيكم به؟ ثم يقرر أن الهلاك لا يكون إلا للقوم الظالمين.

ثم تنتقل السورة إلى أدب الدعوة والتلقي: إن الرسل مبشرون ومنذرون، ومن آمن وأصلح فلا خوف عليه ولا هو يحزن، ثم يعلّم النبي ﷺ أن يقول: ﴿ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ... ﴾؛ فيُغلق أبواب الغُلو في الداعية، ثم يأمره ألّا يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، لأن ميزان الله ليس ميزان طبقاتٍ اجتماعية.

ثم يفتح باب الرجاء الذي يداوي النفس: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... ﴾ لمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب وأصلح، فتكون التوبة انتقالاً في

السلوك لا مجرد ندمٍ بلا إصلاح.. ثم يأمره أن يتبع الوحي ويعرض عن المشركين، ويقرر أنه لو شاء الله ما أشركوا، وأن دور الرسول البلاغ لا الوكالة على قلوب الناس.

ثم تختم هذه المقاطع بآياتٍ تُربّي ميزان الحوار مع المخالفين: ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ... ﴾ حتى لا يتحول الحق إلى باب فتنةٍ وسبٍّ متبادل، ثم يعرض صورة من يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم إن جاءتهم آية ليُؤمنن، لكن القلوب إذا انقلبت لا تنفعها كثرة الآيات: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ... ﴾، فتعرف أن البداية إذا كانت جحوداً صارت النهاية تِيهاً، وأن أعظم ما يُخاف على القلب ليس نقص المعلومة بل انقلاب البصيرة.

هذا هو الجزء السابع:

١) يبدأ بنداءٍ لطيفٍ يصنع الدموع عند الحق،

٢) ثم لا يترك الدموع وحدها، بل يربطها بالاتباع،

٣) ثم يطهر التدين من الاعتداء،

٤) ويطهر المجتمع من رجس الشيطان،

٥) ويؤدّب اليمين،

٦) ويختبر الخوف بالغيب،

٧) ويرفع شعائر الحرم لتكون قياماً للناس،

٨) ويقيم ميزان الخبيث والطيب،

٩) ويهذب السؤال،

١٠) ويسقط تشريعات الهوى،

١١) ويضعك أمام مسؤولية إصلاح نفسك،

١٢) ويثبت العدل في الشهادة،

١٣) ثم يرفعك إلى مشهد الرسل وعيسى والمائدة ليغلق باب الغُلو،

١٤) ثم يفتح سورة الأنعام لتعيدك إلى جذر كل ذلك: توحيد الله، وصدق الوحي، وبصائر الرب، وأنه ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾؛

١٥) فإذا استقرّ في القلب أنه (اللّطيف الخبير) انكسر الاستكبار، واستقام السؤال، وهدأت الشّهوة، وصحّ الاتباع، وصار الدين رحلةَ نجاةٍ واحدة... لا زخارفَ متفرقة.

الخريطة البنيوية لآيات هذا الجزء

- في هذا الجزء يبدأ الامتحان من "الموقف من الحق" لا من كثرة الشعارات؛ فالقلب إمّا يتواضع فيبكي حين يسمع النور، أو يستكبر فيشتدّ في الخصومة ويصدّ عن الهدى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾.
- معيار القرب الحقيقي ليس الاسم ولا الانتماء، بل "قابلية القلب للانقياد"؛ فحين يضعف الاستكبار يسهل الاقتراب من الإيمان، وحين يتضخّم الاستكبار يتولّد العمى ولو كثرت الأدلة﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.
- الإيمان هنا ليس عاطفة لحظية، بل قرار حجّةٍ داخلية تُسقط الأعذار: ما لنا لا نؤمن وقد جاءنا الحق، ثم رجاء صالحٍ لا غرور فيه ولا استحقاق ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ ﴾.
- الجزاء في هذا الجزء يُبنى على "صدق الاستجابة" لا على ضجيج الادّعاء؛ فالكلمة الصادقة تفتح جنات الإحسان، والتكذيب يردّ صاحبه إلى مصيرٍ يليق بجحوده ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ... وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾
- تصحيح مفهوم الزُّهد: ليس الدين أن تُحرِّم ما أحل الله، بل أن تعبد الله في

حدود الإذن؛ فالاعتداء قد يلبس ثوب الورع وهو في حقيقته تجاوزٌ للشرع ﴿ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ ﴾.

- ميزان الحلال الطيب ليس ترفاً، بل صيانة للروح من قسوة الحرام، وصيانة للجسد من خيانة الشهوة، وصيانة للنعمة من كفرانها ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾.
- تهذيب اللسان مع اسم الله: الله تعالى لا يؤاخذ باللغو، لكنه يحاسب على العزم المعقود؛ فالدِّين يبدأ من حفظ اليمين قبل أن ينهار في لحظة غضب أو طمع ﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ ﴾.
- تطهير المجتمع من هندسة الشيطان: الخمر والميسر ليست "عادة" بل رجسٌ يزرع العداوة ويقطع الذكر ويصنع قطيعةً مع الصلاة من حيث لا يشعر صاحبه﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ... وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾.
- الطاعة هنا ليست خياراً أخلاقياً، بل طريق نجاة؛ ومن تولّى فليعلم أن البلاغ تمّ وأن الحساب آتٍ، فلا يُعلّق إنسانٌ فشله على غيره ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾.
- تدرّج النَّجاة: تقوى وإيمان وعمل صالح، ثم ترقّي في التقوى، ثم ذروة الإحسان؛ فالثبات ليس دفعة واحدة بل صعودٌ متواصل ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ... ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾.
- الامتحان الأخطر: فتنة "القرب من المعصية"؛ شيءٌ من الصيد تناله الأيدي والرماح ليظهر من يخاف الله بالغيب لا أمام الناس ﴿ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾.
- تعظيم الحَرم ليس شعاراً، بل التزامٌ يضبط الحركة حين تتوافر القدرة؛ فالمُحرِم يتعلم أن الطاعة تكون في الامتناع حين تكون الفرصة سهلة ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾.

- الاتزان في الرخصة والعزيمة: صيد البحر مباحٌ متاعاً، وصيد البر للمُحرم محظورٌ تعظيماً؛ لتتربى النفس على فقه الحدود لا فقه المزاج ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ... وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ... ﴾.
- الشعائر قيامٌ للناس لا زينة تاريخ؛ البيت الحرام والشهر الحرام والهديّ والقلائد تذكيرٌ بأن الدين يبني أمناً وميزاناً ومعنى، ويشهد بعلم الله المحيط ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾.
- توازن الخوف والرجاء: شدة العقاب تمنع الجُرأة، وسعة المغفرة تمنع اليأس؛ ومن عاش بواحدٍ دون الآخر اختلّ قلبه ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.
- إصلاح المعيار الداخلي: الخبيث لا يصير طيباً بالكثرة، والحق لا يضعف بالقِلّة؛ الفلاح يبدأ حين تستقيم المقاييس في القلب ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾.
- أدب السؤال: ليس كل ما يُسأل عنه خيراً، فالسؤال قد يفتح باب تضييقٍ وحزنٍ وسقوط؛ والسكوت الرحماني ليس نقصاً بل لطفاً ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾.
- خرافة "تشريع العادات": ما لم يجعله الله شريعة فإلحاقه بالدين كذبٌ على الله ولو لبس لباس التدين ﴿ مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ... ﴾.
- فتنة التقليد: حين يُدعى الناس إلى الوحي يكتفون بما وجدوا عليه الآباء؛ فيتحول الإرث إلى صنمٍ يمنع الهداية ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا ﴾.
- ميزان النجاة الفردية بلا أنانية: الزم نفسك طريق الاستقامة، ولا تجعل ضلال غيرك مبرراً لانكسارك؛ فالمرجع إلى الله وحده ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾.
- العدالة في الوصية والشهادة: الدين الذي لا يحفظ الحقوق عند الموت

والسَّفر دينٌ ناقص؛ فالصدق يُختبر حين يغيب الرقيب البشري ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴾.

- مشهد الرُّسل يوم الجمع: الخلق كلهم دون علم الله؛ حتى الرسل يردّون الحكم إلى العليم بالغيوب ليبقى القلب خاشعاً بلا دعوى إحاطة ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾.
- مدرسة عيسى عليه السلام: كل آيةٍ ومعجزةٍ مربوطة بالإذن الإلهي لتُغلق أبواب الغلو من أصلها، فلا تُنسب الربوبية لبشرٍ مهما علت آياته ﴿بِإِذْنِي... بِإِذْنِي... بِإِذْنِي ﴾.
- فتنة طلب الآيات: المائدة تُنزَّل رحمةً وحجةً، لكنها ترفع سقف المسؤولية؛ فبعد البيان الشديد لا يبقى للكفر عذرٌ ولا مخرج ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً... ﴾.
- خاتمة التوحيد الفاصل: البراءة من تأليه المسيح وأمه، وإعلان أن الرسالة كانت كلمة واحدة: عبادة الله وحده؛ ثم تفويض الأمر لعدل الله وحكمته ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ... أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾.
- تاجُ الجزء: الصدق هو العملة الوحيدة التي تنفع يوم القيامة؛ لا نسبٌ ولا عاطفةٌ ولا تبرير، بل صدقٌ يُثمر رضىً وفوزاً عظيماً ﴿ هَـذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.
- ثم تفتح الأنعام كأنها تُعيدك إلى الجذر: الحمد لله على الخلق والنور، ومع ذلك يقع العدل بغيره؛ فتفهم أن أصل الانحراف "صرف القلب عن ربّه" لا نقص الأدلة ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ... ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾.
- الله يعلم السِّر والجهر والكسب؛ فلا تختبئ النية وراء صلاح الظاهر، ولا ينجو القلب من علم من لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

- سُنة المكذبين واحدة: يمرّون على الآيات معرضين حتى يأتيهم خبر ما كانوا به يستهزئون؛ فالسُّخرية بذرة هلاك ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾.
- الرَّحمة أصلٌ مكتوبٌ لا يُلغيه غضبُ العدل؛ ولذلك تُقام الحجة ثم يأتي الجمع ليومٍ لا ريب فيه ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾.
- التوحيد موقفٌ لا مساومة: الولاية لله وحده، والعبودية له وحده، والبراءة من الشرك لا تتزيّن ولا تعتذر ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾.
- أشد الخسارة أن يعرف الإنسان الحق ثم يجحده؛ لأن الحجة حين تُرى ثم تُدفن تتحول إلى ظلمةٍ في القلب ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُم... فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.
- مشهد الشرك يوم الحشر: الشركاء يتلاشى ذكرهم عند الحقيقة، ويبقى الإنسان وحيداً مع كذبه على نفسه ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ..﴾.
- جدل "أساطير الأولين" علامة القلب الذي لا يريد أن يسمع؛ فالمشكلة ليست في الدليل بل في الإرادة التي تُغلق منافذ الفقه ﴿ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾.
- النَّدم الذي لا يغيّر المصير: تمنّي الرجوع عند النار لا ينفع إذا كانت النفس لو عادت لعادت للمنهي عنه؛ فالهداية تُصنع قبل الصدمة لا بعدها ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾.
- الدنيا لعب ولهو إذا انفصلت عن الآخرة؛ والآخرة خيرٌ للمتقين إذا صار التقوى معيار الاختيار لا لذة العاجل ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾.
- تسلية الطريق: تكذيب الناس لا يوقف الدعوة، لأن سُنّة الرسل واحدة: أذًى ثم صبرٌ ثم نصرٌ من الله ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ

نَصْرُنَا ﴾.

- القلوب إذا ماتت لا تستجيب ولو ازدحمت الآيات؛ لأن الاستجابة حياةٌ داخلية قبل أن تكون رؤيةً خارجية ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾.
- الكون كله أُممٌ تُحشر؛ فتتربى النفس على التواضع أمام ربٍّ يجمع الجميع ولا يضيع عنده شيء ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم... ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.
- الابتلاء بالبأساء والضَّرّاء رحمةٌ إن أنبت تضرعاً؛ لكنه قد ينقلب قسوةً إذا زُيّن العمل ونام القلب ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.
- فتح الدنيا ليس دائماً رضا؛ قد يكون استدراجاً حتى إذا فرحوا أخذوا بغتة؛ فيتعلم القلب ألَّا يغترّ بعافيةٍ بلا شكرٍ ولا توبة ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾.
- الدعوة الصادقة لا تتكبّر على الضعفاء؛ فالذين يدعون ربهم بالغداة والعشي هم معيار القرب الحقيقي ولو قلّ قدرهم في أعين الناس ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم... يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾.
- باب الرجاء المفتوح: من عمل سوءاً بجهالة ثم تاب وأصلح فهو في رحمةٍ مكتوبة؛ لا رحمةُ كلماتٍ بل رحمةُ تحوّل ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... ثُمَّ تَابَ... وَأَصْلَحَ ﴾.
- أدب الاختلاف: لا سبّ للمعبودات الباطلة كي لا ينقلب الحق إلى فتنة سبٍّ للرب بغير علم؛ فالدعوة تبني ولا تستفزّ عبثاً ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ... ﴾.
- انقلاب البصائر عقوبة البداية: من لم يؤمن أول مرة قُلب قلبه وبصره، فصار يعيش في طغيانٍ يعمه؛ فتفهم أن اللحظة الأولى خطيرة جداً ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ... وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

المحور الإيمانيّ المركزي لهذا الجزء هو:

أن التوحيد ليس "قضية اعتقادٍ في الرأس" بل "نظامُ استجابةٍ في القلب والسلوك"؛ تُقاس حقيقتُه:

١) بقدرة المؤمن على الانقياد حين يتهيّأ له الهوى،

٢) وبقدرته على التواضع حين يتهيّأ له الجدل،

٣) وبقدرته على ضبط شهوته حين تُقدَّم له الرُّخصة المزوّرة أو الورع المتجاوز،

٤) وبقدرته على الثبات على حدِّ الله حين تكون المعصية قريبةً من اليد والرُّمح،

٥) وبقدرته على حفظ لسانه وعهده ويمينه حين يكون الانفلات أسهل من الالتزام...

٦) ثم تُختَم الرحلة بأنَّ الصدق وحده هو الذي ينفع عند الله؛ صدقُ الإيمان في موضع الاختبار، لا صدقُ العبارة في موضع الأمان ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها هذا الجزء..

❖ **الانحراف العقدي:**

١) أخطر ما يحذّر منه هذا الجزء أن يتحوّل التوحيد من حقيقةٍ حاكمةٍ إلى فكرةٍ موروثة،

٢) وأن يُنسب لغير الله ما هو من خصائص الله،

٣) أو يُغالى في بشرٍ حتى يُرفَع فوق حدِّ العبودية،

٤) أو يُشرَّع باسم الدين ما لم يجعله الله ديناً؛ فالغُلوّ في الصالحين،

٥) وابتداع التحريم بغير سلطان،

٦) واتخاذ العادة شريعة،

٧) وصرف شيءٍ من التعظيم أو الرجاء أو الخوف لغير الله...

كلُّها منافذ خفيّة تُفسد صفاء العقيدة ولو تزيّنت بثوب التَّديُّن، ولذلك كان النداء الفاصل:﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾، وكان التنبيه القاطع أن ما لم يجعله الله شرعاً فإلحاقه به افتراءٌ على مقام الربوبية ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ...﴾.

❖ الانحراف الأخلاقي:

١) يحذّر الجزء من أن يفسد اللسانُ فيُبتذَل اسمُ الله في الأيمان،

٢) وأن تضعف الإرادةُ أمام الشهوة حتى تُغلق أبواب الذكر والصلاة،

٣) وأن يُسوَّغ الاعتداء باسم الورع أو العادة،

٤) وأن يُتلاعَب بالحدود حين تقترب المعصية من اليد وتتهيّأ القدرة عليها؛

فالأخلاق هنا ليست تجميلاً ظاهرياً بل التزامُ حدٍّ عند الامتحان، ولذلك جاء التطهير الصريح: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾، وجاء التأديب الدقيق:﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾، وجاء الامتحان الذي يكشف صدق التقوى: ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾.

❖ الانحراف الاجتماعي:

١) أخطر ما يُهدِّد المجتمع أن تُقاس القيم بالكثرة لا بالحق،

٢) وأن يُتَّبع الآباء ولو خالفوا الوحي،

٣) وأن يُستهان بالشعائر حتى تفقد الأمة قيامها،

٤) وأن يُستهزأ بالآيات حتى تصبح الحقيقة مادة سُخرية،

٥) وأن يُستدرج الناس بنعمةٍ تفتح عليهم أبواب كل شيء ثم تُغلق عليهم فجأة؛

فالجزء يُعيد بناء الميزان الاجتماعي من الداخل، ويقطع وهم "الانتشار دليل الصواب"..﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾، ويحذّر

من عبادة الإرث ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾، ويكشف خطر الاستدراج حين تُنسى المواعظ ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾.

❖ **الانحراف النفسي:**

١) ينبّه الجزء إلى انكسار البصيرة قبل انكسار البرهان؛

٢) إلى قلبٍ يُقلَّب فلا يرى الحق ولو أُقيمت عليه الآيات،

٣) وإلى نفسٍ تأنس بالباطل حتى تتزيّن لها أعمالها،

٤) وإلى جدلٍ يُستعمل هروباً من التسليم،

٥) وإلى قسوةٍ تمنع التضرّع حين ينزل البلاء؛

فالخطر هنا داخليٌّ خفيّ، يبدأ بإعراضٍ صغير وينتهي بعمىً كامل، ولذلك كان التحذير الصارم:﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، وكان التشخيص المؤلم: ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وكان التذكير أن الهداية حياةٌ داخلية لا مجرد رؤية خارجية ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾.

ملامح الشخصية التي يصنعها هذا الجزء..

١) هذا الجزء يصنع شخصيةً سريعةَ الانكسار أمام الحق، بطيئةَ الجدل معه؛ فإذا سمعت الوحي لم تبحث عن مخارج للهروب، بل أذعنت وبكت وتحرّكت، لأن القلب عندها يتواضع ولا يستكبر، ويستجيب لأن النور وافق الفطرة ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾؛ فهي شخصيةٌ لا ترى في الاعتراف بالحق هزيمةً بل كرامة، ولا ترى في التراجع إلى الصواب نقصاً بل نجاة.

٢) ويصنع شخصيةً منضبطةَ الحدود؛ لا تتديّن بالعاطفة المنفلتة ولا بالورع المتجاوز، فلا تُحرّم ما أحلّ الله باسم الزُّهد، ولا تتساهل في الحرام باسم الواقعية، بل تقف حيث أوقفها الوحي، لأن التدين عندها التزامٌ لا مزاج ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواْ﴾؛ فهي تعرف أن الاعتداء

قد يلبس لباس الورع، وأن الطاعة الحقيقية أن تُبقي نفسك داخل خطّ الشَّرع لا أمامه ولا خلفه.

٣) ويصنع شخصيةً حارسةً لسانها وعهدها؛ لا تُلقي اسم الله على طرف غضبٍ أو رغبة، ولا تعبث بالأيمان، لأن العلاقة مع الله عندها جلالٌ يُصان لا لفظٌ يُستعمل ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾؛ فهي دقيقةٌ في كلماتها كما هي دقيقةٌ في صلاتها، وتعلم أن التفريط يبدأ من الاستهانة الصغيرة.

٤) ويصنع شخصيةً واعيةً بخطط الشيطان الاجتماعية؛ ترى أن بعض المعاصي ليست خطأً فردياً فقط، بل مشروعَ تفريقٍ وإلهاءٍ وقطعٍ عن الذكر والصلاة، فتجتنبها لا خوفاً من نظرة الناس بل خوفاً من انطفاء قلبها﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ... وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾؛ فهي لا تنظر إلى الذنب بحجمه اللَّحظي بل بأثره التراكمي على الرُّوح.

٥) ويصنع شخصيةً تخاف الله بالغيب؛ تترك المعصية حين تكون في متناول يدها لا حين تُفضَح، وتمتنع حين تتوافر القدرة لا حين تُغلق الأبواب، لأن رقابة الله عندها أقوى من رقابة البشر﴿ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾؛ فهي صادقةٌ في خلوتها كما في جلوتها، لأن معيارها ليس التصفيق بل الرضا الإلهي.

٦) ويصنع شخصيةً راسخةَ المعيار؛ لا تنخدع بكثرة الباطل ولا تضعف أمام انتشاره، ولا تغيّر قناعتها لأن الخبيث كثر سُوقُه، بل تزن الأمور بميزان التقوى لا بميزان الضجيج ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾؛ فهي شخصيةٌ تعرف أن الحق قد يكون غريباً لكنه ثابت، وأن الكثرة ليست حُجة.

٧) ويصنع شخصيةً مؤدَّبةَ السؤال؛ لا تبحث عن التعقيد ولا تُفتّش عن تفاصيل تُضيّق عليها ما وسّعه الله، ولا تجعل الفضول بابَ شقاء، بل

تتعامل مع الوحي بثقةٍ ولطف، وتسلّم أن ما سكت عنه رحمة ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾؛ فهي شخصيةٌ تسأل لتتعلّم لا لتُحرج، ولتتبيّن لا لتتعنّت.

٨) ويصنع شخصيةً مُتحرّرةً من أَسر التقليد الأعمى؛ لا تجعل الآباء معيار الحقيقة، ولا تجعل الإرث صنماً يُغلق باب الوحي، بل تعرض كل شيء على ما أنزل الله، لأن النجاة في الاتباع لا في الانتماء ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾؛ فهي شخصيةٌ تُحسن الوفاء للتراث إذا وافق الحق، وتُحسن مفارقته إذا خالفه.

٩) ويصنع شخصيةً عادلةً حتى في الشهادة والموت؛ تحفظ الحقوق في السَّفر والوصية، ولا تكتم شهادة الله ولو خالفت مصلحتها، لأن العدالة عندها عبادة لا إجراء ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴾؛ فهي ترى أن التقوى تُختبر في المعاملات كما تُختبر في المحاريب.

١٠) ويصنع شخصيةً منكسرةً أمام عظمة الله، بعيدةً عن الغُلو في البشر؛ ترى المعجزات آياتٍ بإذن الله لا مصادرَ ألوهية، وتفهم أن الرسالات كلها تدور حول كلمةٍ واحدة: عبادة الله وحده، فلا ترفع بشراً فوق مقامه، ولا تُدخل في التوحيد ما ليس منه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا... أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾؛ فهي شخصيةٌ تحمي قلبها من الانبهار الذي يقود إلى التأليه.

١١) ويصنع شخصيةً واعيةً بمصيرها؛ ترى مشاهد القيامة قبل أن تقع، وتستحضر لحظة السؤال قبل أن تُسأل، وتفهم أن الصدق هو رأس المال الوحيد يوم لا تنفع الأعذار ولا الادعاءات﴿ هَـذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾؛ فهي تعيش الآن بما ينفعها هناك، وتُعيد ترتيب حياتها على ضوء تلك اللحظة الفاصلة.

١٢) ثم يختم هذا الجزء بتكوين شخصيةٍ توحيديةٍ خالصة؛ تعبد الله وحده، وتتبرأ من كل شريك، وتعلم أن الحمد له أولاً وآخراً، وأن الظلمات والنور بيده، وأنه يعلم السر والجهر، فلا تخدع نفسها بظاهرٍ جميلٍ وقلبٍ خالٍ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ فهي شخصيةٌ عارفةٌ بربها، مستقيمةٌ في سرّها، ثابتةٌ في ميزانها، صادقةٌ في عهدها، تخاف الله بالغيب، وتزن الدنيا بميزان الآخرة، وتسير في حياتها وهي تعلم أن كل شيءٍ مكشوفٌ عند من ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

١٣) شخصيّةٌ لا تُخدَع بزينة الدليل إن كان القلبُ مُعرِضاً؛ لأنها فهمت أن المشكلة ليست في قلّة الآيات بل في الانصراف عنها: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فتخاف على نفسها من "تكرار المشاهدة بلا استجابة"، وتعرف أن كثرة البراهين لا تُنقذ قلباً اختار الإعراض.

١٤) شخصيّةٌ تُصدّق الحقّ فور مجيئه ولا تُفاوضه؛ لأنها رأت عاقبة من كذّبوا بالحق ثم استهزؤوا به، وتعلم أن الأخبار ستأتي يوماً بما كانوا يسخرون منه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، فتتعلم ألَّا تجعل اليقين مؤجلاً إلى لحظة الفوات.

١٥) شخصيّةٌ تاريخيّة البصيرة لا تعيش داخل لحظتها الضيّقة؛ لأن الآيات تُربّيها على قراءة سُنن الهلاك والتمكين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ... فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، فتفهم أن الذنوب ليست "شأناً خاصاً" بل قد تكون سبب سقوط حضارات.

١٦) شخصيّةٌ لا تُعلّق إيمانها على "نوع المعجزة" ولا على "شكل البرهان"؛ لأنها فهمت أن المعاند لو لمس كتاباً بيده لقال سحر، ولو نزل ملكٌ لقُضي

الأمر، وأن المطالبات قد تكون هروباً لا بحثاً: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ... لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، و﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...﴾، فتتربّى على الإيمان بالوحي لا بتعجيز الرسالة.

١٧) شخصيّةٌ ثابتةٌ أمام السُّخرية لأنها تعرف سُنّة الله مع المستهزئين؛ فلا تنهار حين تُسفَّه، ولا تُصاب بالذهول حين تُحارَب، لأنها تسمع: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، فتأخذ قوتها من وعد الله لا من رضا الناس.

١٨) شخصيّةٌ تتعلّم الإيمان من آثار الأرض لا من ضجيج الجدل؛ فهي تميل إلى مشاهدة العواقب والاعتبار بسُنن الله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، فتتحول عندها "الوقائع" إلى موعظة، و"التاريخ" إلى مرآة.

١٩) شخصيّةٌ تُحسن معرفة ربّها: رحمةً وملكاً وسمعاً وعلماً وقهراً وحكمةً وخبرة؛ لأنها تتلقّى تعريفاً إيمانياً شاملاً بالله: ﴿قُلْ لِلَّهِ... كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، و﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، و﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، فتتوازن بين الرجاء والخشية، وبين الحب والهيبة، دون غلوّ ولا جفاء.

٢٠) شخصيّةٌ توحيديّة صِرفة لا تبحث عن وليٍّ غير الله ولا تُعلّق قلبها بسواه؛ لأنها تسمع السؤال الذي يقطع كل تعلق: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً...﴾، وتعلم أن الضُّرّ والخير بيد الله وحده: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، فتتربّى على التوكل الخالص لا التعلّق بالأسباب.

٢١) شخصيّةٌ تعيش خوف الحساب كخوفٍ مُطهِّر لا كفزعٍ مُدمّر؛ فهي تخاف من المعصية لأنها تعرف ثقل اليوم العظيم: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾..

وتفهم أن النجاة يومها ليست ذكاءً بل رحمة: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾.

٢٢) شخصيّةٌ لا تُزوّر الحقيقة في الآخرة ولا تُراهن على "إنكارٍ متأخر"؛ لأنها رأت مشهد المحشر حين يُسألون عن شركائهم ثم يكذبون على أنفسهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فتتعلم أن النجاة بالصدق قبل الموت لا بالمراوغة بعده.

٢٣) شخصيّةٌ تعرف أن الاستماع قد يكون خداعاً إذا لم يصحبه انقياد؛ لأن في الناس من يستمع ثم يجادل ثم يصف الوحي بأنه أساطير: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فتُربّي على "سماعٍ يُثمر فهماً"، لا سماعٍ يُولد خصومة.

٢٤) شخصيّةٌ لا تنخدع بتوبة الخوف المؤقتة؛ لأنها تعلم أن بعضهم يتمنى الرجعة عند النار ثم لو رُدّ لعاد: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ...﴾، و﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، فتسأل نفسها دائماً: هل توبتي توبة يقينٍ أم توبة فزع؟.

٢٥) شخصيّةٌ زاهدةٌ في خداع الدنيا لأنها تراها لعباً ولهواً؛ فلا تجعل الدنيا مقياس الحق ولا تجعل متاعها تعويضاً عن الآخرة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فتُبقي عينها على "الأفضل" لا على "العاجل".

٢٦) شخصيّةٌ رحيمةٌ بالنبيّ وبالداعية وبحامل الحقّ؛ لأنها تفهم أن التكذيب ليس لشخصه بل لجحود الظالمين بالآيات: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، فتتعلم الصبر وثبات الطريق، وتستمد عزاءها من سُنن المرسلين: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا...﴾.

٢٧) شخصيّةٌ تفهم أن الهداية ليست "حجة عقلية فقط" بل حياةُ قلب؛ لأن

الآيات تُصرّح أن الاستجابة لمن يسمع بقلبه، وأن ''الموتى'' يُبعثون: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾، فتدعو الله أن يحيي قلبها قبل أن تكثر معلوماتها.

٢٨) شخصيّةٌ مؤمنةٌ بسعة علم الله وإحاطته التي تمنع الغفلة وتمنح الحياء؛ لأنها تقف أمام حقيقةٍ تُزلزل الغرور: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ... وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، فتعيش مراقبةً هادئة لا رُعباً مَرَضيّاً، وحياءً صادقاً لا ادعاءً.

٢٩) شخصيّةٌ تعرف أن الشرك يظهر في لحظة الكرب حين تسقط الزينة؛ لأنها تسمع السؤال الصريح: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ ثم الحقيقة: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ... وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، فتفهم أن التوحيد ليس شعاراً بل ملجأ القلب عند الانكسار.

٣٠) شخصيّةٌ لا تفرح بالفتح المادي إذا كان استدراجاً؛ لأنها تعلم أن فتح الأبواب قد يكون عقوبةً مؤجلة: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، فتراقب قلبها عند النعم: هل زادتني شكراً أم غروراً؟

٣١) شخصيّةٌ تتواضع في الدعوة ولا تحتقر الضعفاء ولا تطرد أهل الإخلاص؛ لأنها تسمع النهي الصريح: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فتُربّي على ميزان القيمة الحقيقي: ''إرادة وجه الله'' لا طبقة الإنسان ولا صورته.

٣٢) شخصيّةٌ تجمع بين الصراحة العقدية وبين أدب الخطاب؛ فهي تتبرأ من الشّرك بوضوح، لكنها لا تنزلق إلى سبِّ المعبودات بما يجرّ سبّ الله عدواناً بغير علم: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فتكون قوية في التوحيد، راقية في الدعوة.

٣٣) شخصيّةٌ يقينيّة على طريقة إبراهيم عليه السلام: تبحث، تُمحّص، ثم تُعلن البراءة وتُثبت الوجهة؛ لأنها تعيش درس الحنيفية من قصة النظر في الكوكب والقمر والشمس ثم الحسم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً﴾، فتتعلم أن اليقين ليس تقليداً أعمى بل بصيرة تهديها الله.

٣٤) شخصيّةٌ تميّز طريق الأمن الحقيقي: أمن التوحيد لا أمن المصالح؛ لأنها تحفظ القاعدة الجامعة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، فتفهم أن أعظم أمانٍ ليس أمان الجسد بل أمان القلب من الشِّرك والضلال.

٣٥) شخصيّةٌ توقن أن القرآن "ذكرى للعالمين" لا تجارةً ولا وجاهةً؛ فتسمع ختام السلسلة النبوية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾، فتُطهّر نيتها من طلب المقابل، وتتعلم أن الهداية أعظم من المكاسب.

٣٦) شخصيّةٌ تنزّه ربها عن كل نقص وتثبت له الكمال: لا ولد له ولا صاحبة، وهو الخالق الوكيل، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار؛ لأنها تتلقى تقرير التوحيد بأوضح بيان: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾، و﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾، و﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، فتستقيم عقيدتها على التنزيه والإثبات بلا تحريف ولا تمثيل.

٣٧) شخصيّةٌ تعرف أن أعظم هلاكٍ هو هلاك القلب بالهوى؛ لذلك لا تتبع الأهواء ولا تنتظر رضا الخصوم، وتستمسك بالبيّنة وتسلّم أن الحكم لله وحده: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ...﴾، و﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، و﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فتخرج من عبودية المزاج إلى عبودية الحق.

ذكرتُ هذه "الشخصيات" الكثيرة لأن الآيات في هذا المقطع من الجزء

السابع لا تعطي خُلقاً واحداً معزولاً، بل تبني «ملقّاً كاملاً» للإنسان الذي يريده الوحي، وهذا المقطع بالذات ينتقل بك بسرعة بين محاور متتابعة: محور الإعراض والتكذيب والسخرية، ثم محور التوحيد والتوكل والخوف من الحساب، ثم محور مشاهد القيامة والندم والكذب على النفس، ثم محور سنن الابتلاء والاستدراج، ثم محور أدب الدعوة والجدال، ثم محور قصة إبراهيم في صناعة اليقين، ثم محور تقرير أسماء الله وصفاته وعلمه وإحاطته؛ فلو اختزلناه في سمة واحدة لظُلمت بنية النص، لأن النص نفسه "متعدد الزوايا" في تربية القلب والعقل والسلوك.

ثم إن كثرة النقاط ليست "تزاحماً" بقدر ما هي تفريعٌ من محورٍ واحد جامع: مواجهةُ الإنسان بحقيقة الله ووحيه ومصيره، وكشفُ الأعذار التي يختبئ خلفها، ثم رسمُ طريق الاستجابة الصادقة؛ فكل سطر من الذي كتبتُه هو وجهٌ من وجوه الاستجابة لهذا المحور: استجابة القلب للحق بدل الإعراض، واستجابة العقل للبرهان بدل المكابرة، واستجابة السلوك للتوحيد بدل التعلّق، واستجابة الوجدان للآخرة بدل الاغترار.

ولهذا قد يَظهر للقارئ أنها كثيرة، لكنها في الحقيقة "عائلة واحدة" من الصفات تتكرّر بأسماء مختلفة بحسب المقاطع: فالآيات تذكر الإعراض والاستهزاء، فتخرج منها "شخصية لا تفاوض الحق"؛ وتذكر مفاتيح الغيب وعلم الورقة الساقطة، فتخرج منها "شخصية مراقبة حيية"؛ وتذكر ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ فتخرج منها "شخصية راقية في الدعوة"؛ وتذكر ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ فتخرج منها "شخصية يقين حنيف"؛ فالتعدد هنا ليس تكلّفاً بل متابعةٌ لتعدد المشاهد في النص نفسه.

أمراض القلوب التي يعالجها هذا الجزء..

١) هذا الجزء يعالج مرض الاستكبار عن الحق؛ ذلك الداء الذي يجعل الإنسان يسمع الآية فلا تخترق قلبه، ويرى البرهان فلا يُغيّر موقفه، ويجادل لا ليهتدي بل ليهرب، فيُغلِق على نفسه أبواب النور ولو كانت مفاتيحها في يده، ولذلك يضع أمامه صورة القلب المتواضع الذي يلين حين يعرف الحق ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ ليُفهمه أن العيب ليس في قلة الأدلة بل في قسوة الداخل.

٢) ويعالج مرض الغُلوّ في البشر؛ ذلك الانحراف الذي يبدأ بمحبةٍ غير منضبطة وينتهي بتأليهٍ أو تعظيمٍ يُزاحم مقام الرَّب، فيُذكّر أن كل آيةٍ ومعجزةٍ إنما كانت بإذن الله، وأن الرسالة كانت كلمةً واحدة لا تتبدّل ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾؛ فيعيد للقلب توازنه فلا يرفع بشراً فوق حدّه ولا يُنزل الربوبية إلى غير موضعها.

٣) ويعالج مرض الابتداع والتشريع من الهوى؛ حين يصنع الناس أحكاماً من عاداتهم ثم يُلبسونها لباس الدين، أو يُحرّمون ما أحل الله باسم الورع، فيتحول التدين إلى اعتداءٍ مغلّفٍ بالتقوى ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾، ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ... ﴾؛ فيعلّم القلب أن الطاعة هي الوقوف عند الحدّ لا تجاوزه باسم الاحتياط أو الانتماء.

٤) ويعالج مرض التهوين من المعصية بحجة العادة أو الانتشار؛ ذلك الذي يُقنع النفس أن كثرة الخبيث دليلُ طبيعته، وأن شيوع الخطأ يُخفف وزنه، فيأتي الميزان الحاسم ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ ليُطهّر الذائقة من الانخداع بالكثرة، ويُعيد بناء المعايير على التقوى لا على الضجيج.

٥) ويعالج مرض الاستدراج والاغترار بالنعمة؛ حين تُفتح أبواب الدنيا على القلب فيظنّ أن ذلك رضا مطلق، وينسى أن الفتح قد يكون امتحاناً يُفضي إلى الأخذ بغتة إذا نُسيت المواعظ ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾؛ فيُعيد للقلب يقظته فلا يغترّ بعافيةٍ بلا شكرٍ ولا توبة.

٦) ويعالج مرض ضعف الخوف بالغيب؛ ذلك الذي يجعل الإنسان يترك المعصية إذا رآه الناس ويقع فيها إذا خلا، فيُختبر في شيءٍ قريبٍ من يده ليظهر صدق رقابته الداخلية ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾؛ فيُربّي الضمير على مراقبة الله قبل حضور البشر.

٧) ويعالج مرض العبث في السؤال والجدل؛ حين يتحول السؤال من طلب هداية إلى باب تضييقٍ وتعقيدٍ واعتراض، فيأتي الأدب الرباني ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ليُعيد للسؤال مكانته: وسيلةُ فهمٍ لا سلاحُ تمرّد.

٨) ويعالج مرض التقليد الأعمى؛ حين يختبئ القلب خلف الآباء والتقاليد ليتجنب مواجهة الوحي، فيقول ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾، فيكشف له أن الهداية مسؤولية شخصية لا تُورَّث، وأن الاتباع الحقّ للوحي لا للعادات.

٩) ويعالج مرض قسوة القلب عند البلاء؛ إذ يُبتلى الإنسان بالبأساء والضراء ليعود ويتضرع، لكن القسوة قد تحجب التوبة فيزيّن الشيطان له عمله ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فيُذكّره أن البلاء رسالةُ عودة لا مناسبةُ عناد.

١٠) ويعالج مرض قلب البصيرة وانقلاب الفطرة؛ حين يُعرض الإنسان أول مرة عن الحق فيُقلب قلبه فلا يعود يرى الأمور كما هي، فتغدو الحقائق مشوشةً في عينه ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾؛ فيحذّره

أن لحظة الإعراض الأولى أخطر من ألف جدلٍ بعدها.

١١) ويعالج مرض الكذب على النفس يوم الحساب؛ حين يُكابر الإنسان في الدنيا ثم يقف وحيداً فينكشف زيفه ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾؛ فيوقظ فيه صدق المواجهة قبل أن تأتي ساعة لا ينفع فيها ندم.

١٢) ثم يداوي كل هذه الأمراض بجرعةٍ جامعةٍ من التوحيد والرجاء؛ فيذكّر أن الرَّب كتب على نفسه الرحمة، وأن باب التوبة مفتوح لمن عاد وأصلح ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... ثُمَّ تَابَ وَأَصْلَحَ﴾، ليُعلّم القلب أن العلاج ليس جلد الذات بل صدق الرجوع، وأن النجاة ليست في الادعاء بل في الصدق الذي سيظهر يوم ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾؛

← **فكل داءٍ في هذا الجزء يُردّ إلى أصلٍ واحد: ضعف الصدق مع الله،**

← **وكل دواءٍ فيه يبدأ من إعادة هذا الصدق إلى مركز القلب.**

اختبار ذاتي عميق... أسئلة مواجهة لا معلومات:

←**هل أنا من المخاطَبين حقاً في هذا الجزء، أم أقرأه وكأنه يتحدث عن أممٍ مضت لا عن قلبي الآن؟**

١) حين سمعت النداء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هل شعرت أن الخطاب يخصّني، أم مرّ عليّ كعنوانٍ محفوظ؟

٢) وحين تُليت مشاهد البكاء عند سماع الحق ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ... ﴾ سألت نفسي: هل أبكي لأنني عرفت الحق أم لأنني تأثرت بأسلوبٍ جميل؟

٣) وهل إذا عرفتُ الحق تحرّكتُ به، أم بقيتُ عند حدود الانفعال؟

←أين انكشف قلبي؟

١) هل انكشف حين قيل لي إن الخبيث لا يستوي مع الطيب ولو أعجبتني كثرة الخبيث ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾؟.

٢) هل شعرت أن في داخلي إعجاباً بكثرةٍ ما، أو ميلاً لتيارٍ لأن الناس فيه كُثر؟

٣) أم انكشف قلبي عند آية الخوف بالغيب ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ حين أدركت أن بعض طاعتي مرتبطةٌ بنظر الناس، وأن بعض معصيتي مؤجَّلة فقط لأن الظروف لم تتهيّأ؟

←أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني آية النهي عن تحريم ما أحلّ الله ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ لأنني أُضيّق على نفسي أو على غيري باسم الدين؟.

٢) أم أربكتني آية السؤال ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ لأنني أبحث أحياناً عن تعقيدٍ يبرر لي الهروب من الوضوح؟.

٣) أم أربكتني مشاهد القيامة حين قيل ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ لأنني شعرت أن في حياتي مساحاتٍ من المجاملة لا من الصدق، من التبرير لا من المواجهة؟.

←ما السلوك الذي أؤجّل تغييره رغم وضوحه؟

١) هل أؤجل ترك عادةٍ أعلم أنها تقطعني عن الذكر والصلاة ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾؟.

٢) هل أؤجل تصحيح لسانٍ يستهين باسم الله في يمينٍ عابر﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾؟.

٣) هل أؤجل موقفاً واضحاً مع تقليدٍ ورثته ولم أختبره على ضوء الوحي ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؟ هل أؤجل توبةً لأن قلبي ما زال يُعجبه بعض ما يعلم أنه خبيث؟.

٤) ثم اسأل نفسك بصدقٍ لا يراك فيه أحد: لو وُضِعتُ اليوم في مشهد السؤال بين يدي الله، ماذا سأقول؟ هل سأقول كما قال المخلصون: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾؟ أم سأكتشف أنني كنت أجادل لأحفظ صورتي لا لأحفظ إيماني؟.

هذا الاختبار ليس ليجيبك بكلماتٍ مطمئنة، بل ليكشف لك موضع الألم الحقيقي؛

←لأن الجزء كلّه يدور حول صدقٍ يُنقذك أو تزييفٍ يفضحك،

←وحول لحظة مواجهةٍ الآن... قبل أن تأتي لحظةٌ لا ينفع فيها إلا صدقٌ عشته، لا صدقٌ تمنّيته.

خطة التغيير... طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح:

- ابدأ بتصحيح "المركز" قبل تصحيح "الهامش"؛ لا تُرهق نفسك بتفاصيلٍ كثيرة وأصلُ العلاقة بالله مضطرب، بل أعد توحيدك إلى قلبك، جدّد معنى العبودية في داخلك، وقل بصدقٍ عمليّ لا لفظي:﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾؛ اسأل نفسك كل صباح: هل قراراتي اليوم تصدر من خوفٍ من الناس أم من تعظيمٍ لله؟ فإن استقام المركز استقامت الفروع تباعاً.
- ثم انتقل إلى "نقطة الانكشاف"؛ حدّد المعصية أو السلوك الذي يقطعك عن الذكر والصلاة ويضعف صلتك بالله، ولا تُجمّله باسم العادة أو الترفيه أو الضغوط، بل سمّه باسمه، ثم اقطع الطريق إليه ولو كان في متناول يدك، وتذكّر أن الامتحان الحقيقي ليس في البعيد بل في القريب ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾؛

التغيير الصريح يبدأ بقرارٍ واضح: هذا الباب لن أعود إليه، ولو اشتاقته نفسي.

- بعدها اضبط "لسانك وعهودك"؛ لا تسمح أن يُستعمل اسم الله في غضبٍ أو مزاحٍ أو تبرير، ولا تجعل وعودك خفيفةً على قلبك، لأن الانهيار الأخلاقي يبدأ من الاستهانة الصغيرة﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾؛ اجعل كلماتك قليلةً صادقة، فالكلمة الصادقة تبني شخصيةً متماسكة، والكلمة العابثة تُضعف ثقة القلب بنفسه.
- ثم صحّح "معاييرك الداخلية"؛ لا تُقنع نفسك أن كثرة الناس على طريقٍ ما دليلُ صوابه، ولا أن انتشار الخبيث يجعله طبيعياً، بل درّب قلبك على وزن الأشياء بميزان الوحي لا بميزان الضجيج ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾؛ اسأل دائماً: هل هذا يرضي الله أم يرضي البيئة؟ فإن اختلف الميزانان فاختر رضا الله بلا تردد.
- ثم أدّب "فضولك الفكري"؛ لا تجعل كل سؤالٍ يُلقي عليك بابَ اضطرابٍ داخلي، ولا تفتّش عن تفاصيل تُضيّق بها على نفسك ما وسّعه الله، بل اطلب العلم الذي يقرّبك من العمل، لا العلم الذي يُربكك عن الطاعة ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾؛ اجعل السؤال وسيلةَ وضوحٍ لا وسيلةَ هروب.
- ثم راقب قلبك عند النعمة والرخاء؛ لا تغترّ بفتحٍ في الدنيا فتظنّه علامة رضا مطلق، بل اربطه بالشكر والطاعة حتى لا يتحوّل إلى استدراجٍ خفي﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾؛ إذا وسّع الله عليك فازدد تواضعاً لا ترفاً، وازدد قرباً لا غفلة.
- وأخيراً، اختم خطتك بميثاق صدقٍ مع نفسك؛ لا تُراكم نوايا بلا تنفيذ، ولا تؤجل توبةً تعلم أنك تحتاجها الآن، لأن اليوم الذي ينفع فيه الصدق قد

يأتي فجأة ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾؛ فلتكن خطوتك القادمة عمليةً لا شعورية، قراراً لا أمنية، تغييراً يبدأ من هذه اللحظة... لأن الطريق القصير الصريح ليس أن تفعل كل شيء، بل أن تفعل "الشيء الأوضح" دون تأجيل.

خاتمة وجدانية مزلزلة..

في نهاية هذا الجزء لا تبقى المسألة: كم آية قرأت؟ بل: كم آية قرأتني؟ لا تبقى القضية: كم حكماً عرفت؟ بل: أيُّ حكمٍ غيّر مسار قلبي؟ لأن القرآن هنا لا يحدّثك عن أُممٍ مضت بقدر ما يفضح مواضع الاختباء في داخلك؛ يريك لحظة الدمع حين يعرف القلب الحق ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ ثم يسألك: هل بقيتَ عند الدمع أم انتقلتَ إلى الاتباع؟ ويضع أمامك ميزاناً لا يُجامِل كثرةً ولا يخضع لضجيج﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ ثم يسألك: ما الذي أعجبك سرّاً وأنت تعلم أنه لا يستوي؟..

يأخذك إلى موضع الامتحان الصامت، حيث لا جمهور ولا تصفيق، حيث الشيء قريبٌ من يدك والقدرة متاحة، ثم يهمس في عمقك ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾؛ هناك فقط ينكشف الفرق بين من يترك المعصية لأنه لم يستطعها، ومن يتركها لأنه خاف ربّه، بين من يُحسن صورته، ومن يُحسن سريرته.

ثم يرفعك إلى مشهدٍ أعظم من كل جدلٍ دنيوي، يوم يقف الصادقون وحدهم بصدقهم، لا تُنجيهم حيلة، ولا يُسعفهم تبرير، ولا يشفع لهم تاريخٌ لم يُعاش بإخلاص﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾؛ فتدرك أن القضية لم تكن يوماً أن تُقنع الناس، بل أن تكون صادقاً مع الله، وأن كل لحظة تأجيلٍ للتوبة...

وكل مساومةٍ صغيرةٍ مع الهوى، وكل مجاملةٍ على حساب الحق... كانت تُكتب في صحيفةٍ لا تغفل.

إنه جزءٌ يُعيد ترتيب الخوف في قلبك؛

١) فلا تخاف خسارةَ صورةٍ أمام الناس وتنسى خسارةَ قلبٍ أمام الله،

٢) ولا تخاف فواتَ متعةٍ عابرة وتنسى فواتَ رضاً باقٍ،

٣) ولا تخاف قلة السَّالكين وتنسى أن الطريق لا يُقاس بعدد السائرين بل بصدقهم؛

← فإن ضاق بك الدرب فتذكّر أن الله كتب على نفسه الرَّحمة،

← وإن أثقلتك الذنوب فتذكّر أن باب العودة مفتوح،

← وإن تزلزلت معاييرك فارجع إلى الوحي، فهو النور حين تتشابه الظلمات.

هذه ليست خاتمةَ قراءة... بل بدايةُ مواجهة؛ إمّا أن تخرج من هذا الجزء بقلبٍ أخفّ من الذنوب وأثقل من الصدق، أو تخرج منه كما دخلت، معلوماتٍ جديدةً فوق حياةٍ قديمة؛ والفرق بين الحالتين لا يصنعه حجم العلم، بل لحظةُ قرارٍ في الداخل... قرارٌ أن لا تبقى كما كنت، وأن يكون ما علمتَه اليوم شاهداً لك لا عليك، يوم لا يبقى معك إلَّا صدقك.

الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من هذا الجزء..

- الإيمان ليس دمعةً عابرةً عند سماع الحق، بل انقيادٌ يُترجم المعرفة إلى موقفٍ ثابت ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾.
- التوحيد ليس شعاراً يُقال، بل حدٌّ لا يُتجاوز، فلا غُلوَّ في بشرٍ ولا تشريعَ من هوى ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾.
- الدين انضباطٌ لا اعتداء؛ لا تحريمَ لما أحلّ الله باسم الزُّهد، ولا تسيّبَ باسم الواقعية ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾.
- الطاعة تُختبر في الخفاء قبل العلن؛ فالعبرة ليست بما تفعله أمام الناس، بل بما

تتركه وأنت قادرٌ عليه ولا يراك أحد.. من يخاف الله بالغيب يحفظه الله عند لحظة القدرة، فلا يستعمل قوّته في ظلمٍ، ولا نفوذه في اعتداء، ولا خلوته في معصية؛ لأن أخطر الامتحانات ليست عند الضعف بل عند التمكّن ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

- الشيطان لا يكتفي بذنبٍ فردي، بل يبني مشروعَ قطيعةٍ مع الذكر والصلاة ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾.
- قيمةُ الشيء لا تُقاس بكثرته؛ الخبيث يظل خبيثاً ولو ازدحم سوقه﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾.
- السؤال عبادةُ تواضعٍ لا أداةُ تعنّت؛ ما سكت عنه الوحي رحمةٌ لا نقص ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.
- التقليد الأعمى صنمٌ جديد؛ النجاة في الاتباع لا في الوراثة﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾.
- النعمة قد تكون استدراجاً إن لم تُحاط بشكرٍ ويقظة ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾.
- القلب إذا أعرض أول مرة انقلبت بصيرته بعدها﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.
- البلاء دعوةُ رجوعٍ لا مناسبةُ عناد؛ القسوة أخطر من المصيبة﴿ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.
- اللسان أمانة؛ اسمُ الله لا يُبتذل في يمينٍ عابر ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾.
- الصدق هو رأس المال الوحيد يوم اللقاء؛ لا تنفع صورةٌ بلا حقيقة ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾.
- الرَّحمة أصلٌ مكتوبٌ لمن تاب وأصلح؛ فلا يأسَ مع صدق العودة ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... ثُمَّ تَابَ وَأَصْلَحَ ﴾.

- الحياة الدنيا لعبٌ إن انفصلت عن الآخرة؛ والميزان الحقيقي يبدأ بعد النهاية ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾.

الرسالة التربوية الكبرى:

١) كن صادقاً مع الله في السِّر قبل العَلن،

٢) مستقيماً عند القدرة قبل العجز،

٣) ثابتاً عند قلة السَّالكين قبل كثرتهم،

← لأن الدين ليس معلوماتٍ تُحفظ بل عهداً يُعاش،

← والنَّجاة ليست في كثرة القراءة بل في صدق التحوّل.

الترابط الموضوعي بين الجزأين (السادس والسابع)

- الجزآن يتحركان على محورٍ واحدٍ كبير: بناء الدين كمنظومة حياةٍ كاملة؛ فالجزء السادس يُرسِّخ "الدين كعقودٍ ومواثيق وأحكامٍ وحدودٍ وأماناتٍ وعدلٍ وتعاونٍ على البرّ" لا كدعويٍ عاطفيةٍ سائبة، ثم يأتي الجزء السابع ليُرجِع هذا كله إلى جذرِه الأعظم: التوحيد ومعرفة الله واليقين بالآخرة؛ فكأن السادس يعلّمك "كيف تعيش الشريعة في التفاصيل"، والسابع يعلّمك "لماذا تُطيع أصلاً، ومن تعبد أصلاً، وإلى أين المصير".
- في الجزء السادس تتتابع عناوين "الالتزام العملي": الوفاء بالعقود، الطهارة والصلاة، العدالة حتى مع الخصوم، خطر تحريف الدين، خطر موالاة الباطل على حساب الحق، التحذير من الخمر والميسر، ضبط الأيمان، آداب السؤال، الشهادة والوصايا، ثم مشاهد مائدة عيسى عليه السلام وما فيها من دروس الصدق والرقابة؛ ثم يفتح الجزء السابع مباشرةً "النافذة الكونية" التي تُعيد ترتيب القلب: خلق السماوات والأرض، علم الله بالسِّر والعلن، مفاتيح الغيب، حقيقة الدنيا، مشاهد القيامة، ومنهج إبراهيم عليه السلام في تحطيم الأصنام الفكرية؛

فكأنَّ الجزء السادس يُربِّيك "على الانضباط"، والجزء السابع يُربِّيك "على البصيرة".

- الجزء السادس يُكثر من الحديث عن "الانحرافات التي تُفسد الدين من الداخل": تحريف الكلمات، بيع الآيات بثمنٍ قليل، التلاعب بالأحكام، الاستهزاء بالشعائر، الازدواجية، وأكل السُّحت؛ ثم الجزء السابع يكشف لك "منبع ذلك الانحراف": قلبٌ يعرض عن الآيات، يستهزئ، يُجادل، لا يريد الحق وإن جاءه في كتابٍ محسوس؛ فيرتسم أمامك خطٌ واضح: فساد السلوك في السادس جذره فساد التصور في السابع.
- الجزء السادس يضع معيار الاجتماع والافتراق: "ولاية الله ورسوله والمؤمنين" و"التحذير من موالاة الباطل"؛ ثم الجزء السابع يُعمِّق هذا المعيار عبر مشاهد الحشر وفضح الشرك وأهله، وبيان أن الرجوع كله إلى الله، وأن من ضلَّ فلن ينفعه كثرة الخبيث ولا زينة الدنيا؛ فالسادس يعلّمك "كيف تختار موقفك"، والسابع يعلّمك "لماذا تختاره ولو خسرت".

الترابط العقدي بين الجزأين (السادس والسابع)

- الجزء السادس يضع "قواعد الإيمان التي لا تقبل التجزئة": من يكفر ببعضٍ ويؤمن ببعضٍ فهو في الحقيقة لم يؤمن؛ لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان برسله جميعاً بلا تفريقٍ ولا انتقاء، كما في معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، ثم يأتي الجزء السابع ليُظهِر أن أصل هذا التفريق هو الهوى والجدال والإعراض لا نقص الدليل؛ فالقضية عقدياً ليست "قلة برهان" بل "مرض قبول الحق".
- الجزء السادس يُقرر التوحيد في باب "عيسى عليه السلام" تقريراً حاسماً: نفي الألوهية عنه، ونفي التثليث، وإثبات أنه عبدٌ رسول، وأن الله واحدٌ منزَّهٌ عن الولد، كما في ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، ثم يأتي

الجزء السابع ليُكمِل هذا البناء بإقامة التوحيد على "دلائل الخلق والملك والعلم والتدبير"، وعلى منهج إبراهيم عليه السلام في نقض الشرك من جذوره، حتى لا يبقى التوحيد مجرد "ردٍّ على انحرافٍ تاريخي" بل يصبح "رؤيةً كونيةً شاملة".

- الجزء السادس يثبت "كمال الدين وتمام النعمة" في مشهدٍ تشريعيٍّ واضح ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، ثم الجزء السابع يبيّن أثر هذا الكمال: أن القرآن ليس مجرد نصٍ يُتلى، بل "حُجّة كبرى" و"بصائر" و"ذكرى للعالمين"، وأن الاستقامة عليه ليست خياراً ثقافياً بل نجاةٌ يوم الحشر؛ فالسادس يثبت "اكتمال المنهج"، والسابع يثبت "اكتمال الحُجة".
- الجزء السادس يقرّر أن لله الحكم وأنه أحسن حكماً، ويُحذِّر من حكم الجاهلية، ويُقيم ميزان العدل ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، ثم الجزء السابع يردّك إلى أصل الحكم عقدياً: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وأن من نازع الله في حكمه أو شرعه فقد فتح باباً من أبواب الشرك العمليّ أو الانحراف عن مقتضى الإيمان.
- الجزء السادس يقرر علم الله بالسرائر في سياقات "العهود والمواثيق والنيات" ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، ثم الجزء السابع يُعمّق هذا الإيمان بإحاطة العلم: مفاتيح الغيب، سقوط الورقة، ظلمات الأرض، ما نكسب، ما نكتم؛ فالعقيدة هنا ليست "معلومة" بل "مراقبةٌ حيّة".

الترابط البياني بين الجزأين (السادس والسابع)

- الجزء السادس ينتقل بيانُه من "حِجاج أهل الكتاب" وفضح التحريف والغُلو، إلى "نداءات الإيمان" المتتابعة في سورة المائدة، فيصنع إيقاعاً تشريعياً تربوياً حازماً، ثم يفاجئك في آخره بمشهدٍ إيمانيٍّ حواريٍّ عظيم في قصة المائدة؛

وبعد هذا المشهد مباشرةً يبدأ الجزء السابع بافتتاحيةٍ كونيةٍ جليلةٍ تُعيدك إلى الأصل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ فبين الجزأين "قفزةٌ بيانية محسوبة" من ساحة الحكم إلى ساحة الحمد، ومن ساحة التفصيل إلى ساحة الأصل.

- في السادس يظهر أسلوب "التفصيل بالحدود": حلال/حرام، عقد/نقض، عدل/اعتداء، تعاون على البر/تعاون على الإثم، وفاء/خيانة؛

ثم في السابع يظهر أسلوب "التفصيل بالآيات الكونية والمشاهد الآخروية": لعب ولهو/دار آخرة، بصائر/عمى، هدى/ضلال، نور/ظلمات؛ فكأنَّ القرآن يُغيّر عدسته البيانية دون أن يغير هدفه: تثبيت القلب على الصراط.

- الرابط البياني الأقوى: أن السادس يشتغل كثيراً على "كشف التناقض": يدّعون الإيمان ثم يسارعون في الكفر، يحرفون، يستهزئون، يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، ويجمعون بين ادعاء النسبة وبين فساد العمل؛

ثم السابع يواصل فضح هذا التناقض في مشاهد القيامة: كيف يكذبون على أنفسهم ويقولون ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وكيف يحملون أوزارهم، وكيف يتمنون الرَّجعة ثم يعودون لما نُهوا عنه؛ فالبيان هنا "سلسلةُ فضحٍ لنفس المرض" لكن في موضعين: الدنيا ثم الآخرة.

- في السادس "خطابٌ موجهٌ للجماعة": أحكام المجتمع، العقود، القضاء، الشهادة، مواثيق الأمم؛
وفي السابع "خطابٌ يخترق الفرد": قلبه، خوفه، جداله، استجابته، تضرعه، يقينه؛ فالتلوين البياني مقصود ليخرج المستمع من وهم أن الدين مؤسساتٌ فقط أو مشاعرٌ فقط، بل هو "شريعةٌ تُنظم المجتمع" و"عقيدةٌ تُنقذ القلب".

الترابط الوجداني بين الجزأين (السادس والسابع)

- الجزء السادس يربِّي الوجدان على "ضبط الانفعال" في لحظة الأذى والخصومة: لا يحب الله الجهر بالسُّوء إلا من ظلم، ثم يفتح باباً أعلى: إبداء الخير أو إخفاؤه أو العفو عن السوء، مع تذكيرٍ يلين القلب: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾؛
ثم الجزء السابع يترجم هذا الوجدان إلى "موقفٍ داخليٍّ ثابت": الدنيا لعب ولهو، والدار الآخرة خير، فلا تغتر، ولا تستهزئ، ولا تُبدّل قيمك تحت ضغط اللحظة؛ فالوجدان ينتقل من "تهذيب اللسان" في السادس إلى "تهذيب النظرة للحياة" في السابع.
- الجزء السادس يزرع في القلب رهبة "الاستهزاء بالدين" وتحويل الشعائر إلى لعب، ويواجهك بسؤالٍ مرير: كيف يستهزئون بالصلاة؟ وكيف يتخذون الدين هزواً؟
ثم يأتي السابع ليقول لك: هذا الاستهزاء ليس نكتةً عابرة؛ إنه طريقٌ إلى عمى القلب وإلى خسارة النفس يوم تُحشر الأرواح؛ فتتحول الرهبة الوجدانية من "العار الدنيوي" إلى "الخطر الأبدي".
- في السادس مشهدٌ وجدانيٌ فريد: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾؛ هذه الدموع ليست دموعَ موسيقى أو تأثيرٍ لحظيٍّ، بل دموع

"معرفة الحق"، ثم يبدأ السابع في رسم الصراع المقابل: قومٌ يُعرضون عن كل آية، ويسخرون، ويجادلون، ويقولون أساطير الأولين؛ فيتكون في الداخل ميزانٌ وجداني حاد: دمعةُ الحق مقابل ضحكةِ الاستهزاء... أيُّهما يسكن قلبك؟.

- الجزء السادس يفتح للروح أفق الرجاء حتى في أشد الأحكام: بعد الحدود والتغليظ يجيء باب التوبة ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾؛

ثم الجزء السابع يسكب في القلب "رحمةً جامعة" تُداوي اليأس: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ فالمؤمن لا يعيش بين خوفٍ يُحطمه ورجاءٍ يُميّعه، بل بين خوفٍ يوقظه ورجاءٍ يقيمه.

- الجزء السادس يبني "هيبة الميثاق": نقض العهود يصنع قسوة القلب وتحريف الكلم، والوفاء يصنع طهر القلب واستقامة المجتمع؛

ثم الجزء السابع يقول لك وجدانياً: لا تُخادع نفسك، فكل شيءٍ مسجل، وكل ورقةٍ تسقط بعلم الله، وكل كلمةٍ تُقال لها حساب؛ فتستقر في الداخل حقيقة ثقيلة جميلة: أنت تعيش تحت نظر الله، لا تحت نظر الناس.

الجزء الثامن: من الحُجّة البالغة إلى الميزان الحقّ

حين يُنقِّي القرآنُ مصدرَ التديُّن قبل أن يُحاسِبَكَ على ثمرته

مدخل وجداني تأسيسي للجزء الثامن... رحلة واحدة من آخر الأنعام إلى مطلع الأعراف

هذا الجزء لا يُقدّم لك "معلوماتٍ" جديدة بقدر ما يضعك أمام سؤالٍ واحدٍ شديد الصدق: ما الذي يمنع الإنسان من الإيمان حقّاً؟ وهل المشكلة في قِلّة الأدلة... أم في موضع القلب من الدليل؟ لذلك يفتتح المشهد من آخر الأنعام بقطعِ الوهم الذي يتعلّق به كثيرون: لو جاءت الآيات خارقةً فوق ما تتصوّر، ولو نزلت الملائكة، ولو كُلّم الموتى، ولو حُشر كل شيءٍ أمام العيون... فالإيمان لا يُنتزع انتزاعاً من قلبٍ لا يريد؛ لأن القضية ليست "مقدار البرهان" بل "حقيقة الاستعداد" ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴾؛ ثم يكشف لك القرآن أن هذه المعركة ليست فرديةً عابرة، بل سُنّةٌ جارية: لكل نبيٍّ عدوّ، ولكل حقٍّ خصوم، وشياطين الإنس والجنّ لا تُقاتل بالسَّيف أولاً، بل تُقاتل بزخرف القول، تُجمّل الباطل حتى يراه القلب "معقولاً" ويستسيغه ثم يرضى به ثم يقترب منه خطوةً خطوةً حتى يقع فيه دون أن يشعر ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ... ﴾، ويُتمّ الصورة المخيفة: قلوبٌ لا تؤمن بالآخرة تُصغي، ثم "ترتاح" للزينة، ثم تُقارف ما تقارف، وكأن الانهيار يبدأ من الأذن قبل اليد ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

ثم يرفعك القرآن إلى أصلٍ ضابطٍ لا يُترك بعده مجالٌ للتِّيه: المرجع ليس الأكثرية، ولا الصَّخب، ولا المزاج العام، ولا "المؤثرون" في الأرض... بل المرجع حكمُ الله الذي أنزل الكتاب مفصلاً، ومن عرف الحقّ لا يملك رفاهية التردد في نسبته إلى ربه ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ... فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾؛ ثم يضع بين يديك قاعدتين تُنهيان كل ارتباك: أن كلمة الرب تمت "صدقاً وعدلاً" فلا يخالطها نقصُ خبر ولا جورُ حكم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾، وأن الأكثرية ليست معياراً للهداية، بل قد تكون طريقاً من طرق الضلال إذا اتُّبعت بلا برهان؛ لأن الظنّ والخرص لا يُنبتان هدى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾، ومع ذلك لا يتركك القرآن في حيرةٍ عن المصير، بل يضع الأمر حيث يجب أن يكون: علمُ الله بالضَّال والمهتدي علمُ إحاطةٍ وعدلٍ لا يخون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وبعد أن يُثبّت المرجع، ينقلك القرآن انتقالاً بديعاً من "كليّات الاعتقاد" إلى "تفاصيل الطاعة" ليقول لك: صدق التوحيد لا يُقاس بالشعارات بل بانضباطك في الحلال والحرام؛ فتأتي آيات الذبائح والطعام لا بوصفها مسائل فرعية، بل بوصفها امتحاناً: هل تجعل اسم الله حاضراً على رزقك أم تتبع الهوى والجدال؟ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾، ثم يستنكر عليك الاستغراب من حكمٍ فُصّل لك رحمةً، ويذكّرك أن كثيراً يضلّون بأهوائهم بغير علم، وأن الاعتداء يبدأ حين يتقدّم الهوى على الوحي ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ... ﴾؛ ثم يفتح عليك باباً لا يُصلحه تديّنٌ ظاهري: اترك ظاهر الإثم وباطنه، لأن الخطر ليس في الفعل وحده، بل في "السرّ" الذي يُغذّيه ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾، ويضع علامةً فاصلة: ما لم يُذكر اسم الله عليه ليس مساحةَ تساهلٍ، بل بابُ

فسقٍ إذا صار منهجاً، ثم يفضح أن الشياطين لا تزال تُوحي لأوليائها ليُجادلوك، وأن الطاعة في باب التحليل والتحريم ليست مسألةَ ذوقٍ بل مسألةُ توحيد ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ... وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾.

ومن هنا يضع القرآن المشهد الوجداني العاقل دون تهويل: إنسانٌ كان "ميتاً" ثم أحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به بين الناس... ليس هذا وصفاً أدبياً، بل تقريرٌ لحقيقة الفرق بين قلبٍ يعيش بالوحي وقلبٍ غارقٍ في الظلمات لا يخرج منها ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ...﴾، ثم يكشف لك أن المكر ليس جديداً، وأن أكابر المجرمين في كل قريةٍ لهم دورٌ في صناعة التضليل، وأنهم يظنون أنهم يحكمون اللعبة بينما لا يمكرون إلا بأنفسهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ... ﴾، ثم يُعرّي عقدة الاستكبار حين لا تطلب الحقّ بل تطلب "مكانتك"؛ فتجعل الإيمان مشروطاً بأن تُعطى مثل ما أوتي الرُّسل، فيأتي الردّ القاطع: الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾.

ثم يفتح لك القرآن باباً من أصدق أبواب التربية على فهم الهداية: ليست كلمةً تُقال، بل شرحُ صدرٍ يمنّ الله به على من يريد له الخير، وضَيّقٌ حرجٌ يجعله الله على من أعرض؛ فتفهم أن اختناق القلب من الحقّ ليس دليلَ عمقٍ ولا ذكاء، بل قد يكون علامة مرضٍ إذا صاحبه إعراضٌ ومكابرة ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ... ﴾، ثم يثبت صراط الرَّب مستقيماً، مفصلاً، لا غموض فيه لمن أراد التذكر ﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾، ويُلوّح بوعد النهاية الهادئة لمن استقام: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ... ﴾، ثم يفتح لك مشهد الحساب الأعظم بين الإنس والجن، حيث تُكشف "علاقة الاستمتاع"

المتبادلة التي حسبها الناس تسليةً أو قوةً أو نفوذاً، فإذا هي سببُ خسرانٍ وخلودٍ في النار إلا ما شاء الله، ويُقرّ الجميع بأنهم بلغوا أجلهم الذي أُجّل لهم ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ... ﴾، ثم يأتي القانون الـمُرعب في سُنن الاجتماع: إذا كثُر الظلم واشتدّ الكسب الفاسد... وَلّى الله بعض الظالمين بعضاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾، فلا تعجب أن ترى الشرّ يلد الشرّ؛ إنها سنّةٌ لا مجاملة فيها.

ثم يعود الخطاب إلى أصل الإنذار: الرسل قامت بالحجة، والاعتراف سيكون اعترافاً على النفس لا يُغني، والدنيا قد تغرّ، لكن شهادة الإنسان على نفسه ستبقى في الملفّ المفتوح يوم اللقاء ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ... قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ﴾، ويقرر الله عدله في الإهلاك: لا يهلك القرى ظلماً وأهلها غافلون عن البلاغ ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾، ثم يضع ميزان الدرجات: لكل درجات مما عملوا، وربُّك ليس بغافل عما تعملون ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ... ﴾، ويُتمّ الصورة بالتعريف الذي يكسر غرور الإنسان: ربك الغني ذو الرحمة، قادر أن يذهب بكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ... ﴾، ثم يقطع عليك وهم الإفلات: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾، ويضعك أمام مفترق الطريق بلا ضجيج: اعملوا على مكانتكم، إني عامل، وسوف تعلمون لمن تكون عاقبة الدار... لأن الظالم لا يفلح أبداً ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ... إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

ثم يقتحم الجزء ملفّ التدين المحرّف الذي يخلط "نصيب الله" بنصيب الشركاء، ويصنع أحكاماً وهمية في الحلال والحرام، ويُزين جرائم كقتل الأولاد والافتراء باسم الدين؛ فتدرك أن الشرك ليس سجوداً لصنمٍ فقط، بل نظامُ تشريعٍ مُزوّر يُنسب إلى الله بلا علم ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ

نَصِيباً ... سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ... ﴾، ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ... افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾، ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾؛ ثم يردّك القرآن إلى بساطة الرزق التي تُصلح القلب: هو الذي أنشأ الجنات والنخل والزرع، فكلوا من ثمره إذا أثمر، وأدّوا حقه يوم حصاده، ولا تُسرفوا... لأن الإيمان لا يكتمل مع الإسراف ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾، ثم يعيد التحذير من خطوات الشيطان في باب المعيشة كما حذر منها في باب العقيدة: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾.

ثم يُحاكم القرآن منطق التحريمات المصنوعة بمنهجٍ عقليٍّ مكشوف: ثمانية أزواج... من الذي حرّم؟ الذكران؟ الأنثيان؟ أم ما اشتملت عليه الأرحام؟ هاتوا علماً إن كنتم صادقين، ثم يفضح أن أشدّ الظلم افتراءُ كذبٍ على الله لإضلال الناس بغير علم ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ... ﴾، ثم يأتي البيان النبوي الصافي في المحرمات الأساسية في الوحي، وتظهر رحمة الله في الاضطرار بلا فتحٍ لباب التلاعب ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ... فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم يُذكّرك بسُنة التحريم على اليهود عقوبةً على بغيهم ليُفهمك أن الانحراف في التشريع له ثمنٌ تاريخيٌّ وسلوكيٌّ لا يُنسى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ... ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾، ومع التكذيب يبقى باب الرَّحمة مفتوحاً، لكن بأس الله لا يُردّ عن القوم المجرمين ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

ثم يُغلق القرآن باب "الاحتجاج بالقدر" الذي يهرب إليه المتهربون: لو شاء الله ما أشركنا... فيأتي الردّ: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إنما هو ظنّ وخرص، ثم يُعلن القاعدة التي ترفع الغبار: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾، ويأمر

النبي أن لا يشهد معهم شهادةَ زورٍ ولا يتبع الأهواء ولا يُساير من لا يؤمن بالآخرة ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ ... فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ... ﴾، ثم يصل الجزء إلى "الوصايا الجامعة" التي هي قلب الشريعة وميزان الفطرة:

١. توحيدٌ بلا شرك،
٢. إحسانٌ للوالدين،
٣. حفظٌ للأولاد،
٤. طهارةٌ من الفواحش ظاهرها وباطنها،
٥. تعظيمٌ للدماء،
٦. ثم وصايا المال والعدل والوفاء بالعهد،
٧. ثم الخاتمة الجامعة التي تجمع كل ذلك في طريقٍ واحد:
٨. اتّباع الصراط وترك السبل المتفرقة ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... ﴾، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ... وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ... ﴾.

ثم يربط القرآن هذا الوحي بخيط التاريخ النبوي: آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة؛ فلا تقولوا غفلنا، ولا تقولوا لو أنزل علينا لكنا أهدى... فقد جاءتكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ...﴾، ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ... ﴾، ثم يُذكّرك بمشهد "الانتظار القاتل" حين يطلب الناس الآيات عند فوات الأوان، فيقال: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ... ﴾، ويُعلن الموقف من تمزيق الدين إلى شيعٍ وأحزاب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾، ثم يُثبت ميزان الجزاء بالعدل والإحسان: الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها دون ظلم ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

ثم تأتي الخاتمة التي تُلخّص "هوية المسلم" لا بوصفها بطاقة انتماءٍ بل إعلانَ طريق: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً ... ﴾، ثم توحيد الوجهة في الحياة والممات لله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، لا شريك له، وبذلك أُمرت... ثم تقرير المسؤولية الفردية العادلة: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴾، ثم يُختم المعنى بأن ما عندك من تفاوتٍ ودرجاتٍ ليس دليل كرامةٍ مطلقٍ ولا هوانٍ مطلق، بل ابتلاءٌ فيما آتاك الله، مع توازنٍ جليل: سريع العقاب وغفور رحيم ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾.

ثم يفتح الجزء صفحة الأعراف كامتدادٍ طبيعي لا بدايةٍ منفصلة: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ... ﴾، وتبدأ سُنّة القرى التي أهلكت وبأسٌ يأتي بياتاً أو هم قائلون، فيعترف الناس عند الصدمة أنهم كانوا ظالمين ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ...﴾، ثم يُرفع الستار عن مشهد السؤال العظيم: سنسأل المرسَل إليهم والمرسلين، والقصّ بعلمٍ لا غياب فيه، ثم الميزان الحقّ الذي تُوزن به الحياة كلها ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ...﴾، ثم تُذكّر بتمكين الأرض والمعايش وقلة الشُّكر، ثم تعود إلى أصل القصة التي تفسر كل هذا: قصة إبليس مع الكبر، وسجدةٍ رفضها لا لغياب الدليل بل لمرض "أنا خير منه" ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ... ﴾، ثم إعلان الحرب الشيطانية: أقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم المجيء من كل الجهات، ثم قلة الشُّكر ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ... ﴾، ثم قصة آدم والوسوسة وكشف السَّوءات، ليدرك الإنسان أن أول فتنةٍ تبدأ من تزيين المعصية وتسميتها نصحاً، وأن النجاة تبدأ من الاعتراف الصريح: ظلمنا أنفسنا ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ... إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ... ﴾.

ثم يخاطبك القرآن بلسان النداء الإنساني الشامل: يا بني آدم... اللباس... والريش... ولباس التقوى خير، فلا تجعل الفتنة تبدأ من تعرية الستر قبل تعرية القلب ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾، ثم التحذير من فتنة الشيطان كما أخرج أبويك من الجنة، و﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾، ثم يفضح أقدم حيلةٍ لتبرير الفاحشة: "وجدنا عليها آباءنا" ثم "الله أمرنا بها"، فيأتي الفصل العقدي القاطع: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ... ﴾ أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ ، ثم يضع الأصل الجميل الذي يُصلح العبادة والحياة معاً: القسط، وإقامة الوجه عند كل مسجد، والدعاء بإخلاص الدين، ثم تذكير البداية والنهاية: كما بدأكم تعودون ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ... وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴾، ثم تقسيم البشرية إلى فريق هدى وفريق حقت عليه الضَّلالة لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء ويحسبون أنهم مهتدون ﴿ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ... ﴾.

ثم لا يتركك القرآن تظن أن الدين حربٌ على الجمال أو الطيبات؛ يأمرك بالزينة عند كل مسجد، ويأمرك بالأكل والشرب، لكن يقطع دابر الإسراف، ويُسقط ادعاء من يحرّم زينة الله والطيبات بغير سلطان ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... وَلَا تُسْرِفُوا ﴾، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ... ﴾، ثم يردّ التحريم إلى موضعه الحقيقي: الفواحش ظاهرها وباطنها، والإثم، والبغي، والشرك، والقول على الله بلا علم ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ... وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ثم يضع قانون الآجال للأُمم، ويعيد التأكيد على وظيفة الرسل، وأن التقوى والإصلاح هما مفتاح الأمان الحقيقي ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ... فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ... ﴾، ثم يعرض مصير المكذبين المستكبرين، ومشهد الأرواح عند الوفاة والسؤال عن المعبودات، ثم دخول الأُمم النار ولعن بعضها بعضاً، حتى تتجلى عدالة الجزاء بلا رومانسياتٍ

كاذبة ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا ... ﴾، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ... ﴾، ثم يفتح في قلب المشهد باب الرجاء المنضبط:

١. الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها،

٢. ونزع الغل، والحمد لله الذي هدانا لهذا،

٣. ثم الحوار بين الجنة والنار،

٤. ثم موقف الأعراف،

٥. ثم صرخة أهل النار طلب الماء،

٦. ثم الحكم: حُرِّم ذلك على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الدنيا ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ... ﴾، ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾، ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً ... ﴾.

ثم يجيء القانون الذي يربط ختام الأنعام بذروة الأعراف:

لقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، لكنهم لا ينتظرون إلَّا تأويله... وحين يأتي التأويل ينطق النَّدم: قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل؟ ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ... ﴾، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ... ﴾.

ثم يُعاد قلبك إلى معرفة الرَّب الخالق المدبر، دون فلسفةٍ ولا غموض: خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش... له الخلق والأمر... تبارك الله رب العالمين ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، ثم تُعلّمك الآيات أدب الدعاء: تضرعاً وخفيةً بلا اعتداء، وتنهى عن الإفساد بعد الإصلاح، وتفتح لك نافذة الرجاء: رحمة الله قريب من المحسنين ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ... ﴾، ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، ثم يضرب لك مثل الإحياء بالمطر ليوقظ معنى البعث، ثم يفرز الأرض الطيبة والخبيثة ليقول لك:

القلوب كذلك؛ منها ما ينبت شكراً ومنها ما لا يخرج إلا نكداً ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ... ﴾، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ... ﴾.

ثم تبدأ سلسلة القصص في الأعراف لتُثبت أن الصراع واحد والرسل واحدون والحق واحد، وأن تكذيب الحق لا يحتاج حجةً بل يحتاج هوىً وكبراً؛ نوح... ثم هود... ثم صالح... ثم لوط... ثم شعيب، وكلهم يبتدئون بأصل واحد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، ثم يقف الملأ موقف الاستكبار، ثم تأتي العاقبة على قدر الموقف؛ حتى يصل بك هذا الجزء إلى حيث أردت أن يوصلك منذ بدايته: أنك إن لم تُصلح "مصدر التلقي" و"موضع القلب من الوحي" فستظل تدور بين زخرف القول، وتبرير الهوى، وادعاء الإصلاح، إلى أن يأتي يومٌ لا ينفع فيه إيمانٌ مُؤجَّل ولا توبةٌ بلا رصيد.

الخريطة البنيوية للجزء الثامن... من انكشاف الهوى إلى استقامة الصراط

- بداية الرحلة كشفُ حقيقة العناد: ليست المشكلة نقصَ الآيات... بل غيابَ إرادة الإيمان؛ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.
- الصراع سنّةٌ ماضية... فلكل نبيٍّ عدوٌّ، وزخرفُ القول لا يُبهر إلَّا قلباً مهيّأً للغفلة؛ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾.
- معيارُ الحاكمية يُحسم من الداخل قبل الخارج: أي قبل أن يكون سؤالَ أنظمةٍ وقوانين، هو سؤالُ قلبٍ ومرجعية: من الذي أُرجّحه حين تتعارض رغبتي مع أمر الله؟ من الذي أحتكم إليه حين يضيق عليّ الحكم؟ أأبحث عن فتوى تُريح هواي، أم أبحث عن حكمٍ يُرضي ربي؟ فحين يستقر في الداخل أن الله وحده هو الحكم، وأن كلمته تمت صدقاً في الخبر وعدلاً في التشريع، يُغلق باب التلاعب والتفصيل على المقاس، ويصير الانقياد قراراً

قلبياً سابقاً على أي واقعٍ خارجي.. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾... ثم يُغلق الباب بقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾.

- لا تغترّ بالكثرة... فالأكثرية ليست دليلَ حقّ؛ ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾... الكثرة ليست ميزاناً للحق، فالمعيار هو الوحي لا التصفيق؛ قد يجتمع الناس على رأيٍ لأنه أسهل أو أهوى للنفس، لا لأنه أصدق وأقوم... فاثبت على الدليل ولو خالفتك الجموع، فإن الطريق إلى الله يُعرف بالهداية لا بالأغلبية.
- الإيمان ليس دعوى مجرّدة ولا شعاراً يُرفع، بل طاعةٌ تنزل إلى التفاصيل الدقيقة؛ فحين يقول تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم يُحذِّر: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يتبيّن أن الصدق مع الله يُختبر في لقمةٍ قبل أن يُختبر في موقفٍ عظيم، وأن الإيمان الحقيقي يظهر في انضباط الجزئيات قبل ادّعاء الكليات.
- التقوى ليست هيئةً تُرى بل موقفاً داخلياً يُعاش؛ لذلك جاء الأمر شاملاً: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، فليس المطلوب ترك المعصية العلنية فقط، بل اقتلاع جذورها الخفية من النية والقصد، لأن القلب هو ميدان الإصلاح الأول.
- الهداية حياةٌ بعد موتٍ معنوي؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، فهي إحياءٌ للقلب بالنور والبصيرة، أما الضَّلال فظلماتٌ تتراكم حتى يُعتم الداخل ويضيع الاتجاه.
- المكر الاجتماعي ووجود رؤوس الإفساد ليس عبثاً خارج السيطرة، بل سُنّة ابتلاء؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ ليتميز الصَّف وتنكشف المواقف، فالحق لا يسقط بكثرة الماكرين بل يُمتحن ليظهر الثابتون.

- أعظم علامة على الهداية أن يشرح الله صدرك للحق؛ ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وأما الضِّيق من الانقياد فهو إنذارٌ خفي بأن في القلب مقاومة تحتاج مراجعة.
- الصراط بيّنٌ لا اعوجاج فيه؛ ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾، ومن سلكه فالعاقبة له: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فلا يحتاج الطريق إلى التفافٍ بل إلى استقامة.
- التبعية بين الإنس والجنّ، وبين القادة والأتباع، ستنكشف يوم الحشر حين تسقط الأعذار ويتبرأ الجميع، لأن المسؤولية فردية مهما تشابكت التأثيرات.
- الميزان قائمٌ على عدلٍ مطلق؛ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾، ومع ذلك ففضل الله واسع: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، فلا يضيع عمل ولا يُظلم أحد.
- التشريع حقٌّ خالصٌ لله، فلا يُحرَّم ما أحلّ ولا يُحَلَّل ما حرّم بهوى البشر؛ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾، فالمرجعية وحيٌ لا أذواق.
- الوصايا الجامعة تختصر الدين في أصوله الكبرى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾، فهي أعمدة البناء التي يقوم عليها كل فرع.
- القرآن حجةٌ قائمة لا عذر بعدها؛ ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾، فبعد البيان لا يبقى إلا الاختيار.
- لحظة الإغلاق حين تأتي لا تنفع معها الأمنية؛ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾، فالفرصة ما دامت الروح في الجسد.
- وحدة الدين أصل، والتفرق انحراف؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾، فالنجاة في الاتباع لا في التمزق.
- إعلان الهوية الكاملة أن تكون الحياة كلها لله؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فحين تستقيم الوجهة يستقيم التفصيل.

- الاستخلاف امتحان لا امتيازاً فارغاً؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، فالقيمة في حسن الأداء لا في مجرد الامتلاك.
- يُفتتح مشهد الأعراف بتثبيت القلب على النص؛ ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ثم الأمر الصريح: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾، فالاستقامة تبدأ بإزالة الحرج الداخلي.
- مشهد الميزان يردّ الإنسان إلى حقيقته المجردة؛ ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، فلا تنفع الصور ويبقى العمل.
- قصة إبليس تكشف أصل السقوط حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فالكبر والقياس المنفصل عن الوحي بداية كل انحراف.
- باب التوبة مفتوح لمن اعترف بذنبه كما قال آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾، فالاعتراف بداية النجاة.
- لباس الجسد نعمة، لكن الحصن الحقيقي هو الداخل؛ ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، فالتقوى تحمي المصير لا المظهر فقط.
- لا تبرير للفاحشة باسم العادة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، فالميزان وحيٌ لا تقليد.
- التزين والتمتع مشروعان بلا إسراف؛ ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فالدين ينظم النعمة ولا يحاربها.
- مشاهد الجنة والنار تكشف عدل المصير، ونداء الفريقين يوم القيامة يحسم كل وهمٍ بالمساواة بين الحق والباطل.
- الكتاب مفصّلٌ على علم، فمن انتظر كشفه يوم القيامة فقد أخطأ الحساب؛ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، لأن البيان تمّ في الدنيا.

- ربوبية الخلق والأمر تثبّت أصل التوحيد؛ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، فمن خلق هو الذي يحكم ويشرّع.
- الدعاء تضرعٌ وخفية، والإفساد بعد الإصلاح خيانة للأمانة التي أُصلحت، فالقرب من الله خشوعٌ لا استعراض.
- قصص الرسل تؤكد وحدة الرسالة عبر العصور: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، والنهاية دائماً واحدة: نجاة المؤمنين وقطع دابر المكذبين.
- النهاية المفتوحة: الصبر حتى يحكم الله... والثقة أن الحقّ لا يضيع ولو طال الطريق.

المحور الإيماني المركزي لهذا الجزء...

هو إفرادُ الله بالحاكمية والاتباع والتسليم... حتى في أدقّ تفاصيل الحياة؛

١) أن تُسلّم لله لأنّ الحقّ حقٌّ لا لأنّ الناس وافقوه،

٢) وأن تجعل "الكتاب المفصَّل" هو المرجع الذي تُوزن به الأقوال والأهواء والواقع، لا أن يُوزن الوحيُ بأمزجة البشر ولا بضجيج الأكثرية؛ فالكثرة قد تضلّ، وزخرف القول قد يُغرِي، وشياطين الإنس والجنّ قد يلبّسون، لكنّ المؤمن في هذا الجزء يُربَّى على أصلٍ واحدٍ لا يتزحزح: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾،

٣) ثم يُغلَق بابُ التردّد بقانونٍ نهائيّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾؛ صدقاً في الأخبار فلا كذب، وعدلاً في الأحكام فلا جور، فلا يبقى للمؤمن إلا أن يختار:

- إمّا أن يقف تحت نور الوحي فيحيا،
- أو أن يستسلم لزينة الباطل فيمشي في الظلمات وهو يظنّ أنه مهتدٍ.

٤) ثم يربطك الجزء بأنّ الإيمان ليس مشاعرَ مجرّدة ولا انتساباً لفظيّاً، بل طاعةٌ عمليةٌ تظهر حيث يختبرك الله:

- في الحلال والحرام،
- في الطعام والذبح،
- في اجتناب الإثم ظاهرَه وباطنَه،
- وفي رفض التحاكم للهوى ولو كان مُزيّناً باسم الدين؛

لأنّ الشيطان لا يبدأ عادةً بكفرٍ صريح، بل يبدأ بخطوةٍ صغيرة تُسمّى "تساهلاً" ثم تصير "عادة"، ثم تتحوّل إلى "دين" يُفترَى على الله... وهنا تتجلّى دقّة المحور:

← أن تحمي توحيدك من التلوّث الخفيّ،

← وأن تُميّز بين شريعة الله تعالى وبين ما يُسمّيه الناس شريعةً وهو في الحقيقة افتراءٌ وظنٌّ وخرص.

٥) ويأخذك المحور إلى داخل القلب لا إلى ظاهر السلوك فقط: فالهداية ليست معلوماتٍ في الرأس، بل حياةٌ في الصدر، وانشراحٌ يفتحه الله لمن صدق، وضيقٌ يجعل صاحبه يتنفس الإيمان كأنّه يصعد في السماء؛ لذلك يقدّم لك الجزء معياراً داخلياً حاسماً لا خداع فيه: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾...

٦) ثم يضع أمامك طريقاً واحداً لا يتشعب: ﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾، ويُذكّرك أن الاستقامة ليست شعاراً بل اتباعٌ، وأن الاتباع ليس انتقاءً بل تسليمٌ.

٧) ثم ينقل المحور من "الاختيار" إلى "المصير": يوم يجتمع الإنس والجن وتنكشف الشراكات الكاذبة، ويُغلق باب التعلُّل، ويُقال لمن عاش على الأمنيات: لن ينفع إيمانٌ مؤجَّل ولا توبةٌ عند ظهور الآيات الكبرى؛ ليبقى

جوهر المحور واحداً:

← لا تؤجّل تسليمك...

← ولا تُقسّم دينك...

← ولا تجعل ولاءك للهوى ثم تبحث عن فتوى تُشبهه،

لأن الدين في هذا الجزء ليس مساحة تزيينٍ للذات، بل صراطٌ واحد، وميزانٌ حقّ، ونهايةٌ لا تتأخر.

ويختم هذا المحور بإعلان الهوية التي تختصر كل شيء:

← أن تصير حياتك كلها لله لا للهوى،

← وأن تكون عباداتك ومعاملاتك ومواقفك على خطٍّ واحد:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾... فهذه ليست آية ختامٍ فقط، بل تعريف المؤمن في هذا الجزء:

١. إنسانٌ يحمل الكتاب حَكَماً،

٢. ويحمل الصراط طريقاً،

٣. ويحمل الإخلاص هويةً،

٤. ويعرف أن الاستخلاف ابتلاءٌ لا زينة: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها هذا الجزء... مسارات سقوطٍ تبدأ دقيقةً ثم تستحكم

❖ أولاً: الانحراف العقدي...

١. أخطر ما يُصيب القلب أن يُزاحِم اللهَ في الحاكمية والتشريع، فيُطلَب الحكمُ من غيره، أو يُسوَّغ الهوى باسم القدر، أو يُفتَرى على الله تحليلٌ وتحريمٌ بلا سلطان؛ فحين يُقال: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ فالسؤال ليس نظرياً بل وجوديٌّ: من الذي يُحدِّد لك الحقّ؟.

٢. ثم يأتي الإغلاق القاطع: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ فلا يبقى

موضعٌ لتبديلٍ ولا تحريف؛

٣. ومن الانحراف العقدي أيضاً أن يُتَّخذ الشيطان وليّاً ويُظنّ أنه هدى، أو أن يُستكبَر عن آيات الله كما فعل إبليس إذ قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ فكان أصل الضَّلال كِبراً لا جهلاً؛

٤. وأن يُحتجّ بأقدار الله على الشرك كما في قولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ وهو قلبٌ للحقائق وتبرئةٌ للنفس من مسؤوليتها؛

٥. وأن يُفرَّق الدين شيعاً وأحزاباً فيُستبدَل الصراطُ بالسُّبل، مع أن البيان جاء صريحاً: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾.

❖ **ثانياً: الانحراف الأخلاقي...**

١. أن يُفصَل الظاهر عن الباطن، فيُترك الإثمُ إذا خفي ويُجتنب إذا ظهر، بينما الخطاب جاء جامعاً: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾؛

٢. وأن تُرتكب الفاحشة ثم تُبرَّر بالعادة أو تُنسب إلى الله زوراً: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛

٣. وأن يُستباح دمُ الضعيف أو يُؤكل مالُ اليتيم أو يُبخس الناس أشياءهم، مع أن الوصايا المحكمة قرّرت حُرمة النفس والمال والعدل في القول والكيل والميزان؛

٤. ومن الانحراف الأخلاقي أيضاً أن يتحوّل الدين إلى لهوٍ ولعبٍ،

٥. وأن تُغري الدنيا القلب حتى ينسى لقاء يومه، فيُغلق باب التدارك حين لا ينفع النَّدم: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾.

❖ **ثالثاً: الانحراف الاجتماعي...**

١. أن تُدار المجتمعات بزخرف القول وتزيين الباطل، حيث يتواطأ شياطين الإنس والجن على صناعة خطابٍ مُضلِّل: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾؛

٢. وأن تتصدّر "أكابرُ مجرميها" المشهد فيمكرون في القرى ويُلبسون على الناس دينهم؛

٣. وأن يُقاس الحقّ بالكثرة فيُطاع الأكثر ولو أضلّ: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾؛

٤. وأن يُتَّخذ الاتباع الأعمى للآباء معياراً بدل الوحي؛

٥. وأن يُفرَّق الدين شيعاً فتتلاعن الأُمم يوم القيامة بدل أن تتواصى بالحق؛

٦. وأن تُفسد الأرض بعد إصلاحها، مع أن النداء جاء جامعاً بين العبادة والإصلاح: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾.

❖ **رابعاً: الانحراف النفسي...**

١. أن يُغلَق الصدر عن الحقّ حتى يضيق به ضيقاً حرجاً، فيصير الإيمان ثقلاً لا نوراً: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾؛

٢. وأن يعيش الإنسان وهمَ الهداية وهو في الحقيقة يسير خلف خطوات الشيطان، يبرّر انحرافه ويؤوّل باطله حتى يطمئن لنفسه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ فليست كل قناعةٍ هداية، ولا كل شعورٍ بالاطمئنان دليلَ صواب، بل قد يجتمع الغرور مع الضلال في قلبٍ واحد وهو يظن أنه على الطريق.

٣. وأن يُخدَع بزينة العمل حتى يراه نوراً وهو ظلمة؛

٤. وأن يُقيم في داخله كِبرُ إبليس واعتراضُه في صورة مقارنةٍ أو تعالٍ أو رفضٍ لأمرٍ إلهيّ لا يوافق الهوى؛

٥. وأن يُؤجِّل التوبة ويؤمّل النفس حتى يفجأه الميزان الحقّ يوم يُسأل المرسَلون والمرسَل إليهم، ويُوزَن العمل وزناً لا مجاملة فيه: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾.

فهذه الانحرافات ليست حوادث منفصلة، بل خيوطٌ متشابكة:

← يبدأ الانحراف فكرةً تُهوِّن سلطان الوحي،

← ثم يتسلّل إلى خُلُقٍ يُبرَّر،

← ثم يصير ثقافةً اجتماعية،

← ثم يستقرّ في نفسٍ لا تشعر أنها انحرفت...

← حتى يُحسم الطريق بنداءٍ جامعٍ لا لبس فيه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾...

← فإمّا أن يكون اللهُ تعالى وحده المرجعَ والمقصدَ والهوية،

← وإمّا أن تتفرّق المسارات ويبدأ الانحراف من حيث لا يُظَنّ.

ملامح الشخصية التي يصنعها هذا الجزء...

شخصيةٌ موحِّدةٌ في الاعتقاد، مستقيمةٌ في الاتباع، واعيةٌ في الصراع، مطمئنةٌ في المصير

١. إنها شخصيةٌ لا تنخدع بزخرف القول ولا تُربكها كثرةُ الأصوات، لأنها حسمت مرجعيتها من الداخل قبل أن تُحاصرها المؤثرات من الخارج؛ شخصيةٌ تعرف أن الهداية ليست استجابةً للمعجزات بل خضوعاً للحقّ، ولذلك لا تُعلِّق إيمانها على المشاهد الخارقة، بل تُسلِّم لسنّة الله في القلوب كما جاء البيان: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ... مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾؛ فهي لا تطلب الإيمان إثارةً، بل اختياراً واعياً.

٢. وهي شخصيةٌ تحسم قضية الحاكمية بلا تردّد، فلا تتلوّن مع المزاج العام، ولا تُساوم في مصدر الحكم، لأن سؤالها الوجودي قد استقرّ: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾؛ ثم تُطمئن قلبها بأن الكلمة قد تمّت وانتهى الجدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾؛ فهي لا تعيش في قلقٍ تشريعي، ولا تبحث كل يومٍ عن مرجعٍ جديد، بل تقف على أرضٍ ثابتةٍ من الوحي.

٣. وهي شخصيةٌ لا تُقاس بالكثرة ولا تنحني لضغط الجماهير، لأن معيارها ليس العدد بل الصراط؛ تسمع التحذير الإلهي فترسّخه في وعيها: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾؛ فتتعلّم أن الحقّ قد يكون غريباً، وأن الثبات قد يكون وحيداً، وأن الطريق المستقيم لا يتكاثر بالسَّالكين بل يُعرف بوضوحه.

٤. وهي شخصيةٌ دقيقةٌ في طاعتها، لا تفصل بين الكبير والصغير من الأوامر، لأن الإيمان عندها يظهر في التفاصيل كما يظهر في الشعارات؛

←تعرف أن ذكر اسم الله على الذبيحة ليس مسألة شكلية بل إعلان ولاء،

←وأن اجتناب الحرام ليس تشدّداً بل عبودية،

←وأن الأمر بترك الظاهر والباطن معاً ميزانُ صدق: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾؛ فهي تُراقب داخلها كما تُهذّب ظاهرها.

٥. وهي شخصيةٌ حيةُ القلب، معيارها في ذاتها لا في ألسنة الناس؛ فإن وجدت صدرها ينشرح للحقّ علمت نعمة الله عليها، وإن وجدت ضيقاً راجعت نفسها قبل أن تُراجع النصّ، لأن البيان واضح: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾؛ فهي تفتّش عن حياة القلب لا عن مظهر الالتزام.

٦. وهي شخصيةٌ لا تُغريها الشراكات الزائفة ولا تتذرّع بالقدر لتبرير الخطأ، ولا تقول كما قالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾؛ بل تتحمّل مسؤوليتها كاملةً، وتعلم أن الاحتجاج بالقدر بعد المعصية ليس إيماناً بل هروباً.

٧. وهي شخصيةٌ تعرف أن الطريق واحدٌ لا يتجزأ، وأن تعدّد السُّبل تفرّقٌ لا تنوّع، فتجعل شعارها قاعدةً جامعة: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾؛ فلا تعيش التديّن الانتقائي، ولا تختار من الدين ما يوافق مزاجها وتترك ما يثقل عليها.

٨. وهي شخصيةٌ متزنةٌ في نظرتها للدنيا، تأخذ الزينة بلا إسراف، وتتمتع بالطيبات بلا اعتداء، لأنها تسمع النداء: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... وَلَا تُسْرِفُوا ﴾؛ فتجمع بين الجمال والانضباط، بين الإباحة والحدّ.

٩. وهي شخصيةٌ واعيةٌ بسُنّة الصِّراع، لا تفاجئها مقاومةُ الباطل، ولا تُحبطها كثرةُ الماكرين، لأنها قرأت أن لكل قريةٍ أكابرَ مجرميها، وأن قصص الرسل ليست تاريخاً بل خريطةَ وعيٍ متكررة؛ فتعلم أن الثبات ليس استثناءً بل وظيفة.

١٠. وهي شخصيةٌ تتذكّر المصير قبل القرار، تستحضر مشهد الميزان قبل أن تخطو، وتسمع في أعماقها: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾؛ فلا تُغريها مكاسبُ لحظةٍ تُثقِل ميزاناً خاسراً، ولا تستهين بحسنةٍ صغيرةٍ قد تُرجِّح الكفة.

١١. وهي شخصيةٌ موحِّدةُ الهوية لا مزدوجةُ الوجه، تختم رحلتها بإعلانٍ جامعٍ لا يقبل القسمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فتصير حياتها كلّها عبادة، وقراراتها كلّها منضبطةً بالولاء لله، لا للمزاج ولا للضغط ولا للمصلحة.

١٢. مرجعيةٌ ربانية خالصة: يتلقى عن الله قبل الناس، ويستقبل الوحي بلا حرجٍ داخلي ولا مقاومة خفية، لأن الأصل عنده: هذا كتابٌ مُنزّل يُتَّبع لا يُنتقى منه.

١٣. اتباعٌ منضبط لا تشظّي فيه: لا يجعل قلبه موزعاً بين أولياء الشَّهوة والهوى والجماعة، بل يزن كل صوت بميزان ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾.

١٤. يقظةٌ من وهم الأمان: لا يغترّ بالإمهال ولا بطول العمر، ويتذكر أن الأخذ قد يأتي بغتة، فيبادر قبل أن يُغلق باب التدارك.

١٥. محاسبةٌ قبل الحساب: يعيش بوعي الميزان: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، فيجعل ثقله الحقيقي في العمل الخالص لا في الصورة الظاهرة.

١٦. تواضعٌ يحميه من السقوط: يرى في قصة إبليس تحذيراً دائماً من "أنا خير"، فيخاف من الكِبر أكثر من خوفه من الخطأ العابر.

١٧. سرعةُ رجوعٍ بلا تبرير: يتعلم من آدم أن النجاة في قول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، لا في صناعة الأعذار.

١٨. هويةٌ أخلاقية متوازنة: يجمع بين الزينة المشروعة ولباس التقوى، بين التمتع المباح وترك الإسراف، بلا تشددٍ مصطنع ولا انفلات.

١٩. حذرٌ من وهم الهداية: يخاف أن يكون متبعاً للشيطان وهو يظن نفسه مهتدياً، فيراجع نيته ومساره باستمرار.

٢٠. وعيٌ بالعداوة والابتلاء: يدرك أن الفتنة سُنّة مستمرة، فيستعدّ لها بالذكر والعلم والصحبة الصالحة.

٢١. توحيدٌ شامل للحياة: يؤمن أن ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، فلا يفصل بين الإيمان بالربوبية والانقياد للأمر.

٢٢. أدبٌ في الدعاء والسلوك: يدعو تضرعاً وخفية، ويجتنب الإفساد بعد الإصلاح، ويجمع بين الخوف والطمع.

٢٣. ثباتٌ على منهج الرسل: شعاره الدائم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، فيبقى موحداً، مستقيماً، صابراً حتى النهاية.

هكذا يصنع هذا الجزء شخصيةً مستقيمةَ المرجع، يقظةَ القلب، منضبطةَ السلوك، ثابتةَ الموقف، واضحةَ الهوية... شخصيةً تمشي في الناس بنور، لأنها اختارت الصراط قبل أن تختار الخطوة، واختارت الله تعالى قبل أن تختار نفسها.

هذه الشخصية ليست مثالية متخيَّلة، بل إنسانٌ يصنعه الوحي: مرجعيته الله، ميزانه الآخرة، وعدوّه الكِبر، وطريقه التوبة والاستقامة.

أمراض القلوب التي يعالجها هذا الجزء...

- هذا الجزء يعالج في العمق مرض "الاشتراط على الله"؛ ذلك القلب الذي يقول: لن أؤمن حتى أرى، لن أستقيم حتى تُفتح لي الأبواب، لن ألتزم حتى يأتيني دليلٌ على مقاس شهواتي، فيأتي القرآن ليكسر هذا الوهم من جذوره: حتى لو نزلت الملائكة، وحتى لو كُلِّم الموتى، وحتى لو حُشر كل شيءٍ أمام العين، فالقضية ليست نقصَ آيةٍ بل فسادَ قابلية، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾؛ فيتعالج قلبُك من داء "لو رأيتُ لآمنت" إلى "إن صدقتَ الله هداك"، ومن داء تعليق الإيمان على المشاهد إلى داء تسليم القلب للوحي.
- ويعالج هذا الجزء مرض السَّذاجة أمام "زُخرف القول"؛ القلب الذي يُفتن بالألفاظ المنمّقة، ويُخدَر بالخطاب الناعم، ويحسب أن كل كلامٍ جميلٍ حقّ، فيأتي التحذير من شبكات التضليل: شياطين إنس وجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ليسوا مجرد أفرادٍ عابرين بل منظومةُ فتنةٍ تُدار، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾؛ فيُشفى القلب من مرض "الثقة العمياء بالمتكلم" إلى ميزان "الدليل والحق"، ويُشفى من مرض الانبهار بالأسلوب إلى فقه السُّنن: **أن طريق الأنبياء محفوفٌ بالأعداء والتشويش.**
- ويعالج هذا الجزء مرض الميل النفسي للباطل بسبب ضعف الآخرة في القلب؛ فالقلب إذا خفَّ يقينه بالدار الأخرى صار سريعَ التصديق للزينة وسريعَ الرضا بالوهم وسريعَ الوقوع في الإثم، ولذلك يفضح القرآن سِرَّ انجذابهم: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾؛ فيُداوى القلب من داء "التساهل مع الباطل لأنه

لطيف" إلى يقظة: كل تزيينٍ يقود إلى اقتراف، وكل اقترافٍ يقود إلى قلبٍ يتبلّد ثم يجرؤ على الله تعالى.

- ويعالج هذا الجزء مرض "طلب التحاكم لغير الله"؛ مرض القلب الذي يتهرّب من حكم الوحي إذا خالف هواه، ويبحث عن قاضٍ يوافق رغباته، أو عن معيارٍ يريح ضميره، فيأتي السؤال القاطع الذي يقطع كل مسالك الالتفاف: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾؛ هنا يُشفى القلب من داء "أُفتي لنفسي" إلى عبودية التسليم، ومن داء "أحتكم لذوقي" إلى أن يكون القرآن هو المرجع الأعلى في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والحلال والحرام.
- ويعالج هذا الجزء مرض الشَّكّ في صدق الوحي وعدله؛ ذلك القلب الذي يظن أن أحكام الله قابلة للتبديل بتبدّل الأذواق، أو أن الحق نسبيّ، أو أن العدل يتغير حسب المصالح، فيجيء التصحيح الجازم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ فيُصلح القلبَ من مرض "التشكيك" إلى الطمأنينة بأن شريعة الله حقٌّ وصدقٌ وعدلٌ، لا تحتاج شهادة بشرٍ لتثبت، ولا إذن زمانٍ لتستقيم.
- ويعالج هذا الجزء مرض "عبادة الأكثرية"؛ القلب الذي يجعل الكثرة دليلاً، ويحسب أن الصواب حيث اجتمع الناس، فيأتي الإنذار الصريح من فتنة الجمهور: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "الانقياد للتيار" إلى استقلالية الحق، ومن داء "ماذا يقولون عني" إلى "ماذا يريد الله مني"، ويُشفى من مرض تحويل الظن والتخمين إلى دين: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.
- ويعالج هذا الجزء مرض التلاعب بالحلال والحرام باسم "العرف" أو "الذوق" أو "الفتوى المريحة"؛ فتجيء آيات الطعام والذبح لتُذكّر أن

باب الحلال والحرام ليس مجال اختراع، وأن التفصيل من الله، وأن الهوى يُضل بلا علم، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ويأمر بترك الإثم ظاهراً وباطناً لأن مرض القلب الحقيقي ليس في السلوك الظاهر فقط، بل في السرائر التي تُغذّي السلوك، ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾؛ فيُعالج القلب من داء "التدين الشكلي" إلى خوفٍ من باطن الإثم: الرياء، والكبر، والحسد، وتبرير المعصية، والاستهانة بالمحرمات إذا خلت العيون.

- ويعالج هذا الجزء مرض "التزيين الشيطاني للجدل"؛ أن تُصبح المعصية مشروعَ مناظرة، وأن يتحول الحرام إلى نقاشٍ لتمييع اليقين، ولذلك يُصرّح بأن الشياطين يوحون لأوليائهم ليجادلوكم، وأن طاعة هذا المسار في التشريع شركٌ في الطاعة والاتباع لا شركَ عبادةٍ بالضرورة، لكنه بابٌ خطيرٌ من أبواب صرف الحكم عن الله إلى غيره، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أنا أجادل لأفهم" حين يكون الجدل ستاراً للهوى، إلى خلق التسليم حين يتبيّن الحكم.
- ويعالج هذا الجزء مرض "موت القلب"؛ القلب الذي يعيش بجسدٍ حيٍّ وروحٍ ميتة، لا نور له، لا بصيرة، لا فرقان، فيأتي التصوير القرآني الذي يقلب المعايير: المؤمن حيٌّ بنور الله والكافر في ظلماتٍ لا يخرج منها، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾؛ فيُعالج القلب من داء "الاعتياد على الظلمة" إلى شوق النور: نور الإيمان، ونور القرآن، ونور التوبة، ونور الاستقامة.
- ويعالج هذا الجزء مرض "الانبهار بأكابر المجرمين"؛ إذ يبيّن أن في كل قريةٍ كباراً يقودون المكر ويصنعون التضليل، وأن كثيراً من الفتن لا يقودها الجهلة

فقط بل يقودها أصحاب النفوذ والقدرة والدهاء، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾؛ فيُشفى القلب من مرض "تقديس الأقوياء" إلى إدراك أن الكِبر والجريمة قد يسكنان المقاعد العالية، وأن المكر يعود على صاحبه ولو لم يشعر.

- ويعالج هذا الجزء مرض "الاعتراض على اختيار الله"؛ حين يقولون لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، فيأتي التأديب: الله أعلم حيث يجعل رسالته، فليس الدين منصباً تُطالب به **الأنا**، ولا فضلاً تُفاوض عليه **النفوس**، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "لماذا هو وليس أنا" إلى الرضا بقسمة الله، ومن داء الحسد إلى تعظيم الحكمة الإلهية.
- ويعالج هذا الجزء مرض "ضيق الصدر عن الإسلام"؛ ذلك الضيق الذي يتوهم صاحبه أنه "حرية فكرية" وهو في الحقيقة حرجٌ داخلي من الانقياد، فيبين القرآن أن شرح الصدر هدايةٌ من الله يطلبها العبد بصدق، وأن الضيق علامة خذلانٍ بسبب الإعراض، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾؛ فيُشفى القلب من مرض "تبرير الضيق" إلى سؤال الله الشرح، ومن مرض "الاستثقال" إلى تذوق حلاوة التسليم.
- ويعالج هذا الجزء مرض "التشظي الديني"؛ مرض تحويل الدين إلى شيعٍ وأهواء ومساراتٍ متناحرة، يتفرق الناس فيها باسم الدين لا باسم الهوى الصريح، فيأتي التحذير الصارم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ فيُعالج القلب من داء "التعصب للأسماء" إلى تعصبٍ للحق، ومن داء احتقار المخالف إلى خوفٍ على النفس من التفرق الذي يقطع نور الهداية ويبدد قوة الأمة.

- ويعالج هذا الجزء مرض "الشرك الخفي في المقاصد"؛ أن يعيش الإنسان لله بالاسم ولغير الله بالفعل؛ فتأتي الآية الجامعة التي تُعيد توحيد القلب كله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "ازدواجية الحياة" إلى وحدة الوجهة، ومن داء أن يكون الدين جزءاً من حياته إلى أن تكون حياته كلها لله، نيةً وعملاً وقراراً ومساراً.
- ويعالج هذا الجزء مرض "تعليق الذنب على القدر"؛ حين يقول المشركون لو شاء الله ما أشركنا، فيرد القرآن بأن هذا ظنٌّ وخرص، وأن الاحتجاج بالقدر لإبطال التكليف هو من أخلاق المكذبين، وأن لله الحجة البالغة، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أبرّر معصيتي بالقدر" إلى تحمل المسؤولية، ومن داء الهروب من التوبة إلى الاعتراف والإنابة.
- ويعالج هذا الجزء أمراض القسوة والظلم الاجتماعي في الوصايا الجامعة؛ لأنه حين يضع لك المحرمات الكلية يُطهّر القلب من أصول الفساد: الشرك، وقطيعة الوالدين، وقتل الأولاد، والفواحش، والقتل بغير حق، وأكل مال اليتيم، وبخس الكيل والميزان، وظلم القول وشهادة الزور، ونقض عهد الله، ثم يختمها بوحدة الطريق ورفض السبل المتفرقة، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ فيُشفى القلب من داء التدين الانتقائي إلى دينٍ كاملٍ متماسك، ومن داء العبادة المنعزلة عن الأخلاق إلى عبوديةٍ تُصلح علاقتك بالله وبالناس وبالضعفاء وبالحقوق.

- ويعالج هذا الجزء مرض "الغفلة عن الامتحان"؛ فكل ما آتاك الله به ابتلاء، والدرجات عند الله ليست بحسب الصورة بل بحسب العمل، والوعيد آتٍ لا محالة، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، ويضع في قلبك توازناً عقدياً لا يختل: الله تعالى سريع العقاب لمن استحق، وهو غفور رحيم لمن تاب وآمن وأصلح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ فيُشفى القلب من داء الأمن الكاذب ومن داء اليأس القاتل معاً، ويستقيم على الرجاء والخوف كما يحب الله.
- ويعالج هذا الجزء ـ في امتداده إلى فاتحة الأعراف ـ مرض "الحرج من القرآن"؛ ذلك القلب الذي يشعر بثقلٍ داخلي كلما اقتربت منه آيةٌ تُنذِر أو تُقيّد شهوةً أو تُحاسب عادةً، فيسمّي هذا الثقل "توازناً" أو "تعقّلاً" وهو في الحقيقة ضيقٌ من سلطان الوحي على النفس، فيأتي التثبيت الإلهي للنبي ﷺ ولأُمته من بعده: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أقرأ بلا انقياد" إلى نور "الإنذار والذكرى"، ومن داء النفور من نصوص التحذير إلى فهمٍ تربوي عظيم: أن القرآن لم ينزل ليُرضي مزاجك بل ليُنقذك من نفسك، وأن الضيقَ من الخطاب ليس دليلاً على قسوته بل دليلٌ على مقاومة القلب للحق.
- ويعالج هذا الجزء مرض "ازدواجية الاتباع"؛ أن يزعم المرء أنه تابعٌ للوحي، ثم إذا تعارض أمرُ الله مع هوىً أو عادةٍ أو ضغط جماعةٍ قدّم "أولياء" من دون الله: مؤثراً، أو شيخَ ذوق، أو جماعة، أو عرفاً، أو نظاماً اجتماعياً يُطاع ويُتّبع في مخالفة الحق، فيأتي الأمر الحاسم الذي يقطع كل علاقةٍ تُنازع الوحي مرجعيته: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أطيع الله ما وافقني" إلى

عبودية الاتباع الكامل، ومن داء ''التدين الانتقائي'' إلى دينٍ مستقيمٍ لا تتحكم فيه الأسماء ولا الأشخاص بل يتحكم فيه النص والهدى.

- ويعالج هذا الجزء مرض ''الأمان الكاذب من بأس الله''؛ ذلك القلب الذي يستطيل العمر ويؤجل التوبة ويستبعد المفاجأة، وكأنه ضمنياً يقول: لن يُؤخذ أحدٌ حتى تُقام له مقدماتٌ طويلة، فيأتي القرآن يصدمك بسُنّة الهلاك حين تنطفئ اليقظة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء ''سأرجع لاحقاً'' إلى خوفٍ حيٍّ يجعل التوبة عاجلة، ومن داء الغفلة عن المباغتة إلى يقينٍ يوقظك: أن الله يُمهل ولا يُهمل، وأن الأمنَ من مكر الله من أخطر أمراض القلوب.
- ويعالج هذا الجزء مرض ''الاعتذار بعد فوات الأوان''؛ القلب الذي لا يقول: ظلمتُ نفسي إلَّا حين يرى العذاب واقعاً، ولا يعترف إلَّا حين يسقط الغطاء، فيصير اعتذاره مجردَ صرخة نجاة لا توبةَ صدق، فيكشف القرآن حقيقة دعواهم عند مجيء البأس: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء ''سأعتذر حين أُحاصر'' إلى داءٍ مضاد: ''سأعترف وأنا آمنٌ قبل أن أُؤخذ''، لأن الاعتراف المتأخر قد يكون ندمَ خوفٍ لا ندمَ إنابة، بينما الله تعالى يريد منك توبةَ حياةٍ لا توبةَ احتضار.
- ويعالج هذا الجزء مرض ''الغفلة عن السؤال''؛ ذلك القلب الذي يعيش وكأنَّ الحسابَ بعيدٌ أو خاصٌّ بالآخرين، فيبني حياته على النسيان، فيأتي التهديد الذي يُسقط وهم الإفلات: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء ''أنا لا أُسأل'' إلى شعورٍ مُقيم بالمسؤولية، ومن داء التهرُب من محاسبة النفس إلى عبادةٍ عميقة: أن تُحاسب نفسك اليوم قبل أن تُسأل غداً، وأن تسألها: ماذا أجبتَ حين

دُعيتَ؟ وماذا فعلتَ حين بُيّن لك الحق؟.

- ويعالج هذا الجزء مرض "سوء الظن بعلم الله"؛ القلب الذي يتخيّل أن كثيراً من التفاصيل تضيع أو تُنسى أو لا تُحصى، فيتساهل في السَّرائر لأن العيون لا ترى، فيأتي التقرير الذي يثبت إحاطة العلم الإلهي: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "لن يُلاحظ أحد" إلى يقين "الله يرى"، ومن داء الاسترسال في الخفاء إلى مراقبةٍ تُطهّر: لأن الذي سيقصُّ عليك عملك هو الذي لم يغب عن لحظةٍ من لحظات قلبك.
- ويعالج هذا الجزء مرض "الاستهانة بميزان الأعمال"؛ ذلك القلب الذي يظن أن النجاة بالشعارات، أو بالانتساب، أو بكثرة الكلام عن الدين، فيأتي الميزان الذي لا يظلم ذرة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أظنني بخير لأنني أشعر" إلى منطق "أين الأثقال؟"، ومن داء الاستهانة بالظلم - ولو كان ظُلمَ النفس بتضييع الآيات - إلى خوفٍ يجعل العمل أثقل من القول.
- ويعالج هذا الجزء مرض "نسيان النعمة"؛ ذلك القلب الذي يظن أن ما في يده حقٌّ مكتسبٌ بذاته، فيُصبح قليل الشُّكر سريع الاعتراض، فيُذكّرك القرآن بأصل التمكين والمعايش: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أنا صنعتُ نفسي" إلى اعتراف "هو الذي مكّن"، ومن داء الاستغناء عن الله إلى خُلق الشُّكر الذي هو بوابة مزيد الهداية ومزيد الثبات.
- ويعالج هذا الجزء - عبر قصة إبليس - مرض "الكِبر المؤسّس"؛ ذلك الداء الذي لا يظهر فجأة في السلوك، بل يُزرع كفكرةٍ في القلب: أنا خيرٌ من غيري، فيتضخم حتى يصير اعتراضاً على أمر الله، فيكشف القرآن أصل

السقوط: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ثم يأتي الحكم الذي ينسف كل كبرياء: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "ترتيب الخلق معيار للفضل" إلى فقه "الفضل بالتقوى والطاعة"، ومن داء التعالي الخفي إلى تواضعٍ يعرف أن أول معصيةٍ في الكون كانت كِبراً لا شهوة.

- ويعالج هذا الجزء مرض "إلقاء اللوم على قدر الله لتبرير الانحراف"؛ وهو نفس المنهج الذي تكرر في الأنعام: تعليق الذنب على المشيئة، لكن الأعراف تكشف كيف يتكلم إبليس بهذا المنطق في صورةٍ أخرى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أنا ضحية" إلى تحمل المسؤولية، ومن داء التهرُّب من التوبة إلى الاعتراف بأن الله يهدي من صدق، وأن الضَّلال ثمرة اختيارٍ وإعراضٍ لا حجةَ قدرٍ تُسقط التكليف.
- ويعالج هذا الجزء مرض "الاغترار بتعدد طرق الإغواء"؛ فالشيطان لا يأتيك من بابٍ واحد، بل يطوف عليك من الجهات كلها حتى يطفئ الشكر في قلبك: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أنا أعرف مدخل الشيطان" إلى يقظةٍ شاملة، ومن داء الغفلة عن أبواب الفتنة الدقيقة إلى عبادة الشُّكر بوصفها حصناً: فالشُّكر ليس كلمة، بل يقظةٌ تُغلق المنافذ.
- ويعالج هذا الجزء مرض "سوء الفهم للتوبة"؛ فليست التوبة كلمة اعتذارٍ فقط، بل رجوعٌ صادقٌ يُقرّ بالذنب ويطلب المغفرة والرحمة، فيأتي نموذج آدم وحواء عليهما السلام بعد السقوط ليعيد تعريف الإنابة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ فيُشفى القلب من

داء "تسويغ الزَّلة" إلى صدق الاعتراف، ومن داء اليأس بعد الخطأ إلى باب الرجوع المفتوح: **اعترافٌ** + **استغفارٌ** + **رجاءٌ** + **إصلاحٌ**.

- ويعالج هذا الجزء مرض "فتنة التعري المعنوي قبل المادي"؛ إذ يبيّن أن أول ما يفعله الشيطان أن ينزع ستر القلب قبل ستر الجسد، وأن كشف السَّوءات يبدأ من الداخل، فيُحذّرك من تكرار المشهد الأول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾؛ ثم يعطيك ميزاناً جامعاً: قد تلبس أبهى الثياب وقلبك عارٍ، وقد تكون بسيطاً وقلبك مستور، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أحمي صورتي وأنسى سريرتي" إلى ستر التقوى، ومن داء الانشغال بالشكل عن الجوهر إلى فقه: الستر الحقيقي هو التقوى.
- ويعالج هذا الجزء مرض "نسبة الفاحشة إلى الله"؛ وهو من أخطر أمراض القلوب: أن يلبس الإنسان شهوته ثوب القداسة، ويجعل معصيته "شرعاً" بحجة العرف أو التراث أو المزاج العام، فيأتي القطع الإلهي الذي ينزّه الله عن ذلك: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أُشرعن خطئي" إلى تعظيم الله وتنزيهه، ومن داء الكذب على الله إلى خوفٍ من أعظم الذنوب: ﴿أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كما قررها هذا الجزء نفسه.
- ويعالج هذا الجزء مرض "تحويل العبادة إلى طقس بلا قسط"؛ فالدين ليس انفصالاً عن العدل، بل إقامةٌ للوجه وإقامةٌ للميزان، ولذلك يربط بين الإخلاص والقسط: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أعبد ثم أظلم" إلى عبوديةٍ تُصلح العدالة في القول والفعل، ومن داء التدين الذي يكتفي

بالهيئة إلى دينٍ يجمع الإخلاص والإنصاف معاً.

- ويعالج هذا الجزء مرض "وهم الهداية مع ولاية الشيطان"؛ أن يظن الإنسان أنه على طريقٍ مستقيم لأنه متديّنٌ أو منضبطٌ ظاهرياً، بينما ولاؤه الداخلي للشهوات وللتزيين وللمعصية، فيأتي التشخيص الصادم: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾؛ فيُشفى القلب من داء "أنا بخير لأنني أظن" إلى فقه "الولاية معيار"، ومن داء الغرور الإيماني إلى خوفٍ يجعل الإنسان يفتش: من وليّي حقاً؟ ومن الذي يقود قراري حين أضعف؟.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق... أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات...

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أتعامل مع الهداية كأنها "عرضٌ خارق" لا يقع إلا إذا رأيتُ ما يُرضيني، بينما هذا الجزء يفضح عقلية الاشتراط: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؟ وهل عندي في العمق نسخةٌ لطيفة من "لن ألتزم حتى..." بدل أن أصدق الآن وأمشي؟.

٢) هل أتخفّف من سلطان الوحي حين يضيق صدري، فأبحث عن مرجعٍ يريح هواي، بينما القرآن يقطع الطريق: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾؟ وهل عندي استعدادٌ أن أُسَلِّم لا أن أُفاوِض، وأن أرجع إلى حكم الله ولو كرهت نفسي؟.

٣) هل صرتُ أقدّس ''الكثرة'' وأقيس الحق بالمزاج العام، ثم أتعجب إذا تهتُ في الطريق، مع أن التحذير صريح: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ وهل أملك شجاعة أن أكون مع الحق ولو قلّ السَّالكون، أم أني عبدُ ''ماذا يقولون''؟.

٤) هل تنطلي عليّ الكلمات المُلمَّعة، فأُفتَن بالأسلوب وأغفل عن الحق، بينما هذا الجزء يعرّي شبكات التزيين: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾؟ وهل أراجع مصادر ''التزيين'' في حياتي قبل أن يسرقوا قلبي من غير شعور؟.

٥) هل في داخلي ميلٌ خفيٌّ لتبرير الذنب بالقدر والظروف، بدل أن أتحمل مسؤوليتي، مع أن الوهم يُفضَح: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾؟ وهل أتوب لأن الله أمرني، لا لأن الجوّ صار مناسباً، ولا لأن الناس رضوا؟.

٦) هل أقع في ازدواجيةٍ مُخادِعة: عباداتٌ في الظاهر، لكن ولاءٌ وقرارٌ ومرجعيةٌ لغير الله في الباطن، بينما هذا الجزء يُريدني موحَّداً: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾؟ وهل أعيش لله ''كلّي'' أم أُعطيه جزءاً وأترك بقية حياتي للهوى والناس؟.

٧) هل أشعر بحرجٍ من آيات الإنذار والحدود، فأتهرّب نفسيّاً من القرآن، بينما فاتحة الأعراف تُصحّح هذا الداء: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾؟ وهل أهرب من الآية التي تُربّيني بحجة ''لا أطيق''، أم أستعين بالله وأثبت؟.

٨) هل أُظهر التقوى في الصورة وأغفل عن التقوى في السَّريرة، بينما الأعراف يضع الميزان الحقيقي: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾؟ وهل سترُ قلبي أعظم عندي من ستر جسدي، أم أني مشغولٌ بالمظهر عن الجوهر؟.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) انكشف قلبي حين اكتشفت أن اعتراضي أحياناً ليس على "الفعل" بل على "الحكم"، وأنني أتحسس من سلطان الوحي على هواي، مع أن الأصل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾... وانكشف حين رأيت أن مشكلتي ليست نقص فهمٍ فقط، بل نقص تسليمٍ وصبرٍ على التربية القرآنية.

٢) انكشف قلبي حين وجدتني أجادل لأهرب لا لأفهم، وأبحث عن مخارج تُسكّن ضميري، بينما القرآن يُعرّي مصدر الجدل: ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾. وانكشف حين فهمت أن بعض "النقاشات" ليست طلباً للحق، بل محاولة لتأخير الطاعة.

٣) انكشف قلبي حين أحسست أنني أتأثر بالكلمة الجميلة ولو كانت باطلة، وأُقدّم الإعجاب على الدليل، مع أن الفتنة تبدأ من: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾... وانكشف حين أدركت أن النبرة قد تُسْكِر القلب إذا ضعف فيه ميزان الآخرة والبصيرة.

٤) انكشف قلبي حين رأيت التساهل في "باطن الإثم" أكثر من ظاهره: نيةٌ مريضة، أو كبرٌ لطيف، أو حسدٌ صامت، والآية لا تُجامِل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.. وانكشف حين أيقنت أن أخطر معصيتي قد لا يراها الناس، لكنها تُهلكني عند الله تعالى إن تُركت.

٥) انكشف قلبي حين استوحشت طريق الحق إذا قلّ السَّالكون، واستأنست بالتيار ولو كان هشّاً، مع أن التحذير حاسم: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾... وانكشف حين فهمت أن "راحة الانتماء للكثرة" قد تكون بوابة ضياعٍ باسم الأمان الاجتماعي.

٦) انكشف قلبي حين وجدت في داخلي رغبة أن تُؤجَّل الاستقامة حتى "يصفو الجو" أو "تهدأ الدنيا"، بينما الهداية نفحة صدقٍ من الله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾... وانكشف حين علمت أن الصدر يُشرح بالطاعة لا بالمزاج، وبالصدق لا بالظروف.

٧) انكشف قلبي حين لاحظت أن بعض السقوط يبدأ من "نزع الستر" خطوة خطوة، لا من المعصية الفجّة، كما وصف الأعراف: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾... وانكشف حين أدركت أن أول ما ينهدم في الفتنة هو الحياء الداخلي قبل الحدود الظاهرة.

❖ أي آية أربكتني؟

١) أربكتني آية الاشتراط؛ لأنها قالت لي بوضوح إن المشكلة قد تكون في "قابلية القلب" لا في "قوة الدليل": ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وأربكتني لأنني رأيت نفسي أحياناً أؤجل الصدق بحجة "أحتاج علامة"، والحق أنني أحتاج توبة.

٢) أربكتني آية التحاكم؛ لأنها نزعت كل تبريرٍ أنيق، وواجهتني بالسؤال الذي لا يرحم الهوى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾... وأربكتني لأنني أدركت أن أي التفافٍ على الحكم هو التفافٌ على معنى العبودية نفسه.

٣) أربكتني آية "الشِّرك في الطاعة"؛ لأنها بيّنت أن الانسياق في التشريع والاتباع بابٌ خطير: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾... وأربكتني لأنني قد أظن الأمر صغيراً: "مجرد مجاملة" أو "مسايرة"، وهو عند الله جرحٌ في التوحيد.

٤) أربكتني آية "موت القلب ونوره"؛ لأنها قلبت الموازين: قد أضحك وأتحرك وأبدو حيّاً، وأنا ميتٌ بلا نور: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾... وأربكتني

لأنني شعرت أن النور ليس معلومةً تُحفظ، بل حياةٌ تُعاش وطريقٌ يُسلك.

٥) أربكتني آية "وحدة الطريق"؛ لأنها جرّدتني من حُبّ التلوّن، وألزمتني بالصراط الواحد لا بالمسارات المريحة: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾... وأربكتني لأنني رأيت كيف تتحول السُّبل المتفرقة إلى تبريراتٍ متراكمة تُضيّع القلب.

٦) أربكتني آية "الحرج من القرآن"؛ لأنها قالت لي: لا تجعل ضيقك حُجة، بل اجعله موضع علاج: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾... وأربكتني لأنها كشفت أن بعض النفرة ليست من صعوبة الآية، بل من مرضٍ قديم في النفس.

٧) أربكتني آية "الكذب على الله"؛ لأنها أغلقت باب التجميل والتسويغ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾... وأربكتني لأنها جعلتني أرتعد من تبرير الهوى باسم الدِّين، ولو بكلمة واحدة.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) أؤجّل قطع عادة "الاشتراط على الله": أن أربط استقامتي بانفراجٍ أو علامةٍ أو إحساسٍ خاص، بينما الطريق يبدأ بصدقٍ الآن لا بانتظار مشهد: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾... وأعلم أن هذا التأجيل ليس حِكمة، بل تربيةٌ ناقصة تحتاج قراراً حاسماً.

٢) أؤجّل التخلص من "الجدل المُبرِّر"؛ أن أدخل نقاشاتٍ أعرف أنها تُطفئ حرارة الطاعة في قلبي، بدل أن أهرب إلى التسليم قبل أن يبتلعني ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾... وأحتاج أن أستبدل الجدل بدعاءٍ صادقٍ وخطوةٍ عمليةٍ صغيرةٍ ثابتةٍ كل يوم.

٣) أؤجّل التوبة من "باطن الإثم"؛ من نوايا الرياء، ومن لذّة الاستعلاء، ومن

طعم الحسد؛ مع أن العلاج يبدأ من الداخل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾. وأخشى أن ألقى الله بصورةٍ حسنة وقلبٍ مُنهكٍ بالخفاء، فيضيع كل شيء.

٤) أؤجّل حسم مرجعيتي عند التنازع: هل أنا حقاً أحتكم للوحي أم لمزاجي؟ ولا دواء لهذا إلا الوقوف طويلاً تحت: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾.. وأؤجّل أن أقول لنفسي بوضوح: "ما خالف النص ليس رأياً معتبراً مهما كان صاحبه".

٥) أؤجّل مواجهة "الخضوع للتيار"؛ أن أقول الحق ولو خالف الناس، وأن أثبت ولو قلّ الموافقون، لأن الآية لا تترك لي حجة: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾... وأؤجّل تدريب نفسي على الاستقامة الهادئة التي لا تحتاج تصفيقاً ولا سنداً اجتماعياً.

٦) أؤجّل تنظيف أذني وقلبي من "زخرف القول"؛ أن أقطع مصادر التزيين التي تُلمّع الباطل، لأن أول خطوة في السقوط كانت: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾. وأحتاج أن أستبدل الإدمان على التزيين بالإدمان على الدليل، وبصحبةٍ تُذكّر لا تُخدّر.

٧) أؤجّل كتابة "عهد توحيد" عمليّ: أن أجعل قراراتي ووقتي وولائي لله لا .. لشهوةٍ ولا لصورةٍ ولا لناس، وأن أكرره حتى يثبت في القلب: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾... وأؤجّل أن أترجم هذا العهد إلى قائمة قرارات يومية: ماذا سأترك؟ ماذا سأقطع؟ ماذا سأثبت؟.

خطة التغيير... طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح

- ابدأ بإعلان المرجعية بوضوحٍ لا لبس فيه: قرّر في قلبك قبل لسانك أن الحكم لله وحده، وأنك عند التنازع لا تبحث عمّن يريحك بل عمّا يُرضي ربك، واجعل هذه الآية ميزانك اليومي ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾؛ أي لا أُعيد تعريف الحق على مقاس مزاجي، بل أُعيد تعريف مزاجي على مقاس الحق.
- اقطع عقلية "الاشتراط على الله" فوراً: لا تقل سأستقيم إذا تغيّرت الظروف أو ظهرت علامة، فالهداية قرار صدقٍ يُتَّخذ الآن، لا مشهداً يُنتظر، وتذكّر أن المشكلة ليست في نقص الدليل بل في صدق القابلية ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ فاسأل الله المشيئة لك، وابدأ الخطوة.
- نظّف باطنك قبل ظاهرِك: راقب النية كما تراقب السُّلوك، عالج الكِبر قبل الخطأ العلني، وأطفئ حسداً صغيراً قبل أن يصير خصومةً كبيرة، لأن العلاج يبدأ من الداخل كما أمر الله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾؛ فكل إصلاحٍ لا ينزل إلى الجذر يبقى مؤقتاً.
- اخرج من عبودية الكثرة إلى استقلالية الحق: لا تجعل "الناس يفعلون" حجةً لك، فالتيار قد يجرف إلى ضلال، والنجاة في الثبات لا في التصفيق، واحفظ هذا التحذير في قلبك ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فاختر أن تكون مع الحق ولو وحدك.
- أغلق مصادر التزيين قبل أن تُغلق بصيرتك: راجع ما تسمعه وتتابعه وتُعجب به، فليس كل خطابٍ جميلٍ حقّاً، والفتنة تبدأ من تلميع الباطل ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾؛ فاحمِ أذنك لتحمي قلبك، واحمِ قلبك لتحمي قرارك.

- استبدل الجدل بالتسليم: إذا تبيّن لك الحكم فلا تُدخل نفسك في نقاشٍ يضعف يقينك، لأن بعض الجدل ليس طلباً للعلم بل مهرباً من الالتزام، والآية تكشف هذا المسار ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾؛ فقل لنفسك: سأفهم لأطيع، لا لأؤجل.
- أصلح علاقتك بالقرآن حتى لا تجد في صدرك حرجاً منه: إن شعرت بثقل آيةٍ أو ضيق حكمٍ فاتهم نفسك لا النص، واستعن بالله ليشرح صدرك، فالدواء في الرجوع لا في الهروب ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾؛ والحرج يُزال بالدعاء والعمل لا بالاعتراض.
- اكتب عهد التوحيد بعملٍ لا بشعار: اجعل لك قراراً عملياً يثبت أن حياتك كلها لله، في وقتك ومالك وعلاقاتك واختياراتك، وردّد المعنى حتى يتجذر فيك ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فالتوحيد ليس كلمةً تقال بل مساراً يُعاش.
- تحمّل مسؤوليتك ولا تُعلّق ذنبك على القدر: إذا أخطأت فاعترف، وإذا قصّرت فتب، ولا تجعل الظروف شماعةً تُبرّر بها ضعفك، فالحجة لله عليك ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾؛ والتوبة تبدأ من تحمّل المسؤولية لا من البحث عن الأعذار.
- اطلب شرح الصدر بالعمل لا بالأمنيات: الهداية ليست إحساساً عابراً بل نوراً يُمنح لمن صدق وسعى، فاجتهد في الطاعة ولو ثقُلت، واسأل الله أن يفتح عليك، فهو الذي يشرح الصدر للإسلام ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾؛ والشرح يأتي مع المجاهدة لا قبلها.

- اختم كل يوم بمراجعةٍ صادقة: اسأل نفسك ماذا تغيّر اليوم فعلاً؟ ما عادةً قطعتها؟ ما ذنباً أطفأته؟ ما حقّاً ثبتُّ عليه؟ لأن الوزن يوم القيامة حقٌّ لا يجامل أحداً ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾؛ ومن راقب ميزانه اليوم خفَّ حسابه غداً.

هذا هو الطريق القصير: وضوحُ مرجعية، وصدقُ توبة، وحراسةُ قلب، وثباتٌ على الحق، وتجديدُ عهدٍ يوميّ مع الله تعالى؛ ليس معقّداً، لكنه يتطلب شجاعة أن تكون صريحاً مع نفسك قبل أن تكون صالحاً في أعين الناس.

خاتمةٌ وجدانيةٌ مزلزلة...

بعد أن مرَّ هذا الجزء على قلبك، لم يعد السؤال: ماذا فهمت؟ بل ماذا تغيّر فيك... لأن القرآن لا يُريد أن يُعجبك بيانه، بل أن يُعيد ترتيبك من الداخل، أن ينزع من قلبك مرجعياتٍ خفية، وأن يُسقط عنك أعذاراً صنعتها لنفسك سنين، وأن يضعك وجهاً لوجه أمام سؤالٍ لا مهرب منه: من يحكم حياتك فعلاً؟.

إن كنتَ قد خرجتَ من هذا الجزء ولم ترتجف داخلك عند قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾... فارجع إليه من جديد، لأن القضية ليست في فهم المعنى، بل في قبول نتائجه، ليست في تلاوة الآية، بل في الاستعداد لأن تُسلِّم لها قرارك، هواك، انتماءك، صورتك أمام الناس، وحتى أحلامك التي لم تُعرض بعد على ميزان الوحي.

هذا الجزء لم يأتِ ليُخبرك أن الطريق جميل... بل ليقول لك إنه مستقيم، والمستقيم ليس دائماً أسهل الطرق، لكنه أوضحها، وقد أُغلق عليك بابُ التردّد حين قيل: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾... فلا تظنّ أن لك مساحةً تُعيد فيها صياغة الدين على مقاس رغباتك، أو أن الزمن سيُغيّر حقيقة الصراط، أو أن الكثرة ستجعل الباطل حقاً.

وتذكّر... أنك حين تقف يوم الميزان، لن تُسأل: هل كان الناس يفعلون معك؟ ولا: هل كان الواقع صعباً؟ بل سيُوضع العمل كما هو، ويُقال لك في صمتٍ مهيب: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾... فإمّا أن تكون قد اخترت الله في قراراتك الصغيرة قبل الكبيرة، أو تكون قد اخترت نفسك ثم بحثت عن مبرّرٍ شرعيٍّ لذلك.

فاختر الآن... لا غداً، اختر أن تُعلن هويتك كما أرادها الله لا كما صاغها المجتمع، اختر أن تقولها بصدقٍ لا تمثيل فيه، بوعيٍ لا انفعال، بتسليمٍ لا اضطرار: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾... فإن استطعت أن تقولها وقلبك ساكنٌ مطمئنٌّ بها، فقد عرفت الطريق، وإن تردّدت، فاعلم أن في الداخل شيئاً لم يُحسم بعد.

لا تخرج من هذا الجزء كما دخلت... لا تجعله تلاوةً أُضيفت إلى رصيدك، بل اجعله فاصلاً بين مرحلتين: مرحلةٍ كان فيها الدين خياراً ضمن خيارات، ومرحلةٍ صار فيها الصراط هو الطريق الوحيد، ليس لأنك أُجبرت... بل لأنك رأيت، وعرفت، واخترت.

الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من هذا الجزء

- التوحيد ليس شعاراً يُردَّد بل مرجعيةً تُحكِّم: أن تجعل الله تعالى وحده مصدر الحكم والاتباع والتعظيم، فلا تُفاوض في حقه، ولا تُقاسم سلطانَه مع هوى أو بشر، لأن السؤال القاطع لا يزال يطرق قلبك ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾؛ فالتوحيد أن ترجع إليه في كل نزاعٍ قبل أن ترجع إلى نفسك.
- الهداية قرار صدقٍ لا عرضَ مشاهد: المشكلة ليست في قلّة الآيات بل في صدق الاستجابة، فكم من دليلٍ رأته عيونٌ فلم يتحرك له قلب، ولذلك جاء التحذير من عقلية الاشتراط ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ... مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾؛ فالطريق يبدأ بخضوعٍ داخلي لا بانتظار معجزة.

- القرآن يُتَّبع لا يُستأنس به فقط: ليس كتاباً للتأثر اللحظي بل منهجاً للحياة، ولهذا كان النداء المباشر ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي لا تجعل الوحي خياراً من بين خيارات، بل هو الأصل الذي تُوزَن به كل الخيارات.
- أخطر معاركك ليست خارجك بل داخلك: بين هوى يريد الانفلات، ونصٍّ يريد الانضباط، وبين كِبرٍ يُجادل، وتسليمٍ يُنقذ، ولهذا كان كشف باطن الإثم قبل ظاهره ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾؛ لأن القلب إذا صلح استقام السلوك تبعاً له.
- لا تنخدع بزخرف القول مهما لَمَع: فكل باطلٍ يبدأ جميلاً في عبارته، مُطمئناً في نبرته، حتى يُطفئ فيك حسَّ المعيار، وقد حذّر الله تعالى من منظومات التزيين ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾؛ فالميزان ليس جمال الأسلوب بل صدق الدليل.
- الكثرة ليست معيار الحق: فكم من جمهورٍ ضَلّ، وكم من قِلّةٍ نجت، ولذلك جاء التنبيه الحاسم ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فاثبت مع الحق ولو قلّ أهله، فالعبرة بالميزان لا بالعدد.
- الاستكبار أصل السقوط الأول: قصة إبليس ليست حكايةً تاريخية بل تحذيرٌ دائم، حين قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فكان الكِبر بوابة اللعنة؛ فكل شعورٍ بالتفوق على أمر الله هو بذرة هلاكٍ لو لم تُجتثّ فوراً.
- الشيطان يبدأ بنزع الستر لا بإسقاطك دفعةً واحدة: خطوةً صغيرة، تأويلاً لطيفاً، وعداً كاذباً، حتى تُكشَف السَّوءات، كما حدث في بداية السقوط ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾؛ فاحفظ ستر قلبك قبل أن تحفظ صورتك أمام الناس.

- الدين ليس تقاليد موروثة بل وحيٌ يُتَّبع: فلا تقل وجدنا آباءنا، ولا تُلبس الهوى ثوب الشرع، لأن التحذير صريح ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فكل تبريرٍ بلا علمٍ افتراءٌ وإن بدا مريحاً.
- الحرام ليس ما استثقله الناس بل ما حرّمه الله: والمعيار واضح لا يتبدل بالأذواق ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ... وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فطهِّر عقيدتك من نسب التحليل والتحريم لغير الله تعالى.
- العدل جزءٌ من العبادة لا خياراً أخلاقياً زائداً: إقامة القسط، والوفاء بالميزان، وعدم بخس الناس حقوقهم، كلها من صميم التوحيد، لأن من عبد الله حقاً عدل مع خلقه، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؛ فالدين لا ينفصل عن المعاملة.
- الحياة اختبارٌ لا استقرارٌ دائم: كل تمكينٍ ابتلاء، وكل نعمةٍ سؤال، وكل درجةٍ تُبنى على عمل، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾؛ فاعمل لميزانٍ لا يُخادَع، ولا تُغَرَّ بمهلةٍ قد تنتهي فجأة.
- القصص ليست للتسلية بل للتثبيت والتحذير: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب... نماذجُ تكرّر المشهد نفسه: دعوةٌ إلى التوحيد، استكبارٌ، ثم نجاةٌ للمؤمنين وهلاكٌ للمكذبين، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ فاختر موقعك من القصة قبل أن تتكرر عليك سننها.
- النجاة ليست بكثرة العمل بل بصدق الإيمان والعمل الصالح معاً: فالله لا يُكلّف نفساً إلا وسعها، لكنه يُحاسب على الصدق، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فاجمع بين الإيمان والعمل، بين القلب والجوارح.
- التوحيد يوحّد حياتك كلها: لا تبقَ مجزّأً بين عبادةٍ هنا وهوى هناك، بل اجعل حياتك وجهةً واحدةً لله تعالى، كما أُمِرت ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فهناك فقط يزول التناقض ويستقيم القلب.

هذه هي روح الجزء: تصحيح التوحيد، تنظيف القلب، تحرير المرجعية، تحذير من الكِبر والهوى والتزيين، تذكير بالميزان والآخرة، وبناء إنسانٍ مستقيمٍ في عقيدته وعدله وسلوكه؛ رسالةٌ لكل مسلم أن يبدأ من الداخل، ويثبت على الصراط، ويستعدّ ليومٍ تُوزن فيه القلوب قبل الأعمال.

الترابط الموضوعي والبياني والوجداني بين الجزأين السابع والثامن

أولاً: التَّرابُط الموضوعي بين الجزأين

١) ينتقل الخطاب من مشهدِ الحساب في ختام المائدة ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ إلى تأسيسِ أصلِ التوحيد الكوني في مطلع الأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ فالموضوع ينتقل من نتيجةِ الموقف في الآخرة إلى أصلِ الموقف في الدنيا: مَن هو الله الذي يُسائِل ويَحكُم؟

٢) ختامُ المائدة يُقرِّرُ ملكَ الله المطلق ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وتفتتح الأنعام بتفصيلِ هذا الملك في الخلق والتدبير والعلم، فيتحوّل التقرير الإجمالي إلى عرضٍ تفصيليٍّ لآيات القدرة في الكون والإنسان.

٣) في المائدة تصحيحٌ لعقيدةِ أهل الكتاب في عيسى عليه السلام ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾، ثم تأتي الأنعام لتؤصّل أصل الرسالة كلِّها وتُثبت الوحي والنبوة ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ فالموضوع ينتقل من تصحيح رسالةٍ بعينها إلى تثبيت مبدأ الرسالة عامّة.

٤) المائدة تُظهرُ نموذجَ المؤمنين الصادقين الذين قالوا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾، ثم تُقابِلهم الأنعام بنموذج المعرضين المكذِّبين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟

﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ فالموضوع واحد: الاستجابة للوحي أو الإعراض عنه.

٥) ختامُ المائدة يُثبِّت قاعدة الجزاء بالصدق ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، ثم تعرض الأنعام سنن الله في الأمم المكذِّبة ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ فالموضوع يمتد من جزاء الأفراد إلى سُنن الجماعات.

٦) في الأنعام (آخر الجزء السابع وأول الثامن) تركيزٌ على الحلال والحرام في الأطعمة ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً﴾، وهو امتدادٌ لموضوع الطيبات في المائدة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ فكأنَّ السورتين تُعالجَان تحريف مفهوم الحلال والحرام من جذوره.

٧) انتقالُ الخطاب في مطلع الأعراف إلى قصص الأنبياء بعد تثبيت التوحيد في الأنعام يُظهر أن موضوعَ الدعوة واحدٌ عبر التاريخ: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾؛ فالوحدة الموضوعية هي دعوة التوحيد عبر الرُّسل.

❖ ثانياً: التَّرابُط العقدي بين الجزأين

١) تقريرُ التوحيد الخالص في ختام المائدة يتجلى في قوله تعالى ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ثم تُبنى الأنعام على تقرير أن الله وحده الخالق المعبود ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾؛ فالعقيدة تنتقل من مشهد الشهادة يوم القيامة إلى أصل العبادة في الدنيا.

٢) المائدة تُفنِّد الغُلُوِّ في عيسى عليه السلام ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والأنعام تُؤكِّد تنزيه الله عن الولد والشريك ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؛ فالتكامل العقدي واضح في تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الشِّرك بكل صوره.

٣) تقريرُ علم الله المحيط في المائدة ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يتكامل مع تقرير الأنعام ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾؛ فالعقيدة تُرسِّخ علم الله المطلق في السِّر والعَلن.

٤) في الأنعام تأكيد أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وهو امتداد لجوّ المائدة في وجوب الطاعة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ فالحاكمية والطاعة أصلٌ عقديٌّ واحد.

٥) بيانُ سنّة الهداية والضلال في الأنعام ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يتكامل مع مشهد الصدق يوم القيامة في المائدة؛ فالهداية في الدنيا هي سبب النجاة في الآخرة.

٦) ختام الأنعام بإعلان العبودية الشاملة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ هو خلاصة ما بُني في المائدة من تصحيح العقائد، فالعقيدة تتوّج بإفراد الله تعالى بكل أوجه الحياة.

❖ **ثالثاً: التَّرابُط البياني بين الجزأين**

١) يتكرر أسلوب التقرير والتذييل بأسماء الله الحسنى؛ فالمائدة تختم بقوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والأنعام تفتتح بالحمد وتختم مقاطعها بأوصافٍ مثل ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، فيظهر نسقٌ بيانيٌّ واحد يُربط الحكم بالصفة.

٢) حضورُ أسلوب الاستفهام الإنكاري في الأنعام ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً﴾ يتجاوب مع استفهام المائدة في مشهد عيسى عليه السلام؛ فالاستفهام هنا أداةُ إيقاظٍ للعقل والقلب معاً.

٣) الانتقال من مشهد حواري في المائدة (حوار الله تعالى مع عيسى عليه السلام) إلى حوارٍ جدليّ في الأنعام بين النبي والمشركين ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ يُظهر وحدة الأسلوب الحواري في تثبيت الحق.

٤) تكرارُ نداء ﴿قُلْ﴾ في الأنعام يُجسِّد استمرار خطاب الرسالة بعد تقرير المشهد الآخروي في المائدة؛ فالبيان ينتقل من عرض المشهد إلى تكليف البلاغ.

٥) تصويرُ مشاهد القيامة في الأنعام ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يتكامل

مع مشهد الجمع في المائدة، فيتكرر الإيقاع البياني لمحاسبة المكذِّبين.

❖ **رابعاً: التَّرابُط الوجداني بين الجزأين**

١) المائدة تختم بمشهد الصدق والرضا ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، ثم تبدأ الأنعام بإيقاظ الشعور بعظمة الخالق وقدرته، فيتحول الوجدان من مشهد الجزاء إلى تعظيم المنعِم قبل الحساب.

٢) مشهدُ البكاء والخشوع في المائدة ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ يقابله في الأنعام وصف قسوة المكذِّبين ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾؛ فالقلب إمّا أن يلين بالحق أو يُغلق دونه.

٣) بثُّ الخوف والرجاء معاً؛ فالمائدة تُظهر عذاب من يكفر بعد نزول الآية ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والأنعام تُذكِّر بسعة الرحمة ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾؛ فيتوازن القلب بين الهيبة والرجاء.

٤) تأكيدُ أن العاقبة للمتقين في السورتين؛ ففي الأنعام ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وفي المائدة ﴿جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ فيترسخ في الوجدان وعدُ الله للمحسنين.

٥) نهاية الأنعام بإعلان العبودية المطلقة ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تُمهِّد لمطلع الأعراف ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ فالشعور بالالتزام الفردي يتحول إلى دعوةٍ جماعية للاتباع.

٦) قصص الأنبياء في الأعراف بعد تأسيس التوحيد في الأنعام تُحرِّك الوجدان إلى الصبر والثبات، إذ يتكرر النداء ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فيشعر المؤمن أنه امتدادٌ لسلسلةٍ طويلةٍ من الصادقين عبر التاريخ.

وبذلك يتبيَّن أن ختام المائدة وبداية الأنعام ثم امتدادها إلى مطلع الأعراف نسقٌ واحدٌ متكامل:

- يُصحِّح العقيدة،

- ويؤصِّل التوحيد،
- ويُحاجج بالعقل،
- ويُحرِّك القلب،
- ويُرسِّخ أن الرسالة واحدة،
- وأن الحكم لله وحده،
- وأن العاقبة للمتقين، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الجزء التاسع: طريقُ الثبات حين تُهدَّد الهُويّة ويُولَدُ الفرقان

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ للجزء التاسع

يبدأ هذا الجزء من لحظةٍ مفصليةٍ تُعرّي طبيعة الصراع في الأرض كما هي، لا كما نُحبّ أن نتخيلها؛ صراعٌ ليس حول فكرةٍ تُناقَش بهدوء، بل حول هويةٍ تُنتزَع بالقهر، ودينٍ يُراد له أن يعود إلى "الملّة" القديمة ولو على كراهيةٍ صريحة، فتسمع التهديد العاري بلا رتوش: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وهنا يضعك القرآن أمام معيار الثبات الحقيقي:

- هل تبقى مع الحق إن صار ثمنه "الخروج"؟
- وهل ترفض الرجوع إلى الباطل ولو زُيّن باسم العادة والمجتمع والأمان؟

فيأتي جواب النبوة منقّى من كل مواربة: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ثم يرفع المسألة إلى مقام العقيدة لا مقام المزاج، لأن الرجوع بعد النجاة ليس "تنازلاً اجتماعياً" بل افتراءٌ على الله، ولذلك قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾؛

ثم يعلّمك أدب الاعتصام الذي يجمع بين خوف القلب من نفسه، وحسن الظنّ بربه، دون أمنٍ من الانحراف ودون يأسٍ من الثبات: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛

ثم تُختَم المواجهة بدعاءٍ ليس هروباً من المعركة، بل طلبُ فصلٍ بالحق: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ثم يكشف لك القرآن كيف تُصاغ "الخواطر الجماعية" ضد الحق؛ فالكافرون لا يكتفون برفض الدعوة، بل يشيعون معادلة الخسارة: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾، وكأنهم يقولون للناس: الخسارة ليست في الكفر...

بل في الاستجابة! فيأتي الردّ بسُنّةٍ تُسقط كل تضليل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾... فتتحول "خسارتهم المزعومة" إلى خسارةٍ حقيقية، ويقف النبيُّ موقفاً يُعلّم الدعاة تمام البلاغ بلا شماتةٍ ولا قسوةٍ قلبية: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ إنها لحظةٌ تُثبت أن الرحمة لا تُلغى مع المفاصلة، وأن البلاغ الصادق لا يحتاج إلى انتقامٍ نفسي، بل إلى براءة ذمةٍ أمام الله.

ومن الخاصّ إلى العامّ، يفتح لك الجزء باب السُّنن الواسعة التي لا تتبدّل: ليست القرى تُؤخَذ دائماً بضربةٍ واحدة، بل تُؤخَذ بالتربية قبل العقوبة؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

ثم تأتي لحظة الخطر الحقيقي: حين تتحول الشدة إلى رخاء، فيظن الناس أن مرحلة الاختبار انتهت، وأن ما نالهم من نعمة دليل رضاً دائم، فيقعون في الغفلة؛ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ أي كثروا واتسعت أحوالهم وقويت شوكتهم، لكن بدل أن يتواضعوا ويعتبروا، قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فجعلوا ما يحدث مجرد تقلبات طبيعية في الحياة، لا رسائل تذكير من الله ولا فرص مراجعة، فاطمأنوا إلى الحال واستمروا كما هم... فجاءهم الأخذ فجأةً وهم غافلون: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم يضع القرآن القاعدة التي تُنقّي تصورك عن البركة: ليست البركات "حظاً"، بل ثمرةُ إيمانٍ وتقوى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ وبعدها يهزّ أمنَ الغافلين: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى...﴾ ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم يلعبون، ثم يجيء التحذير الجامع الذي يَكسر وهم "الضمان": ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ومعناه المنزَّه عن مشابهة المخلوقين: أن الله يُجري سُننه بالحقّ ويُمهل ويستدرج ويقلب الموازين على من بغى، لا "مكراً" كَمَكر البشر، بل عدلاً

وتدبيراً وحكمةً بالغة.. ثم يُذكّرك القرآن أن وراثة الأرض لا تعني النجاة من سُنَّة الذنب: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ... أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ فالطبع ليس عقوبةً مفاجئةً بلا سبب، بل عاقبةُ تكرار التكذيب حتى تنطفئ قابلية السمع.

ثم ينتقل بك الجزء إلى مدرسة الطغيان الأكبر؛ مدرسة فرعون حين يُواجَه الحقُّ الواضح بالاتهام الجاهز: "ساحرٌ عليم"، وتُحوَّل الرسالة إلى خطرٍ سياسي: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، فتفهم أن الطغاة لا يُجادلون الحجة... بل يحرّكون الخوف.

ويقف موسى في مقام الرسالة بعبارةٍ تُصلح لسان كل داعية: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؛ ثم يأتي مشهد السَّحرة الذي يُعلّمك أن لحظة اليقين قد تولد داخل أشدّ ساحات الباطل تعقيداً، فيبطل الله الكيد بالحق: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وينقلب أهل الصناعة ذاتها إلى سجودٍ وإيمان: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.. هنا يشتعل جنون السلطان لأنه يرى أن الإيمان يسحب "القرار" من يده، فيقول: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ فتدرك أن الطغيان يريد أن يكون "مُشرّعاً للقلوب" لا حاكماً للأرض فقط، ثم يُظهر وجهه الدموي: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ويأتي جواب الإيمان الصافي الذي لا يساوم على المصير: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، ثم الدعاء الذي يصنع الأجيال: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

ثم يريك القرآن كيف يعيش المستضعفون بين "قبل وبعد"؛ قبل الرسالة وبعدها، فالابتلاء لا ينتهي بمجرد مجيء النبي، بل قد يشتدّ ليُصفّي الصف: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، فيُعلّمهم موسى الميزان الذي يُقيم الداخل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ ثم تكشف الآيات آفةً قديمةً جديدة: إذا جاءت الحسنة قالوا "لنا هذه"، وإذا جاءت سيئة اطيّروا واتهموا، والقرآن يقطع هذا الوهم من جذوره: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ فالأسباب تُؤخذ، لكن القلب لا يُعلّق التفسير على أهوائه وخرافاته.. ثم تتوالى الآيات المفصلات، ويتكرر النكث بعد الوعد، حتى يأتي الانتقام العادل: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، ويورث الله المستضعفين الأرض بما صبروا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى... بِمَا صَبَرُوا﴾.

لكن القرآن لا يُقدّم لك النصر بوصفه خاتمةً مريحةً بلا امتحانٍ جديد، بل يريك أخطر ما بعد النجاة: سرعةُ تعلّق القلب بالمحسوس، حتى قال قوم موسى وهم خارجون من البحر: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ فتفهم أن الخطر الأكبر ليس دائماً سيف العدو، بل بقايا الجاهلية في الداخل.

ثم تأتي محطة الميقات الأربعين، وطلب الرؤية الذي ينقّي معنى معرفة الله من التخيّل: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾، فيثبت التنزيه، ويثبت مقام التوبة والافتقار: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

ثم يُبيّن القرآن أن التكبّر حجابٌ معرفيٌّ قبل أن يكون ذنباً سلوكياً: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ وأن العناد قد يصل بصاحبه إلى أن يرى سبيل الرُّشد فلا يتخذه، ويرى سبيل الغي فيسلكه، ثم يجيء الانحدار المخيف: العجل... ثم النَّدم... ثم فتح باب التوبة: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم يوسّع القرآن المشهد إلى "أخلاق الأمم" في التلقي والعمل؛ قصة القرية الحاضرة البحر، وكيف تُتّخذ الحيل ديناً، وكيف يصبح الاعتداء عادةً، وكيف يبقى في الأمة من يقول: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ثم ينجّي الله أهل النهي ويأخذ الظالمين: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وبعدها يقف بك عند جذرٍ من جذور الفساد العلمي: قومٌ ورثوا الكتاب لا ليحملوه، بل ليأخذوا "عَرَض هذا الأدنى"، مع ضمانٍ نفسيّ زائف: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ فيذكّرهم الله بميثاق العلم: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، ثم يثبت معيار النجاة: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

ثم يأخذك القرآن إلى أصلٍ أسبق من التاريخ كله؛ أصل العهد الأول في الفطرة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، ليقطع حجة التقليد ووراثة الشِّرك، ثم يريك نموذجاً مخيفاً لمن آتاه الله الآيات فانسلخ منها، لا لضعف الدليل، بل لاتباع الهوى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾؛ ثم يختم هذا السياق بتحذيرٍ يفسر لك كثيراً من الغفلة المعاصرة: قلوبٌ لا تفقه، وأعينٌ لا تبصر، وآذانٌ لا تسمع: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

وعند هذه القمة من التشخيص، يفتح لك باب "التصحيح" لا باب اليأس؛ يُذكّرك بأن لله الأسماء الحسنى، وأن الدعاء بها باب معرفةٍ وتعبّدٍ منضبط: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ مع التحذير من الإلحاد في أسمائه، ثم يكشف سنة الاستدراج والإملاء: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، ومعناه المنزَّه: أن الله يمهل الظالم حتى يبلغ غايته ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، لا عجزاً ولا غفلةً تعالى الله.

ثم تأتي آداب الطريق اليومية التي لا يستغني عنها قلبٌ يريد النجاة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، ثم دواء النزغ: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ثم أدب الاستماع الذي به تُبنى الرحمة في المجتمع: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ثم الذكر الخفي الذي يُصلح الداخل دون ضجيج: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾... لتتهيأ النفس للانتقال الكبير.

ثم يفتح الجزء صفحة الأنفال وكأنها التطبيق العملي لكل ما سبق؛ فبعد أن علّمك القرآن سُنن الثبات والابتلاء والطغيان والانحراف، ينقلك إلى ميدانٍ تُصاغ فيه الجماعة المؤمنة: يبدأ بسؤال الغنائم ليُعلّمك أن أخطر ما يُفسد الصف بعد المعركة ليس السيوف بل النفوس، فيأتي الجواب قاطعاً في الملكية والمعنى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ثم يضع الشرط الذي يسبق النصر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ كأنَّ الرسالة: لا تفتّشوا عن "سهمكم" قبل أن تُصلحوا "قلوبكم".

ثم يرسم ملامح الإيمان الحقّ لا في الشعارات بل في الانفعال الصادق والعمل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾.

ثم تعود بك السورة إلى بدر، لا لتروي التاريخ، بل لتصنع معياراً دائماً: كيف يخرج المؤمن إلى الحق وفيه من يكره، وكيف يُجادَل النبيُّ في الحق بعد ما تبين: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾، ثم كيف يريد الناس "غير ذات الشوكة" والله يريد إحقاق الحق: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾.

ثم يفتح لك سرّ النَّصر حين يشتد الخوف: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ويثبت أن كل مددٍ وبشارةٍ ليس لاستعراض الغيب، بل لتطمئن القلوب: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ثم يُذكّرك بلطفٍ ربانيّ في لحظة الحرب: نعاسٌ أمنة، وماءٌ طهور، وربطٌ على القلوب، وتثبيتٌ للأقدام: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ... وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

ثم تأتي آيات الثبات عند اللقاء والتحذير من الفرار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾، ثم يضبط القرآن قلبك عند لحظة الفعل حتى لا تُصاب بعُجبٍ خفيّ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ فتفهم أن الأسباب مأمورٌ بها، وأن التوفيق والتمكين من الله تعالى وحده، فتسلم النفس من كِبر الانتصار.

ثم يُوجّهك القرآن إلى حياة القلب لا إلى ساحة الحرب فقط: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ويكشف حقيقةً تُقيم المراقبة في الداخل دون فزعٍ مَرضيّ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي أن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، فاطلب الثبات منه ولا تغترّ بنفسك، ثم يضع قاعدة الفتنة الاجتماعية التي إن تُركت أحرقت الصالح والطالح: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

ثم يُذكّرك بأصل النعمة: كنتم قليلاً مستضعفين... فآواكم وأيدكم ورزقكم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾، ثم يحرس الصف من الخيانة: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، ويضع المال والولد في موضعهما الصحيح: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، ثم يعطيك وعد الفرقان عند التقوى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾؛ فالفرقان ليس "ذكاءً" فقط، بل نورُ طاعةٍ يميز لك الطريق.

ثم يعرض القرآن كيد الكافرين بالنبي ﷺ ويثبّت أن تدبير الله غالب: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ومعناه المنزَّه: أن الله يجازيهم على مكرهم ويدفع كيدهم بتدبيره العادل الحكيم، لا كمكر المخلوقين.

ثم تلمح كيف يتجرأ القلب حين يُغلق باب الاستغفار في المجتمع: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فتفهم أن الاستغفار ليس ذكراً فردياً فقط، بل صمام أمانٍ للأُمَّة ما دام حيّاً في القلوب.

ثم يختم المقطع الذي أوردته السورة بنداءٍ جامع يرفع المعركة إلى معناها الأخير: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، ثم يثبت قلب المؤمن عند تقلّب الأحوال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

وهكذا يمسك الجزء التاسع بخيطٍ واحد لا ينقطع:

١) ثباتُ العقيدة حين يُهدَّد المؤمن بالإخراج،

٢) وسُننُ القرى حين تُفتن بالرخاء بعد الشدة،

٣) وطغيانُ السُّلطة حين تحاول أن تُؤذِن للقلوب قبل أن تحكم الأجساد،

٤) وانحرافُ الناجين حين يطلبون صنماً بعد البحر،

٥) وفسادُ أهل الكتاب حين يبيعون الميثاق بعرض الدنيا،

٦) ثم علاجُ القلب بالاستماع والإنصات والذكر،

٧) ثم الانتقال إلى بدر حيث تُختبر الجماعة المؤمنة في المال والخلاف والخيانة والفتنة والفرار والعُجب... ليخرج المؤمن من هذا الجزء وهو يعرف أن أخطر معارك الدين ليست دائماً "ضد العدو"، بل ضد ما في الداخل حين تُفتح الدنيا، وحين تتكلم النفس باسم الدين، وحين يُنسى أن النصر من عند الله، وأن النجاة تبدأ من إصلاح ذات البين قبل اقتسام الأنفال.

الخريطة البنيوية لآيات الجزء التاسع

- بدءُ الصراع من جذرِه: الاستكبارُ لا يُجادلُ الحُجّة بل يُهدّدُ الهُويّة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ... أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ فالمشكلة لم تكن في قوة الدليل بل في رفض القلب أن يخضع، لأن الطغيان يخشى على سلطانه قبل أن يناقش برهانه، وكل دعوةٍ صادقةٍ ستصطدم أولاً بكِبرٍ يريد إلغاءها لا مناقشتها.
- الثباتُ ليس صلابةَ طبعٍ... بل صدقُ انتماءٍ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾؛ فالمؤمن لا يثبت لأنه عنيد، بل لأنه اختار الحق عن وعيٍ ويقين، ولو

تعارض مع رغباته ومصالحه، فالثبات ولاءٌ عقديّ لا مجرد حماسةٍ نفسية.

- الرجوعُ بعد النجاة ليس "تنازلاً"... بل سقوطٌ في باب الافتراء:﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا... بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾؛ فالتراجع عن الحق بعد معرفته ليس مرونةً بل كذبٌ على الله، لأن الهداية نعمةٌ لا تُساوَم.
- توازنُ القلب بين خوفِه من نفسه واعترافِه بمشيئة ربّه واتساع علمه:﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ فلا أمنَ من النفس ولا اعتراضَ على قدر الله، بل توكلٌ خاضعٌ وعلمٌ بأن الثبات فضلٌ من الله تعالى.
- طلبُ الفتحِ بالحقّ حين تختلطُ الموازين وتتعاظمُ الضغوط:﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؛ فاللجوء إلى الله عند احتدام الصراع هو طريق النجاة، لأن الحكم الأخير لله لا للضجيج.
- تضليلُ "الخسارة" سلاحُ الباطل: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾؛ فالباطل يُخوّف من ضياع المكاسب ليمنعك من اتباع الحق، بينما الخسارة الحقيقية هي خسارة الآخرة لا خسارة المصالح المؤقتة.
- النهايةُ التي تُسقطُ الدعاية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ فمهما ارتفعت أصوات التهديد تبقى الكلمة الأخيرة لسُنن الله، ويأتي الأخذ حين يُصرّ القلب على التكذيب.
- أدبُ المبلّغ بعد البلاغ: براءةُ الذمّة دون تشفٍّ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ فالداعية يؤدي الأمانة ثم يبرأ إلى الله بلا شماتة، لأن البلاغ عبادة لا انتقام.
- سُنّةُ الابتلاء التربوي قبل سُنّةِ الاستئصال: ﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ فالشِّدة رسالة رحمة قبل أن تكون عقوبة، لعل القلوب تعود قبل أن تُؤخذ.

- أخطرُ لحظةٍ: تبدّلُ الشدّة رخاءً فيتحولُ الدرسُ إلى غفلة: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾؛ فحين يزول البلاء قد ينسى القلب العبرة، ويظن النعمة استحقاقاً لا امتحاناً.
- تبريرُ الغافلين: تحويلُ الرسائل إلى "دورة حياة" عادية: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾؛ فاختزال الأحداث في تفسيرٍ ماديّ يُميت أثرها التربوي، ويُغلق باب التوبة.
- الأخذُ حين يطمئنّ القلبُ إلى الدنيا: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ فالخطر لا يأتي دائماً في لحظة خوف، بل قد يأتي حين يظن الإنسان أنه بأمان.
- قاعدةُ البركة: ليست مكافأةَ شكلٍ... بل ثمرةُ إيمانٍ وتقوى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ فالبركة نتيجة صدق العلاقة مع الله، لا مهارة إدارة الحياة فقط.
- كسرُ وهمِ الأمان: البأسُ يأتي ليلاً أو نهاراً... والقلوبُ قد تكون نائمة: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى...﴾؛ فلا تأمن مكر الله مع الإصرار على الغفلة، فالأمان الحقيقي في الطاعة.
- أخطرُ الخسارة: الأمنُ من سُنن الله وعدله في الأخذ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ فالغفلة عن المحاسبة بداية الانحدار.
- وراثةُ الأرض لا تُسقط الحساب: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ فالتمكين بلا شُكر قد يقود إلى طبع القلب، والطبع أخطر من فقدان النعمة.
- القصصُ ليست حكاية... بل كشفُ قانون: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾؛ فهي سنن تتكرر، ليختار كل جيل موقعه من العبرة.

- انتقالٌ إلى مشهد الطغيان: الرسالةُ "حقٌّ" لا مزاجٌ ولا سياسة: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؛ فالمعيار وحيٌ لا ضغطٌ جماهيري.
- آيةُ الله تُستقبلُ بالتهمة: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ فالطغيان يُشوّه الحق ليحمي صورته أمام الناس.
- صناعةُ الخوف السياسي: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾؛ فالحق يُصوَّر كتهديدٍ للاستقرار حتى يُرفض.
- حين يتزين الباطل "بالخبرة" ويُحشد له كلُّ أهل الحرفة: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ فالباطل قد يستعين بأهل التخصص ليبدو أقوى.
- لحظةُ انكشاف الفارق: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فالحق لا يحتاج زخرفاً، يكفي أن يظهر.
- التحولُ الأعظم: السجودُ يولد من قلب الميدان:﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾؛ فالهداية قد تشرق في أشدّ ميادين الصراع.
- الطغيانُ يريد "إذناً" حتى للإيمان: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ لأن المستبدّ يرى الإيمان تهديداً لسلطته.
- التهديدُ حين يفشلُ الإقناع:﴿لَأُقَطِّعَنَّ... ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ فالعنف آخر أدوات العاجز عن الحجة.
- قلبُ المؤمن يختصر الطريق: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾؛ فالرجوع إلى الله يطفئ خوف التهديد.
- زادُ الثبات: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ فالصبر عطاءٌ يُطلب، لا طاقةٌ ذاتية فقط.
- منطقُ الاستضعاف:﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ... وَمِنْ بَعْدِ﴾؛ فطريق النور ليس مفروشاً بالراحة، بل بالثبات.

- جوابُ الرسالة: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فالمستقبل بيد الله لا بيد الطغاة.
- العاقبة ليست للغالب... بل للمتقي: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ فالنهاية يحكمها الميزان الإلهي لا القوة الظاهرة.
- امتحانُ الوعي: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ فلا تُسقِط خطأك على "الحظ" أو الآخرين.
- سلسلةُ الآيات المفصلات... ثم انكشافُ النكث: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا... إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾؛ فالإيمان المؤقت لا يصمد أمام الشَّهوة.
- خاتمةُ الطغيان: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ... وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ فالغفلة عن الآيات مقدمة الهلاك.
- ميراثُ المستضعفين: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى... بِمَا صَبَرُوا﴾؛ فالصبر يصنع التحول التاريخي.
- بعد النجاة يبدأ امتحانٌ آخر: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ فالهوى قد يعود في صورة إعجابٍ بالآخر.
- بابُ المعرفة المنزّهة: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾؛ فالعقيدة تُبنى على الوحي لا على طلب التجربة الحسية.
- التوبةُ ليست اعتذاراً... بل رجوعٌ يُطهّر: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ فالتوبة تنزيهٌ لله قبل أن تكون ندماً على النفس.
- خطرُ الكِبر: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ فالكِبر يحجب نور الهداية ولو كثرت البراهين.
- السقوطُ بعد العلم: ﴿اتَّخَذُوا عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾؛ فالعلم بلا تزكية قد ينقلب إلى ضلال.

- نافذةُ النجاة المفتوحة: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾؛ فباب التوبة لا يُغلق ما دام القلب حيّاً.
- مدرسةُ السبت:﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾؛ فالتحايل على الأمر لا يُسقط التكليف، بل يكشف ضعف الطاعة.
- بقاءُ صوت الإصلاح:﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾؛ فالنصيحة عبادةٌ ولو لم تُقبل.
- نجاةُ أهل النهي... وهلاكُ أهل الظلم: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ... وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ فالموقف الأخلاقي يحدد المصير.
- وراثةُ الكتاب قد تتحول إلى تجارة:﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾؛ فالعلم إن لم يُصن صار وسيلة دنيا.
- ميثاقُ العلم:﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؛ فالكلمة مسؤولية عقدية قبل أن تكون رأياً.
- معيارُ الثبات الإصلاحي:﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾؛ فالإصلاح طريق طويل لكنه محفوظ الأجر.
- أصلُ الفطرة والعهد:﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾؛ فالتوحيد مغروس في الفطرة قبل الجدل.
- الانسلاخُ المخيف:﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ فالعلم إذا لم يُحفظ بالتقوى يُفقد بركته.
- صورةُ الهوى:﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ...﴾؛ فاتباع الشهوة بلا ضابط يُفقد الإنسان كرامته.
- الغفلةُ الكبرى:﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا...﴾؛ فالأدوات موجودة لكن العمى في الاستخدام.
- بابُ الأسماء الحسنى:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾؛ فالمعرفة تقود إلى عبادةٍ خاشعةٍ لا إلى إلحادٍ في الأسماء.

- سُنّةُ الاستدراج والإملاء:﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ... وَأُمْلِي لَهُمْ﴾؛ فالإمهال ليس رضا، بل قد يكون تمهيداً للأخذ.
- ختمُ السورة بأدب السلوك:﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾؛ فالدعوة أخلاق قبل أن تكون مواجهة.
- تحصينُ اللحظة من نزغ الشيطان:﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ فالاستعاذة وعيٌ فوريّ قبل أن تتضخم الوسوسة.
- التذكّرُ علامةُ التقوى:﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ... تَذَكَّرُوا﴾؛ فالتقوى سرعة رجوعٍ لا غياب خطأ.
- معيارُ الرحمة الجماعية:﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ فالإنصات للقرآن طريق الرحمة.
- الذكرُ الخفيّ يربي الداخل بلا ضجيج:﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾؛ فالتزكية تبدأ في السر قبل العلن.
- افتتاحُ الأنفال بتطهير "المال" قبل "الميدان":﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ فتصحيح النِّيَّة سابقٌ على خوض المعركة.
- أولُ شروط النصر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ فالنصر يبدأ من داخل الصف.
- تعريفُ المؤمن الحقّ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾؛ فالإيمان حقيقة قلبية تُترجم إلى عمل.
- امتحانُ "كراهية الحق" داخل الصف: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾؛ فالمؤمن قد يضعف لكنه يُربّى بالوحي.
- الله يختار طريق الشوكة لإحقاق الحق: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾؛ فالمشقة جزء من تثبيت الرسالة.

- الاستغاثةُ بابُ المدد: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ فالمدد من الله تعالى لا من الحسابات وحدها.
- تثبيتُ القلوب قبل تثبيت الأقدام: ﴿لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾؛ فالمعركة الحقيقية في الداخل.
- أمرُ الثبات وحرمةُ الفرار: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ فالثبات عبادة عند اشتداد الخوف.
- تطهيرُ القلب من العُجب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ فالفضل لله توفيقاً وتسديداً.
- الحياةُ الحقيقية: ﴿اسْتَجِيبُوا... لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ فالحياة ليست حركة جسدٍ بل يقظة قلب.
- خوفٌ من تقلب القلوب: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ فالثبات نعمة تُطلب دائماً.
- فتنةٌ إذا تُركت عمّت: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؛ فالسكوت عن المنكر يُعمّ العقوبة.
- تذكيرُ النعمة: ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ﴾؛ فاستحضار الفضل يحفظ من الكِبر.
- حراسةُ الصف من الخيانة: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ فالخيانة تبدأ صغيرة وتنتهي كبيرة.
- المالُ والولدُ امتحانُ صدقٍ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ فهما وسيلة ابتلاء لا معيار كرامة.
- وعدُ الفرقان: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾؛ فالتقوى تمنح نور التمييز.
- كيدُ المكذبين... والتدبير لله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾؛ فمكرهم لا يخرج عن سلطان الله.

- أمانُ الأمة ما دام الاستغفار حيّاً: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ فالاستغفار درعٌ من البلاء.
- غايةُ القتال: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؛ فالمقصد توحيد الوجهة لا سفك الدماء.
- خاتمةُ الاعتصام: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ فالولاية الحقيقية لله، ومن اعتصم به كفاه.

المحور الإيمانيّ المركزي لهذا الجزء هو:

أنَّ الله يُعيد تشكيل "القلب المؤمن" ليكون قلباً لا تُخرجه ضغوطُ البشر من دينه، ولا تُفقده النِّعمُ يقظته، ولا تُسكره القوةُ عن رؤية الفاعل الحقيقي... قلباً يتقوّى بالتوكّل لا بالعدد، ويثبت على الحقّ ولو كرهته النفوس، ويخاف سنن الله وعدله فلا يأمن مكرَه، ويعرف أن الفتنة قد تبدأ من داخل الصَّفّ قبل أن تأتي من خارجه، وأن النجاة ليست لحظةَ انتصارٍ عسكريّ، بل لحظةَ استجابةٍ صادقةٍ لما يحييه، واستقامةٍ على الطاعة مع إصلاح ذات البين، وحراسةٍ للقلب من الخيانة والعُجب، وحراسةٍ للمجتمع من فتنةٍ إذا تُركت عمّت، ثم بقاءٍ على الذكر والاستماع للقرآن حتى لا ينقلب الإيمان إلى غفلةٍ تُطبع بها القلوب.

هو محور "الانتقال من ظاهر الإسلام إلى حقيقة الإيمان":

١) من دعوى الانتماء إلى استجابةٍ تُحيي،

٢) ومن الاعتماد على الأسباب إلى شهود أن النصر من عند الله وحده،

٣) ومن التعلّق بالمكاسب والأنفال إلى التسليم بأن كلّ ما في اليد لله ورسوله،

٤) ومن التديّن الذي يتبدّل مع الرخاء والشدة إلى تديّنٍ ثابتٍ يعرف سنّة الابتلاء وسُنّة الاستدراج،

٥) ويعلم أن الله قد يفتح البركات بالإيمان والتقوى،

٦) وقد يأخذ بغتةً عند الغفلة،

٧) وأن أخطر ما يُهلك الأمم ليس الجهل وحده بل الاعتياد الذي يُطفئ الحسّ،

٨) والهوى الذي ينسلخ بصاحبه من الآيات،

٩) والكبر الذي يُصرف به صاحبه عن الرُّشد، حتى تصبح الجوارح تعمل والقلب لا يفقه ولا يبصر ولا يسمع.

- ولذلك يجمع الجزء بين نهايات الأُمم التي كذّبت فوقع عليها الأخذ، وبين مشهد السَّحرة الذين رأوا الحق فسجدوا،
- وبين تربية المؤمنين في الأنفال على تعريف الإيمان الحقّ وميزان الفرقان، ليقول لك في نَفَسٍ واحد: إنَّ المعركة في أصلها ليست معركة سيفٍ فقط بل معركة قلب؛

١) قلبٌ يوجل إذا ذُكر الله،

٢) ويزيد إيماناً إذا تُليت الآيات،

٣) ويُصلح ما بينه وبين إخوانه قبل أن يطلب فتحاً على عدوه،

٤) ويستجيب لما يحييه،

٥) ويوقن أن الله يحول بين المرء وقلبه،

٦) وأن الاستغفار أمانٌ ما دام حيّاً،

٧) وأن المولى الحقّ هو الله...

فإذا استقر هذا المعنى صار النصر زيادةَ معنى، لا مجرّد تبدّل واقع، وصارت الهداية ثباتاً على الحقّ لا انفعالاً عابراً، وصار الدين كلّه لله لا للهوى ولا للغضب ولا للمكاسب.

أخطرُ الانحرافات التي يُحذِّر منها هذا الجزء

❖ أولاً: الانحراف العقدي

١) أخطرُ ما يكشفه هذا الجزء أنَّ الانحراف العقدي لا يبدأ دائماً بإنكارٍ صريح، بل يبدأ بتنازلٍ صغيرٍ تحت ضغط المجتمع أو السلطان، حين يُهدَّد المؤمن أن يعود في ملّة الباطل فيلين قلبُه قبل أن يلين لسانُه، وهنا يضع القرآن الحدّ الفاصل: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؛ فالرجوع عن الحقّ بعد معرفته ليس خطأً فكرياً فقط بل افتراءٌ على الله.

٢) ثم يتجلى الانحراف العقدي في صورةٍ أُخرى حين يطلب الناجون من البحر إلهاً محسوساً يطمئنون إليه: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ إنّه الحنينُ إلى الوثن بعد معجزة النجاة، والخللُ في تصوّر التوحيد حين يُستبدل بالغيب المعبود شيءٌ يُرى ويُلمس.

٣) ويتعمّق التحذير حين يُبيّن أن الكِبر يحجب صاحبه عن فهم الآيات ولو رآها كلّها: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فالتكبّر انحرافٌ عقديٌّ قبل أن يكون خُلقياً، لأنه يُغلق باب الهداية.

٤) ثم يحذّر من الانسلاخ بعد العلم، من أن يُؤتى الإنسان آياتٍ فيتبع هواه: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؛ فالعلم بلا تزكيةٍ قد يتحوّل إلى سقوطٍ أشدّ من الجهل.

٥) وأخيراً يُحذّر من الأمن من سُنن الله وعدله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ فالأمن من الأخذ بعد التمكين انحرافٌ في فهم صفات الله تعالى وسُنَنِه، لأن الله يُمهل ولا يُهمل.

❖ ثانياً: الانحراف الأخلاقي

١) يُحذّر هذا الجزء من فساد الأخلاق حين تُستباح الوسائل باسم الغاية، كما فعل أهل السَّبت حين تحايلوا على الأمر الإلهي ظاهراً وباطنهم يعصي: ﴿إِذْ

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾؛ فالتحايل يُسقط روح الطاعة وإن بقي الشكل.

٢) ويُحذّر من بيع الميثاق بعَرَض الدنيا: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾؛ فيتحوّل العلم إلى تجارة، والكتاب إلى وسيلة مكسب، ويُغلف ذلك بأملٍ كاذب: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

٣) ويكشف خطر الخيانة حين تضعف مراقبة الله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾؛ فالخيانة تبدأ في القلب قبل أن تظهر في الفعل.

٤) كما يُحذّر من الفرار عند الشدّة، ومن الانكسار الأخلاقي حين يتراجع الإنسان عن مسؤوليته في ساعة المواجهة: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ لأن الثبات قيمةٌ أخلاقية قبل أن يكون موقفاً عسكرياً.

❖ ثالثاً: الانحراف الاجتماعي

١) يُنبّه الجزء إلى أن أخطر الانحرافات الاجتماعية تبدأ من تفكّك الصّفّ الداخلي قبل ضغط العدوّ الخارجي، ولذلك جاء أول توجيه في الأنفال قبل الحديث عن النصر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ ففساد ذات البين يُمهّد لسقوط الجماعة ولو كانت على حق.

٢) ويُحذّر من الفتنة التي إذا اشتعلت لا تُصيب الظالمين وحدهم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؛ فالانحراف الاجتماعي يتجاوز الأفراد إلى المجتمع كله.

٣) ويُظهر خطر تبرير الظلم الجماعي والسكوت عنه حين يُقال: ما شأننا بقومٍ سيُهلكهم الله؟ فيبقى صوت الإصلاح شاهداً: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾؛ لأن ترك النُّصح انحرافٌ اجتماعي يُمهّد للعقوبة العامة.

٤) كما يُحذّر من تحويل المكاسب والغنائم إلى سبب نزاعٍ داخليٍّ يُضعف الجماعة ويشوّه مقصد الجهاد والرسالة.

❖ رابعاً: الانحراف النفسي

١) هذا الجزء يُعرّي انحرافاتٍ نفسيةً عميقة؛ منها حبّ السَّلامة وكرهُ التكاليف حين يُجادَل في الحق بعد أن تبيّن كأنما يُساق المرء إلى الموت وهو ينظر، ومنها التعلّق بـ"غير ذات الشوكة" طلباً للغنيمة السَّهلة دون معركة الحق، ومنها ردّ النعم إلى النفس ونسبة البلاء إلى الطيرة والآخرين: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

٢) ويكشف أخطر الانحرافات النفسية حين تتبلّد الحواسّ عن الهداية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا... أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ فالقلب قد يعيش بالجسد لكنه ميتٌ بالبصيرة.

٣) ويحذّر من العُجب الخفيّ بعد النَّصر حين يُنسب الفعل إلى النفس، فجاء التصحيح: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ لأن تضخّم **الأنا** بعد التوفيق انحرافٌ نفسيٌّ يُفسد ثمار العمل.

٤) ثم يضع العلاج النفسي الدائم: الاستجابة لما يُحيي القلب، ومراقبة تقلّبه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ ليبقى المؤمن خائفاً من سوء الخاتمة، راجياً فضل الله، بعيداً عن الغفلة والاطمئنان الزائف.

وهكذا يتبين أن هذا الجزء لا يُحذّر من انحرافٍ واحد، بل من شبكةٍ متكاملةٍ تبدأ بخللٍ في العقيدة، وتظهر في الأخلاق، وتتفكك بها الجماعة، ثم تستقر في أعماق النفس... حتى لا يبقى من الدين إلا شكله، ولا من الإيمان إلا اسمه.

ملامحُ الشخصية التي يصنعها هذا الجزء

١) يصنع هذا الجزء شخصيةً لا تُساوم على هويتها تحت ضغط المجتمع ولا تحت تهديد السلطان، شخصيةً تعرف أن الرجوع عن الحق بعد معرفته ليس خياراً اجتماعياً بل سقوطٌ عقديّ، فتقف بثباتٍ داخليّ قبل أن يكون خارجياً، مستحضرةً ميزان المفاصلة الواضح: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ

عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؛ فهي شخصيةٌ تُدرك:

- ❖ أن الثبات على الدين ليس تعصباً بل أمانة،
- ❖ وأن التنازل في أصل العقيدة خيانةٌ للنَّجاة التي منحها الله تعالى.

٢) ويصنع شخصيةً متوازنةً في توحيدها، لا تنجرف إلى طلب المحسوس عند ضعف اليقين، ولا تُفتن ببريق ما عند الآخرين، لأنها تعي خطر الانزلاق إلى التقليد العاطفيّ الذي قال فيه الجاهلون: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ فهي شخصيةٌ تُربّي يقينها بالغيب، وتُنزّه ربّها عن التشبيه والتصوّر الحسيّ، وتُسلّم لحكمته دون اعتراض.

٣) ويصنع شخصيةً خاشعةً واعيةً، تعرف أن الكِبر يحجبها عن الفهم ولو كَثُر العلم، فتتجنّب مواضع التعالي والغرور، لأن سُنّة الصرف عن الآيات قائمة: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ فهي شخصيةٌ تُراجع قلبها قبل أن تُراجع الآخرين، وتخاف على نفسها من الانسلاخ بعد المعرفة كما خاف القرآن من نموذج: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ فتجمع بين العلم والتزكية، وبين الفهم والانكسار.

٤) ويصنع شخصيةً لا تغترّ بالرخاء ولا تنهار بالشّدة، لأنها تفهم سُنن الله في الأخذ والإمهال، فلا تأمن العواقب عند التمكين، ولا تيأس عند الضيق، مُتذكّرةً التحذير القاطع: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ فهي شخصيةٌ يقِظة، تعيش بين الخوف والرجاء، وتقرأ الأحداث قراءةَ سُننٍ لا قراءةَ صُدفة.

٥) ويصنع شخصيةً مجاهدةً في ميدانها الداخلي قبل الخارجي، شخصيةً تعرف أن النصر لا يُبنى على الأعداد وحدها بل على إصلاح الصَّفّ، فتُقدّم التقوى ووحدة القلوب على الغنائم والمكاسب، مستحضرةً قاعدة البناء الأولى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ فهي شخصيةٌ تُطفئ نار النزاع

قبل أن تشعل نار المواجهة، وتفهم أن التفكك الداخلي أشدُّ خطراً من ضغط العدوّ.

٦) ويصنع شخصيةً مؤمنةً حقاً، لا تكتفي بالشعور العابر بل تعيش حقيقة الإيمان كما عرَّفها الوحي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فهي شخصيةٌ يزداد إيمانها بسماع الآيات، وتتوكّل على ربها في الشدّة والرخاء، وتُقيم الصلاة وتُنفق مما رزقها الله، وتعرف أن العمل علامة الصدق لا الادعاء.

٧) ويصنع شخصيةً ثابتةً عند اللقاء، لا تفرُّ حين يشتدّ الموقف، ولا تُعلّق ثباتها على نتائجٍ سريعة، لأنها تسمع النداء الواضح: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ فهي شخصيةٌ ترى أن الهزيمة الحقيقية ليست في خسارة معركة بل في فقدان المبدأ.

٨) وفي الوقت ذاته يصنع شخصيةً متواضعةً عند النَّصر، لا تنسب الفضل إلى نفسها ولا تُصاب بالعُجب، لأنها تُدرك أن التوفيق من الله وحده، فتستحضر التصحيح الربانيّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ فهي شخصيةٌ تعمل بالأسباب، لكنها تُسلّم النتائج لربِّ الأسباب، وتحفظ قلبها من تضخّم **الأنا** بعد النجاح.

٩) ويصنع شخصيةً حيّة القلب، تستجيب لما يُحييها، ولا تؤجّل النداء حتى يبهت الشعور، مستحضرةً النداء الجامع: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ فهي شخصيةٌ تخاف تقلّب القلوب، وتُدرك أن الهداية ليست ضماناً أبدياً، لأن الله تعالى ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ فتعيش في مراقبةٍ دائمة، لا في غفلةٍ مطمئنة.

١٠) ويصنع شخصيةً تسمع للقرآن سماعَ إنصاتٍ لا سماعَ عادة، لأنها تعلم أن الرحمة مرتبطة بالأدب مع الوحي: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛

فهي شخصيةٌ تتغذّى على الذكر الخفيّ، وتُصلح داخلها قبل أن تُصلح خارجها، وتُربّي قلبها على دوام الصِّلة بالله دون صخبٍ ولا ادّعاء.

وهكذا يُخرج من هذا الجزء إنسانٌ متوازنٌ عقدياً، مستقيمٌ أخلاقياً، واعٍ اجتماعياً، يقظٌ نفسياً؛ لا ترفعه المكاسب، ولا تُسقطه الضغوط، ولا يُعميه الرخاء، ولا يُطفئه البلاء، يعيش على يقين أن مولاه هو الله، وأنه إن تولّى الناس أو تقلبت الأحوال فالحقيقة الثابتة التي لا تتغيّر هي: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أمراضُ القلوب التي يُعالجها هذا الجزء

١) يعالج هذا الجزء أوّلاً مرضَ الاستكبار الذي يُغلّف نفسه بثوب العقل أو الهيبة الاجتماعية، لكنه في حقيقته رفضٌ للانقياد للحق إذا خالف الهوى أو العادة، ذلك المرض الذي قال فيه الملأ تهديداً لا حُجّة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ... أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ فالاستكبار ليس مجرّد تعالٍ في السلوك بل امتناعُ قلبٍ عن الخضوع للحق، ولذلك جاء التحذير القاطع من عاقبته: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فالكِبر يُغلق منافذ الهداية حتى لو كانت الأدلة أمام العَين.

٢) ويعالج مرضَ الارتداد النفسيّ تحت الضغط، حين يُساوم القلب على دينه طلباً للسلامة أو القبول، فيُذكّر بأن الرجوع عن الحق بعد النجاة افتراءٌ على الله لا حيلةَ نجاة: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا... بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾؛ فيزرع في القلب مناعةً ضد الخضوع لابتزاز الواقع.

٣) ويعالج مرضَ التعلّق بالمحسوسات وضعفَ التوحيد الخفيّ الذي يظهر في طلب ما يشبه ما عند الآخرين، ولو كان باطلاً، كما قال قوم موسى بعد النجاة: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ فهذا المرض هو حنينُ القلب إلى

الوثن حين تضعف صلته بالغيب، فيأتي القرآن ليُعيد تثبيت معنى التوحيد وتنزيه الرَّب عن التشبيه والتمثيل.

٤) ويعالج مرضَ الأمن من مكر الله، ذلك الاطمئنان الزائف الذي يجعل القلب ينام على النعمة وينسى سنن الأخذ، فجاء التنبيه الذي يهزّ الغفلة: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ ليُبقي القلب بين الخوف والرجاء، لا بين الغرور والاطمئنان المميت.

٥) ويعالج مرضَ الغفلة المزمنة التي تجعل الحواسّ تعمل دون وعيٍ روحيّ، فتكون القلوب لا تفقه، والأعين لا تبصر، والآذان لا تسمع، حتى يبلغ الانحدار حدّ التشبيه بالأنعام: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا... أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ فيوقظ القلب من البلادة التي أخطر من الجهل.

٦) ويعالج مرضَ الانسلاخ بعد العلم، حين يعرف الإنسان الحقّ ثم يُخلد إلى الأرض ويتبع هواه، فينقلب علمه عليه لا له: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؛ فالمشكلة ليست في قلّة المعرفة بل في فقدان المجاهدة، والدواء هو التزكية الدائمة والاعتصام بالله تعالى.

٧) ويعالج مرضَ الطمع في الدنيا ولو على حساب الميثاق، ذلك الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ إنه مرض التسويف والتعلُّل بالرجاء مع الإصرار على الذنب، فيُذكّر القلب بأن المغفرة ليست وعداً بلا توبة، وأن الدار الآخرة خيرٌ للمتقين.

٨) ويعالج مرضَ الخيانة الخفية التي تبدأ في الضمير قبل أن تظهر في السلوك، فجاء النداء الصريح: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾؛ ليُربّي القلب على الأمانة في السِّرّ قبل العلن، وفي القصد قبل الفعل.

٩) ويعالج مرضَ الفرار عند الشدائد، ذلك الخوف الذي يُسقط الثبات حين يحتدم الموقف، فجاء الأمر الواضح: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ لأن الجُبن

ليس ضعفَ جسدٍ فقط بل ضعفُ يقين.

١٠) ويعالج مرضَ العُجب بعد التوفيق، حين ينسب القلب الفعل لنفسه وينسى فضل الله، فجاء التصحيح التربويّ العميق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ ليُبقي القلب خاضعاً مهما علا شأنه.

١١) ويعالج مرضَ قسوة القلب عند سماع الوحي، فأمر بالاستماع والإنصات لا بالمرور السَّريع: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ **لأن الرحمة تُنزَع من القلب الذي يتعامل مع القرآن كصوتٍ لا كرسالة**.

١٢) ويعالج مرضَ تبلّد الاستجابة، فيدعو القلب إلى الحياة الحقيقية: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ فالموت ليس توقّف الجسد، بل توقّف الاستجابة.

وهكذا يضع هذا الجزء بين يديك خريطةَ علاجٍ لأمراضٍ تبدأ بالكِبر وتنتهي بالغفلة، تمرّ بالطمع والعُجب والخيانة والجبن والتسويف، لتُخرج قلباً حيّاً يقظاً، يعرف ضعفه فيلجأ إلى ربّه، ويخاف تقلّبه لأن ﴿اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، فيعيش بين التوبة والمراقبة، وبين الاستغفار والثبات، حتى لا يسقط في دوائر الانحراف التي أسقطت أمماً من قبله.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق... أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أقرأ قصص الأمم كأنها تاريخٌ مضى، أم أقرأها كمرآةٍ تُعرّي واقعي اليوم، فتُريني موضع قدمي من طريق الله قبل أن تُريني أسماء القوم؟

٢) هل أتعاطف مع الأنبياء بدمعةٍ سريعة، ثم أتهرّب أنا من امتحانٍ صغيرٍ يطلب منّي ثباتاً صادقاً لا حماساً عابراً؟

٣) عندما يُقال لي: "تنازل قليلاً حتى تسير الأمور"... هل أبحث عن السلامة بأي ثمن، أم أبحث عن رضى الله ولو تعثّر سير الدنيا؟

٤) وهل أملك الجرأة أن أقول بصدقٍ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا﴾ أم أُفتّش عن مخرجٍ يُريحني من كُلفة الثبات ويُسكت ضميري باسم ''الضرورة''؟

٥) هل أتعامل مع الدين كعبوديةٍ تُربّي القلب وتُصلحه، أم كمعلوماتٍ تُضاف للعقل ثم تُترك الحياة كما كانت بلا تغييرٍ يُرى؟.

٦) وهل أفرح بسلامة صورتي أمام الناس أكثر من فرحي بسلامة قلبي بين يدي الله الذي يعلم السِّرّ وأخفى؟.

٧) هل أقيس نجاحي بمهارتي وخططي فقط، أم أتذكّر أن التوفيق هبةٌ من الله، وأن البركة ليست وليدة الذكاء وحده بل وليدة الإيمان والتقوى؟.

٨) وهل أستحضر أن النجاة ليست ''استحقاقاً'' لسنواتٍ مضت، بل رحمةٌ تُطلَب كل يومٍ، وخاتمةٌ يُخاف عليها كل ليلة؟.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) هل انكشف قلبي عند الرخاء: فاسترخيتُ واطمأننتُ اطمئناناً زائفاً، كأن السنن توقفت، وكأن الأخذ الإلهي لا يعود؟.

٢) وهل سمعتُ إنذار القرآن: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فارتعد قلبي... أم مرّت الآية على قلبي مرور العابرين؟.

٣) هل انكشف قلبي في لحظة ''التطبيع مع الخطأ'' حين قلت في داخلي: الأمور تمشي... إذاً أنا على خير، مع أن سلامة الظاهر لا تعني رضا الباطن؟.

٤) وهل خدعني تأخر العقوبة فتوهمتُ الأمان، أم زادني ذلك خوفاً من استدراجٍ لا أشعر به؟.

٥) هل انكشف قلبي حين ربطتُّ البركة بالمهارة وحدها، وبالخطط وحدها، وبالذكاء وحده... ثم نسيتُ شرط الله تعالى الذي لا يتبدّل: إيمانٌ وتقوى؟

٦) وهل صرتُ أتعامل مع الطاعة كإدارةِ حياة، لا كعبوديةٍ تُصلح القلب وتُطهّر

النيّة وتُزكّي السِّرّ قبل العلن؟.

٧) هل انكشف قلبي حين طالبني الحقُّ بإصلاحٍ داخليّ مؤلم: عفوٍ صادق، أو تركِ عادةٍ مستترة، أو ردِّ مظلمةٍ لا يعلمها أحد؟ أم أنني أتقنُ تبرير التأجيل، وأسمّي هروبي "حكمة"، وأسمّي خوفي "واقعية"، وأسمّي كسلي "ظرفاً"؟.

❖ أيُّ آيةٍ أربكتني فعلاً؟

١) هل أربكتني آيةُ الانسلاخ لأنني خفتُ على نفسي من علمٍ بلا عمل، ومن طاعةٍ تتحوّل مع الزمن إلى عادةٍ بلا حياة؟

٢) وهل وقفتُ طويلاً أمام قوله تعالى: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ كمن يخاف أن يُسلب النور وهو يظن أنه يملكه؟

٣) هل أربكتني صورةُ قلوبٍ تسمع ولا تفقه، وتبصر ولا تعتبر، وتعرف ولا تنقاد... لأنني وجدتُ في نفسي شيئاً من ذلك دون أن أعترف؟

٤) وهل ارتجف قلبي عند قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لأن كثرة السَّماع لا تعني صدق الاستجابة؟

٥) هل أربكتني آيةُ الاستجابة لأنها سحبت مني حجة "الوقت المناسب" وكشفت أن التأجيل قد يكون مرضاً لا ترتيباً؟

٦) وهل سمعتُ النداء كما هو: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فأدركتُ أن الحياة الحقيقية تبدأ من لحظة الانقياد لا من لحظة الفراغ؟

٧) هل أربكتني آيةُ التصحيح الرَّباني حين ينجح الإنسان فيظن أنه "صنع" النتيجة وحده، بينما الله يعلّمه الأدب مع الفضل؟

٨) وهل استيقظ قلبي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فأبصرتُ كيف يسرق القلب الفضل لنفسه بغير كلام؟

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل أؤجّل إصلاح ذات البين لأنني أرى نفسي "الأحقّ"، وأخاف أن أتنازل فيسقط قدري في عين نفسي؟ بينما النداء سابقٌ لكل مواجهةٍ وكل نصر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فلا تُصلح المعارك ما أفسدته القلوب.

٢) هل أؤجّل توبةً من عادةٍ أُجمّلها لنفسي، وأقول: "سيغفر الله" وأنا مقيمٌ عليها، كأنَّ المغفرة تُطلب بالإصرار لا بالإنابة؟

٣) وهل تحوّل الرجاء عندي إلى تواكلٍ بارد، بدل أن يكون رجاءً يُوقظ الخوف ويُنتج الاستقامة؟.

٤) هل أؤجّل مواجهة كِبري الخفيّ: كبرُ الرأي، كبرُ العُجب، كبرُ الإحساس أنني "فهمت" أكثر من غيري، وأنني "أفضل" لأنني أحسن عملاً؟ وهل أتنبه أن هذا المرض قد يصرف القلب عن الآيات دون أن أشعر، فيصبح القرآن حجّةً عليّ لا نوراً لي؟

٥) هل أؤجّل الإنصات الحقيقيّ للقرآن، فأمرُّ عليه مرور العادة لا مرور المحتاج، وأقرأ كثيراً ولا أُصلح باباً واحداً في قلبي؟ مع أن الرحمة معلّقةٌ بشرطٍ واضحٍ صريح: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالاستماع الذي لا يُثمر طاعةً ليس استماعَ قلبٍ بل استماعَ عادة.

٦) هل أؤجّل تحويل المعرفة إلى قرارٍ عمليٍّ فوريّ: تركُ ذنبٍ واحدٍ واضح، أو ردُّ حقٍّ واحدٍ معروف، أو قطعُ بابٍ واحدٍ يجرّني للغفلة؟

فإن خرجتُ دون تسمية الداء، ودون خطوة توبةٍ محددة، ودون استجابةٍ عاجلةٍ لما يحييني... فربما قرأتُ الآيات، لكنني لم أدخل بعدُ في دائرة المخاطَبين بها حقّاً.

خطةُ التغيير... طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح

ليست هذه خُطّةً مثاليةً تُكتب على الورق، بل مسارٌ صادقٌ يُكتب في القلب؛ طريقٌ لا يطول على من صدق، لكنه لا يلين مع من يراوغ؛ خطواتٌ واضحةٌ لا تقبل أنصاف الاعتراف، ولا تؤجِّل القرار، ولا تُزيِّن الضعف باسم الحكمة.

←الخطوة الأولى: صراحةٌ جذريةٌ مع النفس

ابدأ بتسمية الداء بلا تجميلٍ ولا تبرير؛ لا تقل "عندي تقصيرٌ عام"، بل قل:

١. كِبرٌ في رأيي،
٢. تسويفٌ في توبتي،
٣. تعلُّقٌ بالدنيا يُضعف همّتي،
٤. خوفٌ من الناس يُقيِّد صدقي،
٥. غفلةٌ عن الذكر تُقسِّي قلبي؛

لأن أخطر ما يُسقط الإنسان ليس الذنب، بل إنكارُه في داخله وتبريرُه بعباراتٍ مهذَّبة؛ وتذكّر أن الإصرار يُعمي، وأن التمادي قد يحجب القلب عن نورٍ كان قريباً، فقد قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ فالصراحةُ مع النفس بابُ الفتح، ومن لم يُسمِّ داءه لن يعرف دواءه.

←الخطوة الثانية: استجابةٌ فوريةٌ لا تنتظر ظرفاً

إذا عرفتَ الحقَّ في مسألةٍ فلا تؤجِّل امتثاله حتى "تتهيأ الظروف"، فالنداء لا ينتظر ترتيبك، ولا يؤجِّل حياتك حتى تنتهي من حساباتك، قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ اختر سلوكاً واحداً مؤجَّلاً وابدأ به اليوم قبل غدٍ:

١. خصومةً تُصلحها،

٢. عادةً تقطعها،

٣. فريضةً تُحكمها،

٤. معصيةً تتركها،

لأن الحياة الحقيقية تبدأ بخطوةٍ صادقة، لا بخطةٍ مثاليةٍ تُعلَّق على جدار الأمنيات.

←الخطوة الثالثة: إصلاحٌ قبل طلب الفتح

لا تطلب نصراً في أي ميدانٍ وقلبُك مشحونٌ بالخصومات، ولا ترجُ بركةً وصفُّك الداخلي متصدِّع؛ فالترتيب الرَّباني جاء واضحاً قبل الحديث عن الغلبة والتمكين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛

١. فالتغيير الصريح يمرُّ عبر اعتذارٍ صادق،

٢. وردِّ مظلمةٍ خفيّة،

٣. وكسرِ كبرياءٍ يُقاوم الاعتراف،

لا عبر شعاراتٍ عاليةٍ تخفي صدوع الداخل.

←الخطوة الرابعة: تواضعٌ يحرس التقدُّم

إذا رأيتَ أثراً صالحاً في نفسك، أو شعرتَ بخفَّةٍ بعد توبة، أو فتحٍ بعد مجاهدة، فاحذر أن تسرق الفضل لنفسك في صمت؛ فكم من سالكٍ بدأ صادقاً ثم أفسده العُجب وهو يظن أنه يترقّى؛ وقل بقلبك قبل لسانك: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ اجعل الفضل كلَّه لله، واعتبر نفسك دائماً محتاجاً إلى مزيد توفيق، حتى لا يتحوّل نجاحك إلى بداية سقوطك.

←الخطوة الخامسة: يقظةٌ في الرخاء قبل الشِّدّة

لا تأمن سُنن الله إذا رأيت نفسك مستقيماً ظاهراً، ولا تركن إلى صورةٍ طيبةٍ عن ذاتك؛ فالقلب يتقلّب، والسُّنن لا تُحابي أحداً، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ درِّب نفسك على محاسبةٍ دوريةٍ صادقة، وسؤالٍ

يتكرّر بلا ملل:

١. هل أنا اليوم أقرب إلى الله من أمسي، أم أبعد؟

٢. هل زاد خوفي من نفسي، أم زاد إعجابي بها؟

←الخطوة السادسة: مجلسُ قرآنٍ يُغيِّر لا يُكرِّر

اجعل للقرآن مجلساً مختلفاً في يومك؛ لا سماعَ عادةٍ تُنهي به وِرداً، بل إنصاتَ توبةٍ تبحث فيه عن توجيهٍ مباشرٍ لقلبك؛ لأن الرحمة مشروطةٌ بالأدب مع الوحي، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ اقرأ آيةً واحدةً تقف عندها حتى تغيِّر فيك سلوكاً، خيرٌ من صفحاتٍ كثيرةٍ تمرّ عليها بلا أثرٍ يُرى.

←الخطوة السابعة: دعاءُ ثباتٍ لا دعاءُ حماس

١. اربط قلبك بالدعاء الصادق أن يُثبِّتك الله ولا يسلبك ما عرفت،

٢. وأن يُحيي قلبك بعد علم،

٣. ويحفظك من انسلاخٍ بعد هداية؛

لأن أخطر ما يخشاه العاقل أن يعرف ثم يفتر، وأن يُضيء له الطريق ثم يُطفئه بيده؛ فاجعل لسانك رطباً بالالتجاء، وقلبك معلّقاً بالثبات، واعلم أن الطريق قصيرٌ لمن صدق، لكنه صريحٌ لا يقبل أنصاف الحلول:

١. خطوةُ مواجهةٍ،

٢. ثم خطوةُ استجابةٍ،

٣. ثم خطوةُ إصلاحٍ،

٤. ثم خطوةُ تواضعٍ،

٥. ثم خطوةُ مراقبةٍ...

٦. ثم مداومةٌ تُحوِّل التغيير من نوبةِ حماسٍ عابرةٍ إلى عادةِ صدقٍ مستقرةٍ في القلب.

خاتمةٌ وجدانيةٌ مزلزلة

يا صاحبي... هذا الجزء لم يُنزَل ليُحرِّك خيالك، بل ليُحاكم قلبك؛ لم تُسَق لك أخبارُ أقوامٍ مضوا لتتأمّل غرابة مصائرهم، بل لتقف أنت في مرآتها عارياً من التبرير؛ لتسأل نفسك سؤالاً لا يحتمل المجاملة:

- أين أنا من سنن الله التي لا تتبدّل؟ أأنا في صفِّ من خاف فنجا، أم في طريق من اغترّ فأُخذ على حين غفلة؟
- اسمع النداء الذي لا يستثني أحداً: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾... فهل يأمن قلبي؟
- يا من قرأتَ عن الانسلاخ بعد الهداية... أتظنُّ أن علمك يحميك من نفسك؟ أتأمن أن لا تُغريك الأرض إذا فُتِح لك بابها؟

إن الصورة ليست قصةً بعيدة، بل تحذيرٌ حيٌّ يتكرّر كل يوم؛ والشيطان لا يحتاج إلا لحظةَ تسويفٍ، أو ومضةَ إعجابٍ خفيٍّ بالنفس، أو تبريرٍ صغيرٍ يُفتح به بابٌ كبير.

فاخشَ على قلبك أكثر مما تخشى على سمعتك، وخف من سقوطٍ صامتٍ لا يسمعه الناس... لكنَّ الله سبحانه وتعالى يسمعه.

يا طالب الحياة... الحياة ليست في كثرة الحركة ولا في صخب الإنجاز، بل في صدق الاستجابة حين يُنادى عليك: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛

- فكم من أجسادٍ تمشي وقلوبها لم تُبعث بعد،
- وكم من ألسنةٍ تذكر وقلبها غافل،
- وكم من سامعين للقرآن لم يتجاوز الصوتُ آذانهم لأنهم لم يُنصتوا له حقّاً: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.
- الحياةُ ليست أن تتحرّك... بل أن تُحيي فيك الآياتُ موضعاً ميتاً.

وهذا الجزء يُجرّدك من وهم القوة، ويضعك أمام حقيقةٍ لا تقبل النقاش:

١. كلُّ توفيقٍ ظننته منك... لم يكن منك،
٢. وكلُّ سهمٍ رأيتَه يخرج من يدك... لم يكن بقوتك؛ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛

- فتواضع قبل أن تُحرم،
- واشكر قبل أن تُسلب،
- وارجع قبل أن يُحال بينك وبين قلبك؛

فإن القلب إذا أُغلِق لا يُفتَح بكثرة الكلام، بل بصدق الانكسار.

تذكّر...

١) أنَّ الله تعالى لا ينظر إلى مظهرك في الميدان بقدر ما ينظر إلى صدقك في الخلوة،
٢) ولا إلى صوتك في الجمع بقدر ما ينظر إلى وجَل قلبك إذا ذُكر،
٣) وأن النصر الحقيقي ليس أن تغلب خصماً خارجك، بل أن تغلب هوًى داخلك،
٤) وأن العاقبة ليست لمن بدا أقوى، بل لمن كان أتقى وأصدق وأخفى عملاً.

فإن خرجتَ من هذا الجزء كما دخلت...

← لم يزدك إلَّا معلوماتٍ تُضاف إلى رصيدك،
← ولم يوقظ فيك خوفاً يردعك ولا رجاءً يدفعك،
← ولم يُسمِّ لك مرضاً لتعالجه،
← ولم يدفعك إلى خطوة توبةٍ صريحة...

فخف على قلبك؛ لأن أخطر ما يُصيب الإنسان:

١. أن تمرّ عليه الآيات فلا تهزّه،
٢. وأن تُتلى عليه السُّنن فلا يعتبر،

٣. وأن يسمع التحذير فلا يرتجف.

قِف الآن... لا غداً... واسأل نفسك بصدقٍ موجع:

- ماذا سيتغيّر بعد هذه الآيات؟
- أيُّ ذنبٍ سأدفنه اليوم بلا رجعة؟
- أيُّ علاقةٍ سأصلحها قبل أن يُفاجئني الفوات؟
- أيُّ عُجبٍ سأخنقه قبل أن يخنقني؟
- أيُّ غفلةٍ سأقطعها بذكرٍ خفيٍّ في جوف ليلٍ لا يراني فيه إلا الله؟

فالطريق واضح... والنداء قائم... والمهلة ليست أبدية... ومن عرف سُنن الله ثم تجاهلها، لم يظلم إلا نفسه؛ فاختر لنفسك الآن:

أن تكون من المخاطَبين بالآيات... أو من المارّين عليها.

الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من هذا الجزء

- الثباتُ على الحقِّ ليس موقفاً سياسياً بل أمانةُ عقيدة... ومن عاد بعد النجاة فقد خان سرَّ الهداية: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا...﴾.
- أخطرُ سقوطٍ ليس في الجسد بل في القلب حين ينسلخ من الآيات بعد معرفتها... ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾.
- التوحيدُ لا يُقاس بلسانٍ يردّد، بل بقلبٍ لا يطلب وثناً جديداً عند أول ضعف... ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.
- الكِبرُ يحجب الفهم قبل أن يُفسد السلوك... ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾.
- الرخاءُ امتحانٌ أخفى من الشِّدّة؛ لأن الشدّة تُوقظك إلى الله، أمّا الرخاء فقد يُنسيك المراجعة، فإذا اطمأننتَ إلى النِّعمة وظننتَها ضماناً دائماً، فقد بدأتَ تخسر وأنت لا تشعر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ فالمؤمن يشكر ويخاف، ولا يأمن مع التقصير.

- القلوبُ قد تنبض، لكنها بلا فقهٍ ولا بصيرة؛ وأخطرُ الغفلة أن تظنّ نفسك حيّاً لمجرد أنك تسمع الكلام، بينما قلبك لا يستجيب ولا يتغيّر، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا...﴾؛ فالحياة الحقيقية ليست بنبض الجسد، بل بوعي القلب واستجابته للحق.
- الإصلاحُ لا يبدأ من رفع الشعارات في الميدان، بل من تقويٍ صادقةٍ في الداخل؛ فقبل أن تُصلح الواقع أصلِح قلبك، وقبل أن تطلب تغيير الناس أصلِح ما بينك وبين الله، ولهذا جاء الأمر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ لأن فساد الباطن يُفسد كل مشروع، وصلاح الداخل هو أصل كل إصلاحٍ صادق.
- الإيمانُ الحقّ ليس كلمةً تُقال ولا دعوى تُرفع، بل حالٌ يعيش في القلب؛ وَجَلٌ إذا ذُكر الله، وزيادةٌ عند سماع آياته، وتوكّلٌ صادق، وعملٌ يترجم هذا الشعور، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فالإيمان يُعرَف بأثره لا باسمه.
- النصرُ لا يُختزل في مهارةٍ بشريةٍ ولا يُنسب إلى قوةٍ ذاتية، بل هو توفيقٌ ربّانيٌّ يُجريه الله على أيدي عباده، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ ليبقى القلب مُعلّقاً بالواهب لا بالوسيلة، وبالفضل لا بالذات.
- الاستجابةُ لما يُحيي القلب لا تقبل التأجيل ولا تُحتمل فيها المماطلة؛ فحين يدعوك الله ورسوله إلى ما يُصلحك ويوقظك ويُطهّرك، فكلُّ تأخير خسارة، ولهذا جاء النداء حاسماً: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ لأن الحياة الحقيقية تبدأ بلحظة استجابةٍ لا بلحظة تردّد.
- الاستماعُ للقرآن ليس صوتاً يمرّ على الأذن، بل أدبُ حضورٍ بين يدي كلام الله؛ فالقضية ليست أن تسمع، بل أن تُنصت بقلبٍ ينتظر الهداية.

- كم من قارئٍ يسمع التلاوة ولا يتغيّر، لأن السَّمع تحرّك، لكن القلب لم ينصت.
- لذلك جاء الأمر واضحاً: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾؛ أي أفرغوا له قلوبكم قبل آذانكم.
- ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ فالرحمة ثمرةُ إنصاتٍ صادق، لا عادةِ سماعٍ عابرة.

- المالُ والولدُ ليسا علامةَ اصطفاءٍ ولا عنوانَ تميّز، بل فتنةٌ يمتحن الله بها صدق الانتماء؛ فقد يكثر في يدك الشيء ويقلّ في قلبك تعلّقُه بالله، والعبرة ليست بما تملك، بل بما يملكك؛ فالمعيار الحقيقي في القلب، لا في الرصيد ولا في العدد.
- الخيانةُ لا تبدأ بفضيحةٍ ظاهرة، بل بتفريطٍ خفيٍّ في الأمانة، وتنازلٍ صغيرٍ لا يراه الناس؛ ثم يكبر التهاون حتى يتحوّل إلى سقوطٍ بيّن، ولذلك جاء التحذير صريحاً: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ فاحفظ السِّرَّ قبل العلن، فإن أعظم السقوط ما بدأ من غفلةٍ مستترة.
- الطريقُ إلى العاقبة الحسنة لا يُبنى على استعجال الثمرة ولا على اختيار الأسهل، بل يمرّ بالصَّبر على ما فيه كُلفةٌ ومشقّة؛ فالنفس تميل إلى "غير ذات الشوكة" أي الطريق المريح قليل التبعة، لكن سُنن الله لا تُعطي النَّصر والتمكين لمن يهرب من الامتحان، بل لمن يثبت عند مواضع الشِّدّة حتى ينضج قلبه قبل أن تُفتح له الأبواب.
- الفُرقانُ ليس مهارةَ تحليلٍ ولا حدّةَ ذكاء، بل نورٌ يهبه الله لقلبٍ اتقى؛ فحين تصدق مع الله في السِّرّ، يجعل لك قدرةً على التمييز بين الحق والباطل، وبين الإلهام والهوى، ولذلك قال تعالى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾؛ فالبصيرة ثمرةُ تقوى، لا مجرد ثقافة.
- سُننُ الله لا تُحابِي نسباً ولا تُجامل لقباً؛ فمن أهمل قلبه، وتهاون بتزكيته،

وتراخى عن محاسبة نفسه، جرى عليه قانون الطبع ولو كان وارثاً لكتابٍ أو حاملاً لعلم؛ فالعبرة ليست بما تحفظ، بل بما يُحيي قلبك ويحفظك من القسوة.

- الولايةُ الحقيقية ليست كلمةً تُعلَّق ولا شعاراً يُرفع، بل سكينةُ قلبٍ يعلم يقيناً أن مرجعه وحمايته ونصره بيد الله وحده؛ فإذا استقرّ هذا المعنى في الداخل عاش العبد مطمئنّاً في التقلبات، مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ فحقيقة الولاية أن تعتمد عليه قبل أن تعتمد على نفسك.

الرسالةُ التربوية العظمى:

١. راقب قلبك أكثر مما تراقب واقعك...
٢. وأصلح باطنك قبل أن تطلب فتحاً على عدوّك...

فالخطرُ الأكبر ليس من خارجك بل من داخلك.

الترابط الموضوعي بين الجزأين الثامن والتاسع

١) الجزءُ الثامن يُقيمُ "مرجعيّةَ الحكم" داخل القلب قبل أن يفتح لك بابَ التاريخ؛ فيُعرّفك على عدوّ الوحي في صورة شبكةٍ من "زخرف القول" يلبّس الحقّ بالباطل ويُحرّك الأهواء ويصنع الجدل، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾، ثم يُحسم السؤال الفاصل: من الذي يُرجَع إليه عند النزاع؟ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾، ثم تُختم الأنعام بتوحيدٍ يبتلع حياةَ العبد كلّها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛

وبعد هذا التأسيس يفتح الجزء التاسع صفحة "الاختبار الخارجي" في الأنفال، فيتحول ما كان حديثاً عن مرجعية الحكم والاتباع في الداخل إلى

انضباط صفٍّ وإصلاح ذات بين وطاعةٍ تُدار بها الجماعة في لحظة الضغط، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٢) الجزءُ الثامن يُدخلُك الأعراف من باب "الاتباع" لا من باب الحكاية؛ فتأتي أولى نداءاتها: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، وكأنها تكمل من حيث انتهت الأنعام: لا تتبع الأكثرية والظّنّ والخرص، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾؛

ثم يجيء الجزء التاسع ليُنزّل هذا المعنى على "صراع الرسالات" في قصص موسى وفرعون، وعلى "فتنة النكث" بعد الوعد، وعلى "أمن مكر الله" حين تتبدل الشدة رخاءً، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ثم يدفعك دفعاً إلى ميدان الأنفال حيث لا يبقى الاتباع شعاراً، بل يصير حركةً وطاعةً وثباتاً واستجابةً تُحيي القلب وتُنقذه من التردد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

٣) الأنعام تُعرّف لك "كيف يبدأ الانحراف": جدلٌ، هوى، افتراء، طاعةٌ تُلبس لبوس الحجة حتى تصل إلى حدٍّ خطير: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛

والأعراف في الجزأين تُريك "منشأ الانحراف الأول" في قصة إبليس حين تولّد الكِبرُ من المقارنة، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ثم تُريك "كيفية استمرار الانحراف" في الأمم: تكذيب، استكبار، ثم استدراج وتبدّل أحوال؛

ثم تأتي الأنفال لتُريك "كيف يُكسر الانحراف حين يصير فتنةً عامة": بتقوى وطاعة وصدقٍ في الاستجابة، لا بالتعليل والتسويف.

الترابط العقدي بين الجزأين الثامن والتاسع

١) في خواتيم الأنعام يُقرر القرآن أن الإيمان ليس نتيجةَ كثرة الآيات، بل توفيقٌ من الله ومشيئةٌ وحكمة؛ وأن القلب قد يرى كل دليل ثم لا يخضع، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛

ثم تأتي الأنفال في الجزء التاسع لتضع معيار الإيمان الحقّ في صورةٍ قلبيةٍ عملية: وجلٌ عند ذكر الله، وزيادة إيمان عند تلاوة الآيات، وتوكّلٌ على الله، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛

فكأن الجزأين يربطان بين "حقيقة التوفيق" و"علامة الصدق": ليس كل من رأى آمن، ولكن من صدق استجاب وازداد.

٢) الأنعام تُحاكم "مصدر التحليل والتحريم" وتغلق باب التشريع بالأهواء: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾، ثم تُحذر من طاعةٍ تُصير صاحبها في حدِّ الشرك العملي في باب الاتباع: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛

وتأتي الأعراف لتؤكد هذا الأصل في صورة "قولٍ على الله بغير علم" وادعاء أن الفاحشة مأمورٌ بها، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛

ثم تأتي الأنفال فتجعل الطاعة لله ورسوله مِفصلَ النجاة في لحظة القرار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، فالعقيدة هنا تتحول من "تصحيح المرجعية" إلى "إلزام السلوك".

٣) الأعراف في الجزء الثامن يضع أصلَ المعركة: إبليس يقعد على الصراط، ويأتي من الجهات كلها ليمنع الشكر ويشوّه الاستقامة، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛

والأنفال في الجزء التاسع يبيّن أن العبد لا ينتصر على هذا العدو إلا بالاعتصام بالله وبالاستجابة التي تُحييه؛ وأن الله يحول بين المرء وقلبه فلا يُؤمَن على النفس من الانتكاس، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، فتكتمل الصورة العقدية:

عدوٌّ يتسلّط بالوسوسة، ونجاةٌ بالاستجابة والتقوى والافتقار.

الترابط البياني بين الجزأين الثامن والتاسع

١) في الأنعام تُوضع قاعدة البيان المحكمة: "كمال كلمة الرَّب صدقاً وعدلاً"؛ أي إن معيار الحق ليس الأذواق ولا الأكثرية بل كلمة الله، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾،

ثم تأتي الأعراف في مفتتحها لتُحوّل هذا المعنى إلى نداءٍ مباشرٍ للاتباع والتحذير من الحرج، ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾، ثم يبدأ "ميزان الوزن" الذي يترجم الصدق والعدل إلى موازين تُثقل وتخفّ، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾؛ ثم تفتتح الأنفال بأسلوبٍ عمليٍّ حاسم: أوامر تقوى وإصلاح وطاعة، فتنتقل من "تقرير الميزان" إلى "تطبيق الميزان".

٢) الأنعام تُكثر من أسلوب كشف الباطن: أفئدة تصغى، ورضاً بالباطل، واقترافٌ للإثم، ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾؛

والأعراف تُكمّل هذا الكشف ببيان منشأ الباطن في الكِبر والاستكبار، ثم تتدرج في عرض سُنن الأمم؛ ثم الأنفال تُحوّل هذا كله إلى خطابٍ يواجه السَّامع: لا تكونوا ممن قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، فتتصل بنية البيان: من تشريح القلب، إلى تربية السمع، إلى إلزام الاستجابة.

٣) الأعراف في الجزء التاسع يُقدِّم "سنة الاستدراج" ببيانٍ يخطف الغافل:

تبدّل السيئة حسنةً ثم الأمن ثم الأخذ بغتة، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا﴾، ثم يحسمها بسؤالٍ يقطع الغفلة: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾؛ والأنفال يُقابل ذلك بلغةٍ أخرى: الطمأنينة الحقّة ليست في الرخاء ولا في العدد، بل في تثبيت الله وربط القلب، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

الترابط الوجداني بين الجزأين الثامن والتاسع

١) الجزء الثامن يضعك أمام خوفٍ داخليٍّ شديد: ليس كل من رأى آمن، وليس كل من سمع خضع، بل قد تتراكم الأدلة ويبقى القلب مُعرضاً، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ ثم يدخل بك الأعراف إلى جذر الخطيئة الأولى:

- كِبرٌ يرفض السجود،
- ووسوسةٌ تُزيّن المعصية،
- وانكشافُ السوأة بعد الغرور،

فتشعر أن المعركة قديمةٌ قِدم الإنسان، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾؛ ثم في الجزء التاسع تُرى ثمرات هذا الطريق في الأمم: تكذيب، استكبار، ثم أخذٌ وبأساء وضراء، ثم استدراج، فتشتد الرَّهبة في القلب من الغفلة ومن أمن مكر الله، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢) ثم تأتي الأنفال لتفتح نافذة الرجاء العملي: الإيمان ليس صراخ مشاعر ولا ادعاء، بل وجلٌ وازديادٌ وتوكّلٌ واستجابة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾... ثم حين يشتد الرُّعب في الميدان لا يتركك القرآن مع الخوف وحده، بل يريك عطاء الله للمؤمنين: أمنة نعاس، وماء تطهير، وذهاب رجس الشيطان، وربط قلب، وتثبيت قدم، ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾؛

فكأنَّ الجزأين يقولان: القلب إمّا أن يُقاد بالوسوسة والهوى حتى يصدف عن الآيات، وإمّا أن يُقاد بالاستجابة حتى تُصبِح الآيات زيادة حياة لا مجرد معرفة.

٣) وخلاصة المسار الوجداني بين الجزأين أن الأنعام والأعراف تُسقط عنك وهم "أنا على خير ما دمتُ أعرف"، وتضعك أمام سؤال النجاة: هل أنت تابعٌ للحق أم تابعٌ لنفسك؟

ثم تأتي الأنفال لتقول: علامة الصدق تظهر عند النداء لا عند الدليل؛ فإذا دُعيتَ إلى ما يحييك فلا تتأخر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، لأن التردد في ساعة النداء هو أول أبواب موت القلب ولو كثرت معلوماته.

بلعام... حين يتحوّل العلم من رفعةٍ إلى سقوط

في سورةٍ تمرّ على القلب سريعاً لو لم يُوقِفه القرآن بنفسه، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ...﴾ (الأعراف: ١٧٥–١٧٦).

القرآن لم يذكر اسماً، لم يحدد زمناً، لم يضع إطاراً تاريخياً، بل ركّز على وصفٍ عارٍ من التفاصيل ليبقى النموذج حياً في كل عصر؛ رجلٌ آتاه الله آياتٍ، وعنده علمٌ، وكان يمكن أن يُرفع بهذا العلم درجاتٍ عالية، لكنّه اختار طريقاً آخر، فانسلخ مما أُعطي، وأتبعه الشيطان، وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فضُرب له مثلٌ يهزّ القلوب ولا يطمئنها.

هذه هي النواة القطعية الثابتة التي لا خلاف عليها، وهي التي أراد القرآن أن

تبقى أمام أعين أهل العلم والدعوة والتزكية جيلاً بعد جيل.

أمّا الاسم، فكثيرٌ من المفسرين ذكروا أنه رجلٌ يُسمّى "بلعام بن باعوراء"، من بني إسرائيل، ويُقال إنه كان في زمن موسى عليه السلام، لكن هذا التعيين ليس نصاً قطعياً؛ لم يرد اسمه في القرآن، ولم يثبت حديثٌ صحيحٌ صريح عن النبي ﷺ يسميه، وأكثر التفاصيل الواردة عنه من أخبار بني إسرائيل التي تُروى ولا يُجزم بها، فنحن أمام اسمٍ مشهور في كتب التفسير، لا أمام يقينٍ منصوص.

الروايات المشهورة تصوّره رجلاً عالماً يُستجاب دعاؤه، وقيل إنه كان يعرف اسم الله الأعظم، فلما قدم موسى عليه السلام إلى أرضٍ يسكنها هذا الرجل وقومه... خاف القوم على مصالحهم، وطلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه، فتردّد أولاً وقال: كيف أدعو على نبيّ الله؟ لكن الضغط الاجتماعي، ومراعاة المكانة، وربما الهدايا والمصالح، جعلته يميل شيئاً فشيئاً، فدعا - أو حاول أن يدعو - فانقلب عليه الأمر، فقيل إنه صار يدعو على قومه بدل موسى، وسُلب ما كان عنده من علمٍ وقبول.

وبعض الروايات تزيد تفاصيل عجيبة عن انقلاب لسانه أو حال موته، لكنها لا تثبت سنداً، وأكثرها من الإسرائيليات، فلا يُبنى عليها يقين.

غير أن قيمة هذه المرويات ليست في إثبات جزئياتها، بل في الصورة النفسية التي رسمها المفسرون من خلالها؛ عالمٌ لم يسقط فجأة في جريمةٍ مدوّية، بل بدأ بتنازلٍ صغير، مجاملةٍ خفيفة، قبول ضغطٍ اجتماعي، التفاتةٍ إلى الدنيا، تقديم رضا الناس على مقتضى العلم، ثم تدرّج حتى انسلخ.

وهنا تتجلى دقة التعبير القرآني؛ لم يقل: ترك الآيات، بل قال: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾، والانسلخ ليس مجرّد ترك، بل خروج الجلد من الجسد، انفصالٌ مؤلم، تخلٍّ بإرادة، كأنَّ العلم كان يحيط به ويحميه، فلما اختار الهوى نزع هذا الغطاء عن نفسه، فصار مكشوفاً، ثم تبعه الشيطان، فكان من الغاوين.

ثم تأتي الجملة التي ينبغي أن تُقرأ طويلاً في مشروع التزكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، الرفعة كانت ممكنة، الطريق كان مفتوحاً، العلم كان صالحاً أن يكون سُلّماً إلى الله تعالى، لكنّه هو الذي أخلد إلى الأرض، أي مال بقلبه إلى الدنيا، وثقل بها، واستراح إليها، فاختار النزول، والسقوط هنا لم يكن جهلاً، بل اختياراً، لم يكن حرماناً من العلم، بل سوء استعمال له.

أما تشبيهه بالكلب في قوله تعالى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، فليس المقصود إهانةً حيوانية بقدر ما هو توصيفٌ لحالة نفسية؛

- لهاثٌ دائم،
- شهوةٌ لا تشبع،
- نفسٌ لا تهدأ سواء وُعظت أو تُركت، دفعت أو أُهملت،
- فقد صار أسير هواه، لا يتحرّك ببوصلة الوحي، بل ببوصلة الرَّغبة.

هنا يتبيّن أن القرآن لم يكن مهتماً بالقصة التاريخية بقدر اهتمامه بالنمط المتكرر عبر العصور؛

١) عالِمٌ يبيع علمه،
٢) داعيةٌ يُجامل على حساب الحق،
٣) صاحب معرفةٍ يختار الهوى حين تتعارض مصلحته مع مقتضى علمه،

ولهذا ختم السياق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فلم يحصر المثل في فرد، بل جعله تحذيراً جماعياً، سُنّةً تتكرر متى انفصل العلم عن التزكية.

في ميزان "حتى يغيّرك القرآن" ليست العبرة أن تعرف اسمه، بل أن تخاف أن تكون مثله؛

١. أن يكون عندك علمٌ، ودروس، وآيات، وحضور، ثم إذا تعارضت الحقيقة مع رغبتك اخترت رغبتك،

٢. وإذا تعارض رضا الناس مع رضا الله قدّمت الناس،

٣. فتبدأ القصة بتنازلٍ صغير، وتنتهي بانسلاخٍ كبير.

العلم وحده لا يحفظ صاحبه، والحفظ الحقيقي في تزكية النفس، ومراقبة الهوى، والهرب من ضغط الجماهير، واستحضار أن الرفعة بالآيات ليست وعداً مطلقاً، بل مشروطة بالثبات عليها.

ولو لخصنا الصورة كما ترسمها الروايات - مع التحفظ العلمي - في سطرٍ واحدٍ يوقظ القلب لقلنا:

رجلٌ عرف الحق، ثم خضع لضغط قومه وطمع الدنيا، فاستعمل علمه ضد الحق الذي عرفه، فسُلب التوفيق وسقط سقوطاً مُدوّياً، فصار مَثَلاً لا لشخصه، بل لكل من يظن أن العلم يكفيه دون أن يُزكّي قلبه.

الجزء العاشر: مِنْ مَيْدَانِ بَدْرٍ إِلَى سُورَةِ البَرَاءَةِ:

تَشْكِيلُ الأُمَّةِ بَيْنَ سُلْطَانِ الشَّرْعِ وَفِتْنَةِ القَلْبِ

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ للجزء...

لا يبدأ هذا الجزء من القرآن بترفٍ روحيٍّ، ولا بدفءِ مجالسٍ آمنةٍ تُقال فيها الكلمات بلا ثمن؛ بل يبدأ من لحظةٍ فاصلةٍ تُعَلِّمُك أن الدين ليس انفعالاً عابراً ولا شعاراً يُعلَّق، وإنما هو منظومةُ طاعةٍ تُقِيمُ العدل في المال، وتُحْكِمُ الصفَّ في الميدان، وتَفْضَحُ النفاقَ في الداخل، ثم تُعِيدُ ترتيبَ الولاءات حين تختلط الأنسابُ والمصالحُ باسم الإيمان... فيفتتح الحديث من آيةٍ تُعيد المالَ إلى موضعه في العبودية، وتضع الغنيمةَ تحت سلطان الله لا تحت شهوة المنتصر: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، كأن القرآن يقول لك من أول خطوة:

- المعركة التي لا تُهَذِّبُ اليدَ من الطمع... لن تُهَذِّبَ القلبَ من الاستعلاء،
- وأن النصر إذا لم يُقَيَّد بالشرع تحوّل إلى فتنةٍ باسم الدين.

ثم يأخذك مباشرةً إلى "يوم الفرقان" لا ليحكي تاريخاً، بل ليُرِيَكَ كيف يعمل تدبير الله حين يلتقي الجمعان على غير موعدٍ بشريٍّ محكم؛ أنت على العُدْوَةِ الدُّنْيَا، وهم على العُدْوَةِ القُصْوَى، والرَّكْبُ أسفل منكم، ومع ذلك تمضي المقادير لتقوم الحُجّة وتتميز المواقف: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾؛ فلا أحد يختبئ خلف العُذر بعد البيان، ولا أحد يدّعي الإيمان وهو يفرّ من موجة الامتحان.

ومن هنا تتضح "رحمة التثبيت" التي قد لا ينتبه لها الإنسان؛ إذ يريك الله العدوَّ قليلاً في المنام، ولو أراكه كثيراً لفشلتم وتنازعتم، لكن الله سلَّم لأن المعركة ليست قوةَ أعدادٍ فقط، بل قوةُ قلوبٍ تُدار على علم الله بذات الصدور:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ ثم يقع التقليل مرةً أخرى ساعة اللقاء في أعينكم وأعينهم ليُقضى الأمر، ويُعلِّم المؤمن أن بعض أسباب النصر ليست في قبضته أصلاً، وإنما هي مِن لُطف الله الذي يدفع عنك ما لا تراه.

وبعد أن يضعك الجزء في قلب الميدان، لا يتركك بلا "قانون قلب" يحفظ الصف من الانهيار؛ فتسمع النداء الذي لا يصلح للقتال وحده بل يصلح لعمرٍ كامل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ثم يُربط الثبات بالطاعة، وتُجعل الهزيمة ثمرةً طبيعيةً للتنازع لا "مفاجأةً" في الطريق: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، ثم يُمنع القلب من مرضٍ خفيٍّ قد يلبس لباس الحماسة: البطرُ والرياءُ وصناعةُ الصورة أمام الناس: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾... وهنا يفضح القرآن خدعة "تزيين الشيطان" حين يعدك بالأمان ويُمنّيك بالغلبة، ثم أول ما تتراءى الفئتان ينكص ويقول: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾؛ فيتعلم المؤمن أن الشيطان قد يُلقي في الطريق كلماتٍ تبدو "واقعيةً" و"مطمئنةً"، لكنها تنهار عند أول مواجهةٍ صادقة.

ثم يفتح الجزء نافذةً على "لغة الداخل" التي تُقال عند الامتحان؛ فهناك من يسمّي ثبات المؤمنين غروراً، ويُسقط على الدين معيارَ الحسابات الباردة: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، لكن القرآن يغلق الباب بقاعدةٍ تُعيد كل شيء إلى موضعه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.. ثم يريك نهاية الطريق حين تنقطع الحُجج ويبدأ الجزاء، فتُذكر صورةُ التوفّي على الكفر وما فيها من وعيدٍ يليق بجلال العدالة الإلهية: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ثم يُغلق الباب على أي توهمٍ ظالم في فهم القدر: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾؛ فلا يُنسب إليه جورٌ ولا تُعلّق عليه التبعات، وإنما ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.. ثم تُعرض سُنَّةُ الله في الأُمم كدأب آل فرعون ومن قبلهم... ليس

للتاريخ، بل للتحذير من تكرار المسار، ولتقرير قاعدةٍ إصلاحيةٍ عظيمةٍ تتجاوز وعظ المجالس إلى تغيير الواقع: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾؛ فالتبدّل يبدأ من الداخل، والسُّنن لا تحابي أحداً.

ومن هذا الموضع ينتقل الكلام إلى أخلاق السياسة والعهود في الإسلام؛ فـ"شرّ الدواب" ليس مَن ضعف جسمُه بل من مات قلبُه عن الإيمان، ثم يصف صنفاً يتكرر في كل عصر: يُعاهد ثم ينقض في كل مرة ولا يتقي، فهنا تُشرَع الهيبة الرادعة في زمن الحرب حتى لا يصبح الغدرُ عادةً مأمونة الكلفة: ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾، لكن في الوقت نفسه يُضبط ميزان العدل: فإذا خفت من قومٍ خيانةً فلا خديعةَ ولا غدرَ باسم الحزم، بل إعلانٌ واضح يردّ العلاقة إلى سواءٍ معلوم: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

ثم تأتي آية الإعداد التي كثيراً ما تُقرأ خارج روحها؛ فهي ليست دعوةَ عبثٍ ولا فوضى، بل صناعةُ قوةٍ بقدر الاستطاعة لحفظ الحق وردع العدوان، مع استحضار أن النفقة في سبيل الله مردودةٌ إليك عدلاً: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾... ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾... ثم لا يتركك القرآن في منطق التصادم فقط، بل يفتح باب السِّلم المنضبط حين يكون السِّلمُ صادقاً أو راجحاً في مصلحته: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، ومع ذلك يُعلّمك ألّا تكون ساذجاً؛ فإن أرادوا خداعك فحسبك الله الذي أيّدك ونصرك، وهو الذي ألّف بين القلوب تأليفاً لا تملكه خزائن الأرض: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، فتدرك أن "وحدة الصف" ليست شعاراً إداريّاً، بل نعمةٌ ربانيةٌ تُستجلب بالطاعة وتُحفظ بالتقوى.

ثم يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ ومن معه؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَن

اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يأتي التحريض على القتال بمعناه الشَّرعي في سياق دفع المعتدين وحماية الجماعة المؤمنة، ثم يُخفف الله ويعلم أن فيكم ضعفاً، فينزل التقدير على قدر الطاقة: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾.

وبعد ذلك يأتي موضعٌ دقيقٌ من فقه النفوس بعد النصر؛ أسرى الحرب، وغواية "عرض الدنيا"، وكيف يمكن لقلوبٍ مؤمنة أن تزلّ في لحظة فرحٍ أو استعجال، فيأتي العتاب الرَّباني الحاكم لا للتشفي بل للتربية: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، ثم يفتح باب الحلال الطيب بعد ضبطه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ثم يوجّه النبي ﷺ في شأن الأسرى بما يجمع بين العدل والرحمة: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، مع بيان أن الخيانة لا تُربك طريق الحق؛ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم، والله عليم حكيم.

ثم يختم هذا المقطع من الأنفال برسم "خريطة الولاية" التي تُقيم الأمة على رابطة الإيمان لا على مجرد الجغرافيا، فيجعل المؤمنين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، والذين آووا ونصروا... أولياء بعض، ويُفهمك أن النُّصرة تُبنى على هذا العقد لا على المزاج: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ثم يضع خطاً فاصلاً: إن لم تفعلوا هذا التماسك... فالنتيجة فتنةٌ في الأرض وفساد كبير: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، ثم يختم ببشارة "المؤمنين حقاً" وبقاعدة الأرحام في كتاب الله؛ فلا تُهدر روابط الدم، لكنها تُرتّب في موضعها الشرعي ضمن البناء العام.

ومن هذا الانضباط الصارم في الميدان والمال والولاية... تنتقل بك السورة التالية انتقالاً يحمل نبرة مختلفة؛ نبرة "براءة" لا تعني الفوضى ولا نقض العهود مطلقاً، بل تعني إعادة ترتيب العلاقات الدولية على أساس الصدق لا التمويه، وإعلان انتهاء حالٍ مخصوصةٍ من عهودٍ نُقِضت أو صارت ساحة غدر؛ فتُفتتح

التوبة بـ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ثم يُعطَون مهلةً معلومةً ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، ويُعلن النداء يوم الحج الأكبر، ثم يأتي الاستثناء الذي يقطع الطريق على كل فهمٍ جائر: فليس كل مشركٍ سواء، وليس كل عهدٍ يُرمى؛ بل من استقام على عهده ولم ينقصكم شيئاً ولم يظاهر عليكم أحداً... فالعهد إلى مدته: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾، لأن الإسلام لا يبني قوته على الخيانة ولا يُشرعن الغدر باسم الغلبة.

ثم تأتي الآيات التي تُقرأ كثيراً مبتورةً عن سياقها؛ آية القتال بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وهي في سياق إنهاء عدوانٍ وغدرٍ ونقضٍ متكرر، ومع ذلك لا تُغلق باب التوبة ولا تُبطل حق الأمان: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، ثم تُقرر آيةٌ عظيمةٌ في رحمة الدعوة والعدل: من استجارك ليسمع كلام الله فأجره حتى يسمع ثم أبلغه مأمنه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾؛ فتدرك أن القوة في القرآن ليست نزقاً، بل قوةٌ تُنصف حتى وهي قادرة.

ثم يُعرّفك القرآن بطبيعة الطرف الذي لا يرقب في مؤمنٍ إلّاً ولا ذمّة، يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم... ويشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، ثم يعيد فتح الباب: إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوانكم في الدين، ثم يأخذك إلى لُبّ القضية: إذا نكثوا أيمانهم وطعنوا في دينكم فالمعركة ليست مع عامة الناس بل مع "أئمة الكفر" الذين يقودون مشروع النقض والطعن: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، ثم يوقظك بسؤالٍ يهزّ الخوف الكسول: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾، ثم يُذكّرك أن الطريق ليس "تركاً بلا امتحان": ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾؛ فلا تُطلب الجنة بعناوين، بل بثباتٍ وتصفية ولاءٍ من كل وليجة تُدار في الظل.

ثم ينتقل بك إلى معيارٍ يقطع تزييف "الرموز" و"الطقوس" إن انفصلت

عن الإيمان؛ فعمارة المساجد ليست هندسةَ جدرانٍ، بل شهادة قلبٍ بالتوحيد: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ثم يضع التفاوت الحقيقي بين من يجعل العمل الديني مجرد خدمةٍ اجتماعيةٍ وبين من آمن وجاهد: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ ثم تأتي آيةٌ مفصليةٌ في تزكية الولاءات الفردية: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ... وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾، لا لتقطع الرَّحمة والبِر، بل لتمنع تأليهَ الروابط حين تصير مقدَّمةً على طاعة الله ومعنى الحق.

ثم يُذكّرك القرآن بأن النصر لا يُفهم على أنه "قانون كثرة"؛ فقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، ثم نزلت السَّكينة... وكأن الجزء يقول: كل مرةٍ تُعجبك نفسك... سيُذكّرك الله أن السَّكينة عطيةٌ لا تُشترى بالعدد.. ثم يأتي حكمٌ يتعلق بالحرم: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ مع تطمينٍ رزقيٍّ يقطع وسوسة الفقر: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾.

ثم تمتد النظرة إلى أهل الكتاب في سياقٍ سياسيٍّ تاريخيٍّ معلومٍ، وتُذكر الجزية بوصفها ترتيباً في دولةٍ تحمي وتمنع العدوان وتُنهي حالة الحرب، ثم يُفضَح الانحراف العقدي حين نُسبت البنوة لله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، ويُبيِّن بابٌ آخر من أبواب الشِّرك العملي: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ثم يعلو إعلان النور الذي لا ينطفئ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

وبعد هذا ينتقل الخطاب من صراع العقائد إلى فتنة الأموال داخل الأُمَّة؛ فيحذر من أكل أموال الناس بالباطل باسم الدِّين، ثم يجلد قلب الكنّاز الذي يكدّس الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، ويُرِيَه يوم تُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها الجباه والجنوب والظهور: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

ثم يعود الجزء ليهذب الزمن نفسه؛ يثبت عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرم، ويكشف تحريف "النسيء" الذي كان عبثاً بالتقويم لخدمة الأهواء: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، ثم تأتي الصَّيحة التي تفضح ثِقَل الدنيا حين يُنادَى المؤمن إلى النُّفرة في سبيل الله فيثاقل إلى الأرض: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، ويُهدَّد الاستبدال لمن استسلم للراحة، ثم تُستحضر لحظة الغار بوصفها قانوناً خالداً: إن لم تنصروه فقد نصره الله... ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فتفهم أن أعظم "معيَّة" تُسكِّن القلب هي معيَّةُ الله، لا معيَّة الأسباب.

ومن هنا يبدأ كشف المنافقين لا بوصفهم قصةً قديمة، بل بوصفهم مرضاً اجتماعيّاً يتكرر كلما دُعي الناس إلى كلفة الحق؛ فلو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك، ولكن بَعُدت عليهم الشُّقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا، ويأتي العتاب: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ليُعلِّم القيادة أن التمييز بين الصادق والكاذب جزءٌ من حماية الصف.

ثم يكشف القرآن حقيقتهم: لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة... ثم يفضح ذريعةً يتزين بها بعضهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ فيقال بحسم: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

ثم يثبت المؤمن على قانون قدر الله الجميل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ لا ليُلغي الأخذ بالأسباب، بل ليُمنع انهيار القلب عند تقلبات الطريق.

ثم يضرب القرآن على وترٍ دقيقٍ في فقه العمل: ليس كل نفقةٍ مقبولة، ولا كل حركةٍ عبادةً إذا خلت من الإيمان والصدق؛ ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾، ويذكر أسباب الرد: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ وكسل الصلاة وكراهية الإنفاق... ثم يُحذر النبي ﷺ والمؤمنين من الاغترار بأموالهم وأولادهم؛

فقد تكون أداة عذابٍ في الدنيا قبل الآخرة، ثم يذكر صنفاً يلمز في الصدقات؛ إن أُعطي رضي وإن لم يُعط سخط، ويُقابل ذلك بمقام الرضا الجميل: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾.

ثم تأتي آية مصارف الصدقات بوصفها فريضةً مضبوطةً لا مزاجاً: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ لتُقيم عدل المال داخل الأُمة كما أقام خُمُس الغنيمة عدل المال بعد المعركة؛ كأنَّ الجزء كله دائرةٌ واحدة: **المالُ إذا لم يُضبط... أفسد الروح.**

ثم يفضح إيذاء النبي ﷺ بالكلام والغمز: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ويُقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾، ثم يهدد من يحادد الله ورسوله، ويحذر المنافقين أن تُنزَّل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، ثم تأتي لحظة السقوط العقدي حين يستهزئون بالله وآياته ورسوله، فيأتي الحكم المخيف الذي يقطع مسالك التلبيس: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ لأن الاستهزاء ليس "مزاحاً"، بل طعنٌ في مقام التعظيم الذي يقوم عليه أصل الدين.

ثم يصف القرآن النفاق بوصفه منظومةً: يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم، نَسُوا الله فنسيهم، ثم يوازن بمشهد المؤمنين والمؤمنات: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله... ثم تُذكر الجنة والرضوان الأكبر لتعرف أن المقصود في النهاية ليس جدلاً ولا تصنيفاً، بل نجاة قلب.

ثم يأتي الأمر الذي قد يُساء فهمه إن فُصل عن سياقه: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وهو في مقام سياسة الأُمَّة وحماية دينها وأمنها وردع من ينافقها ويطعنها ويخونها، لا في مقام ظلم الناس أو الاعتداء عليهم، ثم يُعرض نموذجٌ لمن قال كلمة الكفر بعد الإسلام وهمَّ بما لم ينال، ثم قصة من عاهد الله إن آتاه من فضله ليتصدقن... فلما آتاهم بخلوا وتولوا وهم معرضون،

فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، ثم يقرر العلم الإلهي المحيط: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فيسقط قناع السَّرائر مهما طال التمثيل.

ثم يأتي مشهد السُّخرية من المتصدقين، ثم يغلق القرآن باب التواطؤ العاطفي مع النفاق حين يبلغ حدّاً معلوماً: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ... فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ لأن القضية ليست "ذنوباً عابرة" بل مشروع كفرٍ بالله ورسوله وإصرارٌ على الفسق.

ثم يفضح فرح المخلفين بالقعود، وكُرههم للجهاد في الحر، فيُقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً﴾، ثم يمرّ بك حكمٌ اجتماعيٌّ حاسم: لا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره... لأن المسألة وصلت إلى حدٍّ يهدد معنى الجماعة ومعنى الإيمان.

ومع كل هذا الحزم... يختم المقطع الذي أوردتَه بلمسةٍ تمسّ ضمير الأمة:

١) ليس كل من قعد منافقاً،

٢) وليس كل من تأخر مذموماً؛

فهناك الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لا حرج عليهم إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل... ثم تلك اللوحة التي لا تصطنع دموعاً لكنها تُنبت دمعةَ الصدق في قلب السَّامع: قومٌ أتوا ليُحمَلوا، فقيل لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون؛

لتفهم أن هذا الجزء ليس "صوت سيوف" فقط، بل ميزانُ قلوبٍ؛ يفضح المتثاقل الغني الذي يختلق الأعذار، ويكرّم الفقير الصادق الذي يؤلمه أن يفوته موطن البذل.

وهكذا يمضي الجزء العاشر رحلةً واحدةً لا تتجزأ:

١) يبدأ بتهذيب المال بعد النصر،
٢) ويؤسس قوانين الثبات والطاعة ونبذ التنازع،
٣) ويكشف خداع الشيطان والمرَضَ الداخلي للمنافقين،
٤) ويضبط أخلاق العهود والسِّلم والنبذ على سواء،
٥) ويقيم معنى الولاية والنُّصرة،
٦) ثم ينتقل إلى "براءة" تُنهي التمويه السياسي وتُثبت الاستثناءات العادلة،
٧) وتفتح باب الأمان لمن يطلب سماع كلام الله،
٨) وتعيد تعريف عمارة المساجد،
٩) وتكشف شهوات المال والجاه والدين المُؤسَّس على صورةٍ لا حقيقة،
١٠) وتواجه الكسل والرياء واللَّمز والاستهزاء،
١١) ثم تختم بمشهدٍ يردّك إلى ميزان الله الرَّحيم العادل: أن العبرة ليست بمن رفع صوته بالشعارات، بل بمن صدق مع الله حين ثَقُلَت الكلفة...

فمن هنا تفهم لماذا يُسمّى هذا الجزء "مدرسةُ التصفية":

← تصفيةُ المال،
← وتصفيةُ الصف،
← وتصفيةُ القلب،
← وتصفيةُ الولاء...

حتى لا يبقى في الطريق إلى الله شيءٌ يُعبد من دونه؛ لا غنيمة، ولا كثرة، ولا قبيلة، ولا مصلحة، ولا صورة، ولا هوى.

الخريطة البنيوية لآيات هذا الجزء

١) البداية من ميزان المال بعد النصر: الغنيمة ليست "غنيمةَ شهوةٍ" بل "أمانةُ شريعةٍ" تُردّ إلى حق الله ورسوله وذوي القربى والضعفاء حتى لا يُنتج النصرُ قلباً جشِعاً ولا صفّاً متنازعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

٢) "يوم الفرقان" ليس ذكرى حرب، بل لحظةُ انكشافٍ تُقام فيها الحُجّة ويزول الالتباس، فيظهر الحقُّ واضحاً والباطلُ مكشوفاً.. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي يكون الاختيار بعد وضوحٍ لا بعد غموض... فالدين لا يترك القلب في منطقةٍ رمادية؛ بل يطالبه بحسم موقفه حين تقوم البيّنة.

٣) لطف التثبيت في قلب الأزمة: تقليل العدو في المنام ثم في العينين رحمةٌ تحفظ الصف من الفشل والتنازع قبل أن يبدأ السيف ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

٤) قانون المواجهة حين تُلاقي الفئة: ثباتٌ يسبقه ذكرٌ كثير... فالمعركة تُحسم أولاً في الداخل قبل أن تُحسم على الأرض ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.

٥) انكسار الصف يبدأ من التنازع لا من قلة العدد... وذهاب "الريح" عقوبةُ اختلافٍ قبل أن تكون ضربةَ عدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

٦) سقوط نية الميدان: بطرٌ ورياءٌ وصناعةُ صورة... خروجٌ يطلب التصفيق لا رضى الله ﴿بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾.

٧) خدعة الشيطان في لحظة الثقة: يُزيّن ثم يَعِد ثم يتبرأ ساعة الحقيقة... من صدّق الوهم دفع ثمنه وحده ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾.

٨) منطق المنافقين عند الامتحان: تفسير الثبات بأنه "غرور" لأنهم يقيسون الإيمان بموازين الدنيا لا بموازين الرَّب سبحانه: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

٩) الكلمة الفاصلة في قلب الخوف: التوكل ليس تمنياً... بل تسليمٌ لعزة الله وحكمته مع أخذ الأسباب ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١٠) مشهد النهاية لمن أعرض: تُقبض الأرواح على حقيقةٍ لا على شعارات... والجزاء عدلٌ لا ظلم فيه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

١١) سنن سقوط الأمم: الكفر بالآيات يفتح أبواب الأخذ... والتاريخ هنا إنذارٌ لا حكاية ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

١٢) قاعدةُ الإصلاح الكبرى: النِّعَم لا تزول فجأة، ولا تتبدّل اعتباطاً، بل يتغيّر ظاهرُ الحال حين يتبدّل باطنُ القلب؛ فالهزيمة تبدأ من الداخل قبل أن تُرى في الخارج:﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي أن التحوّل الحقيقي يبدأ من تصحيح النيّة، وتقويم المسار، ومراجعة الصدق مع الله.. فالمعركة الأولى ليست في الواقع... بل في "ما بالنفوس".

١٣) أخلاقُ العهود في زمن القوّة: القوّة لا تُبيح الغدر، بل تُحمّل مسؤولية الوفاء، لأن الغادر لا يُؤمَن ولو انتصر:﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي اجعل العقوبة رادعةً ظاهرةً تحفظ هيبة الحق وتمنع تكرار الخيانة.. فالردع هنا سياسةُ صيانةٍ للعدل، لا شهوةُ انتقام.

١٤) الحزمُ بلا خيانة: إذا ظهرت أماراتُ الغدر فلا يُباغِت المؤمن ولا يُضمر خلاف ما يُظهر، بل يُنهي العهد صراحةً وعلى بيّنةٍ متكافئة كما قال تعالى: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي إعلانٌ واضحٌ بقطع الاتفاق قبل أي مواجهة حتى لا تختلط الحزم بالخديعة.. فالعدل لا يسقط عند اشتداد التوتر، لأن الله لا يحبّ الخائنين ولو كانوا أعداءً، ولأن القيم التي تُحفظ في الشدّة هي التي تحفظ صاحبها..

وهكذا يبقى الحقُّ نظيف الوسيلة كما هو صادق الغاية، فلا يتحوّل الدفاع عنه إلى سقوطٍ في خُلُقه.

١٥) إعداد القوة بقدر الاستطاعة: قوةٌ تمنع العدوان وتكسر الوهم... لا عبثٌ ولا فوضى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

١٦) باب السِّلم حين يصدق: الميلُ إلى السِّلم ليس ضعفاً ولا تراجعاً، إذا كان قراراً منضبطاً بالثقة بالله وحراسةٍ واعيةٍ للمصالح، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾؛ فالمؤمن لا يُغريه الصِّدام لذاته، ولا يستنكف عن الصلح إذا ظهرت جدّيته، فالقوّة الحقيقية أن تختار السلام حين يكون طريقاً للعدل، لا هروباً من المواجهة.

١٧) حصانة القائد والصف: "حسبك الله" ليست عبارةَ عزاءٍ بل درعَ يقينٍ يحمي القرار ويثبّت الصَّف، فإذا تلوّنت الوجوه أو حاولت الخديعةُ أن تنفذ، بقي القلب مستنداً إلى كفاية الله لا إلى تقلّب البشر، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾. فمن كان الله حسبه لم تُربكه المكرات، ولم يَبِع قراره خوفاً من خذلان، لأن الكفاية الإلهية حصانةُ القائد وطمأنينةُ الصف.

١٨) سرّ الوحدة التي لا تُشترى: القلوب لا يجمعها خطابٌ عاطفيٌّ عابر ولا مصلحةٌ مؤقتة، لأن التآلف الحقيقي ليس صفقةَ بشرٍ بل عطاءَ ربٍّ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.. فإذا صلحت السَّرائر، وأُخلِص القصد، هيّأ الله من أسباب الجمع ما تعجز عنه الحسابات، وجعل الروابط أعمق من المصالح وأبقى من الظرف.

١٩) موازين العدد تحت إمرة الصَّبر: الصبر يرفع القلة... والوهن يهبط بالكثرة ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ﴾.

٢٠) رحمة التخفيف: الشريعة تعرف الضعف... وتُنزّل التكاليف على قدر الطاقة ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾.

٢١) تهذيب القلب بعد الظفر: لا أسرى قبل الإثخان... ولا "عرض دنيا" يُنسي مقصد الآخرة ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

٢٢) الحلال الطيب بعد التأديب: يُباح المتاع حين يُصلَح القلب، فلا يكون الأخذ شهوةَ انتهازٍ بل أمانةَ استحقاق، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾... فالإباحة في الإسلام لا تنفصل عن التقوى، والمتاع لا يَحسُن إلا إذا سبقه تهذيبُ النفس وربطه خيطُ المسؤولية.

٢٣) باب الأسرى: لا يُغلق بابُ المصير على ماضٍ مضى، فالقلب إذا صدق تبدّل الطريق، ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾.. فالخير الكامن في السَّريرة قد يفتح أفقاً جديداً، لأن العدل في الإسلام لا يلغي فرصة التوبة، والرَّحمة لا تُقصي إمكان التحوّل.

٢٤) خريطة الولاء: ليست الولاية في الإسلام تعارفاً عابراً ولا رابطةَ اسمٍ وشعار، بل تُبنى على الهجرة والجهاد والنُّصرة؛ على تضحيةٍ تُثبت الانتماء، وموقفٍ يُترجم الإيمان واقعاً، ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.. فهكذا يتكوّن "جسدُ الأمة" بروابط البذل والمسؤولية، لا بمجرد المعرفة والانتساب.

٢٥) تحذير التفكك: إذا تُرك التناصر، وتراخى أهلُ الحقّ عن حمل بعضهم بعضاً، نشأت فجوةٌ لا تبقى خالية، بل تملؤها الفتنةُ ويتمدّد فيها الفساد، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾... فالفراغ في ميدان القيم لا يدوم فراغاً؛ إمّا أن تملأه يدُ الإصلاح، أو تتسلّل إليه يدُ الإفساد.

٢٦) انتقال التوبة: "براءة" ليست إعلان قطيعةٍ عاطفية، بل بيانٌ يُنهي مرحلةَ التمويه ويؤسّس لوضوحٍ صريحٍ في العلاقات والعهود، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾فحين تُسحب الشَّرعية عن الغدر،يبدأ عهدُ المكاشفة،وتُرسم الحدود على بيّنةٍ لا لبس فيها،ليُبنى السَّلام أوالمواجهة على صدقٍ لا على خداع.

٢٧) عدل الاستثناء: ليس كلُّ عهدٍ يُنقض لمجرد خيانةِ غيره؛ فمن استقام على ميثاقه ولم يُظهر غدراً، فحقُّه أن يُوفّى له عهده كاملاً إلى أجله، ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾... فالتقوى لا تُعمِّم التهمة، ولا تُسقط العدل بحجة الصراع، بل تحفظ الميثاق لمن حفظه، وتُقيم الميزان ولو في زمن الشِّدّة.

٢٨) القتال في سياق نقضٍ وطعنٍ وعدوان ليس أصلاً دائماً، بل معالجةٌ لعدوانٍ قائمٍ وخيانةٍ صريحة، فإذا زال سببُ المواجهة بزوال الطعن ورجوعهم إلى الحق، عاد الميزان إلى رحمته، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾... فالشريعة لا تُغلق باب التوبة، بل تجعل إنهاء العدوان مقدَّماً على استمرار الصراع، وتفتح الطريق لمن صدق في الرجوع.

٢٩) ذروة الرحمة في قلب الشدة: حتى في سياق الصراع، إذا طلب أحدٌ الأمانَ ليسمع كلام الله، مُنح الحماية والفرصة كاملةً بلا غدرٍ ولا استغلال، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾... فالعدل لا يُعطّل الرَّحمة، بل يوسّعها، ويُثبت أن الدعوة مقدَّمةٌ على الانتقام، وأن الكرامة الإنسانية محفوظةٌ حتى في أوقات المواجهة.

٣٠) كشف طبيعة المعتدي: من لا يرقب في مؤمنٍ إلّاً ولا ذمّة، يُحسن صناعةَ الكلمات ويُتقن خطابَ التهدئة، لكنه يُخفي في صدره ما يُناقض لسانه، ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾... فالوعيُ الحقُّ لا يُخدَع ببريق العبارات، بل يزن المواقف بميزان الصدق والثبات، لأن العبرة باستقامة القلب لا بحلاوة القول.

إلّاً ولا ذمّة: أي لا يُراعون قرابةً ولا عهداً، فلا يحفظون حقَّ نسبٍ ولا يلتزمون بحُرمة ميثاق.

٣١) مواجهة القيادة المحرّكة للشر: حين يتحوّل النقضُ والطعنُ والعدوان إلى مشروعٍ منظَّم تقوده رؤوسٌ تُحرّض وتُدير وتؤجّج، يكون التصدّي موجَّهاً إلى

مصدر الفتنة لا إلى عموم الناس، ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾.. فالمعركة هنا مع القيادة التي تصنع العدوان وتُؤطّره، لا مع كلِّ مخالف، لأن قطع رأس الفساد أولى من استنزاف الأطراف.

٣٢) تهذيب الخشية: إذا أوقفك خوفُ الناس عن قول الحق أو فعله، فذلك خللٌ في ترتيب القلب؛ لأن الخشية عبادةٌ لا تُعطى إلا لمن يملك الضُّرّ والنفع، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾... فحين تستقيم الخشية في موضعها، يتحرّر القلب من رهبة البشر، ويثبت على الحقّ ولو خالفه الخلق.

٣٣) معيار عمارة المساجد: الإيمان وإقامة الصلاة والزكاة وخشية الله وحده... لا زخرفة ولا نسب ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾.

٣٤) اختبار المحبة الأكبر: حين تصبح العائلة والمال والمسكن والتجارة "أحبّ" من الله ورسوله... يبدأ الانحدار ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٣٥) درس حُنين: حين يُعجب القلبُ بالكثرة ويظنُّها ضماناً للنَّصر، يتكشّف عجزُ الأسباب إذا انفصلت عن التوكّل، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾.. فالعددُ بلا سكينةٍ وصدق اعتمادٍ لا يصنع ثباتاً، وإنما الفارق الحقيقي هو طمأنينةٌ يُنزلها الله في القلوب فتردّها إلى موضعها الصحيح.

٣٦) ضبط حرمة الحرم: التطهيرُ التشريعيُّ ليس تضييقاً اقتصادياً، بل صيانةٌ لقداسة المكان مع وعدٍ يبدّد خوفَ الفقر، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.. فحين يُقدَّم الامتثالُ على حسابات الرِّبح، يأتي الرزقُ من حيث لا يُحتسب، ويُغلق بابُ الفزع من المستقبل.

٣٧) تصحيح العقيدة من تحريف البنوة: تنزيهُ الله عن كلِّ نسبةِ ولدٍ أو شريكٍ أو مثيلٍ هو أصلُ التوحيد، ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فالكمالُ الإلهيّ لا يقبل مشابهةً ولا احتياجاً.. فكلُّ دعوى بنوّةٍ أو شراكةٍ إنما هي إسقاطُ نقصٍ بشريٍّ على ذاتٍ منزَّهةٍ عن الحدود والأشباه.

٣٨) الشرك العملي في الطاعة: حين يُرفَع البشر إلى مقام التشريع، فيُطاعون في تحليلِ ما حرّم الله أو تحريمِ ما أحلّ، تتحوّل الطاعةُ إلى عبادةٍ مقنّعة، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً﴾... فالتوحيد لا يكتمل بمجرد القول، بل بحفظِ حقِّ التشريع خالصاً لله، وألّا يُنازعه فيه أحد.

٣٩) استحالة إطفاء النور: قد يعلو الضّجيج، وتتكاثر محاولات الطّمس والتشويه، لكن نورَ الحقّ ليس رهينَ أصواتهم ولا أسيرَ خططهم، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾... فتمامُ النُّور وعدٌ ربّانيٌّ يتجاوز تقلبات الواقع، لأن ما تولّى الله تعالى حفظه لا تُطفئه أنفاسُ المعاندين.

٤٠) فتنة المال باسم الدين: حين يُتَّخذ الدين ستاراً لأكل أموال الناس بالباطل، أو يُحبَس المال عن حقّه الواجب، يتحوّل الكنز من نعمةٍ إلى وبال، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾... فالمالُ إذا لم يُطهَّر بالإنفاق، ولم يُصن بالعدل، صار طريقَ عذابٍ لا سببَ أمان.

٤١) الزمن تحت شريعة الله: للأشهر حُرمتها التي قدّرها الله، فلا يُعبث بالتقويم لتبرير هوى أو تمرير مصلحة، ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.. فحين يُعاد ترتيب الحلال والحرام وفق الرَّغبة، لا وفق الوحي، يختلّ ميزان الزمن ويضيع معنى التعظيم.

٤٢) التثاقل عن النُّفرة: حين تُثقِل الأرضُ القلبَ فيتراجع عن واجب النهوض، فذلك عرضُ مرضٍ خفيّ يُفضّل الراحةَ على التكليف، ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾... فإذا غلب تعلّقُ الدنيا على حرارة الاستجابة، انطفأت العزيمة، وصار التخلّفُ اختياراً يُلبَّس ثوبَ العذر.

٤٣) تهديد الاستبدال: من اعتذر حتى اعتاد العذر، وفرّط حتى ضاع منه شرفُ القيام، خسر مقامَ الاصطفاء وإن بقي في الصفّ ظاهراً، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾... فالدعوة لا تتعطّل بتخلّف أحد، بل يحمل الرايةَ من ينهض لها، لأن الله تعالى غنيٌّ عن تقاعس المتثاقلين.

٤٤) قانون الغار: حين تتهاوى الأسباب، ويضيق الأفق حتى يُظنّ أن لا مخرج، تبقى المعيةُ الإلهية سنداً لا يسقط، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.. ففي معية الله طمأنينةٌ لا تُشترى بالأسباب، وثباتٌ يولد من يقينٍ بأن العناية أسبق من الخطر وأقوى منه.

٤٥) فضح الأعذار المزخرفة: حين يكون المكسبُ قريباً سهلاً انجذبوا، وحين تطول الطريق ويثقل الثمن تراجعوا، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾... فالميزان الذي تحكمه المنفعة لا المبدأ يكشف صدق القلوب؛ إذ الثباتُ يُختبر عند بُعد الشُّقّة لا عند قُرب الغَنيمة.

٤٦) المنافق لا يُعِدّ... ثم يطلب الإذن... ثم ينسج العذر، ولو خرج ما كان نصيراً بل عبئاً، ﴿وَلَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾؛ فغيابُه أهونُ من حضوره، لأن حضوره اضطرابٌ وتشكيكٌ وإفسادُ صفّ... فليس كلُّ متخلّفٍ خسارة، إذ قد يكون حفظُ الجماعة أحياناً في انكشاف المتثاقلين.

٤٧) السقوط باسم "لا تفتنّي": قد تُلبَس الذريعةُ ثوبَ الورع، ويُسمّى الهروبُ احتياطاً، لكن الحقيقة تنكشف حين يُترك الواجبُ خوفاً على هوى النفس، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾... فالفرارُ من تكليفٍ مشروعٍ بحجّة اتّقاء الفتنة قد يكون هو عينَ الفتنة، لأن الميزان يُقاس بالصدق لا بالشعارات.

٤٨) توحيد القلب مع أقدار الله تعالى: ما ينزل بنا ليس فوضى عمياء، بل قدرٌ مكتوب بحكمةٍ ورحمة، ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾؛ فهو لنا في عاقبته وإن شقّ في بدايته.. فإذا استقرّ هذا اليقين في القلب، تبدّل الجزعُ طمأنينةً، وصار البلاءُ طريقَ تربيةٍ لا عنوانَ هزيمة.

٤٩) ميزان القبول: ليست الكثرةُ دليلَ القَبول، فعملٌ كثيرٌ بلا إيمانٍ صادقٍ ولا إخلاصٍ نقيّ لا يرتفع عند الله، ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾.. فالقبولُ سرٌّ مربوطٌ بسلامة القلب قبل وفرة العطاء، وبصدق القصد قبل كثرة النفقة.

٥٠) الامتحان بالمال داخل الصف: من رضي إذا أُعطي وسخط إذا مُنع فقد كشف المالُ سريرته، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾؛ فالعطاءُ عنده معيارُ الرضا لا ميزانُ الحق.. فالصدقُ أن يكون الموقفُ تابعاً للعدل لا للنصيب، وأن يبقى القلبُ ثابتاً سواء أُعطي أم مُنع.

٥١) الرضا الذي ينجّي القلب: "حسبُنا الله" ليست كلمةَ عجزٍ بل يقينَ كفاية، و"سيؤتينا الله من فضله" رجاءٌ موصولٌ ببابٍ لا يُغلق، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.. فإذا تعلّقت الرغبةُ بالله وحده، استراح القلبُ من التعلُّق بالخلق، وصار عطاؤه ومنعه سواءً في ميزان الثقة.

٥٢) فريضة الصدقات ميزان عدلٍ لا مجال فيه للأهواء: توزيعُها محدَّدٌ بحكمةٍ إلهيةٍ لا يخضعُ لمحاباةٍ ولا لاعتباراتٍ شخصية، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾... فهي عبادةٌ تُقام على النَّصّ والعدل، لا على العاطفة والميول، ليبقى الحقُّ مصوناً والمالُ في موضعه المشروع.

٥٣) أذى النبي ليس نقداً بريئاً ولا خلافاً فكرياً مجرّداً، بل جريمةُ قلبٍ تكشف خللَ التعظيم وفسادَ النيّة، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.، فمن لم يمتلئ قلبُه توقيراً للرسالة وصاحبها، عرّى لسانُه ما استتر في صدره، وكان الأذى شاهداً على انكشاف الداخل قبل الخارج.

٥٤) الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ليس مزاحاً عابراً ولا زلّةَ لسان، بل سقوطٌ يهدِم أصلَ التعظيم في القلب، ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.. فحين يُنزع الوقارُ عن المقدَّسات، يتكشّف خللُ الإيمان، لأن التعظيم أساسُ البقاء على الصراط.

٥٥) النفاق منظومة متكاملة: يبدأ بأمرٍ بالمنكر، ونهيٍ عن المعروف، وبخلٍ يقبض اليد، ثم ينتهي إلى أصل الداء: نسيانِ الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. فإذا غاب حضورُ الله عن القلب، اختلّت البوصلة، وانقلبت القيم، وصار الفسادُ منهجاً لا عثرةً عابرة.

٥٦) الإيمان منظومة مقابلة: ولايةٌ صادقةٌ بين المؤمنين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.. فهو بناءٌ متكاملٌ من الطاعة والرَّحمة والتكافل، تُمسِك أجزاؤه بعضها بعضاً كما تُمسِك العقيدةُ السلوكَ بالمقصد.

٥٧) الوفاء مع الله تعالى أو بداية النفاق: من عاهد ربَّه ثم بخل وتخلّف عن وعده، لم تكن الخسارة في المال بل في القلب، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾... فالإخلافُ مع الله يترك أثراً يتراكم، حتى يصير الكذب سِمَةً باطنة، ويغدو النفاق نتيجةَ عهدٍ لم يُحفظ.

٥٨) الغيب مكشوف عند الله: لا تستتر سريرةٌ بطول زمنٍ ولا تتوارى نيّةٌ خلف ظاهرٍ مُتقن، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.. فما خفي عن العيون لا يخفى على العَليم، ومن راقب سرَّه أصلح علانيته قبل أن يُفضَح المستور.

٥٩) القعود المُفرِح جريمةُ قلب: حين يفرح المتخلّف بتخلّفه ويجد في القعود راحةً ونجاةً، فقد باع مقاماً عالياً بثمنٍ زائل، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾.. فهي صفقةٌ خاسرة؛ ضحكٌ عابرٌ في الدنيا يعقبه ندمٌ طويل، لأن الفرح بالترك أخطر من الترك نفسه.

٦٠) قطعُ الشرف الديني عن صفٍّ خان: إذا تكرّر التخلّف وتبيّن صدق الخيانة، سُحب شرفُ الصُّحبة وحُسم الباب، ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾، لأن المقام ليس فرصةً تُستهان بل أمانةً تُصان... فهنا لا يعود الأمر عذراً عابراً، بل موقفاً كاشفاً يُعيد ترتيب الصفوف على أساس الصدق لا الادّعاء.

٦١) عدل الاستثناء للمحسنين: من منعه ضعفٌ أو مرضٌ أو فقرٌ، وقلبُه صادقٌ في النصيحة غيرُ متخلّفٍ هوًى، فلا مؤاخذةَ عليه ولا مَلامة، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾... فالشريعةُ تُفرّق بين عجزٍ صادقٍ ونكوصٍ متعمّد، وتُقيم الميزان على صدق القلب قبل حركة الجسد.

٦٢) دموع الصادقين الذين لا يملكون النفقة: حين يعجز الجسد وتبكي العين حزناً على فوات البذل، يكون ذلك دليلَ حياةِ قلبٍ لا علامةَ ضعف، ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.. فالألمُ على فوات الطاعة عبادةٌ في ذاته، لأن العبرة بصدق الرَّغبة لا بقدرة اليد.

المحور الإيمانيّ المركزي لهذا الجزء هو:

أن الإيمان ليس "هويةً تُعلَن" ولا "حماسةً تُستعرَض" ولا "شعائرَ تُؤدَّى" ثم تُترك خارج السوق والقرار والصفّ، بل هو خضوعٌ كاملٌ لسلطان الله تعالى:

١. على المال بعد النصر،
٢. وعلى القلب عند الخوف،
٣. وعلى اللسان عند الفتنة،
٤. وعلى الولاء عند تزاحم القرابة والمصلحة،
٥. وعلى العهد عند إمكان الغدر،
٦. وعلى الجهاد عند ثِقَل الدنيا؛

← لذلك يُمسكك الجزء من أول آيةٍ بميزان الغنيمة ليُطهّر يدك من شهوة الانتصار،

←ثم يُدخلك "يوم الفرقان" ليُطهّر رؤيتك من تفسير الأحداث بالأسباب وحدها،

←ثم يضعك أمام قانون الثبات والطاعة وترك التنازع ليُطهّر الصفّ من الانهيار الداخلي،

←ثم يفضح تزيين الشيطان ومنطق المنافقين ليُطهّر قلبك من خدعة "الضمانات" الكاذبة،

←ثم يقرر سُنن الله تعالى في النعم وتغيّرها ليُطهّر وهمك بأن الواقع يتبدّل بلا توبةٍ وإصلاحٍ من الداخل،

←ثم يضبط أخلاق القوة في العهود والنبذ على سواء والسِّلم عند جنوحه ليُطهّر مشروعك من الخيانة حتى مع الخصم،

←ثم ينتقل إلى "براءة" ليُطهّر العلاقة الدولية من الضباب ويُقيمها على وضوحٍ وعدلٍ واستثناءٍ للموفين،

←ثم يفتح باب الأمان لمن استجار ليسمع كلام الله ليعلن أن الرحمة ليست نقيض القوة بل ضابطها،

←ثم يقطع تزييف التدين بالمال والصدقات واللَّمز والاستهزاء ليُطهّر الدين من تحويله إلى منصة مصالح،

←ثم يختم بتمييزٍ دقيقٍ بين المتثاقل المتلذذ بالقعود وبين الضعيف المحسن الذي حبسه العذر الصادق حتى فاضت عيناه دمعاً...

وكأنَّ الرسالة الواحدة التي يجمعها الجزء كله:

أنَّ الأُمَّة لا تُنصر بكثرةٍ ولا تُحفظ بشعارٍ، وإنما تُنصر وتُحفظ حين يُصبح "**الله**" تعالى هو المرجع الأعلى:

١. في توزيع المال،

٢. وفي ضبط الصَّف،

٣. وفي ترتيب المحبة،

٤. وفي تعريف الشَّرف والخيانة،

٥. وفي قبول العمل وردّه،

وحين يُستأصل النفاق لا بالصراخ عليه بل بكشف منطقه وأسبابه وآثاره في السلوك... فتصير العبودية هنا ليست لحظة بكاء، بل نظام حياةٍ يمنع الفتنة والفساد الكبير ويُنتج مؤمنين حقّاً.

أخطر الانحرافات التي يُحذِّر منها هذا الجزء

❖ الانحراف العقديّ

أن يتحوّل التوحيد من "مرجعيةٍ عليا" تُحاكم كلَّ قرارٍ وولاءٍ ومصلحة... إلى شعارٍ يُردَّد بينما تُدار الحياة بمعايير أخرى؛

١) حين تُقدَّم القرابة والمال والتجارة والمسكن على الله ورسوله، فيصبح الحبُّ موزعاً على الهوى لا على الهدى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛

٢) وحين يُتَّخذ البشر مشرِّعين يُطاعون في التحليل والتحريم كأنهم أربابٌ من دون الله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛

٣) وحين يُستهزأ بالله وآياته ورسوله فيُظنّ الأمر لعباً لا يهدم أصل التعظيم ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾؛

٤) وحين يُنسَب النصر إلى العدد وتُنسى السَّكينة التي يُنزلها الله، فيُعجب القلب بكثرته ويغفل عن معية ربّه ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾؛

٥) هذا الانحراف العقديّ يبدأ خفيّاً في ترتيب المحبة والهيبة والطاعة... ثم ينتهي إلى فراغٍ روحيٍ يُلبس ثوب التدين ولا يملك روحَه.

❖ الانحراف الأخلاقيّ

١) أن تُستعمل القوة بلا تقوى، وأن يُبرَّر الغدر باسم الحزم، وأن يُسوَّغ نقض العهود بذريعة المصلحة؛ بينما القرآن يربط الحزم بالعدل ويمنع الخيانة حتى مع الخصم ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾؛

٢) وأن يخرج الإنسان بطراً ورياء الناس فيطلب الصورة لا الصدق ﴿بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾؛

٣) وأن يُلمَز الصادقون في صدقاتهم، ويُوزَن العطاء بميزان الرضا والسخط لا بميزان الحق ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾؛

٤) وأن تُكنَز الأموال وتُمنَع عن سبيل الله فتتحول النعمة إلى نارٍ يوم الحساب ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛

٥) هذا الانحراف الأخلاقيّ يجعل الظاهر منضبطاً بينما الباطن يطلب الغلبة والظهور، ويحوّل العبادة إلى واجهةٍ لا إلى أمانة.

❖ الانحراف الاجتماعيّ

١) أن يتفكك الصفُّ من داخله بالتنازع وسوء الظَّنّ وتبادل الاتهام، فتذهب الريح قبل أن يضرب العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛

٢) وأن تُترك رابطة الولاية الإيمانية فتستبدلها روابط المصلحة والقبيلة فينشأ "فسادٌ كبير" ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛

٣) وأن يُؤذى النّبي ﷺ وتُضعف هيبة القيادة الشرعية فيُفتح باب التشكيك في مقام الرسالة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛

٤) وأن يُستثقل النفير ويُفرح بالقعود فتسقط قيمة التضحية من الوعي الجمعي ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛

٥) هذا الانحراف الاجتماعيّ لا يُدمّر بضربةٍ واحدة... بل بتراكم "صغائر التنازل" حتى يضعف الجسد من داخله.

❖ الانحراف النفسيّ

١) أن يُخادع الإنسان نفسَه بالأعذار المزخرفة، فيقول: ائذن لي ولا تفتني... وهو قد سقط في الفتنة من حيث لا يشعر ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾؛
٢) وأن يطلب "عرضاً قريباً" ويعتذر إذا بَعُدت الشُّقّة ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾؛
٣) وأن يكسل في الصلاة ويُنفق وهو كاره، فيتحول العمل إلى حركةٍ بلا روح ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾؛
٤) وأن يظنّ أن ما يصيبه خارج سلطان الله فيضطرب قلبه عند البلاء، بينما اليقين يُسكِّنه ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾؛
٥) وأن يُعجب بكثرته أو يغترّ بتزيين الشيطان فيظنّ أن الغلبة مضمونةٌ بلا محاسبة ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛
٦) هذا الانحراف النفسيّ هو أخطرها لأنه يبدأ داخل الضمير، فإذا لم يُراجَع ويُزكَّ... تحوّل إلى انحرافٍ عقديٍّ وأخلاقيٍّ واجتماعيٍّ معاً.

وهكذا يُقيم هذا الجزء سياجاً ربانيّاً حول القلب والصَّفّ والأُمَّة؛

- ليحفظ التوحيد من التزييف،
- ويحفظ الأخلاق من التبرير،
- ويحفظ المجتمع من التفكك،
- ويحفظ النفس من خداعها لنفسها...

حتى يبقى الإيمان حيّاً لا صورةً، صادقاً لا ادعاءً، ثابتاً لا موسميّاً.

ملامحُ الشخصيةِ التي يصنعها هذا الجزء

ملامحُ الشخصيةِ التي يصنعها هذا الجزء ليست ملامحَ إنسانٍ متحمِّسٍ لحظةَ الشدّة ثم يعود كما كان، ولا صورةَ عابدٍ منفصلٍ عن واقعِه، بل شخصيةٌ متكاملةُ البنية، منضبطةُ القلب، واضحةُ الولاء، ثابتةُ القدم، دقيقةُ الضمير، تُدار حياتُها كلُّها تحت سلطان الله لا تحت ضغط الظرف ولا إغراء المكسب.

١) هي شخصيةٌ تبدأ بميزان المال قبل ميزان السَّيف؛ لا ترى الغنيمةَ فرصةَ شهوةٍ بل أمانةَ قسمةٍ وحقَّ توزيعٍ كما حدّد الله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾، فلا يختلط في داخلها النصرُ بالطمع، ولا تتحول اللحظةُ المشرقة إلى بوابةِ انحرافٍ خفيٍّ في اليد والقلب.

٢) وهي شخصيةٌ تفهم أن الأحداث لا تُقرأ بالظاهر وحده، بل بمنطق القضاء الإلهيّ الذي يُميّز الصفوف ويُظهر الحقَّ ويُسقط العذر ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، فلا تعيش في منطقةٍ رماديةٍ بين الإيمان والهوى، بل تطلب البيّنة في قرارها، وتتحمّل نتيجة اختيارها.

٣) هي شخصيةٌ ثابتةٌ عند اللقاء، تعرف أن أولَ معركةٍ تُخاض في الداخل، لذلك تمسك نفسها عند المواجهة بوصيتين لا تنفصلان: الثبات وكثرة ذكر الله تعالى ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾:

- فلا تتبعثر عند الصدمة،
- ولا تفرّ عند المفاجأة،
- ولا تنسى ربَّها حين ترتفع الأصوات.

٤) وهي شخصيةٌ تكره التنازع لأنه يدركها كسُمٍّ في الجسد، تعلم أن الفشل ليس قدراً مفاجئاً بل ثمرةُ اختلافٍ مُرٍّ ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، فتحرس وحدتها الداخلية كما تحرس حدودها الخارجية.

٥) هي شخصيةٌ نقيةُ النِّيَّة، لا تخرج بطراً ولا رياء الناس ﴿بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، ولا تُحركها صورةُ التصفيق ولا رغبةُ الظهور، بل تتحرك بقدر ما يُرضي الله، حتى لو غاب عنها التصفيق كله.

٦) هي شخصيةٌ لا تُخدع بزينة الشيطان ولا بوعوده العابرة ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، لأنها تعلّمت أن الشيطان ينسحب عند أول مواجهة، فلا تبني قرارها على حماسةٍ بلا بصيرة.

٧) وهي شخصيةٌ متوكّلةٌ حقّاً، لا تتكئ على العدد ولا تُصاب بالذُّعر من قلّته، لأن معيارها في الأمن والخوف هو عزة الله وحكمته ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فإذا ضاقت بها الأرضُ بما رحبت لم يضق صدرُها بمعية الله سبحانه وتعالى.

٨) وهي شخصيةٌ إصلاحيةٌ تبدأ التغيير من داخلها، لا تُعلّق الواقعَ على شماعة الظروف، لأنها تؤمن أن النعمة لا تتبدل إلّا حين يتبدل القلب ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فتراقب دوافعها قبل أن تُدين مجتمعها.

٩) وهي شخصيةٌ عادلةٌ حتى في زمن الصراع: لا تنحدر إلى الخيانة ولو خافت الغدر، بل تُنهي العهد إعلاناً صريحاً وعلى بيّنةٍ متكافئة، ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾... فأخلاقها ليست موسميةً تُبدَّل بتبدّل الظروف، بل قيمٌ ثابتةٌ تحكمها في السِّلم والحرب، لأن العدل مبدأٌ لا ظرف.

١٠) وهي شخصيةٌ مستعدةٌ بقدر استطاعتها، لا تعيش عقليةَ التمني، بل عقليةَ الإعداد الواعي ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، فتجمع بين العمل والاعتماد، بين الأخذ بالأسباب وحضور التوكل.

١١) وهي شخصيةٌ ولاؤها إيمانيٌّ واضح، تنتمي إلى جسد المؤمنين لا إلى عصبيةٍ ضيقة ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وتحذر أن يفتح تفككها باب الفتنة والفساد الكبير ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

١٢) هي شخصيةٌ تُرتّب محبتها بوعيٍ حاسم، فلا تُقدِّم عاطفةَ القرابة ولا مصلحةَ التجارة على حبِّ الله ورسوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، بل تُعيد ضبط بوصلة قلبها كلما شعرت بالميل.

١٣) وهي شخصيةٌ لا يغرُّها المال ولا تُعجبها الكثرة، ولا تُفتن بزينة الدنيا، لأنها تعلم أن الإعجاب بداية الانكسار ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، وأن ما يصيبها مكتوبٌ لها لا عليها ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

١٤) وهي شخصيةٌ صادقةٌ في إنفاقها، لا تلمز ولا تسخط إن لم تُعطَ، بل تقول في رضاٍ عميقٍ يُسكِّن النفس ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فتتحرر من عبودية المقارنة والغيرة.

١٥) وهي شخصيةٌ تُعظِّم الله وآياته ورسوله فلا تجعلها مادةَ سُخريةٍ ولا استهزاء ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾، لأن التعظيم أصلُ كلِّ صلاح.

١٦) وهي شخصيةٌ إذا عجزت عن البذل بكت لا حزناً على الدنيا، بل حزناً أن يفوتها موطنُ طاعةٍ أو نفقةٍ ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾، فدمعتُها ليست ضعفاً بل حياةُ قلب.

إنها في مجموعها:

١. شخصيةٌ ربّانيةُ التوجه،
٢. منضبطةُ الميزان،
٣. صادقةُ العهد،
٤. نقيةُ النية،
٥. قويةُ الإرادة،
٦. متواضعةُ النَّصر،
٧. ثابتةُ الشدّة،
٨. راضيةُ القضاء،
٩. واعيةُ الفتنة،
١٠. عادلةُ الخصومة،
١١. رحيمةُ الدعوة...
١٢. شخصيةٌ لا يُحرّكها الظرف بقدر ما يُحرّكها اليقين،
١٣. ولا تُشكّلها الجماهير بقدر ما يُشكّلها الوحي،

لأنها تعلم أن العبرة ليست أن تنتصر لحظةً، بل أن تبقى مستقيمةً على الطريق حتى تلقى الله بقلبٍ سليم.

أمراض القلوب التي يعالجها هذا الجزء..

هذا الجزء يُعالِج أمراضاً عميقةً لا تظهر في ظاهر الجوارح بقدر ما تتخفّى في زوايا القلوب، ويضع يدَه على مواطن الداء قبل أن تتحول إلى انهيارٍ في الصَّفّ أو فسادٍ في الأُمَّة.

- أولُها مرضُ التعلّق بالدُّنيا حين تختلط الغنيمةُ بالشَّهوة، ويصير المالُ معياراً خفيّاً للقرار، فيأتي التقويم الرَّبانيّ ليقطع هذا الميل من جذره ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، فيُعيد ترتيب الأولويات داخل النفس، ويُعلّمها أن المكسب الحقيقيّ ليس ما يُقبَض باليد، بل ما يُحفَظ عند الله.
- ومنها مرضُ الإعجاب بالنفس والركون إلى الكثرة، حين يظنّ القلب أن العدد هو الضمان، وأن القوة الظاهرة تكفي، فيأتي الدرس الصارم ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ ليُسقِط وهم الاعتماد على الأسباب وحدها، ويُرجِع القلب إلى مقام الافتقار الصادق.
- ومنها مرضُ التنازع وحُبّ الرأي الذي يقدّم **الأنا** على الجماعة، فيؤدي إلى ذهاب الريح قبل أن تبدأ المعركة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، فيُعلّم هذا الجزء القلبَ أن حفظ الصَّفّ عبادة، وأن الكِبْرَ الخفيّ في الرأي قد يُسقط أُمَّةً كاملة.
- ومنها مرضُ الرياء وطلب الصورة، حين يتحرك الإنسان بدافع البطر ورياء الناس ﴿بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، فيُجفّف القرآن هذا الدافع بإعادة البوصلة إلى الله، فلا يبقى في القلب طلبُ تصفيقٍ ولا خوفُ فقدانِ مكانة.
- ومنها مرضُ الغرور بزينة الشيطان، حين يُزيِّن الباطل ويُلبَس ثوبَ الأمان والضَّمان ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، فيُفضح هذا التزيين ويُكشف أنه

وعدٌ يتبخر عند أول مواجهة، فيتعلم القلب أن لا يثق في زخرفةٍ بلا نور.

- ومنها مرضُ ضعف التوكل، حين يضطرب القلب عند البلاء أو يتزلزل عند التهديد، فيُربّي على اليقين العميق ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، فيتحول الخوف إلى سكينة، والاضطراب إلى تسليمٍ واعٍ.
- ومنها مرضُ نقض العهد والخيانة الكامنة، حين يُبرر الإنسان لنفسه الالتفاف والغدر باسم المصلحة، فيُعلن المبدأ القاطع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، فيُعيد الضَّمير إلى وضوحه، ويجعل الصدق قيمةً لا تسقط في زمن الصراع.
- ومنها مرضُ تقديم المحبة الدنيوية على محبة الله تعالى، حين تختلّ الموازين في داخل القلب ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فيُنبّه هذا الجزء إلى أن الانحراف يبدأ من ترتيب الحُبّ، لا من ترك الشعائر.
- ومنها مرضُ كنز المال والبُخل به، حين يُحبَس الخير في الصدور والجيوب، فيُستحضَر المشهد الآخرويّ الذي يُذيب القسوة ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، فيُطهَّر القلب من عبودية التكديس ويُردّ إلى عبودية الإنفاق.
- ومنها مرضُ النفاق العمليّ، حين يُؤتى إلى الصلاة بكسل، وإلى الإنفاق بكراهية ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾، فيُكشف أن المشكلة ليست في العمل الظاهر بل في حرارة القلب، وأن البرودة الرُّوحية أولُ طريق السقوط.
- ومنها مرضُ الاستهزاء بالدِّين والتخفف من التعظيم، حين تتحول آيات الله ورسوله إلى مادة لعبٍ وسُخرية ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، فيُعاد غرس هيبة المُقدّس في أعماق النفس حتى لا تنفلت الكلمات من ضابط التعظيم.

- ومنها مرضُ الاعتذار الكاذب والتَّهرُّب من المسؤولية، حين يختبئ القلب خلف الأعذار ليبرر قعوده ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾، فيُكشف هذا الدافع، ويُفرّق بين عذرٍ صادقٍ وتهربٍ متكرر.
- ومنها مرضُ قسوة القلب التي لا تتألم لفوات الطاعة، فيُقابَل بمشهد الصادقين الذين تفيض أعينهم دمعاً حزناً ألَّا يجدوا ما ينفقون ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾، ليُبيّن أن حياة القلب تُقاس بقدر تأثره بفوات الخير لا بقدر استمتاعه بالدنيا.

وهكذا يُعالج هذا الجزء أمراض التعلّق، والإعجاب، والتنازع، والرياء، والغفلة، وضعف التوكل، والخيانة، واختلال المحبة، والبخل، والنفاق، والاستهزاء، والتهرب، وقسوة الشعور... فيبني قلباً يقظاً، متوازناً، خاشعاً، واعياً، لا تُخدعه الزينة، ولا تُسكره القوة، ولا تُقعده الراحة، ولا تُقسّيه الدنيا، بل يعيش تحت نور الوحي في كل موقف، حتى يبقى سليماً حين تشتدّ الفتن وتتعاقب الاختبارات.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق... أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أقرأ هذا الجزء كأنه موجَّهٌ لغيري، أم أسمعُه وكأنه يناديني باسمي ويطلب مني موقفاً لا مجردَ فهم؟ وهل أُخفي نفسي خلف "أنا بخير" لأنني لم أترك الصلاة، بينما قلبي يتفلّت من الداخل؟.

٢) حين أسمع ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ هل أتذكّر خلافاً شاركتُ فيه بدافع **الأنا** لا بدافع الحق، ثم جمّلتُه لنفسي باسم "الغيرة على الدين"؟.

٣) حين أسمع ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ هل يخطر ببالي موقفٌ قدّمتُ فيه مصلحةً عاجلةً على طاعةٍ واضحة، ثم سمّيتُها "حكمة" وهي

في حقيقتها تهرّب؟.

٤) حين أسمع ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هل أملك شجاعة الاعتراف أن شيئاً في حياتي صار أحبَّ إليَّ من أمر الله، ولو لم أنطق بذلك؟ وهل ولائي موزّعٌ بين حقٍّ أعرفه ومصلحةٍ أخاف فقدها؟.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) هل انكشف قلبي عند آيات المال ومصارف الصدقات، فشعرتُ بوخزٍ لأن إنفاقي مضبوطٌ على ألَّا يُنقِص راحتي ولا يُغيّر نمط حياتي؟ ثم أقنعتُ نفسي أن "القليل يكفي" وأنا أعلم أن المشكلة ليست في القليل بل في التعلّق؟

٢) هل انكشف عند ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ لأنني أُعجب بإنجازاتي وأحسبها من صُنعي، فإذا أثنى الناس ارتفعتُ، وإذا غاب الثناء انطفأتُ؟

٣) هل انكشف عند ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ لأن حرارة العبادة تهبط في قلبي حين تخلو من أعين الناس، وأجد نفسي أنشطُ إذا رآني الخلق وأبردُ إذا خلوتُ بربّي؟

٤) هل انكشف عند ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ لأنني أسرعُ إلى نقد من يعمل، وأتأخر عن العمل نفسه، فأستبدل العجزَ عن البذل بمهارة الاعتراض؟.

٥) هل انكشف عند ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾ لأن لساني تساهل في مقام التعظيم بحجة المزاح، فصار المزاحُ باباً يجرّئ القلب على ما لا يليق؟.

❖ أيُّ آيةٍ أربكتني حقّاً؟

١) هل أربكتني ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنها أغلقت باب تعليق أخطائي على الظروف، وألزمتني أن أرى الخلل في الداخل قبل أن أصرخ من الخارج؟

٢) هل أربكتني ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ لأنها كشفت أن بعض "حزمي"

ليس عدلاً بل التفافاً، وأنني قد أُسمّي الخديعةَ حنكةً وأُسمّي الظلمَ سياسة؟.

٣) هل أربكتني ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ لأن قلبي ما زال يضطرب أمام الاحتمالات وكأنَّ الأمور خارج سلطان الله، فأعيش قلقاً لا يليق بمن عرف ربَّه؟.

٤) هل أربكتني ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ لأنني لا أحزن لفوات طاعةٍ كما أحزن لفوات مصلحة، ولا أبكي على نقص زادي كما أبكي على نقص دنياي؟.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل أؤجّل حسمَ ولاءٍ مزدوجٍ بين حقٍّ واضحٍ ومصلحةٍ مربِكة، فأبقى متردداً لأنني لا أريد أن أدفع ثمن الانحياز الكامل لله؟.

٢) هل أؤجّل إصلاح خلافٍ قديمٍ لأن الاعتذار ثقيلٌ على نفسي، فأُطيل الخصومة ثم أطلب من الله صلاحاً لا أفتح له باباً؟.

٣) هل أؤجّل إنفاقاً أستطيعه لأنني أخشى نقصاً، فأمسك ما في يدي وكأن الرزق بيدي لا بيد الله، ثم أستكثر على نفسي أن أُصدّق وعده؟.

٤) هل أؤجّل ترك عادةٍ تُضعف قلبي لأنني لا أرى أثرها الفوري، متناسياً أن بعض السُّموم لا تقتل دفعةً واحدة بل تُميت تدريجاً؟.

٥) هل أؤجّل ضبط لساني في نقد الصَّالحين لأنني أرى نفسي أفقه منهم، فأجمع بين عُجبٍ خفيٍّ وجرأةٍ على أعراضٍ لا يليق التهاون فيها؟.

٦) هل أؤجّل الاستعداد الحقيقي للنفير حين أُحتاج، بحجة أن الوقت لم يحن، وأنا أعلم أن "التأجيل" قد يكون اسماً آخر للهرب؟.

هذا الاختبار لا يطلب منك إجاباتٍ جميلة، بل يطلب شجاعة الاعتراف؛ لأن هذا الجزء لا يصنع قارئاً مطّلعاً، بل يصنع قلباً يواجه نفسَه قبل أن يواجه الناس..

ويُعيد ترتيب محبتِه قبل أن يُرتّب خططَه، ويُصلح سريرتَه قبل أن يُصلح صورتَه؛ فالسؤال ليس:

ماذا فهمتُ من الآيات؟ بل: ماذا غيّرتُ بعد أن فهمتُ؟

خطة التغيير... من قرار القلب إلى ثبات الطريق

١) ابدأ من الجذر لا من الفروع... أعد ترتيب محبتك الآن، وحدِّد ما يتقدّم في قلبك على الله ورسوله واقطعه قبل أن يقطعك ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٢) أصلِح سرّك قبل صورتك... غيّر ما في نفسك في الخفاء قبل أن تطلب تغيير الواقع في العلن ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٣) لا تؤجّل التوبة التي تعرفها... الباب مفتوح الآن فلا تقل غداً ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

٤) استبدل الإعجاب بنفسك بمحاسبتها... فكلما كبرت في عينك صغرت في ميزان الله تعالى ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

٥) صحّح نيتك في كل حركةٍ عامة... لا تخرج بطراً ولا رياء الناس ولو صفقوا لك ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾.

٦) اقطع تعلُّقك بعرضٍ عاجلٍ يزاحم نية الآخرة... ولو بدا مُغرياً ومبرّراً ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾.

٧) أوقف كل نزاعٍ تغذّيه **الأنا**... ولو كنت ترى نفسك محقّاً لأن الفشل يبدأ من شقوق القلوب ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾.

٨) احسم كل علاقةٍ تجرّك إلى ولاءٍ مزدوجٍ مع الحق... فالفتنة تبدأ من نصف موقف ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾.

٩) لا تسمح للسانك أن يتجاوز مقام التعظيم... راقب الكلمة قبل خروجها فإن بعض الكلمات تهدم إيمان سنين ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾.

١٠) لا تلمز عاملاً ولا تسخر من متصدّق... أصلِح قلبك قبل أن تُقوّم أيدي غيرك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

١١) أخرج مالاً يؤلمك قليلاً... لا ما يفيض عن راحتك، فالكنز يبدأ من قلبٍ تعلّق قبل أن يتكدّس في يد ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾.

١٢) جهِّز نفسك قبل أن تُستدعى... لا تكن من أهل الأعذار المزخرفة إذا حانت ساعة الجد ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾.

١٣) إذا عجزت عن موطن خيرٍ فابكِ لفواته... ولا تتصالح مع الفتور كأنه قدرٌ دائم ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ﴾.

١٤) ثبّت ذكر الله في لحظة الضغط لا عند الفراغ فقط... فالاختبار الحقيقي عند اشتداد النبض ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.

١٥) أعد بناء توكلك عمليّاً... قرّر ثم سرْ مطمئناً غير مرتبك ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

١٦) قرّر أن تكون صادقاً ولو وحدك... فحسبك الله إن خذلك الناس ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾.

١٧) أعد تعريف القوة في حياتك... قوةٌ مع تقوى لا قوةٌ مع خيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

١٨) سِرْ في طريق الإصلاح بخطواتٍ صغيرةٍ حاسمة... لا بشعاراتٍ كبيرةٍ مؤجّلة، فالتغيير الحقيقي يبدأ بقرارٍ لا يتراجع.

خاتمة وجدانية مزلزلة

في نهاية هذا الجزء...

- لا يبقى السؤال: من انتصر؟ بل: من صَلُح؟
- لا يبقى السؤال: من غَلَب؟ بل: من ثَبَت؟
- لا يبقى السؤال: كم كنا؟ بل: كيف كنا حين ابتُلينا؟

هذا الجزء لا يتركك تقرأه ببرود... لأنه يسحبك من كتفك ويضعك أمام نفسك؛ أمام قلبك حين طمع، وأمام لسانك حين لمز، وأمام نيتك حين طلبت صورة، وأمام خوفك حين قدّمت الناس على الله، وأمام فتورك حين تثاقلت إلى الأرض، وأمام أعذارك التي زيّنتها لنفسك حتى صدّقتها.

←هو لا يتحدث عن قومٍ مضوا... بل عنك أنت... حين تُعجبك كثرتك ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾..

←وعنك حين تختلف مع أخيك فيذهب ريحك قبل أن يبدأ الطريق ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾،..

←وعنك حين تختار عرضاً قريباً وتؤجل واجباً واضحاً ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾،

←وعنك حين تختلّ موازين الحُبّ في قلبك ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

هو لا يترك لك مساحةً للاختباء خلف الكلمات الجميلة... لأنه يفتح لك أبواب النور وأبواب السقوط في الوقت نفسه؛ يقول لك:

١) إن لم تُصلِح ما بنفسك... فلن تتغير النعمة حولك ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾..

٢) وإن ظننتَ أن قوتك من نفسك... فسيسقط وهمك في أول اختبار،

٣) وإن خِفتَ الفقر وأمسكتَ يدك... فسترى يوماً ما كنزتَ أمامك ناراً،

٤) وإن استهنتَ بآيةٍ أو كلمةٍ في مقام التعظيم... فاعلم أن السقوط يبدأ من هنا.

لكنّه في الوقت نفسه لا يُغلق الباب... بل يفتح لك طريقاً مستقيماً لا التواء فيه؛ طريقاً يبدأ بصدقٍ مع الله، ثم بثباتٍ عند اللقاء ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾، ثم بتوكّلٍ يسكّن القلب عند الخوف ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، ثم بدمعةٍ صادقةٍ إن فاتك خيرٌ أو عجزت عن بذل ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.

إنه يريد أن يُخرِج منك إنساناً..

- لا تغرّه الكثرة،
- ولا تُسكِره الغنيمة،
- ولا تُفسده الخلافات،
- ولا تُقعده الأعذار،
- ولا يُضحكه القعود،
- ولا يُخيفه الطريق،
- ولا يُساوم على الحق ولو وقف وحده.

فإما أن تخرج من هذا الجزء وقد انكسر فيك شيءٌ كان ينبغي أن ينكسر...
أو تخرج كما دخلت... وتبقى الكلمات حروفاً، وتبقى أنت كما أنت.

تذكّر...

- أنَّ أخطر خسارةٍ ليست أن تفوتك معركة... بل أن يفوتك إصلاح قلبك.
- وأن أعظم نصرٍ ليس أن ترى عدوّك يتراجع... بل أن ترى نفسك تستقيم.

فاختر لنفسك الآن...

←إما أن تكون ممن تغيّر حين سمع،

←أو ممن سمع ثم مضى... وكأنَّ الخطاب لم يكن له.

الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من هذا الجزء

١) اجعل التوحيد مرجعك الأعلى في كل قرار... لا يتقدّم عليه مالٌ ولا قرابةٌ ولا مصلحةٌ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٢) لا تُفسِد نصرك بطمعٍ خفيّ... فطهارة اليد جزءٌ من طهارة القلب ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

٣) ثبّت قلبك قبل أن تثبّت قدمك... فالمعركة تبدأ من الداخل ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.

٤) احذر التنازع ولو كان باسم الحق... فذهاب الريح يبدأ بكلمةٍ غير منضبطة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾.

٥) لا تنخدع بالكثرة ولا تُعجب بإنجازك... فالعجب أول انكسارٍ خفيّ ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

٦) اربط توكلك بالفعل لا بالتمني... واهدأ أمام القضاء ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

٧) لا تُبرِّر الخيانة باسم الحزم... فالعدل خُلُقٌ لا يسقط في زمن الصراع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

٨) إذا مال خصمك إلى السِّلم فاجنح لها... فالقوة الحقيقية تضبطها التقوى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

٩) وحِّد ولاءك مع جسد المؤمنين... فالتفكك فتنةٌ وفسادٌ كبير ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

١٠) أصلِح نفسك قبل أن تنتظر تغيير الواقع... فالتبدّل يبدأ من الداخل ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

١١) راقب نيتك عند كل عملٍ عام... لا تكن بطراً ولا رياء الناس ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾.

١٢) لا تسخر من طاعةٍ ولا من طائع... فالاستهزاء بداية السقوط العقديّ ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾.

١٣) أنفق مما تحبّ لا مما يَفْضُل... ولا تكن عبداً للكنز ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾.

١٤) إذا عجزتَ عن الخير فليؤلمك فواته... فالدمعة الصادقة حياة قلب ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.

١٥) لا تكن من أهل الأعذار المزخرفة... فالصدق يُعدّ عدته قبل الدعوة ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾.

١٦) عوِّد نفسك على الاستعداد لا الانتظار... ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

١٧) احفظ مقام التعظيم في قلبك ولسانك... فالإيمان يبدأ بهيبة الله ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٨) اجعل حسبك الله حين يضطرب الناس... فالمعية سكينة لا تخذلك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾.

١٩) تذكّر أن الله يُتم نوره ولو كره الكارهون... فاثبت ولا تساوم ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

كن مؤمناً حقّاً... لا باسمك ولا بصورتك... بل بصدقك عند الاختبار.

الترابط الموضوعي بين الجزأين التاسع والعاشر

١) ينتقل الجزء التاسع من عرض سُنن الله في هلاك الأُمم وتكذيب الرسل في سورة الأعراف إلى بناء المنهج العملي للأمة الجديدة؛

٢) فخاتمته تؤسس لقاعدة التعامل الداخلي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾،

٣) ثم تؤكد مركزية التلقي الخاشع: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وكأنَّ البناء يبدأ من تهذيب النفس قبل أي مواجهة خارجية.

٤) ثم تأتي الأنفال في مطلع الجزء التالي لتُنقل هذا البناء من دائرة التربية الفردية إلى ميدان الجماعة المنظَّمة، فيُختبر صفاء السَّمع والطاعة في ساحة بدر: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾، ويُربط النصر بشرط الوحدة والانقياد: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾، فالموضوع ينتقل من التزكية إلى التطبيق.

٥) وفي الجزء العاشر يكتمل المشهد بتحديد العلاقات والعهود والحدود الفاصلة بين الولاء والبراءة، فتأتي التوبة ببيانٍ حاسم: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، مع حفظ الوفاء لمن لم ينقض: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾، فيتدرج الموضوع من بناء القلب، إلى تنظيم الصَّف، إلى ضبط علاقة الأُمَّة بالعالم من حولها.

الترابط العقدي بين الجزأين التاسع والعاشر

١) يؤسس الجزء التاسع لحقيقة أن الصراع سنة ماضية لا تتخلف، وأن العاقبة للمتقين، كما تجلى في قصص الأنبياء في الأعراف، فالعقيدة تُبنى على فهم سُنن الله في النصر والخذلان، لا على قراءة سطحية للأحداث.

٢) ثم تأتي الأنفال لترسّخ أن النصر ليس بكثرةٍ ولا بعدّة، بل بمشيئة الله وحده: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وأن الأسباب معتبرة لكن القلب لا يتعلق إلَّا برب الأسباب، فيتحول التوكل من مفهومٍ نظري إلى يقينٍ ميداني.

٣) وفي التوبة يظهر اكتمال التمييز العقدي بين الإيمان والنفاق، والولاء والبراءة، فلا يبقى الصَّف مختلطاً في المفهوم العقدي، بل تتحدد الهويات بوضوح، وتُفصل المواقف على أساس صفاء العقيدة وصدق الانتماء، لا على أساس القرابة أو المصالح.

الترابط البياني بين الجزأين التاسع والعاشر

١) يغلب على الأعراف أسلوب السَّرد القصصي والعرض المتكرر لمصارع المكذبين، فتأتي العبرة عبر التصوير والتذكير، ويطول النفس البياني ليزرع المعنى في الوجدان قبل أن يُطالب بالحكم.

٢) ثم يتحول البيان في الأنفال إلى تقريرٍ مباشرٍ وتنظيمٍ تشريعي، فتنحسر مساحة السَّرد لصالح الأمر والنهي والتوجيه العسكري والاجتماعي، وكأنَّ الخطاب ينتقل من مرحلة عرض السُّنن إلى مرحلة تنزيل الأحكام.

٣) وفي التوبة يشتد البيان وضوحاً وحسماً، فتغيب البسملة في افتتاحها إيذاناً بلهجةٍ جازمةٍ في إعلان البراءة، ويكثر فيها كشف النفاق وتعرية الدوافع، فيصبح الأسلوب أكثر مباشرةً في الفصل بين الصفوف، وأشد وضوحاً في تحديد المواقف.

الترابط الوجداني بين الجزأين التاسع والعاشر

١) يزرع الجزء التاسع في القلب الطمأنينة إلى سُنن الله، فمهما طال استكبار المكذبين فإن العاقبة للمتقين، فينشأ شعور الثبات الداخلي وعدم الاضطراب أمام موجات الباطل.

٢) وفي بدر تتجلى معية الله تجلياً عملياً يُسكب سكينةً في القلوب: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾، فيتعلم المؤمن أن الطُّمأنينة ليست غياب الخطر، بل حضور الثقة بالله وسط الخطر.

٣) وفي الهجرة يتجلّى ذروة اليقين في قول الصديق: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فيتنامى الإحساس بأن التاريخ كله يتحرك بقدر الله، وأن معيته الخاصة لأوليائه هي الخيط الشعوري الجامع بين القصص والتشريع والمواجهة، فيبقى القلب ثابتاً ولو تبدلت المراحل وتغيرت الساحات.

بهذا التدرج يظهر أن الجزأين ليسا انتقالاً عشوائياً بين موضوعات، بل مساراً متكاملاً:

- تربيةٌ تبني القلب،
- وتنظيمٌ يضبط الصف،
- وعقيدةٌ تصفي الهوية،
- ووجدانٌ يستقر على يقين المعية الإلهية في كل مرحلة.

تم الكتاب بحمد الله تعالى وفضله ومنّه وكرمه

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المحتويات